٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-١

دلالات النفي عند الأصوليين وأثرها في الفروع الفقهية

د/ علي بن عباس الحكمي
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الشريعة
جامعة أم القرى

تعريف بالباحث

حصل على الماجستير والدكتوراه من كلية الشريعة بمكة المكرمة جامعة أم القرى عمل نائباً لمدير مركز البحث العلمي بنفس الجامعة ثم وكيلاً لكلية الشريعة ثم عميداً لها . يعمل الآن رئيساً لقسم الدراسات العليا الشرعية بالإضافة إلى عمله الأساسي عضو هيئة تدريس بنفس الكلية له من البحوث العلمية « الاجتهاد ومدى الحاجة اليه في التشريع الإسلامي » « تخصيص العام وأثره في الاحكام الفقهية » « وتحقيق مختصر قواعد الأصول ومعاقد الأصول في أصول الحنابلة » .

ملخص البحث

يتناول هذا البحث أربع قواعد أصولية هي :

١ ـ النهي المطلق يقتضي دوام الترك .

٢ ـ النهي المطلق يقتضي الفـــور .

٣ ـ النهي المطلق يقتضي التحريـم .

٤ ـ النهي المطلق يقتضي البطـلان .

وقد جرى خلاف بين الأصوليين في هذه القواعد الأربع كما اختلفوا في غيرها من القواعد الأصولية .

وخلافهم في هذه الأربع القواعد يعد مثالا لنوع الاختلاف في سائر القواعد .

ذلك أن أى خلاف في أى قاعدة أصولية ، لا يخلوا ما أن يكون له أثر فقهي ، أولا . فالأول يسمى خلافا معنويا . والثاني يسمى خلافا لفظيا .

وقد بين هذا البحث نوع الخلاف في هذه القواعد الأربع ، وأشار إلى سببه ومنشئه . ونبه إلى أنه لم يأت عبثا أو لرغبة في التعمق الفلسفي ، أو الجدل المحض ـ في غالب مسائله ـ كما يظن بعض من يطالعون كتب الأصول .

واستعرض آراء الأصوليين فيها وأهم أدلتهم ومناقشاتهم ثم أورد أمثلة توضح أثر هذه القواعد على أحكام الفروع الفقهية .

وسبق ذلك تمهيد . تعرض فيه لبيان حقيقة النهي وصيغه وأساليب القرآن والسنة في التعبير عن طلب الكف عن الفعل .

كما تعرض لبيان معنى الصحة والبطلان والفساد عند أهل اللغة والأصول .

وقد توصل البحث إلى نتائج هامة منها :

١ ـ أن الأصوليين متفقون عمليا على أن النهي الشرعي المطلق يقتضي الكف عن الفعل على سبيل الدوام والفور .

٢ ـ وأن عامتهم يرون اقتضاءه للتحريم .

٣ ـ وأن المنهي عنه لذاته يقع باطلا عند عامة الأصوليين وان من خالف في ذلك تأصيلا يوافق عليه تفريعا ، ويرجع الحكم بالبطلان إلى فوات ركن ، أو تخلف شرط من شروط صحته .

٤ ـ أن الأصوليين قد يختلفون في قاعدة أصولية ، ويكون مبنى اختلافهم فيها النظر إلى الحقيقة اللغوية ، أو المدرك العقلي ، مع أن القرائن في الاستعمال الشرعي ترجح أحد المذاهب مما يحمل الجميع على القول بمقتضى ذلك المذهب تفريعا ، وأن خالفه البعض تأصيلا . مثل اختلافهم في دلالة النهي على الدوام والفور .

٥ ـ أن بعض المذاهب الفقهية قد يخالف بعض فروعها لأصولها في الظاهر . وهذا لا يعنى مناقضتهم لتلك الأصول ، وعدم التزامهم بها ، بل يكون لأدلة خاصة تخرج تلك الفروع عن القاعدة .

٦ ـ ان تطبيق المسائل الفرعية على القواعد الأصولية أمر مهم للباحث في علمي الأصول والفقه ، يعطي للأصول حيويتها ، حيث يتبين من خلاله مدارك الفقهاء في أحكامهم ويتضح سبب هام من أسباب اختلافهم .

إلى غير ذلك من النتائج المدونة في خاتمة البحث .

وبعـــد :

فهذا البحث يعد مقدمة لبحوث أخرى مستقلة ، تهتم بحصر المسائل الفرعية المنبثقة عن هذه القواعد الأربع في أبواب الفقه كل باب على حدة . أسأل الله العون على اتمامها ، وهو حسبي ونعم الوكيل . . والحمد لله رب العالمين .

* * *

المقدمـــة :

١ ـ فكرة البحث ودوافعه :

النهي هو أحد ركني التكليف الشرعي ، إذ يقابل الأمر . والتكليف الشرعي فعل وكف .

والدال على طلب الفعل هو الأمر ، والدال على طلب الكف هو النهي . وصيغة الأمر المستعملة في الشرع (أفعل) وما يقوم مقامها ، وصيغة النهي « لا تفعل » وما يؤدى معناها .

والمأمور به حسن عند الشارع ، ويحقق مصلحة ترجع إلى المكلفين . والمنهى عنه قبيح عند الشارع ، وايجاده يحقق مفسده ترجع على المكلفين وفي تركه مصلحة لهم .

ومع اتفاق الأصوليين على ذلك ، وعلى أن مقتضى صيغة النهي الامتناع والكف عن المنهي عنه . اختلفوا في دلالات النهي من حيث . التحريم والبطلان أو غيرهما . والفور والتكرار أو خلافهما .

وتشعبت مذاهبهم في ذلك وطالت مناقشاتهم من الناحية النظرية الأصولية . ولكن إذا نظرت في الفروع الفقهية لا تكاد تجد أثراً فيها لبعض ذلك الخلاف ، مثل الخلاف في دلالته على الفور أو عدمها والتكرار أو عدمها ، بل الكل يرى أن ما نهي عنه ولم تقم قرينة على تحديد زمانه فإنه يمتنع على الفور والدوام .

كما يظهر من كلام بعض الأصوليين أنه يخالف قاعدته الأصولية في القول بتحريم بعض المنهيات أو عدم تحريمها ، وفي القول ببطلان بعض المنهيات أو عدم بطلانها . وهذا يسرى على بعض القواعد الأصولية الأخرى غير النهي .

ومن هنا ينشأ التساؤل : هل القواعد الأصولية مجرد مسائل نظرية جدلية لا تأثير لها على الفروع ؟ أو أن لمخالفة بعض الفروع للأصول أسبابا أخرى ؟

والإجابة على هذا التساؤل تكون بربط الفروع بأصولها ، وبيان مدى مطابقة تلك الفروع للأصول في كل مذهب ، ومنشأ الاختلاف في القاعدة الأصولية ليظهر من خلال ذلك تأثيرها على الفروع من عدمه .

وقد أدرك بعض العلماء في العصور المختلفة فائدة ربط الفروع بالأصول فألفوا كتبا خاصة بتخريج الفروع على الأصول . ومن أولئك مثلا : أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني ، المالكي المذهب في كتابه مفتاح الأصول . وشهاب الدين الزنجاني الشافعي المذهب في كتابه : تخريج الفروع على الأصول . وجمال الدين الأسنوي في كتابه : تخريج الفروع على الأصول ، وابن اللحام الحنبلي في كتابه « القواعد والفوائد الأصولية » ، ومن المتأخرين الدكتور مصطفى الخن في رسالته « أثر اختلاف الفقهاء في القواعد الأصولية في الفروع الفقهية » .

ولكنهم اقتصروا على بعض المسائل الأصولية التى لها أثر فقهي ولم يتعرضوا للمسائل التى لم يظهر لها أثر فقهي في الفروع ، ومنشأ الخلاف فيها ، ولا لأسباب مخالفة بعض الفروع للقواعد الأصولية عند أصحاب المذاهب .

ولهذا نشأت فكرة البحث في هذا الموضوع ليتأكد من خلاله أن المباحث الأصولية وجهود الأصوليين فيها لم تكن من باب الجدل المحض حتى فيما لم يظهر له أثر فقهي .

وان اختلافهم في بعض الأصول ، وعدم ظهور أثر لذلك الخلاف في الفروع له ما يبرره ، وان مخالفة بعضهم عند التفريع لما تقرر لديه من أصول كان لأدلة أخرى في الجزئيات المخالفة .

كما سيظهر ذلك في ثنايا هذا البحث .

هذا بالإضافة إلى الرغبة الأكيدة في الاسهام في ابراز جهود سلفنا الصالح في خدمة الشريعة الإسلامية ، وتوضيح مناهجهم للتوصل إلى معرفة حكم الله من مصدريه الأساسيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

٢ ـ خطة البحـــث :

يتكون البحث من تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة .

أما التمهيد : فهو في معنى النهي وصيغه .

والمبحث الأول : في دلالته على التحريم أوعدمها .

والمبحث الثاني : في دلالته على الفور والتكرار أوعدمها .

والمبحث الثالث : في دلالته على البطلان أوعدمها .

وأما الخاتمة : فهي في نتائج البحث .

تمهيد في معنى النهي وصيغه

أولاً : معنى النهي :

١ ـ النهي في اللغة :

النهي لغة مصدر نهي ينهى ضد الأمر ، وقيل خلافه ، ومعناه : المنع يقال : نهاه عن كذا ، أى منعه عنه ، ومنه سمي العقل نهيه ، لأنه ينهي صاحبه عن الوقوع فيما يخالف الصواب ، ويمنعه عنه[1] .

٢ ـ معنى النهي في الاصطلاح :

اختلفت عبارات الأصوليين في تعريف النهي اصطلاحا وذلك بسبب اختلافهم في أمور يرى البعض منهم أنه لا بد منها لتحقق معنى النهي ، ويرى البعض الآخر عدمها ووجوب توفر أمور أخرى .

ويمكن أن نقسم تعريفاتهم إلى فئتين :

احداهما تنص في تعريفها على أنه القول أو الكلام الدال على طلب ترك الفعل . . الخ .

ومن هؤلاء أبو الحسين البصري والغزالي وأبو اسحق الشيرازي والنسفي والشوكاني وغيرهم .

والثانية تنص في تعريفاتها على أنه استدعاء أو اقتضاء أو طلب الترك أو الكف بالقول . . الخ .

ومن هؤلاء ابن قدامة الحنبلي وابن الحاجب وابن السبكي وغيرهم .

ثم من هؤلاء وأولئك من ذكر قيودا أكثروا وأقلوا حسب ما يشترط كل منهم لحقيقة النهي .

---

(١) القاموس جـ ٤ ص ٤٠٠ ولسان العرب جـ ٤ ص ٧٣٤ وارشاد الفحول ص ١٠٩ .

فمنهم من ذكر قيد كراهية المتكلم للفعل المنهي عنه وارادته عدمه مع الاستعلاء كأبي الحسين البصري ومن وافقه من المعتزلة . ومنهم من اشترط العلو فقط كأبي أسحق الشيرازي وأبي يعلي .

ومنهم من اشترط الاستعلاء فقط كالنسفي وابن الحاجب والشوكاني .

ومنهم من لم يشترط شيئا من ذلك . لا الارادة ولا العلو ولا الاستعلاء كالغزالي وابن السبكي .

ثم منهم من قيد اللفظ « بلا تفعل » وحدها كأبي الحسين والبصري والنسفي .

ومنهم من احترز عن لفظ « كف ونحوها » لكونها أمرا لا نهيا عنده كابن السبكي .

ومنهم من أطلق ولم يقيد بصيغة معينة كالغزالي وأبي يعلي وابن الحاجب والشوكاني .

ثم منهم من عبر بـ « ترك الفعل » ومنهم من عبر بـ « الكف عن الفعل »[1] وبالنظر في التعريفات المذكورة والقيود الواردة فيها نجد أنها جميعاً قد ورد عليها ما ينقضها .

فاشتراط ارادة المتكلم ترك المنهي عنه لم يذكره الا أبو الحسين البصري ومن وافقه من المعتزلة وهو متمشٍ مع مذهبهم ، لكنه يخالف ما عليه أهل السنة من الصواب وهو عدم اشتراط الارادة ، فإن الصيغة الصادرة من المتكلم تقتضي بظاهرها طلب الفعل ان كانت الصيغة أفعل ونحوها وطلب الترك ان كانت الصيغة لا تفعل ونحوها بصرف النظر عن ارادته فإنها غيب لا يعلم الا بما يدل عليها من لفظ ونحوه . بل قد يصدر من المتكلم مايدل على طلب الفعل أو طلب

---

(١) يراجع المعتمد جـ ١ ، ص ١٨١ ، والمستصفى جـ ١ ، ص ٤١١ ، والمنار ص ٢٥٨ ، وارشاد الفحول ، ص ١٠٩ ، والعدة جـ ٢ ، ص ٤٢٥ ، ومختصر ابن الحاجب جـ ٢ ، ص ٩٤ ، وجمع الجوامع جـ ١ ، ص ٣٩٦ ، واللمع ، ص ١١٩ .

الترك ويفهم ذلك من ظاهره وهو في الواقع لا يريد ما دلت عليه الصيغة الصادرة عنه ، ولو خالفها المخاطب لعد عاصيا عند أهل اللغة والشرع[1] .

وأما قيد « العلو » من المتكلم وكذا الاستعلاء فالتحقيق انهما ليسا بشرط لحقيقة النهي . فقد تصدر صيغة النهي من الأدني للأعلى من غير قرينة تصرفها عن ظاهرها وحقيقتها ، فتكون نهيا ، إذ يتصور النهي من العبد لسيده ومن الوالد لوالده وان لم تجب عليهما الطاعة ، فليس من ضرورة كل أمر أن يكون واجب الطاعة وكذا النهي[2] .

وقد يصدر طلب الترك من الأعلى للأدنى ـ بل هذا هو الغالب ـ وليس فيه استعلاء فيكون نهيا ما لم تقم قرينة على صرفه عن ظاهره إلى معنى آخر .

وأما التعبير بـ « طلب ترك الفعل » أو « طلب الكف عن الفعل » ففيه اشارة إلى الخلاف في مسألة « المكلف به في النهي » ما هو ؟ أهو الترك بمعنى عدم الفعل سواء تلبس بضده أم لم يتلبس ، أو هو الامتناع عن الفعل والتلبس بضده[3] .

والتحقيق في المسألة ان المكلف به هو الامتناع عن الفعل المنهي عنه مع القصد والقدرة عليه . وهذا الامتناع فعل هو ضد المنهي عنه فينطبق عليه التعبير بـ « الكف عن الفعل » . على أن من عبر من أهل السنة بـ « ترك الفعل » يريد هذا المعنى[4] .

---

(١) انظر المستصفي ، جـ ١ ، ص ١١٤ ، ونزهة الخاطر ، جـ ١ ، ص ٦٧ وجـ ٢ ص ١١١ ، والعدة ، جـ ١ ، ص ١١٦ ، وجـ ٢ ، ص ٤٢٥ .

(٢) المستصفي ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .

(٣) أحكام الأموي ، جـ ١ ، ص ١٣٦ ، ومسلم الثبوت ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، والتحرير ، ص ٢١٧ .

(٤) نزهة الخاطر ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ ، والعدة ، جـ ٢ ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

وعلى هذا فلا فرق بين قولهم طلب ترك الفعل وقولهم طلب الكف عن الفعل . فكلا التعبيرين صحيح في تعريف النهي . أما التعبير بالقول أو مقتضى القول « فمنظور في الأول منهما إلى أن التعريف لأداة النهى وصيغته . وفي الثاني إلى دلالالتها ومعناها . وكل منهما له وجه صحيح . أما التقييد بالقول فيهما » فالأولى تركه أو زيادة ما يدخل غير القول مما يقتضى طلب الترك ، لأن طلب الترك كما يكون بالقول يكون بغيره ولا يخرج عن كونه نهيا . لا سيما والكلام في التعريف الاصطلاحى للنهي وليس عن معناه اللغوى فقط .

نعم للنهي صيغة من اللفظ معينة سنذكرها قريبا ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون هناك ما يدل عليه من غير اللفظ . كالاشارة المفهمة ، والانكار على فاعل شيء معين بالغضب ونحوه ممن يعد قدوة .

التعريف المختار :

من خلال ما سبق نستطيع أن نستخلص تعريفا للنهي سالما من النقض فنقول : النهي اصطلاحا هو : طلب الترك بلا تفعل أو ما يقوم مقامها .

فطلب الترك يخرج طلب الفعل وهو الأمر . وقولنا « بلا تفعل وما يقوم مقامها » يشمل ما يقتضي طلب الترك من اللفظ وغيره .

ثانياً : صيغ النهي :

للنهي عند أهل اللغة وعامة السلف صيغة لفظية تدل عليه بالوضع حقيقة . خلافا لبعض القائلين بالكلام النفسي[1] .

وصيغة النهي الموضوعة له عند أهل العربية هي « لا تفعل » للمفرد المذكر ولغيره بإضافة علامته الخاصة به من ياء التأنيث أو نونها أو ألف المثنى أو واو الجماعة .

ما يقوم مقام « لا تفعل » في افادة طلب الترك .

ويلحق بصيغة « لا تفعل » في افادة طلب الترك صيغ لفظية كثيرة منها :

---

(١) العدة ، جـ٢ ، ص ٤٢٦ ، واللمع ، ص ١١٩ ، وارشاد الفحول ، ص ٩١-١٠٩ .

١ ـ اسم لا تفعل من أسماء الأفعال مثل « مه » فإن معناه لا تفعل ، و « صه » فإن معناه لا تتكلم .

٢ ـ الأفعال التي بصيغة الأمر ومعناها النهي مثل : كف ، وذر ، ودع ، واجتنب ، واترك ، ونحوها[١] .

أساليب القرآن والسنة في النهي :

تعددت أساليب القرآن والسنة المطهرة في التعبير عن الأفعال المنهي عنها . وذلك من تمام اعجاز القرآن وكمال فصاحته . وعلو مرتبة كلام النبي ﷺ في الفصاحة والبلاغة .

إذ كان في تنوع أساليب النهي داعية قوية للعزوف عن المنهيات واستشعار عواقب ارتكابها والوقوع فيها ، مما يحمل ذوي العقول السليمة والفطر المستقيمة على نبذها والنفور منها .

مـــن ذلك :

وصف الفعل بأنه ظلم كقوله تعالى : ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون** ﴾[٢] . أو أنه ليس من البر كقوله تعالى : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها . . الآية** ﴾[٣] .

أو بعدم حب الله له كقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾[٤] .

---

(١) ارشاد الفحول ، ص ١٠٩ .

(٢) سورة يونس ، آية (١٧) .

(٣) سورة البقرة ، آية (١٨٩) .

(٤) سورة البقرة ، آيات (٢٠٤ ، ٢٠٥) .

أو ذكر الفعل مقرونا بالوعيد كما في قوله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾[1] .

أو تشبيه مرتكب الفعل بالصورة القبيحة كما في قوله تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾[2] .

أو وصف الفعل بأنه فسق كقوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق** ﴾[3] .

أو ذكره مقرونا بالعقاب الدنيوي والأخروي عليه مثل قوله تعالى : ﴿ **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾[4] .

أو بمخاصمة الله لصاحب الفعل مثل قوله ﷺ قال : « **ربكم ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطي بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفي منه ولم يعطه أجره**»[5] .

أو بتحريمه وعدم حله مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « **ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم**»[6] .

أو بجعل الفعل من علامات النفاق مثل قوله ﷺ : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان**»[7] .

---

(١) سورة المطففين ، آيات (١،٢،٣) .
(٢) سورة البقرة ، آية (٢٧٥) .
(٣) سورة الأنعام ، آية (١٢١) .
(٤) سورة المائدة ، آية (٣٣) .
(٥) صحيح البخاري مع الفتح ، جـ ٤ ، ص ٤١٧ .
(٦) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٨ ، ص ١٨٢ .
(٧) انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الايمان .

المبحث الأول

في دلالة النهي على الدوام والفور أو عدمها وأثرها في الفروع الفقهية

١ ـ حالات النهي من حيث الاطلاق والتقييد بزمن معين :

النهي في النصوص الشرعية وفي كلام العرب اما أن يرد مقيدا بوصف أو زمان معين[١] ، أو يرد مقترنا بما يدل على طلب الاستمرار والدوام[٢] ، أو يأتي مطلقا عن الزمان[٣] .

أما الحالتان الأولى والثانية فلا خلاف بين العلماء في أنه يحمل على مقتضى ما اقترن به من الدليل ، فإن كان مقيدا بزمان معين حمل عليه . وان كان مقرونا بما يدل على التكرار والدوام حمل عليه أيضا الا أن يصرفه دليل آخر أو قرينه عن ظاهره .

وأما الحالة الثالثة وهي وروده مطلقا عن قيد الزمان فقد اختلفوا فيه : هل يدل بمجرده على الدوام والفورية أو لا يدل عليهما .

وقبل أن نذكر المذاهب وأدلتها ، لا بد لنا من بيان معنى كل من الدوام والفور .

٢ ـ المراد بالدوام والفور :

(أ) فالمقصود بدلالة النهي المطلق على الدوام هو الاستمرار في الامتناع عن الفعل المنهي عنه ، في كل زمان بعد العلم بدليل النهي ما لم يكن المكلف غافلا ونحوه .

---

(١) مثل قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن .. الآية ﴾ سورة البقرة ، آية ٢٢٢ .

(٢) مثل قوله تعالى : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ سورة الأحزاب ، آية ٥٣ .

(٣) مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ﴾ سورة البقرة ، آية ٢٧٨ .

وقد يعبر الأصوليون عن ذلك بدلالة النهي على التكرار أو بدلالته على التأبيد ، ومقصودهم الدوام والاستمرار في الترك على النحو الذى أوضحناه[1] .

(ب) والمراد من أن النهي المطلق يدل على الفور ، هو أن على المكلف المبادرة بالامتثال دون تأخير عند سماع التكليف مع وجود الامكان ، فإن تأخر ولم يبادر كان مؤاخذا في ذلك .

فمن كان متلبسا بالفعل المنهي عنه وسمع النهي ، عليه أن يفارق ذلك الفعل ، ويتركه من حال سماعه ، والا عد عاصيا .

والمراد من افادته التراخي أن المكلف ليس عليه أن يبادر إلى الترك إذا سمع النهي ، لأن طلب الترك غير متعلق بزمان معين عند القائلين بعدم الفور .

٣ ـ مذاهب الأصوليين في دلالة النهي على الدوام والفور :

درج كثير من الأصوليين على ذكر مسألتي دلالة النهي على التكرار ودلالته على الفور منفصلتين كل مسألة على حدة ، مع أن دلالته على الدوام والتكرار مستلزمة لدلالته على الفور . حتى أن المذاهب في الدلالة على الدوام هي نفسها في الدلالة على الفور والأدلة هي الأدلة .

ولهذا فإننا سنبحثها مجتمعتين فنقول :

للأصوليين في دلالة النهي المطلق على الدوام وعلى الفور مذهبان[2] :

أحدهما : أنه يدل على الدوام وعلى الفور . وهذا مذهب الجمهور .

---

(١) تيسير التحرير ، جـ ١ ، ص ٣٧٦ ، وأحكام الأمدي ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ ، وفواتح الرحموت جـ ١ ، ص ٤٠٦ ، والتمهيد ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ .

(٢) التمهيد ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ، وأحكام الأمدي ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ ، وتيسير التحرير ، جـ ١ ، ص ٣٧٦ ، ومسلم الثبوت ، جـ ١ ، ص ٤٠٦ ، ونهاية السول ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ، والمحصول ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٢٧٠ ، وشرح تنقيح الفصول ، ص ١٦٨ .

الثاني : أنه لا يدل على ذلك مطلقا ، بل أن موجبه مطلق الترك من غير دلالة على دوام أو مرة أو فورية أو تراخي ، بل هو للقدر المشترك بينهما . وهو طلب مطلق الترك .

وهذا مذهب الأقل منهم أبو بكر الباقلاني وفخر الدين الرازي .

الأدلة ومناقشتها :

ـ أدلة الجمهور :

استدل الجمهور القائلون باقتضاء النهي للدوام والفور بعدة أدلة أهمها[1] :

١ ـ استدلال السلف من علماء الصحابة ومن بعدهم بالنهي على تحريم الفعل مطلقا مع اختلاف الأوقات من غير انتظار قرينة دالة على الدوام والفور فدل هذا على أن المتبادر من النهي نفى حقيقة الفعل المنهي عنه أو الفرد المنتشر من أفراده وهو انما يكون بالانتفاء دائما لجميع الافراد عرفا ولغة . فالنهي له حقيقة[2] .

وقد اعترض على هذا الاستدلال : بأن حمل السلف للنواهي الشرعية على الدوام والفور من غير انتظار قرينة لا يعني وضع لفظ النهي للدلالة على الدوام والفور بل كان ذلك لأدلة أخرى من الشرع دلت على أن ما نهي عنه الشارع فإنه يريد اجتنابه دائما فأفادت تلك الأدلة علما ضروريا بأن الشرع يريد مثلا عدم الزنا والسرقة وسائر الفواحش مطلقا في كل زمان ومكان وحال . وذلك كما أن لفظ آمنوا لا يوجب الايمان مطلقا ولكن دلت الأدلة على أن دوام الايمان مقصود[3] .

ويظهر لي أن هذا الاعتراض لا يضعف الاستدلال بما استدل به الجمهور بل يقويه . وذلك لأمرين :

---

(١) انظر المراجع السابقة .

(٢) فواتح الرحموت ، جـ ١ ، ص ٤٠٦ .

(٣) المستصفى ، جـ ٢ ، ص (٦ ، ٧) .

أحدهما : ان الصحابة كانوا يفهمون التحريم والمنع المطلق بمجرد النهي منذ بدء التشريع وقبل أن تستقر في أذهانهم قواعد الشرع كاملة . فلم يكن فهمهم للتحريم المطلق ناشئا من قرائن وأدلة شرعية على أن مراد الشارع الانتهاء على الدوام ، بل كان ذلك لدلالة لفظ النهي وبخاصة في أول عهدهم بالإسلام .

وثاني الأمرين : أن النزاع في دلالة النهي من النصوص الشرعية على الدوام والاستمرار . وحيث فهم الصحابة ومن بعدهم ذلك فهو كاف في ثبوت المدعي ، فلو لم يكن بالوضع اللغوي كان بالعرف الشرعي ، وعلى أي منهما فالنهي حقيقة في المنع مطلقا في كل زمان الا إذا قامت قرينة على ارادة عدم الاستمرار وعدم الفورية .

٢ ـ ان الفعل في سياق النهي كالنكرة في سياق النفي والنكرة في سياق النفي تكون للعموم ، فكذلك الفعل المنهي عنه يكون عاما لجميع أفراده وفي جميع الأزمان والأحوال .

فقول القائل مثلا « لا تضرب » أي لا يصدر منك ضرب البتة فكان دالا على دوام الانتهاء لغة[١] .

ثم أنه يصح لغة استثناء أي زمان شاء من المنهي عنه والاستثناء معيار العموم إذ هو عبارة عما لولاه لا ندرج المستثنى في الحكم فيندرج جميع الأزمنة في الحكم وهو المطلوب[٢] .

٣ ـ ان العرف قد دل على ذلك فإن السيد إذا قال لعبده لا تفعل كذا ولا تدخل الدار ، اقتضى أن لا يفعل ذلك على الفور والمداومة ، وان خالف ذلك استحق العقوبة في عرف العقلاء وأهل اللغة[٣] .

---

(١) المسودة ، ص ٨١ ، ونزهة المشتاق ، ص ١٢٠ .
(٢) شرح تنقيح الفصول ، ص ١٧١ .
(٣) التمهيد ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ ، وأحكام الأمدي ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

٤ ـ ان النهي منع من ادخال الماهية في الوجود ، وذلك انما يتحقق إذا امتنع منها دائما[١] .

٥ ـ انه لا يكون النهي الا عن قبيح ، والقبيح يجب اجتنابه في كل وقت ، فدل على الفور والمداومة[٢] .

هذا وقد اعترض القائلون بعدم التكرار والفور على هذه الأدلة باعتراضات نسوقها ضمن أدلتهم ونذكر مناقشتها .

أدلة القائلين بعدم افادة النهي التكرار والفور .

استدلوا بعدة أدلة أهمها :

١ ـ أن النهي قد ورد تارة للدوام كما في النهي عن السرقة والزنا وشرب الخمر ونحوها ، وتارة لغيره كما في نهي الحائض عن الصوم والصلاة وقول الطبيب للمريض لا تأكل اللحم ونحو ذلك ، فالصورتان مشتركتان في مطلق طلب ترك الفعل ومفترقتان من حيث أن أولاهما مراد بها الدوام والأخرى غير مراد بها الدوام ، فاما أن يكون النهي حقيقة في احداهما ومجازا في الأخرى ، أو يكون مشتركا لفظيا بينهما أو موضوعا للقدر المشترك وهو مطلق الترك ، والمجاز والاشتراك اللفظي خلاف الأصل فوجب جعله حقيقة في القدر المشترك بين القسمين وهو مطلق الترك[٣] .

٢ ـ أن الكف وترك الفعل لا يتأتى مع الدوام ، فإنه لا يتأتى حال الغفلة والنسيان ونحوهما ، فلا يصلح واجبا على الدوام والا لزم العصيان[٤] .

وقد نوقش هذان الدليلان من قبل الجمهور بما يأتي :

---

(١) شرح تنقيح الفصول ، ص ١٧١ .

(٢) التمهيد ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ ، وشرح تنقيح الفصول ، ص ١٧١ .

(٣) احكام الآمدي ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ، وشرح تنقيح الفصول ، ص ١٧١ ، ومسلم الثبوت ، جـ ١ ، ص ٤٠٦ .

(٤) احكام الآمدي ، جـ ٢ ، ص ١٨١ ، وفواتح الرحموت ، جـ ١ ، ص ٤٠٦ .

أما الأول :

فبأن النهي حيث ورد غير مراد به الدوام يجب أن يكون ذلك لقرينة ، نظرا إلى ما ذكر من الدليل الدال على اقتضائه الدوام عند الاطلاق .

والقول بأنه يلزم منه الاشتراك اللفظي أو التجوز . يجاب عنه بأنه وان لزم منه التجوز ـ وهو على خلاف الدليل لافتقاره إلى القرينة الصارفة ـ غير أن جعله حقيقة في المرة الواحدة مما يوجب جعله مجازا في الدوام والتكرار لاختلاف حقيقتهما ، وليس القول بجعله مجازا في التكرار وحقيقة في المرة الواحدة أولى من العكس بل جعله حقيقة في التكرار أولى ، لامكان التجوز به عن البعض لكونه مستلزما له . ولو جعلناه حقيقة في البعض لما أمكن التجوز به عن التكرار لعدم استلزامه له[1] .

وأما الثاني :

فرد عليه بأن اقتضاء الكف عن الفعل المنهي عنه والتكليف بذلك انما يكون ما دام الشعور عند المكلف وفي حال انعدام الغفلة والنسيان ، فما دام الشعور وجب الكف دائما ، فلا يلزم ما ذكروه من الحكم بالعصيان على الغافل ونحوه[2] .

٣ ـ أن الأمر لا يقتضي الدوام ، والنهي كالأمر في كونه استدعاء وطلبا ، فيكون مثله في عدم افادته التكرار والدوام[3] .

وقد نوقش هذا الدليل من عدة أوجه منها :

(أ) الفرق بين الأمر والنهي ، وذلك بأن الانتهاء أبدا ممكن ، لما فيه من البقاء على العدم ، أما تكرار المأمور فلا يمكن إذ يؤدي إلى تعطيل المنافع الأخرى والتكليف بما لا يطاق[4] .

---

(١) أحكام الآمدي ، جـ٢ ، ص ١٨١ .
(٢) فواتح الرحموت ، جـ٢ ، ص ٤٠٦ .
(٣) التمهيد ، جـ١ ، ص ٣٦٤ ، والمسودة ، ص ٨١ .
(٤) المستصفى ، جـ٢ ، ص ٥ ، ٦ ، المنهاج ، جـ٢ ، ص ٣٨ .

(ب) ان عدم اقتضاء الأمر للتكرار مختلف فيه كذلك ، فلا يصح القياس عليه لعدم التزامه عند المخالف .

الترجيـــح :

والذى يظهر من خلال كلام الأصوليين ومناقشاتهم أن القول باقتضاء النهي للتكرار والفور هو الرأي الراجح لقوة أدلته وضعف ما يعارضها .

أثر دلالة النهي على التكرار والفور أو عدمها على الفروع الفقهية :

لم يكن لاختلاف الأصوليين في هذه القاعدة أثر واضح على الحكم في الفروع الفقهية ، بل يبدو أن جميع الفقهاء يرون لزوم الانتهاء على الفور والدوام عما نهى الله عنه ما لم يقيد بزمن معين أو حال معين .

ولهذا فالخلاف يكاد يكون لفظيا ، ولعل مرده إلى أن محله اللفظ من حيث وضعه اللغوي المحض ، بصرف النظر عن استعماله الشرعي ، وهذا ما جعل بعض الباحثين المعاصرين يعقب على مثل هذا الاختلاف بقوله :

« ان التعويل على القرائن أمر لا يمكن اغفاله ولا التغاضي عنه بحال من الأحوال ، ويبدو لنا من الناحية العملية أنه لا يكاد أمر يصدر من الشارع الا وهو محفوف بالقرائن التي تنادى على قصد الشارع وتوجه اليه . . ولولا تقديرنا لبحث العلماء في تمحيصهم للمسائل التي ينبني عليها الفقه لقلنا أن بعض علماء الأصول في اثارتهم لتلك المشاكل وأمثالها يوشكوا أن يدخلوا تحت تحذير النبي ﷺ فإنه ينصح الأمة دائما بعدم الخوض في مسائل لا أثر لها وانما يلهب الخوض فيها رغبات في التعمقات الفلسفية[1] .

والذي يظهر أن ما قاله الباحث فيه نوع من القسوة على الأصوليين لأن اختلافهم في هذه المسألة وأمثالها مما لا يظهر له أثر فقهي ليس مرده إلى رغبات في التعمقات الفلسفية كما ظن الباحث بل هو مبني على نظر كل فريق إلى أساس

---

(١) الأمر في نصوص التشريع الإسلامي ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

دلالة اللفظ اللغوية الوضعية واستلزاماتها العقلية ، فيكون الخلاف من هذا الجانب ، لا من حيث الاستعمال الشرعي الذى قد يكون محل اتفاق .

وهذا في الحقيقة هو من مهام الأصولي الذى يبحث في القواعد الأصولية مقررا لها من خلال مباحث العلوم التى يستمد منها هذا الفن .

وإذا لم يكن لخلافهم في بعض تلك القواعد أثر فقهي من الناحية العملية فمرد ذلك إلى أدلة أخرى تجعلهم يتفقون على أحكام بعض الفروع وان اختلفوا في الأصول .

ومهما يكن من أمر فهذه المسألة وأشباهها من المسائل الاجتهادية التي يكون لتعارض ظواهر الأدلة وايحاءات القرائن أثر كبير فيها .

فلا ضير ان اختلفت فيها المدارك ، وتنازعت جوانبها الأفكار والعقول .

المبحث الثاني
في دلالة النهي على التحريم
وأثرها في الفروع الفقهية

ترد صيغة النهي لعدة معان منها التحريم والكراهة والتهديد والارشاد والتحقير وبيان العاقبة ، والتأييس وغيرها ، ولا خلاف بين الأصوليين في أنها مجاز فيما عدا التحريم والكراهة ولكن اختلفوا في أيهما تكون حقيقة . على عدة مذاهب أشهرها وأظهرها أدلة خمسة هي[1] :

١ ـ مذهب الجمهور ومنهم الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب الفقيهة المشهورة وهو أن معناها الحقيقي التحريم . وترد فيما عدا ذلك مجازا ، وهذا المذهب هو الذى عليه المحققون من أهل اللغة والأصول ومن أدلتهم عليه :

(أ) أن العقل يفهم الحتم ولزوم الامتناع من الصيغة المجردة عن القرينة ، وذلك دليل الحقيقة .

(ب) استدلال السلف بصيغة النهي المجردة على التحريم .

٢ ـ وذهب فريق من الأصوليين إلى أن معناها الحقيقي الكراهه .
واستدلوا على ذلك : بأن النهي انما يدل على مرجوحية المنهي عنه وهذا لا يقتضي التحريم بل الكراهة .
وأجيب بعدم التسليم بذلك بل السابق إلى الفهم عند التجرد عن القرينة هو التحريم .

٣ ـ وذهب آخرون إلى أنها مشتركة بين التحريم والكراهية اما اشتراكا لفظيا أو معنويا . بدليل ورودها في الشرع وفي كلام أهل اللغة لكل من المعنيين ، فلا يتعين أحدهما الا بقرينة والا كان حملها على أحدهما ترجيحا من غير مرجح .

---

(١) جمع الجوامع ، جـ ١ ، ص ٣٩٩ ، وارشاد الفحول ، ص ١١٠ ، وأحكام الأمدى ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ ، وشرح الكوكب المنير ، جـ ٣ ، ص ٨٣ .

وقد أجيب عن ذلك بأن دعوى الاشتراك غير مسلمة ، وان النهي عند تجرده عن القرائن لا يحتمل غير التحريم ، كما مر ذلك في دليل الجمهور .

٤ ـ وذهب الحنفية إلى أنها تكون للتحريم إذا كان الدليل قطعيا وللكراهه إذا كان الدليل ظنيا .

وأجيب عن ذلك بأن النزاع انما هو في صيغة طلب الترك أتقتضي التحريم أم غيره ، وهذا طلب قد يستفاد بقطعي فيكون قطعيا ، وقد يستفاد بظني فيكون ظنيا ، فلا أثر للقطعية والظنية في افادة التحريم بل المنهي عنه قد يكون محرما قطعا لقطعية دليلة ، وقد يكون محرما ظنا لظنيه دليله[1] .

٥ ـ وذهب بعض الأصوليين إلى الوقف ، لتردده بيه التحريم والكراهة في الأدلة الشرعية وكلام أهل العربية .

وبالنظر في المذاهب المذكورة وأدلتها يتبين رجحان القول بدلالة النهي المطلق على التحريم حقيقة ، وهو فيما عدا التحريم مجاز ، لا يحمل عليه الا بقرينة ، وذلك ما عليه أكثر الفقهاء والأصوليين .

وبتتبع النصوص التى وردت في غير التحريم نجدها مقترنة بقرائن صرفتها عن الحقيقة التي هي التحريم إلى المجاز وهو سائر المعاني .

---

(١) ارشاد الفحول ص ١١٠ .

أثر الاختلاف في اقتضاء النهي التحريم أو عدمه على الفروع الفقهية

مع اختلاف الأصوليين في كون النهي حقيقة في التحريم أو في الكراهة لم يقل أي من الفريقين بقطعتيه في أحدهما ، بل هو ظاهر في الدلالة على التحريم عند القائل به ، أو في الكراهة عند الذاهب اليها . وذلك لأن دلالة صيغة النهي من قبيل الظاهر المحتمل للتأويل وليست من قبيل النص القطعي .

وحيث أن معظم النواهي الشرعية لم تأت مجردة عن قرائن وأدلة من عمومات وظواهر أخرى تؤيد ارادة المنع الجازم أو ارادة غيره ، فقد كان اختلاف الأصوليين والفقهاء في المسائل الفرعية من حيث الحكم بحرمتها أو كراهتها مبنيا على تجاذب تلك الأدلة والقرائن أكثر من انبنائه على اختلافهم فيما يدل عليه النهي حقيقة أهو التحريم أم الكراهة ، ولهذا فلا تكاد تجد مسألة مما اختلف في حرمتها وكراهتها استدل فيها بمجرد النهي الصريح الخاص بها فقط ، بل أضيف إلى ذلك من الأدلة والقرائن المؤيدة أو المعارضة ما يقوى مذهب كل من المختلفين .

ومن الأمثلة على ذلك :

أولاً : الصلاة في الأمكنة المنهي عن الصلاة فيها :

فقد وردت أحاديث كثيرة تنهي عن الصلاة في أماكن معينة منها :

١ ـ ما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي هريره رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « **صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في أعطان الابل** »[1] .
والمرابض المبارك وكذلك المعاطن .

---

(١) انظر منتقى الأخبار ، جـ٢ ، ص ١٥٢ .

٢ ـ ما رواه مسلم من حديث جابر بن سمره أن رجلا سأل النبي ﷺ : « **أنصلي في مرابض الغنم ؟ قال : « نعم » قال : أنصلي في مبارك الابل ؟ قال : « لا »** »[١] .

٣ ـ ما رواه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام** »[٢] .

فهذه أماكن ثلاثة ورد النص الصريح بالنهي عن الصلاة فيها .

ولورود هذا النهي مع ما تحف به من قرائن توافق أو تعارض اختلف الفقهاء في حكم الصلاة في الأماكن المذكورة .

فذهب أبو حنيفة والشافعي ومالك في رواية عنه وكذا الامام أحمد في رواية إلى القول بكراهتها وعدم تحريمها[٣] . ما لم تكن نجسه .

واستدلوا على الجواز والصحة بالعمومات الواردة في صحة الصلاة بكل أرض طاهرة ومنها حديث الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **جعلت لى الأرض طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث أدركته** »[٤] .

وحملوا أدلة النهي على الكراهة غير أن الشافعي رضي الله عنه منع من الصلاة في المقبرة المنبوشة التي ا ختلط ترابها بأجساد الموتى إذا لم يكن هناك حائل بين المصلى والنجاسة .

وهذا منه مبني على تغليب نجاسة الموضع حينئذ وليس لمجرد النهي ، وذهب الإمام أحمد في أصح الروايتين عنه إلى تحريم الصلاة في هذه الأماكن وبطلانها .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) منتقى الأخبار ، جـ٢ ، ص ١٤٨ .
(٣) المغنى ، جـ٢ ، ص ٤٦٨ .
(٤) المرجع السابق ، ونيل الأوطار ، جـ٢ ، ص ١٤٦ .

مستدلا على ذلك بأحاديث النهي المذكورة في أول المسألة وغيرها فإنها مخصصة لعموم أحاديث الجواز[1] .

وهكذا نلاحظ أن القائلين بالكراهة في هذه المسألة لم يذهبوا اليها لعدم دلالة النهي على التحريم عندهم ، ولكن لقيادم أدلة أوجبت حمل النهي على ذلك .

٢ ـ حكم وضع المصلى شيئا من اللباس على عاتقه :

ورد في الحديث النهي عن الصلاة في الثوب الواحد ليس على عاتق المصلى منه شيء وذلك فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء** »[2] .

وما رواه أبو داود عن بريدة قال : نهى رسول الله ﷺ أن يصلي في لحاف ولا يتوشح به ، وأن يصلي في سراويل ليس عليه رداء[3] ، وقد اختلف الفقهاء في وجوبه واشتراطه لصحة الصلاة . فذهب الحنابلة في ظاهر مذهبهم إلى أنه يجب أن يضع المصلي على عاتقه شيئا من اللباس ان كان قادرا على ذلك ، وان ذلك شرط لصحة صلاة الفريضة .

واستدلوا بالنهي عن تركه في الصلاة . والنهي يقتضي تحريم وبطلان المنهى عنه ، وذهب أكثر الفقهاء منهم مالك والشافعي والحنفية إلى أنه لا يجب ذلك ولا يشترط لصحة الصلاة واستدلوا على ذلك : بأن العاتق ليس بعورة ، فأشبه بقية البدن[4] ، مما اقتضى حمل النهي على الكراهة لا على التحريم .

---

(١) المغنى ، جـ٢ ، ص ٤٦٨ .

(٢) منتقي الأخبار ، جـ٢ ، ص ٧٨ .

(٣) سنن أبي داود ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

(٤) المغنى ، جـ٢ ، ص ٢٨٩ .

٣ ـ التخصر في الصلاة :

ومما ورد النهي عنه التخصر في الصلاة وذلك فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه نهي أن يصلى الرجل مختصرا[١] .

والتخصر في الصلاة : هو وضع اليد على الخاصرة . كما فسره بذلك الترمذي وأبو داود وجمع من العلماء . وقد فسر بغير ذلك ، ولكن الأصح هو ما ذكرناه في تفسيره فقد نقل الشوكاني عن العراقي قوله : وهو الصحيح الذي عليه الحققون والأكثرون من أهل اللغة والحديث والفقه[٢] .

وقد اختلف الفقهاء في حكم وضع اليد على الخاصرة في الصلاة ، فذهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه مكروه وعلله بعضهم بأن فيه ترك الوضع المسنون[٣] .

وذهب الظاهرية إلى تحريمه ، ورجح ذلك الشوكاني حيث قال : والظاهر ما قاله أهل الظاهر ، لعدم قرينة تصرف النهي عن التحريم الذى هو معناه الحقيقي كما هو الحق[٤] .

٤ ـ البيع وقت نداء الجمعة :

ومما ورد النهي عنه البيع عند النداء للجمعة ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾**[٥] .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، جـ ، ص ، ومسلم بشرح النووي جـ ٥ ، ص ٣٦ .
(٢) نيل الأوطار ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥ .
(٣) المرجع السابق ، وشرح فتح القدير جـ ١ ، ص ٤١٠ ، وشرح منتهي الارادات جـ ١ ، ص ١٩٦ .
(٤) نيل الأوطار ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥ .
(٥) سورة الجمعة ، آية (٩) .

وقد ذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة وبعض الحنفية كالطحاوي إلى أن وقت المنع من البيع هو ابتداء من الآذان الثاني الذي يكون عند المنبر إلى أن تنقضي الصلاة ، فالنداء المذكور في الآية هو ذلك النداء لأنه هو الذي كان على عهد الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر . وهو الذي كان حال نزول الآية . وأما الآذان الأول فهو محدث في عهد عثمان رضي الله عنه . وقال أكثر الحنفية والإمام أحمد في رواية عنه : أن المنع يبدأ عند الآذان الأول ، لأنه هو الذى يحصل به الاعلام للسعي ، ولأن من انتظر في بيته أو متجره حتى يبدأ الآذان الثاني فلربما فاتته سنة الجمعة والاستماع إلى الخطبة ، وقد تفوته الصلاة إذا كان منزله أو متجره بعيدا .

وقال الظاهرية : أنه يمنع البيع ابتداء من زوال الشمس يوم الجمعة[1] .

ولورود النهي عن البيع عند النداء للجمعة اختلف الفقهاء في حكمه على ثلاثة مذاهب[2] .

أحدها ـ أنه يحرم ويقع باطلا . وهذا ظاهر مذهب المالكية والحنابلة والظاهرية .

لكن المالكية والحنابلة قالوا بحرمته وبطلانه في حق من تجب عليه الجمعة . والظاهرية قالوا بذلك في حق كل متبايعين سواء أكانت الجمعة تجب عليهما أو على احدهما .

وأستثنى الفقهاء من هذا الحكم : المضطر لطعام أو شراب أو كسوة عريان أو كفن لميت يخشى فساده ونحو ذلك .

واستدلوا على التحريم والبطلان بالنهي الوارد في الآية المذكورة ، إذ النهي يقتضي التحريم والبطلان ما لم يصرفه صارف ، ولا صارف له هنا[3] ولم يعتبروا

---

(١) قوانين الأحكام الشرعية ، ص ٢٨٥ ، ونهاية المحتاج ، جـ ٣ ، ص ٤٦٣ ، وشرح فتح القدير ، جـ ٦ ، ص ٤٦١ ، وشرح منتهى الارادات ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ ، والمحلي جـ ٩ ، ص ٦٤٧ .

(٢) المراجع السابقة .

(٣) قوانين الأحكام الشرعية ، ص ٢٨٥ ، وحاشية العدوي ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ ، وشرح منتهى الارادات ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ ، والمحلي ، جـ ٩ ، ص ٦٤٧ .

كونه واردا لأمر خارج قرينة صارفة .

المذهب الثاني ـ وهو للشافعية ـ القول بالتحريم على من تلزمه الجمعة غير المضطر والمحتاج . ولكن إذا وقع البيع يكون صحيحا مع الحرمة . ودليل التحريم عندهم الآية .

ودليل عدم البطلان : أن النهي لم يرد على ذات البيع ولا على وصفه الملازم وانما كان لأمر خارج وهو تفويت السعي إلى الجمعة والنهي في هذه الحالة لا يقتضي البطلان وان لم يصرفه صارف عن التحريم[1] .

المذهب الثالث ـ ان البيع عندئذ يكون مكروها كراهة تحريميّة ، وإذا وقع يكون صحيحا مع الكراهة . وهذا مذهب الحنفية ، ودليله الآية وقالوا بالكراهه هنا وعدم بطلان البيع أو فساده لأن النهي لم يكن لذات البيع ولا لوصفه الملازم ، بل كان لأمر من خارج[2] .

٥ ـ ومن ذلك بيع العنب ممن يتخذه خمرا ، وبيع سلاح في فتنه وبيع عبد مسلم لكافر ونحوها[3] .

وان كان بعض تلك البيوع مجمع على تحريمه وبطلانه ، للاتفاق على قوة القرائن المؤيدة للظاهر من الدلالة على التحريم والبطلان .

---

(١) مغنى المحتاج ، جـ ، ص ٣٩٥ ، والبيوع المحرمة ، ص ٦٤٤ .
(٢) حاشية ابن عابدين ، جـ ٥ ، ص ١٠١ .
(٣) راجع المغنى جـ ٤ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، والمجموع جـ ٩ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، وحاشية الدسوقى جـ ٣ ، ص ٧ ، وحاشية ابن عابدين جـ ٦ ، ص ٣٩١ .

المبحث الثالث
في دلالة النهي على البطلان أو عدمه
وأثر ذلك في الفروع الفقهية

تمهيد في معنى كل من الصحة والبطلان والفساد :

قبل الخوض في بيان اقتضاء النهي للبطلان أو عدم اقتضائه له ، لا بد لنا من تمهيد موجز نبين فيه معنى كل من الصحة والبطلان والفساد في اصطلاح الأصوليين ، لأنه لا بد من تصورها قبل الحكم على الأفعال بها .

(أ) معنى الصحة :

الصحة في اللغة ضد السقم ، وهي انعدام المرض وذهابه والبراءة من كل عيب[١] .

أما في اصطلاح الأصوليين فهي ترتب المقصود من الفعل عليه[٢] ، أو استتباع الفعل غايته[٣] . وهما بمعنى واحد . والغاية من الفعل في عقود المعاملات عبارة عن ترتب آثارها عليها من ثبوت الملك ، وحل المبيع والثمن في البيع ، وحل التمتع وثبوت النسب في عقد النكاح ، ونحو ذلك[٤] .

وأما الغاية في العبادات فهي عند المتكلمين موافقة الأمر . وعند الفقهاء : سقوط القضاء . وقال ابن الهمام هي : اندفاع وجوب القضاء[٥] .

قال الأصوليون : وتظهر ثمرة الخلاف فيمن صلى على ظن الطهارة، أي وتبين له أنه محدث ، فإن صلاته صحيحة على رأي المتكلمين لموافقته الأمر ظاهرا إذ الشخص مأمور أن يصلي بطهارة سواء أكانت معلومة أم مظنونة .

---

(١) القاموس ، جـ١ ، ص ٢٤١ .
(٢) التحرير مع شرحه التيسير ، جـ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٣) نهاية السول ، جـ١ ، ص ٥٧ .
(٤) التحرير مع شرحه التيسير ، جـ٢ ، ص ٢٣٤ ، ونهاية السول ، جـ١ ، ص ٥٧ .
(٥) المرجعين السابقين .

وهي فاسدة عند الفقهاء لعدم سقوط القضاء . ولا خلاف بين الفريقين في أن من صلى يظن الطهارة ثم تبين أنه محدث يلزمه القضاء ، ولهذا قال أكثر الأصوليين ومنهم الغزالي والقرافي والأسنوي أن الخلاف لفظي[1] .

هذا وللحنفية اصطلاح خاص في تعريف الصحة في المعاملات إذ يعرفونها ، بكون العقد يترتب عليه أثره المقصود منه مع عدم طلب التفاسخ شرعا .

ويعرفون الصحيح : بما كان مشروعا بأصله ووصفه ، أو هو ما استتبع غايته المقصودة منه ولم يطلب فسخه شرعا[2] ، وقد ذكروا ذلك ليقابلوا به الباطل والفاسد في اصطلاحهم كما سيأتي .

(ب) معنى البطلان :

البطلان لغة مصدر بطل ، وهو ذهاب الشيء ضياعا وخسرانا . والباطل نقيض الحق[3] .

أما في اصطلاح الأصوليين : فالبطلان نقيض الصحة ، والباطل نقيض الصحيح . فالبطلان : عدم استتباع الفعل غايته . فهو في المعاملات عدم ترتب آثارها عليها من ثبوت الملك وحل الانتفاع ونحوهما .

وفي العبادات : كون الفعل واقعا على خلاف أمر الشرع عند المتكلمين وكونه غير مسقط للقضاء أو غير دافع لوجوب القضاء عند الفقهاء[4] .

وهو عند الحنفية في المعاملات : كون العقد لا يترتب عليه أثره المقصود منه مع طلب التفاسخ شرعا .

وعرفوا الباطل : بما كان غير مشروع لا بأصله ولا بوصفه[5] .

---

(١) المستصفي ، جـ ١ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، وشرح تنقيح الفصول ، ص ٧٦ ، ونهاية السول جـ ١ ، ص ٥٩ .

(٢) التحرير مع شرحه التيسير ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ ، ومسلم الثبوت ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(٣) القاموس ، جـ ٣ ، ص ٣٤٥ ، ولسان العرب ، جـ ١ ، ص ٢٢٧ .

(٤) نهاية السول ، جـ ١ ، ص ٥٨ ، وتيسير التحرير ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٥) تيسير التحرير ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ ، وفواتح الرحموت ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(جـ) معنى الفساد :

الفساد لغة مصدر فسد كنصر وعقد وكرم وهو ضد الصلاح ، ويطلق على أخذ المال ظلما وعلى الجدب[1] .

أما في الاصطلاح الأصولي

فهو عند الجمهور منهم مرادف للبطلان فهما بمعنى واحد ويقابلان الصحة . وعلى هذا فتعريف الفساد في اصطلاح جمهور الأصوليين هو تعريف البطلان السابق ذكره[2] .

وللفساد عند الحنفية معنى مغاير للبطلان إذ يعرفونه في المعاملات بكون الفعل يترتب عليه أثره المقصود مع طلب التفاسخ شرعا[3] .

فالفرق بين الباطل والفاسد عند الحنفية أن الباطل لا يترتب عليه أثره المقصود منه ، والفاسد يترتب عليه أثره . مع أن كلا منهما مطلوب التفاسخ شرعا . على تفصيل في الفروع سيتضح قريبا ، وكل من الفاسد والباطل يقابل الصحيح . إذ الصحيح عندهم ـ كما سبق بيانه ـ هو ما استتبع غايته المقصودة منه ولم يطلب فسخه شرعا . أو هو ما كان مشروعا بأصله ووصفه .

(د) نوع الخلاف في معنى الفساد والبطلان بين الجمهور والحنفية :

اتضح لنا مما سبق أن التفريق بين البطلان والفساد اصطلاح خاص بالحنفية ، يخالفون فيه الجمهور .

فهل لهذا الخلاف الاصطلاحي أثر فقهي ؟

والجواب أنه من خلال الفروع الفقهية يتبين أن لهذا الخلاف الاصطلاحي الأصولي أثرا فقهيا .

---

(١) القاموس ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ .

(٢) منهاج الوصول ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، وتيسير التحرير ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ ، وشرح مختصر ابن الحاجب ، جـ ٢ ، ص ٨ ، وجمع الجوامع ، جـ ١ ، ص ١٤٦ .

(٣) التحرير وشرحه التيسير ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

فالجمهور يعتبرون كل ما نهي عنه لأصله أو لوصفه الملازم غير مشروع وما ليس بمشروع فهو باطل لا يستتبع غايته ، ولا ينتج أثره ، فلا يسقط القضاء في العبادات ، ولا يفيد الملك وحل الانتفاع في المعاملات أما ما نهي عنه لغيره فالحنابلة والظاهرية وبعض الفقهاء من غيرهم يرون بطلانه أيضا . والآخرون يرون صحته مع الكراهة أو التحريم فيستتبع غايته وينتج أثره وان كان مكروها[1] .

وأما الحنفية فيفرقون بين المنهى عنه لأصله فيسمونه باطلا . وبين المنهى عنه لوصفه الملازم فيسمونه فاسدا واما المنهى عنه لغيره فإنه صحيح عندهم .

وفائدة هذا التفريق أن المنهى عنه لأصله لا ينعقد أبدا فوجوده كعدمه فلا يستتبع غايته المقصودة منه سواء في العبادات أو في المعاملات .

والمنهى عنه لوصفه الملازم ـ وهو ما سموه فاسدا ـ ينعقد ويصح في المعاملات إذا أطرح الوصف الموجب للنهي ، بل ان الفاسد عندهم في المعاملات يفيد الملك بالقبض ولو لم يطرح الوصف الموجب للنهي ، مع قولهم بوجوب فسخه قبل القبض .

ومن هنا نلاحظ أن الاختلاف بين الحنفية وبين الجمهور معنوى وليس لفظيا . وسيتضح هذا عند ذكر المذاهب في دلالة النهي على البطلان وضرب الأمثلة لذلك .

---

(١) انظر ص ٢٨ ، ٢٩ من هذا البحث .

أقسام الفعل المنهي عنه من حيث سبب النهي ومنشؤه

يقسم الأصوليون الفعل المنهي عنه بحسب سبب النهي عنه إلى ثلاثة أقسام هي[1] :

١ ـ منهي عنه لعينه سواء أكان النهي عنه لذاته أو لجزئه . مثال الأول : النهي عن بيع الحصاه[2] على تفسير جعل الرمي بيعا[3] .
ومثال الثاني : النهي عن بيع الملاقيح والمضامين[4] .
لأن النهي عنه لأجل جهالة المبيع أو عدمه أو عدم ماليته ، أو عدم القدرة على تسليمه ، وهو جزء العقد[5] .

٢ ـ منهى عنه لوصفه الملازم . مثل النهي عن الربا فالنهي ليس واردا على ذات العقد أو جزئه ، لاستكمال أركانه وشروطه بل النهي عنه بسبب الزيادة في أحد العوضين بدون مقابل ، وهذه الزيادة وصف ملازم للعقد لا ينفك عنه ، بمعنى أنه لا يمكن تحققها على ذلك النحو بدونه .

٣ ـ منهى عنه لوصف مجاور ويعبر عنه أيضا بالمنهي عنه لغيره أو لأمر خارج . كالبيع عند نداء الجمعة .

---

(١) أصول السرخسي ، جـ ١ ، ص ٨٠ ، وتيسير التحرير ، جـ ١ ، ص ٣٧٦ ، وشرح جمع الجوامع ، جـ ١ ، ص ٤٠٠ ، ٤٠١ ، وحاشية الدسوقي ، جـ ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) ورد النهي عنه في حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم وأصحاب السنن انظر منتقى الأخبار ، جـ ٥ ، ص ١٦٦ .

(٣) يعني : إذا قذف الحصاة فقد وجب البيع . نيل الأوطار ، جـ ٥ ، ص ١٦٧ .

(٤) بيع الملاقيح : هو بيع الحمل أي ما في بطون الأنعام ، أو بيع ماء الفحول في ظهورها . وبيع المضامين كذلك .
وقد ورد النهي عنهما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهي عن بيع المضامين والملاقيح . أخرجه البزار قال الحافظ ابن حجر وفي اسناده ضعف ، انظر بلوغ المرام ، ص ١٤٩ ، ورواه مالك عن سعيد بن المسيب مرسلا باسناد صحيح ، انظر الموطأ مع شرحه للزرقاني ، جـ ٣ ، ص ٣٠٢ .

(٥) حاشية أبي عابدين ، جـ ٥ ، ص ٥٣ ، وشرح منتهى الارادات ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ ، ومغنى المحتاج ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

فالنهي عنه لا لذاته ولا لوصف ملازم له غير منفك عنه ، وانما هو لأمر خارج ، وهو المنع من السعي إلى الصلاة . فهذا الوصف يمكن انفكاكه عن البيع ، فقد يحصل السعي مع وجود البيع كما لو تبايعا وهما في طريقهما إلى الصلاة ، وقد يتخلف السعي بدون البيع كما لو انشغل بأمر آخر ، أو تأخر تهاونا وكسلا . وقد كان لهذا التقسيم أثر في اختلاف الأصوليين في اقتضاء النهي البطلان المرادف للفساد أو عدمه أو اقتضائه ذلك في البعض وعدم اقتضائه في البعض الآخر ، كما سنرى ذلك عند ذكر المذاهب وأدلتها في الفقرة التالية .

ـ المذاهب في اقتضاء النهي البطلان أو عدمه :

من تتبع كلام الأصوليين في المسألة يمكن حصر مذاهبهم في خمسة هي :

المذهب الأول :

أنه يقتضي البطلان مطلقا أي سواء أكان النهي لذات الفعل أم لوصفه الملازم أم لأمر خارج ، وسواء أكان ذلك في العبادات أم في المعاملات .

وهذا هو المشهور عند الحنابلة والظاهرية ومنسوب إلى الإمام مالك[1] .

المذهب الثاني :

انه يقتضي البطلان في العبادات والمعاملات إذا كان النهي عائدا إلى ذات الفعل المنهي عنه كصلاة الحائض وصومها وبيع الحصاة والمضامين والملاقيح ونحوها .

أو إلى وصف ملازم له كصوم يوم العيد وبيع درهم بدرهمين وكالوطيء زنا .

---

(١) أحكام الأمدي ، جـ٢ ، ص ١٧٥ ، ونزهة الخاطر ، جـ٢ ، ص ١١٢ ، وجمع الجوامع ، جـ١ ، ص ٤٠١ ، وأحكام ابن حزم ، جـ ، ص
وقد حكى القرافي عن الإمام مالك أن النهي يقتضي البطلان على وجه يثبت معه شبهة الملك . والظاهر أن هذا النقل لا يتعارض مع مذهب مالك من اقتضائه البطلان مطلقا . بل هو نوع تأويل للنهي في بعض موارده لأمر يوجب ذلك وهو ما إذا اتصل بالعقد ما يقرر آثاره كما إذا تغير سوقه أو بدنه بهلاك أو غيره ، أو تعلق به حق غير المشتري كما إذا وهبه أو باعه أو أجره أو أعتقه فيملكه حينئذ بالقيمة . شرح تنقيح الفصول ، ص ١٧٤ ، ١٧٦ .

ولا يقتضيه إذا كان لأمر خارج كالوضوء بماء مغصوب وكالبيع عند نداء الجمعة .

وهذا مذهب الأكثر من الشافعية والمالكية وغيرهم . كما نسبه اليهم ابن السبكي وغيره[1] .

المذهب الثالث :

انه يقتضي البطلان في العبادات دون المعاملات .

وهذا مذهب أبي الحسين البصري من المعتزلة ونسبه ابن السبكي إلى الغزالي وفخر الدين الرازي ، وهو اختيار ابن الهمام من الحنفية[2] .

المذهب الرابع :

ان النهي لا يقتضي البطلان ولا الفساد مطلقا لا في العبادات ولا في المعاملات .

وهذا اختيار بعض الشافعية منهم القفال ، ونسبه القرافي والغزالي وابن السبكي إلى أبي حنيفة كما نسبه الغزالي والقرافي إلى محمد بن الحسن ، وهو مذهب كثير من المعتزلة[3] .

المذهب الخامس :

انه يقتضي البطلان إذا كان النهي لعين المنهي عنه . ويقتضي الفساد المغاير للبطلان إذا كان النهي لوصف ملازم ، ولا يقتضي فسادا ولا بطلانا إذا كان النهي لأمر خارج .

وهذا هو المشهور من مذهب الحنفية[4] . فهم الذين يفرقون بين الباطل

---

(١) جمع الجوامع ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، وارشاد الفحول ، ص ١١٠ ، وحاشية الدسوقي ، جـ ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) المعتمد ، جـ ١ ، ص ١٨٤ ، وجمع الجوامع ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، وارشاد الفحول ، ص ١١٠ ، والتحرير لابن الهمام ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ ، وجـ ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٣) المستصفى ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، وجمع الجوامع ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، والمعتمد ، جـ ١ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، وارشاد الفحول ، ص ١١١ .

(٤) المنار ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، وتيسير التحرير ، جـ ١ ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

والفاسد كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، وقد حكي عن أبي حنيفة ومحمد بن الحسن أنه يقتضي الصحة[1] .

وجدير بالذكر أن القائلين باقتضائه البطلان مختلفون في منشيء دلالته أهي اللغة أم الشرع أم العقل .

أم هي الأمور الثلاثة مجتمعة[2] وسيتضح ذلك من خلال أدلتهم .

- الأدلة ومناقشتها :

أولاً : أدلة القائلين باقتضائه البطلان مطلقا :

أورد الأصوليون لأصحاب هذا المذهب عدة أدلة[3] هي :

الدليل الأول :

النص من السنة وهو ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** »[4] وفي رواية « **من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد** »[5] .

فهذا دليل شرعي صريح على اقتضاء النهي للبطلان .

وجه الدلالة منه :

ان النبي ﷺ حكم فيه بالرد وعدم القبول على كل مخالف للشرع .

وقد اتفق العلماء على أن « ردا » بمعنى مردود ، والمردود على فاعله كالمعدوم[6] . وهذا هو الباطل .

---

(١) المستصفى ، جـ٢ ، ص ٢٧ ، وجمع الجوامع ، جـ٢ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، وزشرح تنقيح الفصول ، ص ١٧٦ .

(٢) ارشاد الفحول ، ص ١١٠ ، وجمع الجوامع ، جـ١ ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٣) المعتمد ، جـ١ ، ص ١٨٧ ، والعدة ، جـ٢ ، ص ٤٣٤ ، والمستصفى ، جـ٢ ، ص ٢٦ ، وارشاد الفحول ، ص ١١٠ ، ونزهة الخاطر ، جـ٢ ، ص ١١٤ .

(٤) انظر البخاري مع الفتح ، جـ٥ ، ص ٣٠١ ، ومسلم بشرح النووي ، جـ١٢ ، ص ١٦ .

(٥) انظر صحيح مسلم ، جـ١٢ ، ص ١٦ .

(٦) نزهة الخاطر ، جـ٢ ، ص ١١٤ .

الاعتراضات الواردة على هذا الدليل :

اعترض على الاستدلال بهذا الحديث بعدة اعتراضات ، أظهرها وأقواها أن الحديث يحتمل بطلان أي عمل مخالف للشرع كما ذكر المستدل ويحتمل أنه ليس بمقبول قربة وطاعة مع الحكم بصحته ، وقد قامت أدلة شرعية على صحة كثير من الصور المنهى عنها كطلاق الحائض ، والذبح بسكين الغير غصبا ، واستيلاد أمة الابن ونحو ذلك .

فوجب حمل الحديث على معنى عدم قبول العمل المنهي عنه وعدم كونه قربة وطاعة ، لا على بطلانه ، ولهذا فليس في الحديث دلالة على اقتضاء النهي للبطلان[1] .

الجواب على هذا الاعتراض :

وأجيب عن ذلك بأن قوله ﷺ : « فهو رد » يقتضي رد ذات الفعل الواقع على خلاف الشرع ، وحيث أن الفعل قد يقع مخالفا للشرع فلا يمكن حمل الكلام على تلك الحقيقة الحسية ، وإذ لم يمكن حمله على ذلك اقتضى أن يكون معناه رد ما يتعلق به ويترتب عليه ليكون وجوده كعدمه ، فكأنه لم يقع ، وهو البطلان . أما حمله على عدم قبوله طاعة وقربة فمجاز والأصل حمل الكلام على حقيقته .

أما الصور التي ورد فيها النهي وقضي الشرع بصحتها فهي استثناء وردت على خلاف مقتضى هذا الدليل لصارف أوجب ذلك[2] .

الدليل الثاني : الاجمـــاع :

وتقريره أن الصحابة رضي الله عنهم استدلوا على فساد العقود بالنهي عنها فاستدلوا على فساد عقود الربا بالآيات الدالة على تحريمه ، وبقوله ﷺ : « **لا تبيعوا الذهب بالذهب الا مثلا بمثل** » . . الخ . واحتجوا على فساد نكاح

---

(١) المرجع السابق والمستصفى ، جـ٢ ، ص ٢٧ .

(٢) نزهة الخاطر ، جـ٢ ، ص ١١٤ ، وارشاد الفحول ، ص ١١ .

المشركات بقوله تعالى ﴿ **ولا تنكحوا المشركات** ﴾ وفي نكاح المحرم بالنهي عنه ، وفي بيع الطعام قبل قبضه بالنهي عنه ولم ينكر بعضهم على بعض الاستدلال بالنهي فكان اجماعا[1] .

وهذا الدليل يمكن أن يكون على اقتضاء النهي للبطلان شرعا باعتباره اجماعا من علماء الأمة على معنى شرعي ، ويمكن أن يكون على اقتضائه لذلك لغة بصفتهم أهل اللغة وأعرف الناس بمعانيها ومدلولاتها .

- الاعتراض الوارد على هذا الدليل :

اعترض على هذا الدليل من وجهين :

أحدهما : ما ذكره الغزالي من أنه لا يسلم حصول الاجماع من جميع الصحابة على ذلك ، بل هو مذهب البعض ، ولا حجة في قولهم[2] .

الثاني : ما ذكر الفخر الرازي وهو عدم التسليم بأن الصحابة اعتمدوا في الحكم بالفساد على مجرد النهي ، بدليل أنهم حكموا وأفتوا في كثير من المنهيات بصحتها . ذلك أنه لو قيل بأن حكمهم بفساد ما حكموا بفساده كان لمجرد النهي لزم أن يكون تخلف الحكم عن الصور التي حكموا فيها بالصحة لمانع على خلاف الظاهر ، والأصل عدمه ، بخلاف ما إذا قلنا بعدم اقتضاء النهي للفساد ، فإن حكمهم حينئذ به في بعض الصور لدليل منفصل وليس في ذلك ترك للظاهر[3] .

الجواب عن هذين الاعتراضين :

وقد أجيب عن الاعتراض الأول بأن حكم الصحابة على المنهيات بالبطلان واستدلالهم على ذلك بالنهي عنها قد شاع واشتهر ولم ينكر فكان اجماعا ، والمخالفون منهم في أحكام بعض المسائل الفرعية لم ينكروا على المستدل بالنهي وانما كان خلافهم لدليل آخر يصرفه في نظرهم عن ظاهره إلى غيره .

---

(١) التمهيد ، جـ ١ ، ص ٤٢٤ وما بعدها ، روضة الناظر ، ص ، وارشاد الفحول ص ١١٠ ، والمستصفى ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، وجمع الجوامع ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) المستصفى ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) المحصول ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٩ .

وعن الثاني بأن مخالفة الدلالة الظاهرة في بعض الصور لموجب لا تنفي تلك الدلالة أصلا ، ولا يكون الأولى القول بعدمها[1] .

الدليل الثالث : وهو عقلي :

ان النهي عن الشيء يدل على تعلق المفسدة به أو بما يلازمه ، لأن الشارع حكيم لا ينهي عن المصالح ، انما ينهي عن المفاسد ، وفي القضاء بالفساد اعدام لها بأبلغ الطرق[2] .

الدليل الرابع : وهو عقلي أيضا وخاص بالمعاملات :

وهو أن النهي عن العقود والتصرفات مع ربط الحكم بها وترتيب آثارها عليها يفضي إلى التناقض في الحكمة ، لأن نصبها أسبابا تمكين للمكلف من التوسل بها ، والنهي عنها منع من ذلك ، ولأن حكمها وأثرها مقصود الآدمي ، ومتعلق غرضه ، فتمكينه منه حث على تعاطيه ، والنهي منع من التعاطي ، وهما متناقضان ، وذلك لا يليق بحكمه الشارع[3] .

الدليل الخامس : وهو عقلي كذلك وخاص بالعبادات :

ان الأمر بالعبادة يقتضي شغل الذمة بفعلها على وجه غير منهي عنه ، فإذا فعلها على الوجه المنهي عنه لم يحصل فراغ ذمته ، لأنه لم يأت بها على الوجه الذى أمر به ، وانما أتي بها على وجه آخر ، فيكون آت بغير ما طلب منه ، كمن أمر بالصلاة فأتى بالصيام ، فشرط العبادة أن لا تقع على الوجه المنهي عنه ، والعبادة إذا اختل شرطها وقعت باطلة[4] .

وفي هذا الدليل رد على من يقول أن النهي لا يدل على بطلانٍ أو فسادٍ وان الفساد انما يكون بفوات ركن أو شرط لدليل آخر غير النهي[5] .

---

(١) تحقيق المراد ، ص ١٣٩ ، ونزهة الخاطر ، جـ٢ ، ص ١١٤ .
(٢) نزهة الخاطر ، جـ٢ ، ص ١١٤ .
(٣) المرجع السابق ، وشرح تنقيح الفصول ، ص ١٧٤ .
(٤) التمهيد ، جـ١ ، ص ٣٧٢ ، وشرح تنقيح الفصول ، ص ١٧٤ .
(٥) ومن هؤلاء الغزالي ، انظر المستصفى ، جـ٢ ، ص ٣٠ .

ثانياً : أدلة المذهب الثاني ومناقشتها :

أما أصحاب المذهب الثاني فمذهبهم يتضمن أمرين :

أحدهما : القول بأن النهي يقتضي البطلان إذا كان واردا على ذات المنهي عنه أو وصفه الملازم عبادة كان أو معاملة .

وثانيهما : القول بعدم اقتضائه البطلان إذا كان النهي بسبب أمر خارج عن ذات المنهي عنه غير ملازم له .

وأدلتهم على الأمر الأول هي بعينها أدلة القائلين باقتضاء البطلان مطلقا وقد سبق بيانها آنفا .

ويضيفون للتفريق بين المنهي عنه لوصفه الملازم والمنهي عنه لأمر من خارج أن المنهي عنه لوصفه الملازم كالمنهي عنه لذاته ، إذ الوصف الملازم الموجب للبطلان يجعل الفعل في حكم المنهي عنه لذاته .

وأما أدلتهم على الأمر الثاني وهو عدم اقتضاء البطلان فيما نهى عنه لأمر خارج منفك عنه فأقواها وأظهرها دليلان :

الدليل الأول :

أن النهي في هذه الحالة منصب على ذلك الأمر الخارج فالمنهي عنه حقيقة عندئذ هو ذلك الأمر الخارج ، وليس العقد أو العبادة الوارد ذكرها في دليل النهي ، كالغصب في مسألة النهي عن الصلاة في الأرض المغصوبة وتفويت السعي الواجب إلى الجمعة في مسألة النهي عن البيع عند النداء ، لها ، فلا يلزم من النهي عن الصلاة في الأرض المغصوبة بطلانها ولا من النهي عن البيع عند النداء للجمعة بطلانه ونحو ذلك ، لانفكاك الجهة إذ قد يحصل الغصب المنهي عنه دون الصلاة . وقد يحصل تفويت السعي إلى الجمعة دون البيع ، وتحصل الصلاة دون الغصب ويحصل السعي مع وجود البيع ولأن الشيء أو الفعل قد يكون له جهتان هو مطلوب من أحدهما ممنوع من الأخرى[1] .

---

(١) جمع الجوامع ، جـ١ ، ص ٤٠١ ، وارشاد الفحول ، ص ١١١ .

الدليل الثاني :

أن السلف قد حكموا وأفتوا بصحة الأفعال والعبادات التي ورد النهي عنها لغيرها كصحة الذبح والذكاة بسكين الغير بدون اذنه ، وصحة الوضوء بالماء المغصوب . بل أجمعوا على صحة صلاة الظلمة ، فلم ينقل عن أحد من السلف أنه أمر أحدا منهم باعادة صلاته مع وقوعها في دورهم حال ظلمهم وغصبهم[1] .

وقد اعترض على هذين الدليلين بما يأتي :

أما الدليل الأول فبأن الخلاف في دلالة النهي المستعمل شرعا ولا فرق في ذلك بين النهي عن الشيء لعينه أو النهي عنه لغيره ذلك أن النهي يدل على رجحان ما يتعلق به من المفسدة والمرجوح كالمستهلك المعدوم ودعوى انفكاك الجهة في حالة النهي عن الشيء لغيره غير مسلمه .

وأما الدليل الثاني فيعترض عليه بعدم التسليم بدعوى الاجماع في تلك الصور .

ثم إذا سلم وثبت في بعض الصور القول بصحتها مع النهي عنها فذلك خلاف ظاهر دلالة النهي لغة وعرفا ، والحامل عليه دليل أوجب ذلك ، فلا يخرج النهي عن أن يكون الأصل فيه اقتضاء البطلان ، كما لو خولف مقتضاه في التحريم[2] .

ثالثاً : أدلة المذهب الثالث ومناقشاتها :

استدل أصحاب هذا المذهب وهم القائلون باقتضاء النهي للبطلان في العبادات دون المعاملات بما يأتي :

١ ـ أدلتهم على اقتضائه البطلان في العبادات وأهمها دليلان معنويان[3] :

---

(١) المستصفى ، جـ ١ ، ص ٧٧ .

(٢) نزهة الخاطر ، جـ ١ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، وجـ ٢ ، ص ١١٤ ، وارشاد الفحول ، ص ١١٢ .

(٣) المرجعين السابقين . وشرح تنقيح الفصول ، ص ١٧٤ .

أحدهما : ان العبادة طاعة ، والطاعة موافقة الأمر ، والأمر يضاد النهي ، فلا يكون المنهي عنه مأمورا به ، فلا يكون طاعة ولا عبادة . فإذا وقع كان باطلا .

ثانيهما : ان النهي يقتضي التحريم ، والقول بصحة المنهي عنه من العبادات يقتضي أن يكون قربة ، وكون الشيء قربه ومحرما في آن واحد محال ، وحيث لزم من تحريم المنهي عنه انتفاء كونه قربة لزم بطلانه .

ولم أر اعتراضا ناهضا على هذين الدليلين . هذا بالإضافة إلى ما استدل به القائلون باقتضاء البطلان مطلقا كما سبق بيانه .

٢ ـ أدلتهم على عدم اقتضائه للبطلان في المعاملات :

استدلوا على هذا الجانب من مذهبهم بأن النهي من خطاب التكليف ، والصحة والفساد من خطاب الوضع ونصب الأسباب لأحكامها ، فلا يتنافي أن يقول المتكلم نهيتك عن كذا فإذا فعلته رتبت عليك حكمه . ولو صرح به الشارع فقال للأب : لا تستولد جارية الابن فإن فعلت ملكت الجارية ، أو قال : لا تطلق المرأة وهي حائض ، فإن فعلت وقع طلاقك . ولا تغسل الثوب بماء مغصوب ، فإن فعلت طهر الثوب ، لم يكن هذا تناقضاً .

ثم أنه لم يقم دليل صريح على تصرف الشارع في صيغة النهي بالتغيير ولا بوضعها علامة على البطلان .

وإذاً فلا دليل على اقتضاء البطلان من حيث الشرع ، ولا عرف له في اللغة[1] .

ـ الاعتراض على هذا الدليل :

وقد اعترض على هذا الدليل من وجهين :

أحدهما : ان دعوى عدم التنافي بين النهي والصحة غير مسلمة ، بل أن ربط الحكم بالمنهيات وترتيب آثارها عليها يفضي إلى التناقض في الحكمة ،

---

(١) المستصفى ، جـ٢ ، ص ٢٦ .

لأن نصبها سببا تمكين من التوسل بها ، والنهي منع من التوسل ، ولأن حكمها مقصود الآدمي ومتعلق غرضه فتمكينه منه حث على تعاطي المنهي ، والنهي منع من التعاطي ، وهما متناقضان . ولا يليق ذلك بحكمة الشارع .

وان سلم أن النهي لا ينافي الصحة لكنه يدل على الفساد ظاهراً ويكفي ذلك[1] .

ثانيهما : أن دعوى عدم قيام دليل شرعي على اقتضاء النهي للبطلان غير صحيحة ، بل قد قامت أدلة قوية على ذلك منها ما هو عام في العبادات وغيرها ، ومنها ما هو خاص بالمعاملات . وقد سبق ذكرها ورد الشبه الواردة عليها عند الاستدلال لمذهب القائلين باقتضاء البطلان مطلقا .

أدلة المذهب الرابع :

وهو القول بعدم اقتضاء النهي للبطلان ولا للفساد مطلقا .

استدل أصحاب هذا المذهب بعدة أدلة :

أما في المعاملات فما سبق ذكره للقائلين بعدم اقتضائه البطلان ولا الفساد في المعاملات خاصة ، وقد سبقت مناقشتها .

وأما في العبادات فلهم أدلة أهمها :

أن النهي لو كان يفيد البطلان لغة لكان حقيقة فيه ، ولما تخلف عنه هذا المدلول ، ولكن قد ثبت انفكاك الفساد عن النهي وقد ثبت الحكم بصحة صور كثيرة في الشرع مع ورود النهي عنها ، ومنها الصلاة في الدار المغصوبة والطلاق في حال الحيض ونحوها[2] .

- الاعتراض على هذا الدليل :

وقد اعترض على هذا الدليل من وجهين :

---

(١) روضة الناظر مع نزهة الخاطر ، جـ٢ ، ص ١١٤ .

(٢) ارشاد الفحول ، ص ١١١ .

أحدهما : ان تخلف الحكم بالبطلان في الصور التي ذكرت غير مسلم . فالقائلون باقتضاء النهي البطلان يلتزمون بذلك في جميع ما ذكر من الصور .

ثانيهما : على فرض التسليم بتخلف الحكم بالبطلان في بعض الصور فذلك لا ينفي دلالة النهي على البطلان ظاهراً ، لأن التخلف قد يكون لدليل صارف ، فلا يخرج النهي من أن يكون الأصل فيه اقتضاء البطلان ، كما خولف مقتضاه في التحريم[1] .

أدلة المذهب الخامس :

مذهب جمهور الحنيفية كما نلاحظ يتضمن تفصيلا يخالف في بعض جوانبه جميع المذاهب السابقة ، وذلك أنهم قالوا :

١ ـ أنه يقتضي البطلان فيما إذا كان النهي عن الفعل لذاته .

٢ - لا يقتضي بطلانا ولا فسادا وذلك فيما إذا كان النهي لوصف مجاور أي غير ملازم .

٣ ـ يقتضي الفساد المغاير للبطلان فيما إذا كان النهي لوصف ملازم .

وهذا هو الاصطلاح الخاص بهم الذي خالفوا به سائر الفقهاء والأصوليين .

ولكل جانب من هذه الجوانب الثلاثة دليله :

أما الجانب الأول :

وهو القول باقتضاء النهي البطلان إذا كان لذات الفعل والتصرف ، فدليله أن المنهي عنه لذاته قبيح في نفسه ، وحكمة الشارع تنافي جعل القبيح في نفسه سببا لحكم ، فكان وجوده كعدمه ، وكان النهي عنه دلالة على عدم مشروعيته أصلا بالضرورة .

---

(١) المرجع السابق .

أما الجانب الثاني :

وهو عدم اقتضائه البطلان ولا الفساد فيما إذا كان النهي لوصف مجاور فدليله ما سبق من أن النهي في هذه الحالة ليس متعلقا بذلك الفعل والتصرف ، بل تعلقه بالوصف المجاور له ، ولا يلزم من قبح الوصف المجاور قبح الفعل ، لانفكاك الجهة ، فلم يكن النهي مؤثرا في الفعل المشروع لا أصلا ولا وصفا .

ويكون كمن صام الفرض وترك الصلاة ، فهو مطيع بصومه ، عاص بتركه الصلاة ، وصيامه صحيح .

وهم في هذا موافقون لكثير من فقهاء الشافعية وغيرهم . على اختلاف بينهم في الفروع في كون النهي عنها لوصف ملازم أو مغاير .

وأما الجانب الثالث :

وهو القول باقتضاء الفساد المغاير للبطلان وذلك فيما إذا كان النهي لوصف ملازم ، ويعبرون عن ما كان كذلك بأنه صحيح بأصله فاسد بوصفه ، فدليله أن الشارع قد وضع العبادات والمعاملات أسبابا لأحكام تترتب عليها . فإذا نهي الشارع عن شيء منها لوصف من الأوصاف اللازمة له كان النهي مقتضيا بطلان هذا الوصف فقط ، فإذا لم يكن هذا الوصف مخلا بحقيقة الشيء بقيت حقيقته موجودة ، وحينئذ يجب أن يثبت لكل منهما مقتضاه ، فإذا كان المنهي عنه بيعا مثلا ووجدت حقيقته بوجود ركنه ومحله ثبت أثره وهو الملك به نظرا لوجود حقيقته ، ووجب فسخه نظرا لوجود الوصف المنهي عنه . وبذلك يمكن مراعاة الجانبين واعطاء كل منهما حكمه اللائق به أي الحكم بمشروعية الأصل وفساد الوصف ، وهذا هو معنى دلالة النهي على الصحة المنسوب إلى أبي حنيفة ومحمد بن الحسن ومقرر في المذهب[1] .

الاعتراض على هذا الاستدلال :

وقد اعترض على هذا الاستدلال من قبل الجمهور : بأن الشارع إذا طلب

---

(١) انظر أصول السرخسي ، جـ ١ ، ص ٨٠ وما بعدها ، وأصول البزدوي ، جـ ، ص ، وأصول الفقه ، ص ٣١٣ لزكي الدين شعبان .

العمل ونهى عن أن يكون متصفا بوصف خاص تبين من النهي أن الشارع قد طلب العمل خاليا من ذلك الوصف المنهي عنه فإذا وقع متصفا به لم يكن هو العمل المطلوب للشارع فلا ينبني عليه الأثر الذي يقصده منه .

يؤيد ذلك ورود صور كثيرة نهي عنها وحصل الاتفاق على بطلان حكمها وآثارها . مثل نكاح ما نكح الآباء ، وصلاة الحائض ، وبيع الملاقيح والمضامين ونحو ذلك[1] .

وللحنفية على هذا الاعتراض جواب ومناقشات طويلة ، مكانها المطولات من كتب الأصول .

والذي يتضح من البحث أن ما ذهب اليه الجمهور من أن النهي المطلق عن القرينة يقتضي البطلان في العبادات والمعاملات سواء ما كان منهيا عنه لذاته أو لوصف ملازم له هو الأصح والأحظى بالأدلة الشرعية واللغوية والعقلية المتظافرة . كما رأينا .

وان تلك الأدلة أيضا ترجح في نظرنا ما ذهب اليه الحنابلة في المشهور عنهم وما روي عن مالك وكذا الظاهرية من اقتضاء النهي البطلان فيما نهي عنه لوصف مجاور أيضا .

هذا وقد كان لهذا الخلاف أثر في الفروع الفقهية وبخاصة الخلاف بين الجمهور والحنفية . كما سنرى ذلك من خلال الأمثلة فيما يأتي :

ويجدر التنبيه إلى أنه قد اختلف في بعض الفروع أكان النهي عنها لذاتها أو لوصف ملازم أو مغاير ، مما نتج عنه اختلافهم في أحكامها أيضا .

---

(١) راجع أدلة الجمهور ص من هذا البحث .

أثـر الاختـلاف في دلالـة النهي على البطلان في الفروع الفقهية

رأينا فيما سبق أن أقوال الأصوليين في دلالة النهي على البطلان قد تشعبت إلى خمسة مذاهب .

وإذا تتبعنا الفروع الفقهية نجد دائرة الخلاف تضيق عند التطبيق ذلك أن الفعل المنهي عنه ينقسم بحسب سبب النهي عنه إلى ثلاثة أقسام ـ كما سبق أن بينا ـ وهي :

منهي عنه لذاته ، ومنهي عنه لوصفه الملازم ، ومنهي عنه لغيره ، فأما المنهي عنه لذاته ، فلا تكاد تجد خلافا في بطلانه عند التطبيق ، ذلك لأن الجمهور من الأصوليين ، الحنفية وغيرهم يرون بطلانه تأصيلا وتفريعا .

والمانعين من دلالة النهي على البطلان مطلقا أو في المعاملات يذهبون في غالب الفروع المنهي عنها لذاتها إلى بطلانها أيضا ، ويعللون ذلك بفوات ركن أو شرط من شروط صحتها[1] .

وأما المنهي عنه لوصف ملازم فقد كان لاصطلاح الحنفية الخاص بهم فيه حيث حكموا بفساده لا ببطلانه أثرا في الاختلاف في الفروع الفقهية بينهم وبين الجمهور القائلين ببطلانه ، وأما المنهي عنه لوصف مجاور وهو ما يعبر عنه بالمنهي عنه لغيره أو لأمر خارج . فقد وقع الخلاف في كثير من فروعه الفقهية بين الجمهور القائلين بعدم بطلانه ، والحنابلة والظاهرية الذاهبين إلى الحكم ببطلانه .

وسنضرب لكل من الأقسام الثلاثة أمثلة توضح أثر دلالة النهي على البطلان أو عدمها فيها .

---

(١) المستصفى ، جـ٢ ، ص ٣٠ .

المنهي عنه لذاتــه

أشرنا فيما سبق أن المنهي عنه لذاته محل اتفاق بين الأصوليين والفقهاء من حيث الحكم ببطلانه في الفروع الفقهية .

الا أن الجمهور يبنون ذلك على دلالة النهي حقيقة لغة أو شرعا وبعض الأصوليين يرجعونه إلى فوات ركن من أركانه أو شرط من شروط صحته . ولكونه محل اتفاق فسنكتفي بالاشارة إلى بعض أمثلته وذكر بعض مراجعها دون الدخول في تفصيلات أدلتها ومناقشاتها .

فمن أمثلتــه :

١ ـ الصلاة بغير الطهارة[١] ، ومنها صلاة الحائض والجنب ونحوهما .

وقد ورد الأمر بالطهارة للصلاة في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق . . الآية** ﴾[٢] . كما ورد النهي عن الصلاة بدون طهارة في قوله ﷺ : « **لا يقبل الله صلاة الا بطهور** »[٣] .

واتفق الفقهاء على بطلان الصلاة بغير طهارة للذاكر القادر . وذلك للأمر الوارد بالتطهر للصلاة كما في الآية ، وللأخبار من الرسول ﷺ أنها لا تقبل الا بطهارة . وهذا أحد أساليب النهي في السنة .

وقد علل الحنفية موافقتهم للجمهور في القول ببطلان الصلاة بغير طهور بأن النهي هنا وارد على عين المنهي عنه وهو الاتيان بالصلاة من غير أهلها ، لأن غير المتطهر تنعدم أهليته للصلاة فيكون فعله لها قبيحا شرعا . فيقع باطلا[٤] .

---

(١) أصول السرخسي ، جـ١ ، ص ٨٠ .

(٢) سورة المائدة ، آية (٦) .

(٣) أخرجه مسلم . انظر صحيح مسلم ، جـ٣ ، ص ١٠٢ .

(٤) أصول السرخسي ، جـ١ ، ص ٨٠ .

٢ ـ بيع الملاقيح والمضامين . على تفسيرهما بأنهما بيع ما في ظهور الفحول من الماء .

وقد ورد النهي عن هذا النوع من البيوع في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهي عن بيع المضامين والملاقيح[١] .

فذهب عامة الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى بطلان هذا البيع على التفسير المذكور ، لأن الماء في ظهور الفحول ليس بمال ، فالنهي عن بيعه لخلل في المبيع لعدم ماليته ، أو لما فيه من الجهالة وعدم القدرة على تسليمه وهو ركن العقد عند الجمهور ومحله عند الحنفية ، فالنهي عن العقد لعينه فيقع باطلا لانعدام ركن العقد أو محله[٢] .

٣ ـ بيع الانسان ما ليس عنده ، على تفسيره بأنه : بيع سلعة معينة مملوكة لغيره على أن يشتريها له من صاحبها أو يسلمها صاحبها له . أو بأنه بيع شيء في الذمة على غير صفة السلم .

وقد ورد النهي عنه في حديث حكيم بن حزام قال قلت يارسول الله ، يأتيني الرجل فيسألني عن البيع ليس عندى ما أبيعه منه ثم أبتاعه من السوق ! فقال : لا تبع ما ليس عندك[٣] .

كما ورد النهي عنه في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده[٤] .

فاتفق الفقهاء من المذاهب الأربعة وغيرهم على بطلان هذا البيع لما فيه من العقد على ما لا يملك ، فهو كالعقد على المعدوم والعقد على المعدوم باطل كما سبق في المثال السابق . ثم لما في ذلك من أكل أموال الناس بالباطل[٥] .

---

(١) انظر ص ٢٧ من هذا البحث .

(٢) حاشية ابن عابدين ، جـ ٥ ، ص ٥٠ ـ ٥٣ ، ومغنى المحتاج ، جـ ٢ ، ص ٣٠ ، وحاشية الدسوقي ، جـ ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٧ ، وشرح منتهى الارادات ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ .

(٣) منتقى الأخبار ، جـ ٥ ، ص ١٧٥ .

(٤) نيل المرام ، ص ١٤٤ ، وقال رواه الخمسه وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم .

(٥) حاشية ابن عابدين جـ ٥ ، ص ٥٨ ، ومغنى المحتاج ، جـ ٢ ، ص ١٥ ، وشرح منتهى الارادات ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

٤ ـ بيع الحـــر : ورد النهي عنه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله : « **ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطي بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره** »[١] .

كما ورد ذلك في ظواهر نصوص كثيرة من عمومات الكتاب والسنة الدالة على منع التعرض للناس في حرياتهم ، فضلا عن تملكهم بدون السبب الذي جعله الشرع موجبا لذلك .

وقد أجمع الفقهاء على بطلان بيع الحر ـ لأنه ليس بمال فلا ينعقد عليه عقد البيع والنهي وارد على عين العقد عندئذ إذ نهي عنه لخلل في المبيع وهو ركن العقد عند الجمهور ومحله عند الحنفية . وممن حكى الاجماع على تحريمه وبطلانه ابن قدامة في المغنى والنووي في المجموع وغيرهما[٢] .

٥ ـ بيع الخمر : إذا تعينت محلا للبيع ، وذلك إذا كان المقابل لها في العقد ذهبا أو فضة ونحوهما مما يتعين ثمنا .

ورد النهي عن تناول الخمر في قوله تعالى : ﴿ **انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾[٣] ، وورد النهي عن بيعها في أحاديث كثيرة[٤] .

وقد اتفق عامة الفقهاء على بطلان بيع الخمر في الحالة المذكورة ووافق الحنفية الجمهور فيها ، لأن الخلل عندئذ يكون في المبيع وهو محل العقد عندهم ، وإذا كان الخلل في محل العقد فالنهي عنه يكون لعينه ، وهو عندئذ يقتضي البطلان[٥] .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، جـ ٤ ، ص ٤١٧ .

(٢) انظر المغنى ، جـ ٤ ، ص ٢٨٣ ، والمجموع جـ ٩ ، ص ٢٢٩ ، وشرح فتح الغدير جـ ٦ ، ص ٤٦٤ .

(٣) سورة المائدة ، آية (٩٠) .

(٤) منها حديث عائشة قالت : لما نزلت آيات سورة البقرة من آخرها خرج النبي ﷺ فقال : حرمت التجارة في الخمر . انظر صحيح البخاري مع الفتح ، جـ ٤ ، ص ٤١٧ .

(٥) شرح فتح القدير ، جـ ٢ ، ص ٤٦١ ، ٤٦٢ ، والمغنى ، جـ ٤ ، ص ٢٤٧ .

٦ ـ بيع الخنزير : ورد النهي عنه في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير** ﴾ . . الآية[١] وورد تحريم بيعه في عدة أحاديث منها : حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة : « **ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام** » . . أخرجه البخاري ومسلم[٢] .

وغير ذلك من الأحاديث الدالة على النهي عن بيعه وعلى تحريمه وتحريم ثمنه .

وقد ذهب الجمهور إلى بطلان هذا العقد للنهي عنه . ووافقهم الحنفية فيما إذا تعين الخنزير أن يكون هو المبيع كما هو الحال في الخمر . والتعليل هو التعليل[٣] .

٧ ـ بيع الـدم : ورد النهي عن بيع الدم وتحريم ثمنه في حديث أبي جحيفة أنه اشترى حجاما فأمر فكسرت محاجمه وقال : ان رسول الله ﷺ : « **حرم ثمن الدم وثمن الكلب وكسب البغي ، ولعن الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله ، ولعن المصورين** » . أخرجه البخارى ومسلم وأحمد[٤] . هذا بالإضافة إلى الآيات من سورة البقرة[٥] والمائدة[٦] والنحل[٧] الدالة على تحريم الدم المسفوح .

---

(١) سورة الأنعام ، آية (١٤٥) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، جـ ٤ ، ص ٤١٧ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ، جـ ١١ ، ص ٥ .

(٣) شرح فتح القدير ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ ، وحاشية ابن عابدين ، جـ ٥ ، ص ٥٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ومغنى المحتاج ، جـ ٢ ، ص ١١ ، وشرح منتهى الارادات ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ، وحاشية الدسوقي ، جـ ٣ ، ص ١٥ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ، جـ ٤ ، ص ٢٤٦ ، ومسلم جـ ، ص ، وانظر المنتقى جـ ٥ ، ص ١٦٢ .

(٥) سورة البقرة ، آية (١٧٣) .

(٦) سورة المائدة ، آية (٣) .

(٧) سورة النحل ، آية (١١٥) .

والمراد بالدم المنهي عنه هو الدم المسفوح ، كما جاء مقيدا بذلك في سورة الأنعام .

وقد اتفق الفقهاء على بطلان بيع الدم المسفوح[1] ، ودليلهم النهي عنه وأنه ليس بمال شرعا ، فالعقد عليه باطل لفقدان شرط من شروط صحة البيع .

---

(١) نيل الأوطار ، جـ ٥ ، ص ١٦٣ .

المنهي عنه لوصف ملازم

١ ـ صوم يومي العيدين :

مما ورد النهي عنه لوصف ملازم صوم يومي العيدين . عند أبي حنيفة . واما الشافعي وغيره فيرونه مما نهي عنه لذاته فقد روي البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ : « **نهى عن صوم يوم الفطر ويوم النحر** »[١] .

ولم يختلف الفقهاء في حرمة صيام هذين اليومين ، سواء أصامهما عن نذر أو تطوع أو قضاء أو كفارة[٢] .

ومع ذلك اختلفوا فيمن نذر صومهما : هل ينعقد نذره ، وهل إذا انعقد نذره فصام في هذين اليومين يصح صيامه ، ويسقط عنه القضاء ؟

فذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى بطلان نذر صيام يومي العيدين فلا ينعقد ، بل تجب فيه الكفارة[٣] . لأن يوم العيد ليس محلا للصوم ، لورود النهي عنه ، فهو نذر معصية ، فلا ينعقد ، ولا يصح صيامه ، ولا يجب قضاؤه كسائر المعاصي .

وفي رواية عن الإمام أحمد : أنه يجب عليه القضاء مع الكفاره[٤] . وذهب الحنيفية إلى انعقاد هذا النذر مع حرمة صيامه ، فيجب عليه الفطر والقضاء ، لكن لو صام هذين اليومين صح صيامه مع التحريم .

وعللوا ذلك بأن النهي لم يرد على ذات الصوم ، وانما هو وارد على وصف ملازم له ، وهو كونه في يوم العيد الذي هو يوم ضيافة الله لخلقه ففي صوم ذلك

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ .
(٢) فتح الباري ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ .
(٣) مغنى المحتاج ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ ، والمغنى لابن قدامه ، جـ ٣ ، ص ١٤٨ .
(٤) المغنى لابن قدامه ، جـ ٣ ، ص ١٤٨ .

اليوم اعراض عن ضيافة الله ، فيحرم لذلك الوصف مع بقاء الصوم في ذاته مشروعا ، بحيث إذا وقع صح وأجزأ على نقصان[1] .

٢ ـ صيام أيام التشريق :

أيام التشريق هي الأيام التي تعقب يوم النحر . وقد اختلف في عددها فقيل : يومان . وقيل : ثلاثة .

وسميت بذلك لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها ، أي تنشر للشمس . وقيل : لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس . وقيل : لأن صلاة العيد تقع عند شروق الشمس . وقيل : التشريق التكبير عند كل صلاة[2] .

وقد ورد في النهي عن صيام أيام التشريق عدة أحاديث منها ما رواه الدارقطني من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن صوم خمسة أيام في السنة : يوم الفطر ، ويوم النحر ، وثلاثة أيام التشريق[3] .

وما رواه الإمام أحمد ومسلم من حديث كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ بعثه وأوس بن الحدثان أيام التشريق فناديا : أنه لا يدخل الجنة الا مؤمن ، وأيام منى أيام أكل وشرب[4] .

فاختلف الفقهاء في صيامهن[5] .

فذهب الشافعي في المشهور عنه وأحمد في رواية إلى أنه لا يصح صيامهن ، لا عن فرض ولا عن تطوع . وذهب أو حنيفة إلى صحة صيامهن كيوم العيد وفي رواية أخرى عن الإمام أحمد أنه يصح صومهن عن الفرض دون النفل .

وذهب البعض منهم الإمام مالك والإمام البخاري إلى أنه يصح صومهن للمتمتع إذا لم يكن قد صام الثلاثة الأيام التي في الحج .

---

(١) شرح الكنز للزيلعى ، جـ١ ، ص ٣٤٥ .
(٢) فتح الباري ، جـ٤ ، ص ٢٤٢ .
(٣) منتقى الأخبار مع شرحه نيل الأوطار ، جـ٤ ، ص ٢٩٣ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) المغنى ، جـ٣ ، ص ١٤٨ ، وفتح الباري ، جـ٤ ، ص ٣٤٢ .

واستدل هؤلاء بحديث عائشة وابن عمر أن رسول الله ﷺ لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن الا لمن لم يجد الهدي[1] .

وقد نقل عن بعض الصحابة كالزبير بن العوام وأبي طلحة وابن عمر والأسود بن يزيد القول بالجواز مطلقا ، وقد قيل : لعل هؤلاء الصحابة لم يبلغهم نهي رسول الله ﷺ عن صيامهن ، ولو بلغهم لم يعدوه[2] .

ويظهر أن هؤلاء الصحابة وكذا من قال بجوازه في بعض الحالات كحال من لم يجد هديا ، وحال صيامهن عن الفرض دون النفل انما ذهبوا إلى ذلك لأدلة عندهم تعارض أحاديث النهي . كيف لا وبعضهم قد روي بعض أحاديث النهي كابن عمر .

وأما المانعون من صحة صيامها فدليلهم النهي مع ضعف المعارض عندهم . وأما الحنفية فبنوا مذهبهم على قاعدتهم الأصولية وهي أن النهي عن الشيء لوصفه الملازم يقتضي صحة الأصل وفساد الوصف ، فيجب الامتناع ويحرم الفعل ولو فعل لأجزء وصح[3] .

٣ ـ نكاح المحـــرم :

ورد النهي عنه فيما رواه مسلم وغيره عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « **لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب** »[4] .

فذهب الجمهور من المالكية والشافعية والحنابلة إلى بطلانه هذا النكاح ، للنهي عنه .

وذهب الحنفية وعكرمة وعطاء إلى جوازه وصحته[5] .

واستدلوا على ذلك ـ بالإضافة إلى أن النهي لوصف ملازم لا يقتضي البطلان ـ

---

(١) البخاري مع الفتح ، جـ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) حاشية ابن عابدين ، جـ٢ ، ص ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، وشرح فتح القدير ، جـ٢ ، ص ٣٨٥ .

(٤) المنتقى ، جـ٥ ، ص ١٦ .

(٥) المغنى ، جـ٣ ، ص ٢٩٩ ، ونيل الأوطار ، جـ٥ ، ص ١٧ ، ١٨ ، وشرح فتح القدير ، جـ ، ص .

بحديث ابن عباس فيما يرويه البخاري أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم ، وبقياس عقد النكاح على شراء الآمة ، فلا يحرمه الاحرام .

وقد ورد الجمهور استدلال أبي حنيفة : بأن حديث ابن عباس معارض بما هو أولى منه وهو حديث ميمونة نفسها وهي صاحبة القصة ، وحديث رافع بن خديج وهو السفير بينهما ، فروايتهما تقدم على رواية ابن عباس ، لأنهما أعلم بالقصة ، فضلا عن أن ابن عباس كان يومئذ صغيراً لا يدرك مثل هذه الأمور .

وردوا على القياس بأنه غير مسلم لوجود الفرق بين عقد النكاح وعقد شراء الأمة في عدة أمور : منها أن النكاح يحرم بالردة والعدة ، وكون المنكوحة أختا من الرضاع ، إلى غير ذلك مما يعتبر في النكاح ولا يعتبر في عقد شراء الأمة[1] .

٤ ـ ومن ذلك البيوع التى يدخلها الربا ، أو تدخلها شروط لا يقتضيها العقد ، أو تنافي مقتضاه .

مثل بيع درهم بدرهمين ، وصاع حنطة بصاعين ، وبيع سلعة على أن يبيعه شيئا آخر ، أو يؤجره أو يزوجه ، أو يسلفه ونحو ذلك .

فقد ورد النهي عن هذه البيوع[2] .

فاختلف الفقهاء فيها وفي أمثالها ، هل تقع باطلة ، أو تكون فاسدة على اصطلاح الحنفية .

فذهب الجمهور من المالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم إلى بطلانها ، على تفصيل عند بعضهم في بعضها ـ كالشروط في البيع فالحنابلة يصححون العقد المشتمل على شرط لا ينافي مقتضي العقد وان لم يكن من مقتضاه ، ويبطلون ما اشتمل على شرطين فأكثر ، والباقون يمنعون بيعا وشرطا . للنهي عنه فلا فرق بين الشرط والشرطين .

---

(١) المراجع السابقة و .

(٢) انظر البخاري مع الفتح ، جـ ٤ ، ص ٣٧٦ ، وما بعدها . ومسلم مع شرح النووي جـ ، ص . ونيل الأوطار ، جـ ٥ ، ص ٢٠١ ، ٢١٣ ، وما بعدها .

والحنفية يرون فساد البيوع المنهي عنها لأجل الربا ، والبيوع المقترنة بشروط مما لا يقتضيه العقد وفيه مصلحة لأحد المتعاقدين ، أو كانت مما ينافي مقتضي العقد . ويرون أن العقد إذا وقع على هذا الوصف يكون فاسدا للنهي عنه ، يطلب فسخه شرعا ، ولكنه يثبت الملك إذا تقوى بالقبض[1] .

(١) المراجع السابقة ، وأصول السرخسي ، جـ ١ ، ص ٨٩ ، وفتح القدير ، جـ ٥ ، ص ٢١٤ ، والمغنى ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩ ، ومغنى المحتاج ، جـ ٣ ، ص ، وحاشية الدسوقي ، جـ ٣ ، ص ٥٤ ، وما بعدها .

ما نهي عنه لغيره

من أمثلتـــه :

١ ـ الصلاة في الأرض المغصوبة :

الغصب : أخذ مال الغير قهرا وظلما . وقد ورد النهي عن أخذ أموال الناس بالباطل في عدد من الآيات والأحاديث الصحيحة . كقوله تعالى : **﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون ﴾**[١] .

وقوله ﷺ : « **من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين** »[٢] .

وقد اختلف الفقهاء في حكم الصلاة في الموضع المغصوب على مذهبين .

أحدهما : أنها تحرم ولا تصح . وهو مذهب الإمام أحمد في رواية عنه رجحها الموفق ابن قدامة وغيره ، وأحد قولي الإمام الشافعي .

والثاني : أنها تصح . وهو مذهب أبي حنيفة ومالك والقول الثاني للشافعي والرواية الثانية عن الإمام أحمد[٣] .

واستدل القائلون ببطلانها : بأن الصلاة عبادة أتى بها المصلى في موضع الغصب على الوجه المنهي عنه فلم تصح كصلاة الحائض وصومها . وذلك لأن النهي يقتضي تحريم الفعل ويوجب اجتنابه والتأثيم بفعله ، والحكم بصحة الصلاة يعني أنها وقعت منه قربة وطاعة ، فكيف يكون مطيعا بما هو عاص به ممتثلا بما هو محرم عليه ، متقربا بما يبعد به ، فإن حركاته من القيام والركوع والسجود أفعال اختيارية هو عاص بها ، منهى عنها .

---

(١) سورة ، آية ( ) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها . كما ورد نحوه من حديث سعيد بن يزيد . انظر صحيح مسلم بشرح النووي ، جـ١٢ ، ص ٤٨ ، ٥٠ .

(٣) المغنى ، جـ٢ ، ص ٤٧٦ .

واستدل القائلون بصحتها : بأن الصلاة من حيث هي مأمور بها ، وأن النهي لا يعود إلى عين الصلاة ، بل إلى أمر من خارج هو الغصب ، فلا يمنع ذلك من صحتها . وقاسوا ذلك على من صلى وهو يرى غريقا يمكنه انقاذه فلم ينقذه ، أو حريقا يقدر على اطفائه فلم يطفئه ، أو مطل غريمه الذى يمكنه ايفاؤه . وقد أجاب القائلون ببطلان الصلاة على هذا : بمنع القياس ، لوجود فرق بين الصلاة في الموضع المغصوب ، وما ذكر من حالات عدم انقاذ الغريق أو اطفاء الحريق أو ايفاء الغريم ، إذ أن أفعاله للصلاة من ركوع وسجود ونحوهما في موضع الغصب منهي عنها فهو عاص بها لما فيها من استعمال حق الغير بغير حق . بخلاف من رأي الغريق أو الحريق أو مطل غريمه فإن فعله للصلاة حينئذ ليس منهيا عنه بل هو مأمور به ، كما هو مأمور بانقاذ الغريق ونحوه ، وكونه يدع بعض المأمورات لا يبطل ما يأتي به من المأمورات الأخرى ، إذ لا يكون عاصيا بفعل ما أتى به ، بخلاف الصلاة في الموضع المغصوب ، فإنها أفعال هو منهي عنها بعينها من حيث أنها واقعة في موضع الغصب[1] .

ومثل الصلاة في الموضوع المغصوب في الخلاف .

٢ ـ الصلاة في ثوب مغصوب .
٣ ـ الوضوء بماء مغصوب .
٤ ـ المسح على الخف المغصوب .
٥ ـ بيع حاضر لباد .
٦ ـ البيع على البيع .
٧ ـ بيع العنب والرطب لمن يتخذه خمرا .
٨ ـ البيع عند النداء للجمعة .
٩ ـ الخطبة على الخطبة في النكاح .

وقد ذهب بعض القائلين باقتضاء البطلان مطلقا كالإمام أحمد إلى القول بصحة النكاح لو وقع بعد الخطبة على الخطبة مع حرمة ذلك ، وعلله بأن النهي

(١) المغنى ، جـ٢ ، ص ٤٧٧ .

ليس متجها إلى عقد النكاح لذاته ولا لوصف ملازم أو مغاير ، ولكنه متجه إلى أمر آخر مستقل عنه ، فلم يؤثر فيه كما لو صرح الشخص بخطبة المعتدة في عدتها ثم عقد النكاح بعد تمام العدة[1] .

هذه ونكتفي بهذه الأمثلة .

وسوف نحاول جمع المسائل الفرعية التي بنيت أحكامها على دلالات النهي مفصلة في أبحاث مستقلة مقسمة حسب الأبواب الفقهية إن شاء الله .

---

(١) المغنى ، جـ٧ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

خاتمة البحث

من خلال هذا العرض الموجز لدلالات النهي عند الأصوليين وأثرها في الفروع الفقهية يمكن أن نستخلص أهم النتائج فيما يأتي :

١ ـ أن حقيقة النهي هي طلب الكف عن الفعل ، أيا كان مصدر النهي ، وبأي حال كان ، لأنه هو المتبادر إلى ذهن السامع ما لم تقم قرينة تدل على ارادة غير الكف عن الفعل وتركه .

٢ ـ وان للنهي صيغة لفظية تدل عليه حقيقة ، وقد يقوم مقامها ما يدل على معناها .

٣ ـ أن للقرآن الكريم والسنة المطهرة طرقا وأساليب متعددة في طلب الكف عن الفعل وتحريمه .

٤ ـ أن المعنى الحقيقي للنهي منع الفعل المنهي عنه على سبيل التحريم كما هو الصحيح الذي عليه الجمهور ، وأن وروده للكراهة مجاز كاستعماله في سائر المعاني غير التحريم ، فلا يحمل عليها الا بقرينة .

٥ ـ وأن الصحيح من أقوال الأصوليين دلالة النهي المطلق على الدوام والفور وذلك هو مذهب عامتهم ولم يخالف فيه الا شذوذ .

٦ ـ ان الأصوليين قد يختلفون في قاعدة أصولية ، ويكون مبنى اختلافهم فيها النظر إلى حقيقتها اللغوية ، أو مدركها العقلي ، مع أن القرائن في الاستعمال الشرعي قد ترجح أحد المذاهب مما يحمل الجميع على القول بمقتضاه ، مثل اختلافهم في دلالة النهي على الدوام والفور أو عدمها .

٧ ـ أن تقسيم المنهي عنه إلى منهي عنه لذاته ، ومنهي عنه لوصف ملازم ، ومنهي عنه لغيره . انما هو عند بعض الأصوليين وأنه أن سلم به اصطلاحا لكنه مختلف فيه عند التطبيق ، بمعنى أن النهي عن فعل معين قد يكون لعينه عند البعض ، ولوصفه عند الآخرين ، مما يجعلهم يختلفون في حكمه من حيث البطلان وعدمه .

٨ ـ أن بطلان المنهي عنه لذاته محل اتفاق تفريعا وان اختلف فيه تأصيلا .

٩ ـ وان المنهي عنه لوصف ملازم يكون باطلا عند الجمهور عدا الحنفية والمنهي عنه لغيره لا يكون باطلا عند الجمهور عدا الحنابلة والظاهرية وبعض من غيرهم .

١٠ ـ ان الاختلاف في القواعد الأصولية ليس اختلافا جدليا فلسفيا محضا ـ كما يظن البعض ـ وان لم تظهر له آثار في الفروع الفقهية ، بل هو مبني على أسس تلك القواعد من اللغة والمعنى ونحوهما .

١١ ـ ان مخالفة بعض المذاهب الفقهية لبعض أصولها عند التطبيق لا يعني مناقضتهم لتلك الأصول ، وعدم التزامها بل يكون لأدلة خاصة تقتضي استثناء بعض الفروع من القاعدة الأصولية ، أو تخرجها عنها أصلا ، وان بدا للناظر من أول وهلة اندراجها تحت تلك القاعدة .

١٢ ـ أن تطبيق المسائل الفرعية على القواعد الأصولية أمر مهم ومفيد ، حيث يبين مدى أثر تلك القواعد في الفروع ، ويوضح جانبا من أسباب اختلاف الفقهاء .

هذا آخره وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

أهم المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً : كتب السنة :

١ ـ سنن أبي داود ، نشر دار احياء السنة النبوية .
٢ ـ سنن الترمذي مع شرحها تحفة الأحوذي . نشر دار الفكر العربي .
٣ ـ صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري . ط المكتبة السلفية بمصر .
٤ ـ صحيح مسلم مع شرحه للنووي . نشر احياء التراث العربي بيروت .
٥ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني . ط المكتبة السلفية بمصر .
٦ ـ منتقي الأخبار . للمجد ابن تيمية . ط مصطفى البابي الحلبي .
٧ ـ الموطأ بشرح الزرقاني . ط مطبعة الاستقامة .
٨ ـ نيل الأوطار . للشوكاني . ط مصطفى البابي الحلبي .

ثالثاً : كتب أصول الفقه :

١ ـ ارشاد الفحول . للشوكاني . ط مصطفي البابي الحلبي سنة ١٣٥٦ هـ .
٢ ـ التمهيد في أصول الفقه . لأبي الخطاب الكلوذاني . ط مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى .
٣ ـ أصول السرخسي . نشر دار المعرفة .
٤ ـ التحرير وشرحه التيسير . لابن الهمام وابن أمير بادشاه . ط مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٠ هـ .
٥ ـ الأحكام في أصول الأحكام . لأبي الحسن الأمدي . ط مؤسسة الحلبي .
٦ ـ الأحكام في أصول الأحكام . لابن حزم . ط مطبعة العاصمة بالقاهرة .
٧ ـ روضة الناظر . لابن قدامة . ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
٨ ـ شرح تنقيح الفصول . للقرافي . ط مكتبة دار الفكر العربي ومكتبة الكليات الأزهرية .
٩ ـ شرح جمع الجوامع للمحلي وحاشية البناني ، ط أولى ، سنة ١٣٣١ هـ .
١٠ ـ شرح الكوكب المنير . لابن النجار الفتوحي . ط مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .
١١ ـ العدة . لأبي يعلي . ط مؤسسة الرسالة .
١٢ ـ المحصول . للرازي . ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٩ هـ .

١٣ ـ المستصفى . للغزالي . ط مؤسسة الحلبي .
١٤ ـ مختصر الروضة . للطوفي . ط مطبعة النور بالرياض .
١٥ ـ مسلم الثبوت . لابن عبد الشكور . ط مؤسسة البابي الحلبي .
١٦ ـ المسودة . لآل تيمية . ط دار الكتاب العربي ببيروت .
١٧ ـ المنار . للنسفي ، ط مطبعة مصطفي الحلبي ، سنة ١٣٥٥ هـ .
١٨ ـ المنهاج . للبيضاوي وشرحه نهاية السول للأسنوي . ط مطبعة محمد على صبيح .
١٩ ـ المعتمد . لأبي الحسين البصري . ط المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .
٢٠ ـ نزهة الخاطر شرح روضة الناظر . لابن بدران . ط دار الكتب العلمية .
٢١ ـ نزهة المشتاق شرح اللمع . ليحي أمان . نشر المكتبة العلمية بمكة المكرمة .

رابعاً : كتب الفقــه :

١ ـ حاشية ابن عابدين . الطبعة الثانية سنة ١٣٨٦ هـ .
٢ ـ حاشية الدسوقي . نشر دار الفكر .
٣ ـ شرح منتهي الارادات . للبهوتي . ط دار الفكر .
٤ ـ شرح فتح القدير لابن الهمام ط .
٥ ـ شرح الكنز . للزيلعي ط .
٦ ـ قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي الغرناطي . ط دار القلم سنة ١٩٧٩ م .
٧ ـ المجموع شرح المهذب للنووي . نشر مكتبة الارشاد بجدة .
٨ ـ المغنى . لابن قدامه . طبعات مختلفة .
٩ ـ مغنى المحتاج . للخطيب الشربيني . ط شركة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٣٧٧ هـ .

خامساً : كتب اللغـة :

١ ـ مختار الصحاح ، ط أولى ، سنة ١٩٦٧ م ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .
٢ ـ المصباح المنير . للفيومي . الطبعة الخامسة ، سنة ١٩٢٢ م .
٣ ـ القاموس المحيط ، للفيروز ابادى ، ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت .

٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-٢

خصوم الملك الشعوبي عند القدماء

بقلم
د/ محمد بن مريسي الحارثي
عميد كلية اللغة العربية
بجامعة أم القرى
مكة المكرمة

التعريف بالباحث

- حصل على درجة الدكتوراه في النقد الأدبي عام ١٤٠٠ هـ من جامعة الملك عبد العزيز فرع مكة المكرمة قسم الدراسات العليا العربية .
- عمل رئيساً لقسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى لثلاث فترات .
- تعين عميداً لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى
- شارك في ندوات ومؤتمرات علمية داخل المملكة وخارجها .
- له بحوث تحت الطبع .

مفهوم الملكـــة الشعريـــة
عند القدمـــاء

ارتبط في أذهان الشعوب البدائية أن أصحاب ممارسة بعض الأعمال والأقوال الخارجة على حدود المألوف من قدرات الناس الجسمية والعقلية ، انما يدفعون الى ذلك عن طريق قوة كونية روحية خفية ، فسّرت عندهم بالالهام العلوى تارة ، وبتدخل بعض القوى الكونية السفلية تارة أخرى . ولهذا كان الناس يطلبون من أنبياء الله سبحانه وتعالى بعض الأمور الخارقة لنواميس الطبيعة . فكانت معجزة موسى عليه السلام العصا ، عندما أمره الله بالقائها فاذا هى حية تسعى ، وبادخاله يده في جيبه لتخرج بيضاء من غير سوء . وكانت معجزة عيسى عليه السلام ابراء الأكمه ، والأبرص ، واحياء الموتى باذن الله ، ثم كان القرآن وما زال معجزة خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ الذي تحدى فصحاء العرب أن يأتوا بمثله وهو من جنس كلامهم .

ومنذ القدم حار الناس في مصدر الشعر ، وكان مصدر حيرتهم ما ادعاه الشعراء من تزيّد في وصف حالاتهم النفسية ، وما يمرون به من معاناة ، ومايعتورهم من حالات الاستتار الذهني ، والغيبوبة ، والجذب العاطفي ، نتيجة عوامل صوروها خارج الذات ، حتى أحاطوا أنفسهم بهالة من الدعاية التى ضللت بعض جماهيرهم عندما أوهموهم بحقيقة هذه القوى التي تتدخل في مساعدتهم عند ممارستهم تجاربهم الشعرية .

وقد كان أفلاطون من أوائل النقاد الذين رفعوا مكانة الشاعر ، فقد جعله في منزلة تقترب من منازل الأنبياء والملهمين من العرافين ان لم تتساو مع تلك المنازل ، فقد قرر في المحاورة التي أقامها بين «سقراط» و«ايون» أن براعة الكلام عن شعر هوميروس عند ايون لا تأتي الا من قوة الهية حسب زعمه ، تحرّك هذا المنشد في صورة نشوة لا شعورية ، يفقد معها عقله فينتقل اليه الالهام عن طريق الشاعر الملهم أصالة[1] وأفلاطون انما كان يحوم حول زعم اليونانين في أساطيرهم أن مصدر الشعر هو الاله «اپوللو» . كما استمد نظرية الالهام هذه من فلسفته

المثالية التى كانت ترى كل ما في العالم المحسوس ظلا لعالم المثل الغيبى ، وعلى هذا يصبح تدخل الذات الشاعرة في عملية الالهام تدخلا آثما ، حيث ينفصل الشاعر عن ذاته ومجتمعه ويتجرد من عواطفه وعقله .

وقد أكبر العرب الجاهليون شأن الشاعر ، واقترنت أولية الشعر عندهم بالكهانة والسحر ، وتوهموا أن الشعراء يملكون قوى خارقة تؤثر فيهم ، وأن لكل شاعر شيطانا ينفث في روعه الشعر . والكهانة تتمثل في استخدام الجن للكشف عن بعض الأمور الغيبية ، ولهذا استقر في أذهان الجاهليين أن للكاهن أتباعاً من الجن يلقون اليه الأخبار التى تخفى دقائقها على عامة الناس وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن استراق السمع قبل نزول القرآن الكريم على رسوله ﷺ فقال تعالى : «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا»[٢] .

وكان من أشهر كهان العرب وأشجعهم سطيح الغساني ، وسلمة بن أبي حيّة المعروف بعزّى سلمه ، وقد ذكر الجاحظ وغيره بعض أسماء الكهان وألقابهم[٣] ، وقد كان أهل الجاهلية يتحاكمون اليهم ، من ذلك ما روي عن حكم الخزاعى الكاهن بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس في أيهما أشرف بيتا ونفسا قال : ((والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق أمية الى المآثر ، أولا منه وآخر .))[٤] وهذه اللغة المسجوعة تحرك بايقاعها النفوس ، وان كانت دون الشعر اثارة واستجابة وقد حرم رسول الله ﷺ الاستماع الى الكهان وتصديقهم فيما يقولون لما في ذلك من تأثير على الاستجابات النفسية ومن كذب متعمد يضللون به الناس . فعن عائشة رضي الله عنها ((قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الكهان ؟ فقال : ليسوا بشيء . قالوا يا رسول الله : انهم يحدّثونا أحيانا بالشيء فيكون حقا . فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة .))[٥] ووجود الجن حقيقة ثابتة كما جاء في القرآن الكريم ، وفي سنة رسول الله ﷺ ، وكما تواترت به الأخبار ، حتى عرف ذلك العامة والخاصة . كما أن دخول الجن في بدن المصروع أمر ثابت ، وان كان قد أنكره طائفة من المعتزلة[٦] . قال تعالى : «الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»[٧] .

أما السحرة فكانوا يتقربون الى الشياطين ويستعينون بهم في تحصيل مالا يقدر عليه الانسان قال تعالى : «ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر . فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله»[٨] .

وكان السحر من صناعة العرب في الجاهلية حتى جاء الاسلام فحرّمه بنص الكتاب والسنة وباجماع علماء المسلمين .

واعتقاد الجاهليين بقوة نفوذ الجن جعلهم يتعاملون مع هذه القوة بحذر شديد ، ويخضعون لما ورثوه عن أسلافهم من تصورات عن حياة الجن ، وعلاقتهم بالانس . حتى تضخّمت تلك التصورات في أذهان عرب الجاهلية . وقد ذكر الجاحظ طرفا من تصورات العرب لحياة الجن ، من ذلك أن الأعراب جعلوا للجن مطايا من الحشرات والزواحف والوحوش ، وكانوا يخشون التعرض لهذه المطايا في أوقات معينة خوفا من عقوبة الجن لهم في أنفسهم ، أو في ماشيتهم[٩] . وزعموا أن للجن مواطن منها جبل سواج ، ووادى عبقر ، وصنفوهم مراتب وطبقات ، وقالوا بتزويج بعض الأعراب من الجن . كما زعموا أن الجن تخرج عليهم بأشكال وصور متعددة[١٠] .

وكان لهذا الجو الملىء بهذه التصورات أثره في تصور العقل العربي أو انذاك لمصادر الشعر ، حيث أخذ الغموض يكتنف شخصية الشاعر ، وزاد من هذا الغموض ادعاء الشعراء أنفسهم ، وتزيدهم في تصوير علاقاتهم بشياطين الشعر ، خاصة وان الشعر خير صناعات العرب . فكان تصور القوى الخارقة التى تمد الشعراء وتساعدهم على قول الشعر هى أقرب شىء الى هذه الذهنية التى سيطرت عليها قوى خارجية تحسب لها ألف حساب ، حتى في طرق معايشها ، فربطوا بين الشعر والجن ونسجوا كثيرا من الأخبار والحوادث التى تحكى علاقة الشعر بالجن ، حتى أصبح ذلك أمراً مألوفاً في البيئة العربية ، وقد أفرد أبو زيد

القرشي في جمهرة أشعار العرب فصلا في قول الجن الشعر على ألسنة العرب[١١] .
وتأكد هذا الزعم على السنة الفحول من الشعراء قال الأعشى[١٢] :

وما كنت ذا خوف ولكن حسبتني ... اذا مسحل يسدى لي القول أفرق
شريكان فيما بيننا من هوادة ... صفيّان انسيّ وجنّ موفّق
يقول فلا أعيا بقول يقوله ... كفاني لاعيّ ولا هو أخرق

ومسحل هذا هو شيطان الأعشى كما ادعى ذلك وقد ذكره في هجائه عمرو بن قطن من بنى سعد بن قيس بن ثعلبة في قوله[١٣] :

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له ... جهنّام جدعا للهجين المذمّم .

فأنت ترى في الأبيات الثلاثة السابقة كيف جعل الأعشى شيطانه مخالطا له وممتزجا معه في مراحل التجربة الشعرية لا ينفك عنه . وقد ادعى سويد بن أبى كاهل انه هو شيطان شعره ، وذلك في عينيته التى كانت تسمى في الجاهلية «اليتيمة» قال[١٤] :

وأتانى صاحب ذو غيّث ... زفيان عند انفاد القرع
قال لبيك وما استصرخته ... حافرا للناس قوّال القذع
ذو عباب زبد آذيّه ... خمط التّيار يرمى بالقلع
زغربىّ مستعزّ بحره ... ليس للماهر فيه مطّلع
هل سويد غير ليث خادر ... ثئدت أرض عليه فانتجع

فمع فخر سويد باستجابة شيطانه الا أنه قد جعل الدور الأساسي في شعره لشاعريته هو . وقد اتضحت سيطرة القوى الخارقة على أذهان العرب في موقفهم من القرآن الكريم ، عندما سمعوا نظمه المعجز ، ولم يألفوه من قبل ، فربطوا ذلك بما كان يخرج على ماألفوه ، وهو سجع الكهان ، ووسوسة المجانين ، ونفثات السحرة وأشعار الشعراء ، فنظروا الى الشعر على أنه من النشاطات القولية التى تحركها قوى خارجة عن ذات الشاعر ، فقد روى ابن اسحاق ((أن الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش . انه قد حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب ستقدم

عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم . فأجمعوا فيه رأيا واحدا . ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به ، قال بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن قال لا والله ما هو بكاهن . لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا فنقول مجنون قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه . فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا فنقول شاعر . قال ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهجزه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا فنقول ساحر قال : ما هو بساحر . لقد رأينا السحار وسحرهم . فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله أن لقوله لحلاوة ، وأن أصله لعذق وأن فرعه لجناة))[١٥] .

وقد رد عليهم القرآن الكريم دعاواهم في آيات عديدة قال تعالى :- «انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين»[١٦]

ان هذه المرحلة الأولى من التفكير في مصادر الشعر عند العرب لم تقف عند حدود العصر الجاهلي ، بل امتدت الى عصور الاسلام حيث استمر زعم الشعراء في الاستعانة بالشياطين ، وأصبح الادعاء ظاهرة ملموسة عند بعض شعراء العصور الاسلامية . فقد ((أنشد رجل الفرزدق شعرا له . وقال : كيف تراه ؟ قال : أرى أن ترده على شيطانك لا يمتن به عليك))[١٧] . وقال خلف الأحمر لرجل أنشده شعرا رديئا ((ما ترك الشيطان أحدا بهذا البلد الا وقد عرض عليه هذا الشعر فما وجد أحدا يقبله غيرك))[١٨] .

وقال الفرزدق[١٩] :

فلو كنت عندي يوم قوّ عذرتني بيوم دهتني جنّه وأخابله .

وقال بشار[٢٠] :

دعاني شنقناق الى خلف بكرة فقلت اتركنّي فالتفرد أحمد .

وقال أعشى سليم[٢١]:

وما كان جنىّ الفرزدق قدوة وما كان فيهم مثل فحل المخبّل .
وما في الخوافى مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل

والأمثلة كثيرة على الزعم القائل بأثر الشياطين في الشعر عند بعض شعراء الاسلام وبعض المهتمين بالنقد ، مع ايمانهم بدور الملكات الذاتية والمكتسبة ألتى تعدُّ الأدوات الأولية بل الأساسية في صقل التجارب الشعرية ولعل النقاد والشعراء الاسلاميين ساروا مع التقاليد الشعرية الموروثة عن الجاهليين دون أن يصحب ذلك اعتقاد صحيح في وجود شياطين الشعر كما صنع ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع .

وقد ارجع ابن تيمية رحمه الله الشعر الى مصادر ثلاثة فرأى أن الشعر يكون من الشيطان تارة ويكون من النفس أخرى ، كما أنه يكون من روح القدس اذا كان حقا وقد استشهد على هذا الأخير بقول رسول الله ﷺ لما دعا لحسان «اللهم أيده بروح القدس» . وهذه المصادر الثلاثة التى ذكرها ابن تيمية قد تكون قريبة من التقسيم الثلاثى للأنفس كما قيل الأنفس ثلاث : مطمئنة ، وأمارة ولوامة . فشعر الخير والحق والعدل أقرب الى النفوس المطمئنة ، نفوس الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لأن هذه النفوس تحب الخير دائما وتكره ما سواه فقد تخلقت بكل فضيلة ، حتى صارت الفضائل عادة وملكة لها . وشعر الشر أقرب الى النفس الأمارة بالسؤ لسيطرة الشيطان عليها بغوايته أما النفس اللوامة فربما أنتجت شعرا فيه الخير أو الشر أو هما معا . فهى تتلون بغلبة أحدهما على النفس ، وقد تخلط عملا صالحا بآخر سيء . فالشعر الذي يكون من النفس ربما صدر عن تصور فيه الحق والخير وربما أعان الشيطان عليه فمال به عن جادة الحق . لأن الشياطين يتلذذون بعمل الشر ويزينونه في النفوس دون أن ينتفعوا بذلك العمل[٢٢] . ولقد امتد هذا الغموض الذي ما زال يكتنف شخصية الشاعر ومصدر شعره حتى العصر الحديث ، فقد أراد الرومانسيون أن يعودوا بمنابع الشعر الى قضية الالهام ، عند ما شككوا في سلامة قوى الفنان العقلية ، ولم يعطوا قضية المحاكاة

حقها من الاهتمام ، ولعل قصيدة «ليلة أكتوبر» للشاعر الفرنسي الفريدى موسيه ، أصدق دليل على هذه الرجعة الى قضية الالهام ، فقد جاءت القصيدة على شكل حوار بين الشاعر وربة الشعر كما يزعمون . وكان لهذا التحول أثره بطبيعة الحال على رومانسيى العرب المعاصرين[٢٣]

واذا ما تجاوزنا هذه المرحلة الأولية لمفهوم الملكة الشعرية عند القدماء ، وأثر ذلك المفهوم في من جاء بعدهم ، فاننا سنقف أمام مرحلة متطورة حول ذلك المفهوم . فقد كان أرسطو من أوائل النقاد الذين أطرحوا قضية الالهام ، وجعلوا الانفعالات الوجدانية مصدر الشعر ، وذلك في حديثه عن قضية المحاكاة . فقد جعل المحاكاة أمرا فطريا في الانسان منذ الصغر ، ثم جعل الالتذاذ بالأشياء المحكية غريزة عامة في الناس[٢٤] . وتأثر هوراس أرسطو في أن الانفعالات النفسية هى منبع الشعر ، وان الملكة الابداعية تتنازعها الذاتية والاكتسابية ، وقد وجه نقده اللاذع الى أولئك الشعراء الذين يدعون الالهام ، ويزعمون أن الشعر لا يأتيهم الا وهم في حالات جنونية مختلّة[٢٥] .

وفي التراث النقدى العربى بعض المصطلحات النقدية التى حاولت أن تؤسس مفهوما للملكة الشعرية ، مثل الموهبة ، والقريحة ، والنبوغ ، والعبقرية ، وغير ذلك من المصطلحات التى تناولت مبدأ الاستعدادات الفطرية لدى الشاعر ، وقد كونت هذه المصطلحات مع غيرها أساسا أوليا لمصطلح الطبع ، الذي قام على ركيزتين أساسيتين هما : تحقق هذه الغرائز الذاتية في الانسان أولا ، وتعضيد ذلك بالمكتسبات الثقافية والعملية ثانيا . والركيزة الأولى من الطبع وهي التي تمثل مجموعة الاستعدادات الفطرية الغريزية والرئيسية للملكة الشعرية قادرة على أن تؤدي نشاطها الابداعي بمفردها دونما حاجة الى الملكة الاكتسابية ، في حين أن هذه الركيزة الثانية لا يمكن بحال من الأحوال أن تؤدي نشاطها الابداعي دون تحقق الطبع الذاتي (قيل للمفضل الضبي : لم لا تقول الشعر ، وأنت أعلم الناس به ؟ فقال : علمي به هو الذي يمنعني من قوله وأنشد :

وقد يقرض الشعر البكىء لسانه وتعيى القوافي المرء وهو لبيب)[٢٦]

فالمفضل يمتلك مقومات الملكة الاكتسابية ، لكنه يفتقد الطبع الغريزي الذي يعد أساس الملكة . وقد ألمح ابن قتيبة الى أن اشعار العلماء تخلو في الغالب من أسماح الطبع وسهولته ، وكان خلف الأحمر في نظره ، أجود العلماء طبعا[٢٧] فلم تكن ثقافة خلف الأحمر وعلمه ، هي التي أهلته ليكون شاعرا مطبوعا ، وانما الذي أهله قوة طبعه . وقد كانت قوة الطبع تغني عن معرفة الأوزان وأسمائها وعللها عند ابن طباطبا[٢٨] . وقدامة بن جعفر[٢٩] وابن رشيق[٣٠] ، وابن سنان الخفاجي[٣١] .

ومن المعروف أن التجارب الشعرية التي لا تتعدى حدود الطبع الذاتي الفطري ستخرج الى الناس وهي خلو من المعارف الانسانية ، حيث يفقد الرافد المعرفي والحالة هذه مكانه في تجارب الشعراء ، وتبقى رؤية الشاعر المعرفية رؤية ذاتية منعزلة عن التفاعل مع الرؤى الانسانية الأخرى .

والحديث عن الطبع هنا لا يعني ذلك الطبع الفطري الذي يغلب على أكثر الناس ، وانما يعني الطبع الفني المتدفق ، المركوز في النفس الانسانية ، الذي يميز صاحب الملكة الأصيلة عن غيره ، فقد يملك الانسان أدنى حظ من الطبع يؤهله لقول شيء من الشعر ، ولكنه لن يقترب من مرتبة الشعراء الذين غلب عليهم الشعر وعرفوا به .

والطبع الغريزي هبة من الله سبحانه وتعالى يركبه في الانسان . ولا يستطيع الانسان على اكتسابه أو جلبه[٣٢] .

واذا كان الشعر العربي يعد صناعة العرب التي اشتهروا بها ، فانما يعود ذلك الى كثرة شعرائهم الذين نطقوا بالشعر ، سواء غلب عليهم الشعر ، أو نطقوا به على قلة ، أو رووه وتناقلوه في مجالسهم ، ووقت فراغهم ، حتى خيّل الى بعض النقاد والمهتمين بدراسة الشعر العربي أن للوراثة دورا في تحقق الملكة الشعرية فقد عرف في تاريخ الشعر العربي ما سمى ببيوتات الشعر حيث شكلت بعض الأسر العربية سلسلة من النسب الشعري ، لأصالة الشعر وعراقته فيهم ((ويقال أنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد

زهير ، وفي الاسلام ما اتصل في ولد جرير))[٣٣] . وقد أفرد ابن رشيق بابا تحدث فيه عن بيوتات الشعر والمعرقين فيه[٣٤] ويبدو أن القطع بأثر الوراثة في الشعر ما زال من الأمور المبكرة ، لاتصال ذلك بالاتجاهات النفسية التي ما زالت دراستها تحتل حيزا كبيرا من جهود العلماء ، ولم يصلوا فيها الى آراء ثابتة ، ولو افترضنا أثر الوراثة في الشعر فان ذلك ليس مطردا على كل حال ، واذا تحقق النسب الشعري في أسرة ما ، فهذا لا يعني أن لذلك التوارث دورا في تدرج الملكه وتأصلها في النفوس دائما .

وقد تناول النقد العربي القديم هذه الملكة الغريزية بشيء من التوسع ، مشيرا الى الأدوات التي تعضدها ، والأسباب التي تعوقها عن أداء وظيفتها فقد نبّه بشر بن المعتمر الى أهمية الطبع الغريزي في قوله : ((فان ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصّي عليك بعد اجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر . . . وعاوده عند نشاطك فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ان كانت هناك طبيعة))[٣٥] . فالخواطر كالينابيع ، ينبغي متابعة تدفقها ، فاذا سمحت بالعطاء والفيض والتدفق أقتنصها الشاعر ، حتى اذ شحت تلك الينابيع أو اعتور الطبع شيء من الملال والضجر ، فان التماس التروي والمعاودة أوقات المواتاة ، يمنح الطبع استمرار قوته ، وتدفق عطائه . كما أن اهمال الطبع وعدم استنهاضه يضعفه ، ويحد من قوته ، وكلما قوى طبع الشاعر ارتفع رصيده من الانتاج جودة وكثرة . وقد اهتم الجاحظ بالطبع ، وعده رأس الخطابة وأشار الى بعض الشعراء المطبوعين ، ممتدحا صحة الطبع ، وتفرد العرب به دون سائر الأمم[٣٦] وكان الطبع عند ابن قتيبة يعني القدرة على ممارسة العملية الابداعية دون عناء ، ولهذا وصف الشاعر المطبوع بأنه ((من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ، ووشي الغريزة ، واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر))[٣٧] .

وقد أكد النقاد بعده على أهمية تحقق الطبع . فقد حبذ ابن المعتز السهل الممتنع من الطبع ، وأشار الى تحقق هذا النوع من الطبع عند بعض الشعراء ، من أمثال أبي العتاهية ، والعباس بن الأحنف ، وغيرهما[٣٨] . وجعل ابن طباطبا

صحة الطبع ، وسلامته أداة الشعر الأساسية[٣٩] . ورأى الآمدى أن مناط الجودة في الشعر يتوقف على مدى تحقق بعض الأدوات التي أرجعها الى تقبل الطبع لها وامتزاجه بها[٤٠] وقد أكد الجرجاني ، وأبو هلال العسكري . وابن رشيق وابن الأثير ، على أن أصالة الطبع من أهم الأسس التي يقوم عليها العمل الابداعي[٤١] .

وقد نبّه الجاحظ على تعدد الطبع لاختلاف الطبائع والاستعدادات الفطرية فقد يكون للانسان ((طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ، ولا يكون له طبع في قرض بيت من الشعر))[٤٢] . أما ابن قتيبة فقد تنبه الى اختلاف الطبع في الشعراء تبعا لتنوع استعداداتهم الغريزية ((فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيها ، وأجودهم تشبيبا ، وأوصفهم لرمل ، وهاجرة ، وفلاة ، وماء ، وقراد وحية ، فاذا صار الى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذاك آخره عن الفحول وكان الفرزدق زير نساء ، وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب ، وكان جرير عفيفا عزهاة عن النساء وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيبا))[٤٣] . وكان القاضي الجرجاني أبين النقاد في الحديث عن اختلاف الشعر باختلاف الطبائع . فبعد أن جعل الطبع عنصراً أساسياً من عناصر الابداع قال : ((وكان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره . وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة))[٤٤] .

وعلى هذا فكل شاعر ينظم على قدر طبعه وخلقه . وصاحب الطبع لا يشترط فيه أن يقول في كل فن ، أو في كل غرض فيجود في ذلك كله حتى لو اشتهى الشاعر ورغب في أن يقول في الأغراض التي تلائم طبعه ، وتشاكل ميوله الغريزية . فقد يشتهي الشاعر في بعض الأغراض ، أو يطلب الرقة أو التوعر في شعره ، ولكن تركيب طبعه ، واطراد عادته ، لا تسمح له بما يريد ، فهذا الفرزدق كان طبعه يميل الى الغزل ، وكان لا يجيد التشبيب ، وكان جرير مع عفته يحسن التشبيب ((وكان الفرزدق يقول : ماأحوجه مع عفته الى صلابة شعري ، وما أحوجني الى رقة شعره لما ترون))[٤٥] .

وقد اختار أبو تمام في حماسته ما استجاده من الأشعار ، ولم ينظر الى ماكان يشتهيه طبعه في انتاجه الشعري . وكان الأولى به أن يختار ما يوافق طبعه وقد بين المرزوقي اختلاف منهج أبي تمام في الاختيار عنه في النظم ، فقال : ((ان أبا تمام معروف المذهب فيما يقرضه ، مألوف المسلك لما ينظمه ، نازع في الابداع الى كل غاية ، حامل في الاستعارات كل مشقة ، متوصل الى الظفر بمطلوبه من الصنعة أين اعتسف ، وبماذا عثر ، متغلغل الى توعير اللفظ وتغميض المعنى ، أنّى تأتي له وقدر))[٤٦] . أما مذهبه في الاختيار فانه ((عادل فيما انتخبه في هذا المجموع من سلوك معاطف ميدانه ، ومرتض مالم يكن يصوغه من أمره وشأنه ، فقد فليته فلم أجد فيه ما يوافق ذلك الأسلوب الا اليسير ومعلوم أن طبع كل امرىء ـ اذا ملك زمام الاختيار ـ يجذبه الى ما يستلذه ويهواه ، ويصرفه عما ينفر منه ولا يرضاه))[٤٧] .

وقد كان أبو تمام يستجيد شعر ابن أبي عيينة المطبوع على ما بينهما من التباعد في المذهب الشعري[٤٨] وكانت وصيته للبحتري في عمل الشعر لا تكاد تتمشى مع مذهبه في الشعر ، وهذا التباين بين مذهبه في عمل الشعر ، وبين منهجه في النقد ، كان نتيجة اختلاف الطبع فيما يشتهيه ، وما يستجيده من الشعر .

ولعل من أهم مقومات الطبع الغريزي حدة العاطفة ، وقوة الخيال ، فالعاطفة تمثل الانفعالات الوجدانية ذات الدوافع النفسية المتعددة ، والمختلفة في تباينها أو توافقها سواء كانت حسية ، أو معنوية . ومن أبرز مميزاتها ، انها منظمة الى حد ما وبهذا اكتسبت شيئا من الثبات والاستمرار كما أن تركيبها من مجموعة من الاستعدادات جعلها تتسم بالتنوع والشمول . ويقترن نشاطها بنشاط غريزة أو أكثر من الغرائز المحركة للنفس . أما الخيال فانه القوة الناتجة عن تعاضد الذهن والنفس حالة تصوير العواطف ، وهذه القوة تؤدي وظائفها من خلال مقوماتها البيانية . وقد عرّفه كولردج بأنه ((القوة التركيبية السحرية التي . . . تكشف لنا عن ذاتها في خلق التوازن ، والتوفيق بين الصفات المتضادة ، والمتعارضة ، بين الاحساس بالجدة ، والرؤية المباشرة ، والموضوعات القديمة المألوفة ، بين حالة غير عادية من الانفعال ، ودرجة عالية من النظام ، بين الحكم

المتيقظ أبدا ، وضبط النفس المتواصل ، والحماس البالغ العميق))[٤٩] . ومن مميزاته القوة ، والجدة والعمق ، والمزاوجة بين الانضباط والتحرر ، وهو مرتبط بالعاطفة يؤثر فيها وتؤثر فيه فكلما قويت العاطفة قوى الخيال ، حتى يصلا الى درجة من الانسجام والتوازن . وربما اجتمع الخيال والعاطفة في مصطلح البديهة عند العرب القدماء . فقد أشار الجاحظ الى تفرد العرب بقوة البديهة ، والقدرة على الارتجال ، في الخطب والأشعار ، دون معاناة ولا مكابدة ، ((فما هو الا أن يصرف وهمه ـ يعني الخطيب أو الشاعر ـ الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا))[٥٠] . وقضية تفرد العرب بقوة البديهة ، وسرعة الارتجال ، لا تعنينا هنا ، لأن الله سبحانه وتعالى جعل الطبائع المركوزة في النفوس أمرا مشتركا بين الناس عامة ، وقوة البديهة أو ضعفها لا يكون تبعا للجنس البشري ، ولا للزمان أو المكان ، والذي يعنينا هنا أن قوة البديهة وسرعتها عند العرب اتسمت بالقدرة على مواجهة حركة الفعل في النفس ، بشيء من الانضباطية والتمكن ، حتى أفرزت هذه الأشعار المحكمة في رؤيتها الفنية ، والمعرفية ، والجاحظ عندما جعل العرب يتفردون بين الأمم بقوة البديهة وسرعة الارتجال ـ ولعله في معرض الرد على الشعوبية ـ فانه لم يعط الشعر العربي قيمة أدبية متميزة من خلال هاتين الغريزتين ، لأنه يدرك تماما أن البديهة أو الارتجال قد لا تكفيان مجتمعتين ، أو متفرقتين ، لابراز تجربة شعرية مثالية ، نظرا لما يعتورهما من الأسباب التي قد تؤخرهما عن أداء وظائفهما في صورة جيدة . ثم أنه فرق بين هاتين الغريزتين في الأهمية ، فجعل البديهة أولا والارتجال ثانيا . فالبديهة وان كانت تفيد أول كل شيء ، وما يفجأ منه الا أن صاحبها يوصف غالبا بصواب الرأي ففي اللسان ((فلان صاحب بديهة يصيب الرأي في أول ما يفاجأ به))[٥١] فكأن البديهة قد اقترنت بالقدرة على مواجهة تأثير الحدث في النفس ، لتصبح قادرة على تشكيل التجارب الشعرية الممتعة والمفيدة قال الطرماح[٥٢] :

وأجوبة كالرّاغبية وخزها يبادهها شيخ العراقين أمردا .

فالمشقة اذا صفة من صفات البديهة ، ولكنها صفة يصعب اكتشافها عند صاحب البديهة المتدفقة . وهذا مما يؤكد أن البديهة غير الارتجال الذي اقترن

مفهومه بالخواطر السريعة ، التي قد لا تسعف الشاعر على تنظيم رؤيته الفنية والفكرية ، في صورة منضبطه ، وناضجه . ويبدو أن ابن قتيبة لم يفرق بين البديهة والارتجال عندما وصف المطبوع من الشعراء بأنه يستطيع القول على الارتجال ((واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر))[٥٣] وقد تأثره ابن شهيد في الخلط بين البديهة والارتجال ، وذلك في حديثه عن الطبع والصنعة[٥٤] وقد رد ابن رشيق على النقاد الذين توهموا أن البديهة هي الارتجال ((لأن البديهة فيها الفكرة والتأييد))[٥٥] . ثم فرق بينها وبين الروية ، ورأى أن هناك شعراء جمعوا بين الارتجال والبديهة ، وشعراء بديهتهم كرويتهم[٥٦] . ومن هنا تقترب البديهة من الروية حتى تتساوى أحياناً من حيث القدرة على الإجادة في الشعر . فإذا كانت الروية تعني الصنعة الشعرية في صورتيها التثقيفية ، والمتكلفة ، والارتجال يعني سرعة الخاطر ، والاسترسال دون عناء ، فان البديهة تأتي في منزلة بين الارتجال والروية ، وهذه المكانة الوسطية للبديهة بين الارتجال المسترسل ، والروية الصانعة ، جعلت النقاد يصنفون الشعراء الى مطبوعين ومصنوعين . فالمطبوعون هم أصحاب البديهة القوية ، والمصنوعون هم أصحاب الروية في صورتيها المعتدلة المثقفة ، والمتكلفة ، التي تجاوزت مرحلة الاعتدال ، الى كد الذهن ، والتعمل الممل . وقد عدوا من شعراء الطبع في الجاهلية ، المتلمس والأعشى وطرفة بن العبد البكري ، وغيرهم ، ومن الاسلاميين : جرير ، والبحتري ، وأبي العتاهية ، وغيرهم ، ومن شعراء الصنعة المعتدلة في الجاهلية أوس بن حجر وزهير ، وعبيد بن الأبرص ، وغيرهم ، ومن الاسلاميين كعب بن زهير ، والحطيئة والعباس بن الأحنف ، وغيرهم ، ثم أشاروا الى بعض الشعراء الذين تكلفوا صنعة الشعر ، من أمثال مسلم بن الوليد وأبي تمام ، وأشباههما ، ونبهوا الى بعض من تحقق فيه الطبع المتدفق من الشعراء ، وان كان من أصحاب الروية والصنعة ، من أمثال بشار ، وأبي نواس ، وغيرهما ، لأن النقاد عدوا الطبع أصلا في الشعر ، اما الصنعة فانها ميل واستحسان للتثقيف والتنقيح .

ولعلنا نصل الى شيء من الاطمئنان في اجتماع العاطفة ، والخيال عند القدماء في مصطلح البديهة ، اذا عرفنا ان قوة البديهة تتمثل في أصالتها ، وتدفقها

وهذا التدفق يفترض فيه ، أن يصاحبه شيء من التيقظ في ضبط وتوجيه فجائية البديهة ، والقدرة على الطلاقة ، والمرونة ، والفطنة ، ودقة الملاحظة في استثمار الأفكار ، والصور الناتجة عن قوة البديهة ، وتصنيفها تصنيفا يلائم بين جزئياتها ، فتمنحها الجدة والتميز . وعلى هذا الأساس تحتل البديهة الصفة المثالية للطبع الفني المطواع الذي يشبه الفيض الغامض في تدفقه ، حتى يصل الشاعر الى حالة لا يشعر معها بمشقة المعاناة والمكابدة ، لغزارة تدفقه ، فاذا ما وصل الطبع الفني هذه المرحلة من مثالية النضج والعطاء ، راود الشاعر شيء من الشعور والاحساس ، بأن عطاءه الشعري المتدفق فيض مدرار يفوق قدراته الغريزية المدربة في نظره ، فيعجز عن وصف حالته أحيانا ساعة المواتاة ، حيث تستتر بعض مراحل التجربة الشعورية عن الذهن ، مما يصعب على الشاعر تفسيرها في بعض الحالات ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت بعض الفحول من الشعراء يتزيدون في تصوير علاقاتهم بشياطين الشعر ، عندما غمضت عليهم بعض مراحل دورة التجربة الشعرية .

ومن الملاحظ أن اهتمام النقاد العرب بضرورة تحقق الملكة الشعرية الغريزية أولا ، لم يقلل من طبيعة اهتمامهم بالملكة الاكتسابية ، باعتبارها الركيزة الثانية للطبع ، فتحدد مفهوم الطبع عندهم في تحقق الموهبة الغريزية في صورتها الفنية التي أشرنا اليها قبل ، مضافا اليها مكتسبات المعارف الانسانية على اختلافها وتنوعها ، ثم توظيف الطبع في صورتيه الفنية ، والاكتسابية للدربة والمران والممارسة الفعلية للشعر ، مع تحقق الرغبة فيه ، والقصد اليه .

وتتناول الملكة الاكتسابية الثقافة بشكل عام ، كما تتناول ترويض الطبع بالدربة والمران ، حتى تكتمل الأدوات الفنية ، والمعرفية عند الشاعر . وقد أخذت الثقافة الشعرية أهمية كبيرة في نظر الشعراء والنقاد ، فقد كان رؤبة بن العجاج من أوائل الذين أشاروا الى أهمية هذه الثقافة الشعرية ، فقد سئل ((عن الفحل من الشعراء فقال : هو الراوية))[٥٧] وقال الأصمعي : ((لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب ، ويسمع الأخبار ، ويعرف المعاني ، وتدور في مسامعه الألفاظ))[٥٨] فالرواية عند الأصمعي تأتي في

مقدمة الروافد التراثية للشعر ، والحفظ ملاك الرواية السمعية والفحول من شعراء الجاهلية والاسلام رووا الأشعار ، وحفظوها فزهير بن أبي سلمى كان راوية أوس بن حجر ، والحطيئة راوية زهير ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، والسائب راوية كثير[٥٩] . وقد أثارت قضية الثقافة الشعرية البحته النقاد حتى أصبحت شرطا من شروط الابداع عندهم .

فقد روى ابن المعتز عن أحمد بن محمد النوفلي قوله : ((ما وفقت الى شاعر أعرف بأشعار الجاهلية ولا أدرى لها من سلم الخاسر))[٦٠] وامتدح ثقافة أبي نواس الشعرية[٦١] وعد ابن طباطبا الرواية لفنون الآداب من أدوات الشعر التي يجب اعدادها قبل مراسه ، وتكلف نظمه[٦٢] . واشترط القاضي الجرجاني الرواية ، وجعلها في منزلة تلي منزلة الطبع ، ورأى حاجة الشاعر المحدث الى الرواية أمس ، والى كثرة الحفظ أفقر[٦٣] ونجد شرط الرواية في تنمية الملكة الشعرية عند ابن وهب ، وابن رشيق وحازم القرطاجني ، وابن خلدون[٦٤] وقد نبه ابن رشيق الى أن الثقافة الشعرية ليست مقصورة على حفظ أشعار المتقدمين فالمولدون لهم من حلاوة اللفظ ، وقرب المأخذ ، والتجديدات البديعة ، ما يؤهل شعرهم للحفظ ، والمدارسة[٦٥] . أما ابن خلدون فرأى أن الملكة الاكتسابية الخاصة بالشعر سبب في نشؤ الملكة الشعرية في النفس قال : ((أعلم أن لعمل الشعر واحكام صناعته شروطا ، أولها الحفظ من جنسه ، أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها . . . فمن قل حفظه ، أو عدم لم يكن له شعر ، وانما هو نظم ساقط))[٦٦] ويبدو أن ابن خلدون لم يضع الملكة الاكتسابية في مكانها الطبعي فالشاعر العالم الحافظ للشعر ليس أفضل من الشاعر غير العالم ((فقد كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا وكان الأصمعي عالما شاعرا ، وكان الكسائي كذلك وكان خلف بن حيّان الأحمر أشعر العلماء وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء ، فقد كان التجويد في الشعر ليست علته العلم ، ولو كانت علته العلم ، لكان من يتعاطاه من العلماء أشعر ممن ليس بعالم))[٦٧] ولما كانت الثقافة الشعرية تحتاج الى مقومات من جنسها تعضدها فان النقد العربي القديم الذي اهتم بالوزن وجعله أسا من الأسس

الشكلية للشعر ، لم يعط علمي العروض والقافية دورا يذكر في نمو الملكة الشعرية . فقد أشار الأصمعي الى أهمية تعلم العروض حتى تنمو الملكة[٦٨] . ولم يزد ابن وهب على ما قاله الأصمعي[٦٩] وقد سبقت الاشارة الى أن أكثر النقاد كان يرى في قوة الطبع وصحته ، ما يغنى عن تعلم الوزن لأن ((الذوق مقدم على العروض ، فكل ما صح فيه لم يلتفت الى العروض في جوازه))[٧٠] .

وهكذا تشكل الثقافة الشعرية من وجهة نظر النقد العربي القديم الاداة الأولى التي تساعد الملكة الغريزية على النماء والتدرج ، وعيار هذه الاداة الرواية ، والحفظ ويبدو أن اختزان الذاكرة لهذا الرافد الأساسي في تنمية الملكة سيؤتي ثماره في مرحلة ما بعد الاكتساب المعرفي ، أي في مرحلة التجارب الأولى وهي مرحلة الدربة والمران ، اذ أن صاحب التجارب الشعرية الأولية يبدأ في أحوال كثيرة مقلدا غيره ثم يتدرج في اكتساب صفة التميز والاستقلال اذا كان صاحب طبع غريزي ولا أعتقد أن شاعرا نبت عوده ثم استقام ، دون أن تكون له صلة وثيقة بثقافة أمته بشكل عام ، وبتراثها الشعري بشكل خاص . واذا ما تجاوزنا دور الثقافة الشعرية في تنمية الملكة الابداعية فاننا سنجد النقاد القدماء قد أكدوا كثيرا على أهمية الملكات الاكتسابية المعرفية الأخرى ، خاصة المعارف العربية الخالصة منها .

فقد أكد عبد الحميد الكاتب في رسالته الى الكتاب على أسس الاطار الأدبي وهذه الأسس التي خص بها النثر لم تخرج عنها تلك الأسس الثقافية التي تهم الشعر فقد أعطى الثقافة العربية الخالصة أهمية واضحة ، ولم يغفل الروافد التراثية الأجنبية الأخرى ، فرأى أن الاشتغال بكتاب الله عز وجل ، والتفقه في الدين ، وعلوم العربية على رأس صنوف العلم التي تسموا اليها الهمم[٧١] .

وأشار الأصمعي الى بعض المعارف الانسانية التي تقوم اللسان ، وتوسع المدارك ، كعلوم اللغة العربية ، والعلوم التاريخية[٧٢] .

وذكر ابن طباطبا بعض الأدوات المعرفية التي يجب اعدادها قبل ممارسة الابداع منها : ((التوسع في علم اللغة ، والبراعة في فهم الاعراب ، والرواية لفنون الآداب ، والمعرفة بأيام الناس ، وأنسابهم ، ومناقبهم ، ومثالبهم))[٧٣]

كما ذكر ابن سنان الخفاجي ما يحتاج مؤلف الكلام الى معرفته شاعرا كان أم كاتبا فذكر من ذلك معرفة لغة العرب في نحوها ، وصرفها ، وتراكيبها ، ومعرفة المشهور من أخبارها ، وأحاديثها ، وأنسابها ، وأمثالها ، ومنازلها ، وسيرها وصفة حروبها ، وماله قصة مشهورة ، وحديث مأثور(٧٤) .

وقد أفاض ابن رشيق في الحديث عن حاجة الشعر الى مواد الثقافة ، ورأى أن الشاعر مأخوذ بكل علم ، مطلوب بكل مكرمة ، لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمّل من نحو ، ولغة ، وفقه ، وخبر ، وحساب ، وفريضة فان ذلك يعلق بالنفوس ويقوي الطباع(٧٥) .

أما ابن الأثير فقد حصر أدوات الملكة الاكتسابية في ثمانية أنواع هي : معرفة علم العربية من النحو والصرف ، والفصيح المتداول من اللغة ، وأمثال العرب وأيامهم ، والاطلاع على التآليف المتقدمة في صناعة النظم والنثر ، ومعرفة الأحكام السلطانية ، وحفظ كتاب الله سبحانه وتعالى ، وحفظ ما يحتاج اليه من الأخبار الواردة عن النبي ﷺ ، ومعرفة علم العروض والقوافي(٧٦)

وفي اطار الاهتمام باعداد الملكة الاكتسابية وتهيئتها نجد كثيرا من الرسائل والوصايا الأدبية التي كتبها بعض أدباء وشعراء العرب القدامى سواء كانت خاصة لأفراد معينين ، أو عامة لمجموعة من الأدباء أو الشعراء ، كرسالة عبد الحميد الكاتب الى معشر الكتاب ، وصحيفة بشر بن المعتمر ، ووصية الجاحظ للأديب ، ووصية أبي تمام للبحتري(٧٧) وغير ذلك . وهذه الوصايا تعطي مؤشرا واضحا بأن القدماء قد أدركوا أن الأدب معاناة ، ومعاودة ، وليس استسلاما للخواطر الأولية ، والأذواق الفطرية ، التي لا تتعدى حدود الانطباعات الشخصية الضيقة .

وهكذا تقترب مثالية الطبع من الاكتمال عند قيامها على الطبع الغريزي المتدفق والملكة الاكتسابية المؤسسة على الرواية والحفظ لما هو من جنس الابداع ، وهو الثقافة الشعرية البحته ، وما ينضاف اليها من صنوف العلم الأخرى عربية كانت أم غير عربية .

وحتى تصل الملكة الشعرية الى درجة المثالية في نظر النقد العربي ، فقد رأى النقاد العرب أن اجتماع آلات الملكة الابداعية الغريزية ، والاكتسابية ، لا تنهض وحدها بأداء دورها كاملا ، والوصول بها الى المثالية ، مالم تكن الدربة والمران والممارسة شرطا من شروطها ، وسببا من أسباب نموها ، وتدرجها . فكأن الدربة تقوي الثقة بالملكات الشعرية الأساسية وتمنح الشعر صفة الجودة والسلامة من العيوب . فقد ربط الآمدى بين الطبع والدربة في حذق الصنعة واتقانها ، ورأى أن مناط الجودة في الصنعة يتوقف على اكتمال الطبع ، والاكثار من الدربة ، وطول الملابسة(٧٨) .

أما القاضي الجرجاني ، فقد عدّ الدربة أسا رابعا من أسس الابداع الشعري وجعلها قادرة على المزج بين الأسس الثلاثة السابقة عليها ، فبالدربة تذكى الفطنة ، وتشحذ الطبع ، ثم تسترفد هذه القوى الثلاث المخزون التراثي الذي تحقق من قبل ، من خلال الرواية ، والحفظ (٧٩) وأشار ابن الأثير الى أهمية الدربة ، وضرورة المداومة عليها(٨٠) وقد جمع حازم القرطاجني أدوات الملكة الشعرية ، من غريزة ، وثقافة ودربة ، تحت مصطلح الطبع ، مقدما بذلك تعريفا للطبع في صورته المثالية فقال : ((النظم صناعة آلتها الطبع ، والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام ، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها ، فاذا أحاطت بذلك علما ، قويت على صوغ الكلام بحسبه عملا ، وكان النفوذ في مقاصد النظم وأغراضه ، وحسن التصرف في مذاهبه وأنحائه ، انما يكونان بقوى فكرية ، واهتداءات خاطرية))(٨١) .

ومما سبق يتضح ان كل أداة من أدوات الملكة الشعرية من غريزية واكتسابية تقوم بوظيفة معينة ، أو بمجموعة وظائف ، بعد أن تكون قد نمت مع الذات ، ومع ما هو خارج الذات ، ثم تمتزج تلك الوظائف بعد أن تتم عملية الانسجام والتلاؤم بينها ، وتتحد في وظيفة عامة ، قد نسميها الوظيفة التكاملية للطبع ، أو وظيفة الطبع التكاملية ، ويصبح الشعر نتاج الذهن والنفس معا .

فالذهن يمثل مجموعة القوى الفكرية التي تقوم بدورها التنظيمي للتصورات الجزئية أو الكلية للعمل الشعري ، وهذه القدرة على تنظيم التصورات الشعرية تجعل الذهن يتمتع بقوة مائزة ، تخضع معها المادة الشعرية الى عملية انتقائية فيصبح الشعر في تعامله مع الذهن ، حركة واعية ، ومنظمة . أما النفس ، فهي مركز الانفعال لجميع الأحداث التي توقظ الذهن وتسترعى انتباهه .

ولقد نشطت الدراسات النفسية التي قامت بمحاولة اثبات العلاقة بين النفس والأدب منذ أوائل القرن العشرين ، بشكل لم يسبق له مثيل . فقد كانت دراسات «فرويد» الخاصة بالتحليل النفسي للأدب من أهم الدراسات التي لفتت اليها أنظار المهتمين بالنقد الأدبي ، أضف الى ذلك ما توصل اليه العلماء من حقائق في ميادين علم النفس العام ، وقد أتيح للنقاد العرب في العصر الحاضر أن يقفوا على معطيات تلك الدراسات ، ويستثمروها في دراساتهم النقدية ، ولعل كتاب محمد خلف الله أحمد «من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده» من أقدم الدراسات العربية الشاملة التي تناولت طبيعة الأدب من الوجهة النفسية السيكولوجية ، يضاف الى ذلك الدراسات الأدبية الأخرى التي أفادت من نظريات علم النفس كما هو الحال عند طه حسين في دراساته لبعض الشعراء من أمثال الحطيئة والمتنبي ، والمعري وكدراسة العقاد لابن الرومي ، وأبي نواس ، ودراسة الدكتور شوقي ضيف لابن أبي ربيعة ومقدمة حسن كامل الصيرفي لشعر البحتري ، ثم دراسة الدكتور مصطفى سويف للأسس النفسية للابداع الفني في الشعر ، وما استتبع ذلك كله من دراسات أخرى حاولت أن توضح العلاقة بين النفس والأدب . وارتباط الشعر بالحالات النفسية لم يكن غائبا عن الشعر العربي القديم ، ولا عن مواقف النقاد القدماء . فقد لمس الشعراء منذ امرىء القيس حركة النفس وجيشانها ، وربط النقاد بين الشعر وبواعثه النفسية الا أن تلك العلاقة التي لمسها الشعراء والنقاد ، وأثبتوها في أشعارهم ، أو في آرائهم النقدية ، لم تصل الى درجة هذه المرحلة المتطورة من كشف أسرار النفس الانسانية في العصر الحاضر . ولعل الوقوف على الاطلال الذي توارد عليه الشعراء كثيرا يعطي صورة أولية عن ارتباط المقدمات الطللية في الشعر العربي

بالحالات النفسية ، وما كان يعتلج في مشاعر الشعراء ، حتى أبانت تلك المقدمات عن أحوالهم وأحوال المقول على ألسنتهم . فالوقوف على الديار الدراسة ، أو التي تحمل بعض الذكريات الخاصة للشعراء تبعث التأمل ، وتهيج ما في نفوس الواقفين عليها من ذكريات . قال امرؤ القيس(٨٢) :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقال(٨٣) :

لمن طلل درست آيه وغيّره سالف الأحرس
تنكره العين من حادث ويعرفه شغف الأنفس

وذكر طرفة بن العبد جيشان النفس وحركتها ، وان كان لم يقصد جيشانها بالشعر فانه كان يدرك حركتها ، واستجابتها للفعل قال(٨٤) :

وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد

وقال النابغة الذبياني(٨٥)

اهاجك من أسماء رسم المنازل بروضة نعمىّ فذات الأجاول .

وقال أبو تمام(٨٦) :

أقشيب ربعهم أراك دريسا تقرى ضيوفك لوعة ورسيسا

وقال البحتري(٨٧) :

لعمرو المغاني يوم صحراء أربد لقد هيجت وجدا على ذي توجّد

وقد وصف بعض الشعراء استجابة النفس من حركة ، وانزعاج ، وماتحدثه التجربة الشعورية من الداخل ، حتى تحمل النفس على التشبع ، والامتلاء بها وهضمها حتى اذا ما تم اخراجها في تجربة تعبيرية أحسّ الشاعر بشيء من هدوء النفس ، وانبساطها ، فقد ((قيل لعبيد الله بن عبدالله بن عتبة ابن مسعود : كيف تقول الشعر مع الفقه والنسك ؟ فقال : لا بد للمصدور من أن ينفث . وقال معاوية لصحار العبدي : ما هذا الكلام الذي يظهر منك ؟

قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا))[٨٨] . وروى صاحب الأغاني أن الفرزدق عندما قال قصيدته التي مطلعها :-

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

كان في حالة نفسية هائجة ، قال الفرزدق في وصفها : ((فجاش صدري كما يجيش المرجل))[٨٩] وقد وصف ابن شهيد التفاعل بين نفسه ورغبته في ابراز تجربته ، من خلال دورة القصيدة في قوله : ((ولما استطرد طيب هذا المساق ، وارفضّ كلمه كالماء المهراق ، وخفق جناح العشق المذكور ، وتدحرج وصفه كاللؤلؤ المنثور ، تحركت لي أطراب ، واهتزت لرداء شوقي أهداب ، وتمخضت نفسي فصارت نفسا ، وتراكم ذلك النفس فصار كلاما ، وانتظم ذلك الكلام فصار عقدا))[٩٠] .

على أن هذه الحركة النفسية ربما امتدت الى ما بعد دورة القصيدة منذ بدئها معنى في الذهن ، حتى انتهائها في صورتها التعبيرية ، بمعنى أن ارتباط النفس بالقصيدة قد يستمر معها في رحلتها مع المتلقى ، فالشاعر يهمه ما تحدثه القصيدة في المتلقى من استجابة ، مما يثير تحرك النفس لربط الفعل المناسب لنوعية الاستجابة ، سواء كانت الاجابة بالرضا أو بالفتور أو بالرفض ، فالشاعر يرتاح كثيرا اذا حقق استجابات الرضا في نفوس الناس ، أو وجد تشجيعا وتقريضا لشعره ، وتنقبض نفسه اذا حصل العكس ، ولعل هذا من الأسباب التي أوحت الى شعراء الروية باعادة النظر في اشعارهم قبل اخراجها للناس ، مما يؤكد الدور الارادي في التجربة الشعرية مع الأخذ في الاعتبار أن التجربة الشعرية غير القصيدة رغم الصلة الوثيقة بينهما ، فالقصيدة هي المعادل الموضوعي للتجربة غير أن عملية التهذيب والتوجيه قد تصاحب التجربة في بعض مراحلها قبل أن تصبح القصيدة متكاملة البنية .

ولو تتبعت مواقف الشعراء التي كشفت عن حركة النفس ، وارتباطها بالشعر لوجدت ذلك مبثوثا في اشعارهم ، منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا ، ولكن ما موقف النقد العربي القديم من ارتباط الشعر بالنفس ؟ لقد أشرنا قبل

هذا الى تأكيد النقاد العرب على أهمية التأهيل ، المتمثل في الاستعداد الغريزي والمكتسب ، ومن هنا يفترض في الشعراء تحقق ذلك الاستعداد أولا ، سواء اتفقت طبائعهم ، أو تباينت فيما تميل اليه من فنون الشعر وأغراضه ، كما أشرنا الى تأكيدهم على مرحلة الممارسة الفعلية للشعر اذا تحققت الرغبة فيه ، والقصد اليه ، وهذا التكامل للملكة الشعرية يحتاج الى بواعث ومحركات ، تنشط الملكة ، وتوقظها .

فاذا كانت الفكرة تمثل الصدمة الاولى للانفعال ، فان هناك أدوات أخرى تنمي هذا الانفعال وتقويه ، وقد أشار حازم القرطاجني الى أن حركة النفس ((اذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثرها))[٩١] ، وقد ارتبط مفهوم الخيال عند العرب القدماء بالصياغة الشعرية ، وارتبطت هذه بقضية الصدق والكذب ، وعلاقة ذلك بالاتجاهات النفسية فقد اهتم النقد العربي القديم بمقومات الصورة الشعرية من تشبيه ، واستعارة ، وكناية ، دون أن يصرحوا بأن هذه الوجوه البلاغية هي من مقومات الخيال الأساسية ، وأعطوا الصياغة الشعرية أهمية كبيرة ، وعدوا الشعر صناعة كسائر الصناعات ، وعدّوا الصورة الشعرية مثار المتعة ، واللذة وفي هذه الاثارة ما فيها من تحريك النفس ، وحملها على الاستجابة . ومنذ تصنيف كتاب «عيار الشعر» لابن طباطبا بدأ الالحاح أكثر من ذي قبل ـ على مبدأ الصدق والاعتدال في صنعة الشعر ، خاصة عند النقاد العقلانيين ، والتربويين ، والفلاسفة ونظرا لارتباط الصدق والكذب بالاتجاهات النفسية حاول أولئك النقاد أن يحدوا من حرية الخيال ، لقدرته على تحسين الشعر ، وتشكيل المعاني ، تشكيلا يوقع في النفس جذبا اليها دون روية ، فركزوا على الجوانب الانضباطية في الخيال باعتباره قوة من قوى النفس المحركة ، وكانوا حذرين من اطلاق حرية الخيال دون رقابة عقلية تنظمه لأن تحرره من ضوابط العقل يميل بالنفس الى محاولة تحقيق بعض رغباتها المرتبطة بحاجات البدن . فقد أدركوا أن الخيال المتحرر يتوقع منه الانحراف اذا صادف بعض الغرائز النفسية الفاسدة ، أو الضارة ومن هنا عملوا جاهدين على ايجاد الضوابط المعيارية لمقومات الصورة الشعرية ، اذا ماأريد التوسع في استخدامها .

وكان عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني من أبرز النقاد القدماء الذين تناولوا مفهوم الخيال في نظراتهم النقدية وربطوه بقضية الصدق والكذب ، وعلاقة هذه القضية بالاتجاهات النفسية . ولعل عبد القاهر الجرجاني من أوائل النقاد العرب الذين صرحوا بمصطلح الخيال في دراسته مباحث علم البيان ، وسماه «التخييل» وذلك عندما قسم المعاني قسمين : عقلي وتخييلي ، فرأى أن المعاني العقلية يغلب عليها الحق والصدق والقصد ، ويشهد العقل لها بالصحة ، أما المعاني التخييلية فانها لا تكاد تحصر ، نظرا للاستعانة على تحققها في النفوس بالصنعة اللطيفة ، والحذق ، والتمحّل في اختراع الصور ، والميل الى المبالغة والاغراق في سائر المقاصد والأغراض[٩٢] . وقد قسم التخييل من حيث مفهومه له قسمين : الأول : ((ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق الى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ، ويريها ما لاترى))[٩٣] وهذا النوع من التخييل يقابل الحقيقة في نظره . أما مفهومه الآخر للتخييل فهو ذلك التخييل الشبيه بالحقيقة ، وهو مااشتمل على ((صنعة يتعمل لها ، وتدقيق في المعاني يحتاج معه الى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب ، وغوص شديد))[٩٤] وهذا الذي يقوى صنعة الشعر ، ويحسنها ، ويمنحها صفة الاستجابة والقبول . وقد رأى عبد القاهر الجرجاني ضرورة التلاحم بين التجربتين الشعورية والتعبيرية وأكد ذلك في حديثه عن قوة صنعة الشعر الساحرة[٩٥] .

أما حازم القرطاجني فقد كان أبين من عبد القاهر الجرجاني في تأكيده على ارتباط الخيال بالنفس فقد رأى أن حسن التخييل أس من أسس الشعر ، خاصة اذا حمل النفس على الاستجابة له حبا أو كرها ، فجعل الشعر نشاطا تخييليا يوقع ((الدلسة للنفس في الكلام))[٩٦] .

وعلى هذا فالصدق والكذب عنده لا يحددان ماهية الشعر ، وانما الذي يحدد تلك الماهية ، مافي الشعر ((من المحاكاة والتخييل))[٩٧] ثم رأى أن اقتران الحقيقي بغير الحقيقي هو سر الجمال في الصور الشعرية ، وأثرها في النفس[٩٨] وقد توسع في دراسة ما يحسن به موقع المحاكاة من النفس معتمدا في ذلك على

دراسات الفلاسفة الذين سبقوه من أمثال الفارابي ، وابن سينا وابن رشد[٩٩] .

فالخيال من أقوى الملكات الفاعلة التي تمتزج بحركة النفس وانفعالها ، وهذه الملكة يشترك فيها من له حظ في الشعر كل بحسب قدراته غير أن لكل شاعر طريقته الخاصة في استجلاب ساعة المواتاة ((كل امرىء على تركيب طبعه ، واطراد عادته))[١٠٠] فقد سأل عبد الملك بن مروان أرطاة بن سهية المرى عن شعره وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة ، فأجاب ((والله ماأشرب ، ولا أطرب ، ولا أغضب ولا يجيء الشعر الا على مثل هذه الحال))[١٠١] وقد انضاف الى هذه الدوافع الرهبة ، والرغبة ، وركوب الخيل فقد قيل أشعر العرب ((امرؤ القيس اذا ركب وزهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والأعشى اذا شرب))[١٠٢] وزاد ابن قتيبة على ذلك الطمع والشوق[١٠٣] وقد ارتبطت هذه الدوافع بفنون شعرية معينة ، برز فيها الشعراء أكثر من غيرها من فنون الشعر الأخرى ، كما هو الحال في وصف الفرس ، وركوب الخيل ، ومطاردة الصيد ، عند امرىء القيس ، وكذلك الحال في مدحيات زهير ، واعتذاريات ، النابغة وخمريات الأعشى ، فقد عرف كل واحد منهم باستجابات نفسية معينة . ولا شك أن هذه الاشارات التي تناولت هذا النوع من الدوافع لها أهميتها في ارتباطها بالحالات النفسية ، فقد كشف شعر أولئك الشعراء في فنونه المتنوعة بعض الجوانب من أسرار النفس الانسانية وما يعتور النفوس من قوة أو ضعف ، ومن ميول واتجاهات ، تبعا لدرجة الدافع المحرك لها ، ونوعه . ((قال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد يعني كاتب البرامكة ، أشعر من مراثيك فيه ، وأجود فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما بون بعيد))[١٠٤] وكانت مدائح الكميت في بني أمية أجود من مدائحه في الطالبيين الذين كان يتشيع لهم ، وعلة ذلك ((قوة أسباب الطمع ، وايثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة))[١٠٥] ويلاحظ أن الدوافع السابقة انما استنتجها النقاد من مذاهب الشعراء ، واتجاهاتهم الشعرية ، وميولهم وخصائصهم الوجدانية ، غير أن هناك دوافع أخرى لا ترتبط بفن شعري معين ، ولا تخضع لظاهرة سلوكية معينة ، الا في

حدود ضيقة ، كالدوافع المرتبطة بنوع البيئة أو بالأوقات ، وغير ذلك من الدوافع الأخرى . فقد أشار ابن سلام الى أثر البيئة في الشعر وذلك من خلال اختلاف شعر البادية عن شعر الحاضرة من حيث القوة والضعف . فالبيئة البدوية معرضة لكثرة الحروب بين القبائل ، بينما تقل هذه الظاهرة وربما تنعدم في القرى ((وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وانما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان))[١٠٦] وقد قال الجاحظ بتقدم البادية في الشعر على الحاضرة ، لكنه تقدم ليس ((بواجب لهم في كل ماقالوه))[١٠٧] ولهذا الاستثناء كان الجاحظ يفضل شعر أبي نواس على شعر أهل البدو[١٠٨] وقد سبقت الاشارة الى دور الاطلال في استجلاب الذكريات ، وتحريك النفوس ، وسجل النقاد من أفواه الشعراء أهمية بعض الأماكن في استدعاء الشعر ، من ذلك مارواه المرزباني من أن النعمان طلب من النابغة أن يفسّر له معنى قوله :

تـراك الأرض امّـا متّ خفـاً وتحى ان حييت بهـا ثـقيـلا

ظنا من النعمان أن البيت في الهجاء وليس في المديح ، فلما أخبر النابغة زهيرا قال له هذا ((أخرج بنا الى البرية فان الشعر برى))[١٠٩] وعدوا من تلك الأماكن أيضا الرياض المعشبة ، والمياه الجارية ، وشعاب الجبال ، وبطون الأودية ، والأماكن الخربة[١١٠] .

ورأوا أن تأثير البيئة لا يقف عند حد الدافع فحسب ، وانما يؤثر في تكوين المزاج ، وتوجيهه ، وتلوين نفسية الشاعر ، روى المرزباني عن محمد بن أبي العتاهية قوله : ((أنشدت أبي أبا العتاهية شعرا من شعري فقال لي : أخرج الى الشام قلت لم ؟ قال : لأنك لست من شعراء العراق . أنت ثقيل الظل مظلم الهواء ، جامد النسيم))[١١١] وأكد حازم القرطاجني على أهمية ((النشء في بقعة معتدلة الهواء حسنة الوضع ، طيبة المطاعم ، أنيقة المناظر ممتعة من كل ماللأغراض الانسانية به علقة .))[١١٢] غير أن الجاحظ قلل من شأن المحركات

البيئية ، ورأى أن المملكة الشعرية لا تتحدد ببيئة معينة . فاذا كان ابن سلام قد قال بتقدم شعر البادية على شعر الحاضرة لكثرة الحروب في البادية فان الجاحظ قد أشار الى كثرة عدد بني حنيفة ، وشدة بأسهم ، وكثرة حروبهم ومع ذلك كانوا أقل القبائل شعرا . كما أن الشعر في نظره لا يستدعي بكثرة الخصب والغنى وجودة الغذاء ، وانما هي أمور تعود الى الغرائز[١١٣] .

أما البواعث المرتبطة بالأوقات فقد تركزت حول فراغ البال قال بشر بن المعتمر ((خذ من نفسك ساعة فراغك وفراغ بالك))[١١٤] وقد اختلفت نظرة النقاد حول الوقت المناسب لفراغ البال فمن الأوقات المناسبة عند ابن قتيبة ((أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في الحبس والمسير))[١١٥] على أن هذه الأوقات التي أشار اليها ابن قتيبة لم ترق لابن رشيق الذي رأى مباكرة العمل بالأسحار من أفضل الأوقات مواتاة ((لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسّها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعيبها ، واذا هي مستريحة جديدة ، كأنما أنشئت نشأة أخرى ، ولأن السحر ألطف هواء ، وأرق نسيما ، وأعدل ميزانا بين الليل والنهار))[١١٦] ويتفق أكثر النقاد مع ابن قتيبة وابن رشيق حول الأوقات التي يستدعي بها الشعر ، على أننا لا نعدم بعض الاشارات التي تناولت أنواعا أخرى من المحركات كالشرف العالي وسماع الغناء والغربة عن الأوطان .

ويتبادر الى الذهن أن اهتمام النقاد بالبواعث والمحركات التي استنتجوها من أفواه الشعراء ، ومن حالاتهم في اشعارهم ، يوحي باتهام الملكة الشعرية بأنها ليست على درجة قوية من الثقة ، أما لأنها لم تنضج بعد ، واما لنقص يعتور بعض أدواتها الغريزية والاكتسابية ، أو لتعرضها لبعض المعوقات التي تحد من نشاطها .

واذا ما استثنينا البواعث الذاتية الخاصة بالميول الوجدانية ، فان ما دار على ألسنة الشعراء ، وما سجله النقاد من أقوال حول أهمية البواعث الخارجية ، من بيئية وزمانية انما يعود الى أحوال خاصة ، حيث لم تكتسب تلك البواعث صفة الثبات والاستقرار ، وليس القصد من هذا أن نقلل من شأن تلك المحركات ، ولكن القصد اعطاء الملكة الشعرية حقها في ممارسة دورها الطبيعي ، وعدم خضوع ذلك الدور لنوع معين من البواعث والمحركات .

ان المعاناة والجهد الذي يبذله الشاعر في محاولة كشف الحقائق الداخلية التي تغيب عن الانسان العادي وابرازها في صورة جديدة ، يصور من خلالها طبيعة نفسه ازاء الفعل المحرك لها ، وامتزاج حركة نفسه بحركة الكون الخارجية جعلته يلجأ في بعض حالاته الى استثمار معطيات هذا الكون ، يستلهم منها ما يساعده على اجتياز معاناته ، وهذا الاستثمار لا يقتصر على صنف معين من الشعراء ولا على نوع أو أنواع من الدوافع الخارجية ، لأن الميول والاتجاهات النفسية تعد الأساس الذي يشكل طبيعة الشعر التعبيرية لتنسجم مع طبيعة النفس وتشاكلها . ويبدو أنه كما ارتبطت محركات الشعر وبواعثه بحالات نفسية ، ارتبطت أيضا معوقات الملكة الشعرية ببعض تلك الحالات النفسية ، فقد كان الفرزدق يقول : ((أنا عند النّاس أشعر الناس وربما مرّت على ساعة ونزع ضرس أهون على من أن أقول بيتا واحدا))[١١٧] فالفرزدق لم يستطع أن يفسّر لنا اعتياص الشعر عليه مع رغبته في قوله . وقد أكد ابن قتيبة أن الاجبال في الشعر لا يخضع لأسباب معروفة الا أنه قد ((يكون من عارض يعترض على الغريزة من سؤ غذاء أو خاطر غم))[١١٨] وكان الشنفرى يقول) ((الانشاد على حين المسرة))[١١٩] .

وقد قيل أن البحتري أجبل عشر سنين ، فما كان يستطيع أن يقول بيتا فعاوده القول بعد ذلك بغزارة[١٢٠] .

وهذا يؤكد أنه ليس من الضروري أن يرتبط تدفق الشعر ببيئة معينة ، أو بزمان محدد .

وقد ارجع ابن رشيق بعض معوقات الابداع الشعري الى اشتغال الشاعر بأمر ما ، أو موت قريحة أو نبو في الطبع ساعة الرغبة في قول الشعر[١٢١] . ثم ذكر بعد هذه المعوقات أن الفقر آفة الشعر[١٢٢] . وهو رأي غريب اذ كيف يكون الفقر من معوقات الملكة الشعرية وكثير من الشعراء المبرزين قديما وحديثا قد عانوا ذل الفقر ومرارته . ومن هنا ينبغي عدم الافراط في اعطاء محركات الشعر ودوافعه أو معوقاته أكثر من حجمها الطبعي ، حتى لا ننتقل بمفهوم الملكة الشعرية من دورها الأساسي الى أدار ثانوية مهمتها تنشيط الملكة ، أو اعاقتها عن أداء وظيفتها في بعض الحالات .

لقد تبين من خلال العرض السابق أن مفهوم الملكة الشعرية عند العرب القدماء قد مر بمرحلتين بينا في الأولى علاقة الشعر ببعض القوى الروحية الخارجية ، وتناولنا في الثانية علاقة الشعر بالطبع الفني الغريزي والمكتسب .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل مفهوم الملكة الشعرية عند القدماء ، فهي المرحلة التي تناولت مفهوم الملكة من خلال الصنعة الشعرية ، فقد ذهب أكثر النقاد العرب الى أن الشعر صناعة تشبه سائر الصناعات الأخرى ، وهذا المفهوم بدأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله : ((خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته))[١٢٣] وقد أكد محمد بن سلام هذا المفهوم وتوسّع في دراسته في طبقات فحول الشعراء ، وتأثره النقاد بعد ذلك[١٢٤] وقد أكدت مواقف النقاد التي تناولت أهمية الصياغة الشعرية أن الصنعة ليست ملكة مستقلة أو منفصلة عن الطبع ، فمعيار الذكاء الذي عده القاضي الجرجاني أسا من أسس الملكة الشعرية يعد القوة الصانعة بين قوى الطبع الأخرى ، وهذه القوة تنتمي الى مجموعة القوى الفكرية لكنها لا تنفك في ادائها الوظيفي عن قوى الطبع والرواية والدربة .

وينبغي ألا تطغى القوة الصانعة على الطبع ، وانما تكون مساوية له ومنسجمة معه في ادائها ، لأن تلك القوة الصانعة لا تستطيع أن تقوم بدورها مستقلة عن الطبع ، بينما يستطيع الطبع أن يمارس وظيفته دون الحاجة الى الصنعة ، وعلى هذا الأساس يأتي دور الصنعة متأخرا نوعا ما عن دور الطبع في مباشرة العمل الابداعي ومن هنا كانت الصنعة في نظر النقاد القدماء لا تتعدى مرحلة التهذيب ، والتنقيح والروية ، ولم يغب هذا المفهوم عن أذهان الشعراء قديما وحديثا . قال امرؤ القيس :[١٢٥]

أذود القوافي عني ذيادا ... ذياد غلام جرىء جرادا
فلما كثرن وعنّينه ... تخيّر منهنّ شتى جيادا
فأعزل مرجانها جانبا ... وآخذ من درّها المستجادا .

وقال كعب بن زهير :[١٢٦]

فمن للقوافي شأنها من يحوكها اذا ما ثوى كعب وفوز جرول .
يقومها حتى تلين متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل .

وقال عدي بن الرقاع :[١٢٧]

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافة منآدها

وقال البحتري :[١٢٨]

بمنقوشة نقش الدنانير ينتقي لها اللفظ مختارا كما ينتقى التبر

وقد اشتهرت مدرسة أوس بن حجر ، وزهير ، والحطيئة وغيرهم ، بالقيام على الشعر وتنقيحه ، وتهذيبه ، حتى عرفت أشعار زهير بالحوليات ، وكان الحطيئة يقول : ((خير الشعر الحولي المحكك))[١٢٩] .

غير أن هذه الصنعة الشعرية لم تخرج على مبدأ القصد والاعتدال حتى جاء العصر العباسي فافتتن بعض شعرائه بتعميق الصنعة فأحسنوا في بعض وأساؤا في بعض عندما أسرفوا في الصنعة وتكلفوها ، وأصبح الناس أمام شعراء وظفوا الصنعة لطبعهم فأحسنوا ، وأخرين وظفوا الطبع لصنعتهم فأساؤا ، وقد جمع المرزوقي في شرح ديوان الحماسة أوجه الاختلاف بين أصحاب المذهبين معتمدا على مواقف النقاد الذين سبقوه ومبينا الفرق بين المطبوع والمصنوع من الشعر ((فمتى رفض التكلف والتعمل ، وخلّى الطبع المهذب بالرواية ، المدرب في الدراسة لاختياره ، فاسترسل غير محمول عليه ، ولا ممنوعا مما يميل اليه ، أدّى من لطافة المعنى ، وحلاوة اللفظ ، ما يكون صفوا بلا كدر ، وعفوا بلا جهد ، وذلك هو الذي يسمّى المطبوع ومتى جعل زمام الاختيار بيد التعمل ، والتكلف ، عاد الطبع مستخدما متملّكا وأقبلت الأفكار تستحمله أثقالها ، وتردده في قبول ما يؤديه اليها ، مطالبة له بالإغراب في الصنعة ، وتجاوز المألوف الى البدعة فجاء مؤداه وأثر التكلف يلوح على صفحاته ، وذلك هو المصنوع))[١٣٠] .

وعلى هذا الأساس فمصطلح الصنعة المتكلفة المذمومة يقابل مصطلح الطبع المثالي ولهذا انتقص النقد العربي مجاهدة الطبع ومكابدته وكثرة الطلب ، وعد ذلك من العوامل والأسباب التي يعاب عليها الشاعر ، ويتأخر بها الشعر ، مع الأخذ في الاعتبار أن الصنعة بحديها المحمود والمذموم لا تلغى وظيفة الطبع المثالي فالأولى تعضده وتهذبه فيخرج الشعر مستويا محكما . والثانية تشوش عليه حتى يداخله الفساد والخلل ويستجيد الغث ويبعد في الإغراب فيخرج الشعر كزا مستكرها .

مصادر ومراجع البحث

١ ـ انظر د. محمد غنيمي هلال . النقد الأدبي الحديث (مصر بدون تاريخ) ص ٢٨ .
٢ ـ سورة الجن . آية ٩ .
٣ ـ انظر البيان والتبين . تحقيق حسن السندوبي (مصر ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ م) ج ١ ص ٣٠٧ ، ٣٧٣ ، وانظر ـ النويري ـ نهاية الأرب (نسخة مصورة عن دار الكتب) ج ٣ . ص ١٢٨ ، ١٣٢ ـ ١٣٣ .
٤ ـ النويري ـ نهاية الأرب . ج ٣ : ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
٥ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول . تحقيق . عبد القادر الأرناؤط (بيروت ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م) ج ٥ : ص ٦٣ .
٦ ـ انظر ابن تيمية . مجموع الفتاوي (طبعة المغرب ١٤٠١هـ ١٩٨١م) ج ١٩ ص ١٢ وج ٢٤ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .
٧ ـ سورة البقرة . من آية ٢٧٥ .
٨ ـ سورة البقرة من آية ١٠٢ .
٩ ـ انظر الحيوان . تحقيق عبد السلام محمد هارون (مصر ١٣٨٦ ـ ١٩٦٧م) جـ ٦ . ص ٤٦ .
١٠ ـ انظر الجاحظ المصدر السابق . جـ ٦ ، ص ٤٦ ، ١٦٤ ـ ٢٥٦ .
١١ ـ انظر . تحقيق . علي محمد البجاوي . (مصر ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧م) جـ ١ ص ٤٣ ـ ٦٣ .
١٢ ـ انظر المصدر السابق . جـ ١ . ص ٦٢ . وديوانه (بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م) ص ١١٩ . مع اختلاف في رواية الأبيات .
١٣ ـ انظر ديوانه . ص ١٨٣ .
١٤ ـ المفضليات . تحقيق . أحمد شاكر . وعبد السلام محمد هارون (مصر ١٩٧٦م) ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
١٥ ـ سيرة ابن هشام . تحقيق . مصطفى السقا ، وابراهيم الابياري ، وعبد الحفيظ شلبي . (مصر ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م) القسم الأول ص ٢٧٠ .
١٦ ـ سورة الحاقة آية ٤٠ ـ ٤٣ ، وانظر بقية الآيات في سورة الأنبياء . آية ٥ والصافات آية ٣٦ ـ ٣٧ ، والطور . آية ٢٩ .
١٧ ـ و ١٨ ـ المرزباني ـ الموشح . تحقيق علي محمد البجاوي (مصر ١٩٦٥) ص ٥٥٣ ، ٥٥٧ .
١٩ ـ انظر الجاحظ ـ الحيوان ، جـ ٦ . ص ٢٢٧ .
٢٠ ـ انظر المصدر السابق . جـ ٦ . ص ٢٢٨ .

٢١ ـ انظر المصدر السابق . جـ ٦ . ص ٢٢٧ .
٢٢ ـ انظر مجموع الفتاوي ـ جـ ٢ ، ص ٥١ ، جـ ٣ . ص ٧٣ ، جـ ٢٨ ، ص ١٤٨ .
٢٣ ـ انظر د. محمد مندور . الأدب ومذاهبه (مصر بدون تاريخ) ص ٧١ ـ ٨٠ .
٢٤ ـ انظر في الشعر . تحقيق وترجمة د. شكري محمد عياد (مصر ١٣٨٦ ـ ١٩٦٧م) ص ٢٨ ـ ٣٦ .
٢٥ ـ انظر فن الشعر . ترجمة لويس عوض (مصر) ١٩٧٠ ص ١٦ ـ ٣٨ . وانظر كرمبي قواعد النقد الأدبي . ترجمة محمد عوض محمد (مصر ١٩٥٤) ص ٤٦ .
٢٦ ـ انظر ابن رشيق . العمدة . تحقيق . محمد محي الدين عبد الحميد (مصر ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م) جـ ١ . ص ١١٧ .
٢٧ ـ انظر الشعر والشعراء . تحقيق أحمد شاكر . (مصر ١٩٦٦م) جـ ١ . ص ٧٠ .
٢٨ ـ انظر عيار الشعر . تحقيق عباس عبد الساتر (بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م (ص ٩ .
٢٩ ـ انظر نقد الشعر تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي (مصر ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) ص ٦١ ـ ٦٢ .
٣٠ ـ انظر العمدة جـ ١ ، ص ١٣٤ .
٣١ ـ انظر سر الفصاحة . نشر عبد المتعال الصعيدي (مصر ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م) ص ٦١ .
٣٢ ـ انظر أبو هلال العسكري ـ الصناعتين . تحقيق د. مفيد قميحه (بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ص ٣٠ . وابن الأثير . المثل السائر . نشر د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانه (مصر ١٩٧٣م) جـ ١، ص ٤٠ .
٣٣ ـ ابن قتيبة . الشعر والشعراء . جـ ١ ، ص١٣٧ .
٣٤ ـ انظر العمدة جـ ٢ ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .
٣٥ ـ الجاحظ . البيان والتبين جـ ١ . ص ١٦٤ .
٣٦ ـ انظر المصدر السابق جـ ١ . ص ٦٥ ، ٧٣ ، ١٠٦ وجـ ٣ . ص ٢٦ .
٣٧ ـ الشعر والشعراء . جـ ١ ، ص ٩٠ .
٣٨ ـ انظر طبقات الشعراء . تحقيق عبد الستار أحمد فراج (مصر ١٩٧٦م) ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، ٢٢٨ ، ٢٥٤ .
٣٩ ـ انظر عيار الشعر . ص ٩ .
٤٠ ـ انظر الموازنة . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (مصر ١٩٥٩م) ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .
٤١ ـ انظر الوساطة . تحقيق . محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي (مصر ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م) ص ١٥ ، والعمدة جـ ١ . ص ١٢٩ . والمثل السائر . جـ ١ ج ص ٣٨ .
٤٢ ـ البيان والتبيين . جـ ١ ، ص ٢٣١ .
٤٣ ـ الشعر والشعراء ، جـ ١ ، ص ٩٤ .

٤٤ ـ الوساطه . ص ١٧ ـ ١٨ .
٤٥ ـ ابن قتيبة . الشعر الشعر والشعراء ، جـ ١ ، ص ٩٤ .
٤٦ ـ شرح ديوان الحماسة . نشر أحمد أمين . وعبد السلام محمد هارون (مصر ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م) جـ ١ . ص ٤ .
٤٧ ـ المصدر السابق جـ ١ . ص ٤ .
٤٨ ـ انظر الصولي . أخبار البحتري . تحقيق د. صالح الأشتر (بيروت ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م) ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .
٤٩ ـ أ. ارتشاردز . مبادىء النقد الأدبي . ترجمة . د. مصطفى بدوي (مصر ١٩٦٣م) ص ٣١٢ .
٥٠ ـ البيان والتبيين جـ ٣ ، ص ٢٦ .
٥١ ـ مادة «بده» .
٥٢ ـ المصدر السابق . مادة . «بده» .
٥٣ ـ الشعر والشعراء . جـ ١ . ص ٩٠ .
٥٤ ـ هدى شوكة بهنام . النقد الأدبي في نفح الطيب (العراق ١٩٧٧م) ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .
٥٥ـ ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، العمدة . جـ ١ . ص ١٨٩ ، ص ١٩٠ ـ ١٩٣ ، ص ١٩٧ ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .
٥٩ ـ انظر القاضي الجرجاني ـ الوساطة . ص ١٦ .
٦٠ ـ ٦١ ـ طبقات الشعراء . ص ١٠٥ ، ص ١٩٤ ـ ٢٠١ .
٦٢ ـ انظر عيار الشعر ص ١٠ .
٦٣ ـ انظر الوساطه ص ١٥ ـ ١٦ .
٦٤ ـ انظر البرهان . تحقيق د. حفني محمد شرف (مصر ١٩٦٩) ص ١٣٨ والعمدة . جـ ١ . ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، ومنهاج البلغاء . تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجه (تونس ١٩٦٦) ص ٢٧ وابن خلدون . المقدمة بيروت بدون تاريخ ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦ .
٦٥ ـ انظر العمدة . جـ ١ ، ص ١٩٨ .
٦٦ ـ المقدمة . ص ٦٣٥ .
٦٧ ـ الآمدي الموازنة . ص ٢٥ .
٦٨ ـ انظر ابن رشيق ـ العمدة . جـ ١ . ص ١٩٨ .
٦٩ ـ انظر . البرهان . ص ١٣٨ .
٧٠ ـ ابن سنان الخفاجي . سر الفصاحة ص ٢٧٩ .
٧١ ـ انظر الجهشياري ، الوزراء والكتاب . تحقيق . مصطفى السقا ، وابراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي (مصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م) ص ٧٥ .
٧٢ ـ انظر ابن رشيق . العمدة . جـ ١ . ص ١٩٨ .

٧٣ ـ عيار الشعر . ص ١٠ .
٧٤ ـ انظر سر الفصاحة . ص ٢٨١ .
٧٥ ـ انظر العمدة . جـ ١ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .
٧٦ ـ انظر المثل السائر . جـ ١ . ص ٤٠ ـ ٤١ .
٧٧ ـ انظر الوصايا في الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٧٤ ـ ٧٩ ، والجاحظ البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦٣ ـ ١٦٥ ، ٢٢٦ ـ ٢٢٧ . والحصري زهر الآداب . نشر محمد علي البجاوي (مصر ١٩٦٩م) جـ ١ ص ١١٠ ـ ١١١ .
٧٨ ـ انظر الموازنة . ص ٣٧٣ .
٧٩ ـ انظر الوساطة ص ١٥ ـ ١٦ .
٨٠ ـ انظر المثل السائر جـ ١ . ص ٣٥ .
٨١ ـ منهاج البلغاء . ص ١٩٩ .
٨٢ ـ انظر ديوانه . تحقيق أبو الفضل ابراهيم (مصر ١٩٦٩م) ص ٨ .
٨٣ ـ انظر المصدر السابق ، ص ٣٣٩ . والبيتان في الحصري . زهر الآداب ، جـ ١ ص ٢٤٠ مع بعض الاختلاف في البيت الأول .
٨٤ ـ انظر ديوانه . تحقيق . دريّة الخطيب ولطفي الصقال (دمشق ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥م) ص ٢٦ .
٨٥ ـ انظر ديوانه . تحقيق أبو الفضل ابراهيم . مصر ١٩٨٥ . ص ١٤١ .
٨٦ ـ انظر ديوانه . تحقيق محمد عبده عزام . (مصر ١٩٦٩) جـ ٢ . ص ٢٦٢ .
٨٧ ـ انظر ديوانه . تحقيق حسن كامل الصيرفي مصر . (١٩٧٧م) جـ ٢ . ص ٧٧١ .
٨٨ ـ الجاحظ . البيان والتبيين جـ ٣ . ص ٣٦٧ .
٨٩ ـ أبو الفرج الأصبهاني . الأغاني . تحقيق ابراهيم الابياري (مصر ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م) جـ ٩ . ص ٣٤٥٨ .
٩٠ ـ ابن بسام . الذخيرة . تحقيق د. احسان عباس (بيروت ١٩٧٥) ق ١ . م ١ . ص ٢٠٨ .
٩١ ـ منهاج البلغاء . ص ٧١ .
٩٢ ـ ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،)
ـ انظر أسرار البلاغة . تحقيق . هـ . ريتر . (استانبول ١٩٥٤) ص ٢٤١ ـ ٢٥٠ ص ٢٥٣ ، ص ٢٥٣ ، ص ٣١٧ ـ ٣١٩ .
٩٦ ـ ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ . منهاج البلغاء . ص ٧٢ ، ص ٧١ ، ص ١٢٨ ، ص ١١٦ ـ ١١٩ .
١٠٠ ـ ابن رشيق . العمدة . جـ ١ . ص ٢٠٥ .
١٠١ ـ المرزباني ـ الموشح . ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

١٠٢ ـ ابن رشيق . العمدة . جـ ١ . ص ٩٥ .
١٠٣ ـ ١٠٤ ، ١٠٥ ـ انظر الشعر والشعراء . جـ ١ . ص ٧٨ ، ص ٧٩ ، ص ٧٩ .
١٠٦ ـ طبقات فحول الشعراء . تحقيق . محمود شاكر (مصر ١٩٧٤م) ص ٢٥٩ .
١٠٧ ـ ١٠٨ ـ الحيوان . تحقيق عبد السلام محمد هارون (مصر ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م) جـ ٣ ، ص ١٣٠ ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .
١٠٩ ـ الموشح . ص ٥٨ .
١١٠ ـ انظر ابن قتيبة . الشعر والشعراء جـ ١ . ص ٧٩ ، وابن رشيق . العمدة جـ ١ . ص ٢٠٧ .
١١١ ـ الموشح . ٥٦٨ .
١١٢ ـ منهاج البلغاء . ص ٤٠ .
١١٣ ـ انظر الحيوان . جـ ٤ ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢ .
١١٤ ـ الجاحظ . البيان والتبيين . جـ ١ . ص ١٦٣ .
١١٥ ـ الشعر والشعراء . جـ ١ . ص ٨١ .
١١٦ ـ العمدة . جـ ١ . ص ٢٠٨ .
١١٧ ـ الجاحظ . البيان والتبيين . جـ ١ . ص ٢٣٣ .
١١٨ ـ ١١٩ ـ الشعر والشعراء . جـ ١ . ص ٨١ .
١٢٠ ـ انظر المرزباني . الموشح . ص ٥١٠ .
١٢١ ، ١٢٢ ـ انظر العمدة . جـ ١ . ص ٢٠٤ ، ص ٢١٤ .
١٢٣ ـ الجاحظ ، البيان والتبيين . جـ ٢ . ص ١١٠ .
١٢٤ ـ انظر ص ٥ . وانظر على سبيل المثال . الجاحظ . الحيوان . جـ ٣ ص ١٣١ ـ ١٣٢ ، وقدامة بن جعفر نقد الشعر . ص ٦٥ والآمدي الموازنة . ص ٣٨٢ .
١٢٥ ـ انظر ديوانه ص ٢٤٨ .
١٢٦ ـ انظر شرح ديوانه (مصر نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠م) ص ٥٩ ـ ٦٠ .
١٢٧ ـ انظر ديوانه . تحقيق . د. الشريف عبدالله الحسيني (نشر المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥ م) ص ٥٢ .
١٢٨ ـ انظر ديوانه . جـ ٢ . ص ٨٧٥ .
١٢٩ ـ الجاحظ . البيان والتبيين . جـ ٢ . ص ١٣ .
١٣٠ ـ جـ ١ ، ص ١٢ .

٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-٣

معركة ميريوكيفالوم

٥٧٢هـ ~ ١١٧٦م

من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي

إعداد

الدكتور

علي محمد علي عودة الغامدي

قسم التاريخ - كلية الشريعة - جامعة أم القرى

تعريف بالباحث

- د . على محمد عوده الغامدي
- حصل على البكالوريوس من قسم التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بتقدير عام ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى سنة ٩٥ / ٩٦ هـ .
- وحصل على الدكتوراه من القسم نفسه عام ١٤٠٦ هـ بتقدير ممتاز .
- له من الكتب المطبوعة :

١ - بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ٤٦٣ - ٤٩١ هـ
٢ - بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ٥٨٩ - ٦٥٧ هـ

ملخص عن معركة ميريوكيفالوم وأهميتها
٥٧٢ هـ / ١١٧٦م

تنبع أهمية معركة ميريوكيفالوم من النتائج المهمة التي تمخضت عنها ، ومما يؤسف له أن هذه المعركة الحاسمة تكاد تكون مجهولة لدارسي التاريخ الاسلامي ، ويعود السبب في هذا الى أن المصادر الاسلامية المعاصرة لم تتحدث اطلاقا عن المعركة ؛ بل لم تشر اليها أبدا . ولا يوجد تفسير لاغفال المؤرخين المسلمين لذكر هذه المعركة الحاسمة، فقد كان يعيش في زمن المعركة العديد من المؤرخين الكبار في العراق والشام ومصر مثل ابن الجوزى، وبهاء الدين بن شداد ، والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وابن الأثير وغيرهم . وقد فصّلوا كثيرا في الحوادث التاريخية التي جرت في عصرهم دون أن يشيروا لتلك المعركة ، ولعل أخبارها لم تصل اليهم أو انهم لم يدركوا أهميتها فأغفلوها .

ويضاف الى هذا أنه لم يوجد أي مؤرخ مسلم في تلك الحقبة في آسيا الصغرى حتى يتحدث عن تلك المعركة ، ولهذا السبب كادت المعركة أن تكون مجهولة لدى الكثير من المتخصصين في دراسة التاريخ الاسلامي .
وقصة المعركة جاءت مفصلة في رسالة الامبراطور البيزنطي مانويل الأول الى صديقه الانجليزي هنري الثاني . اضافة الى ما ذكره المؤرخ البيزنطي نيستاس خونياتس ، وغيره من مؤرخي البيزنطيين والفرنج .

ولقد تمخض عن هذه المعركة دمار الجيش البيزنطي وتدهوُر الامبراطورية البيزنطية بعد أن كانت تقوم بشن الحروب الضارية ضد المسلمين في آسيا الصغرى وبلاد الشام ، كما تمخض عن المعركة توطيد نفوذ دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وازدهارها . ونتج عنها أيضا تأمين الجناح الشمالي للجبهة الاسلامية المتحدة بقيادة صلاح الدين الأمر الذي مكنه من المضي قدما في جهاده ضد الصليبيين دون أن يخشى جانب الدولة البيزنطية .

معركة ميريوكيفالوم ٥٧٢هـ/١١٧٦م
« من المعارك الحاسمة في التاريخ الاسلامي »

أصبحت آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد (مانزيكرت) ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م مفتوحة على مصراعيها أمام الأتراك السلاجقة وقبائل التركمان ، وتوغلوا فيها جميعاً[١] وفي سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٥ م فتح سليمان بن قطلمش مدينة نيقية (ازنيق الحالية) واتخذها عاصمة له . ومنذ ذلك الحين ظهرت إلى الوجود دولة سلاجقة الروم نسبة الى بلاد آسيا الصغرى (الأناضول) التي كانت تعرف باسم بلاد الروم[٢] .

تذكر أنّا كومنين Anna Comnena أنه « بعد اندفاع الترك من مناطق بيثينيا Bithynia الساحلية والبسفور بالاضافة الى أجزاء داخلية من البلاد ، عقد الأمبرطور معاهدة سلام مع سليمان » وعن طريق هذه الاتفاقية (يونيه ١٠٨١م) وافق السلطان سليمان على ألا يضايق بيثينيا ، وأصبح الحد المعترف به بينهما هو نهر دراكون Dracon، وقد عقد الامبراطور الكسيوس كومنين Alexius Comnnenus (١٠٨١ ـ ١١١٨م) تلك الاتفاقية كي يتفرغ لمشكلاته مع النرمان في صقلية وايطاليا[٣] . على أن ذلك يشير بوضوح الى أن الدولة البيزنطية أخذت تتعامل مع السلاجقة في آسيا الصغرى كحقيقة واقعة ، رغم أن هدف استعادة تلك البلاد الى حظيرة الامبراطورية ظل أملا ماثلا في أذهان الأباطرة البيزنطيين من أسرة آل كومنين ، وناضلوا في سبيل تحقيقه بكل الوسائل .

قام سليمان بن قطلمش ، بعد تلك المعاهدة ، بفتح انطاكية سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م الأمر الذي أدى إلى اندلاع الحرب بينه وبين تتش شقيق

---

(١) عن تفاصيل معركة ملاذكرد انظر : ابن الأثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٥ ـ ٦٧ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٨ ٢٦١ ـ ٢٦٣ ؛ علي عودة الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ص ١٣٠ ـ ١٤٠ .

(٢) The Cambridge History of Islam, Vol IA, Cambridge, 1980, PP, 233-234.

(٣) Anna Comnena : The Alexiad of Anna Comnena, Translated by E.R.A Sewter, London, 1969, P, 198.

السلطان ملكشاه ، وانتهت بمقتل سليمان في سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م[١] .

ولم تستطع الامبراطورية البيزنطية الافادة من مقتل سليمان بن قطلمش وتحطُّم الوحدة السياسية للأناضول ولا سيما بعد أن أُرْسِلَ أبناء سليمان الى السلطان ملكشاه ، وأضحى عرش نيقية شاغرا ، ويعود سبب ذلك الى أن أبا القاسم ، الذي تركه سليمان نائبا عنه فى نيقية ، تقدم إلى المضايق مهددا الدولة البيزنطية مرة اخرى ، كما أن السلطان ملكشاه ارسل حملة بقيادة الامير بوزان الى آسيا الصغرى لادخال اتراك الاناضول تحت سيطرته ، الامر الذي دفع الامبراطور الكسيوس الى ان يتحالف مع ابي القاسم ضد حملة ملكشاه خوفا من سقوط الاناضول تحت سيطرة السلاجقة العظام . وحالت وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م دون ضم آسيا الصغرى الى دولة السلاجقة في فارس . ولا ريب ان الذي دفع الكسيوس للتحالف مع ابي القاسم ضد حملة ملكشاه هو حرصه على ان تبقى آسيا الصغرى بعيدة عن سيطرة السلاجقة العظام ، الامر الذي يُمَكِّنه من استغلال المنافسات بين الامراء الاتراك ومحاولة استعادتها مرة أخرى غير أن انحسار نفوذ سلاجقة الروم لم يستمر طويلا ، فبعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م جرى اطلاق سراح قلج أرسلان بن سليمان فسار الى الأناضول ، فرحب به الأتراك هناك ، ونصّبوه على عرش نيقية ، واستطاع أن يعيد تنظيم دولة والده مرة أخرى ودفع البيزنطيين بعيداً ، بعدما كانوا يحاولون توطيد نفوذهم على الشواطيء الشرقية لبحر مرمرة[٢] .

وقبل الحديث عن معركة ميريوكيفالوم يجدر أن نشير ، باختصار شديد ، الى أهم الجهود التي بذلها البيزنطيون للاستيلاء ، مرة أخرى ، على آسيا الصغرى ، وطرْد الأتراك السلاجقة منها وجهود الأمبراطور مانويل لفرض سيادته على الصليبيين في بلاد الشام ، ومدى ما حققته تلك الجهود من نجاح للدولة البيزنطية ، وذلك لتقدير النتائج الضخمة التي نجمت عن معركة ميريوكيفالوم .

---

(١) Ibid, PP, 198-199- The Cambridge History of Islam, Vol IA, PP, 235-236.

(٢) The Alexiad, PP, 206-207, 210; The Cambridge History of Islam, Vol Ia, pp, 236-238.

وكانت أولى المحاولات الجادة التي بذلها الكسيوس لاسترداد آسيا الصغرى في سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م عندما وصل أمراء الحملة الصليبية الأولى الى القسطنطينية ، وبعد مناورات كثيرة وشاقة قام بها معهم استطاع اقناعهم بأن يقسموا له يمين الولاء باعادة جميع الأقاليم التي فتحها السلاجقة المسلمون من البيزنطيين منذ زمن قريب ، وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور الكسيوس بامداد الصليبيين بالمؤن والعتاد والادلاء برا وبحرا ومساعدتهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا[١] .

وفي الوقت الذي كان فيه قلج أرسلان يعمل على توطيد نفوذه في شرقي آسيا الصغرى ، عبر الصليبيون مضيق البسفور ، وتوجهوا الى عاصمته نيقية فحاصروها نحو شهر ، فلم يسع حامية المدينة سوى التسليم لمندوبي الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، الذي استأثر بها لنفسه طبقا للاتفاق الذي عقده مع زعماء الحملة الصليبية حينما أقسموا له يمين الولاء[٢] . ولقد تكبد سلاجقة الروم خسائر فادحة في القوة البشرية وعلى الأرض بسبب الحملة الصليبية الأولى[٣] . واستطاع الامبراطور الكسيوس الافادة من تلك الخسائر ، فأرسل جيوشه الى منطقة ليديا في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى فاستولت على المنطقة بما فيها من مدن بالغة الأهمية مثل افسوس Ephesus وأزمير Smyrna وسارديس Sardis وغيرها[٤] .

وتهيأت أعظم الفرص للأمبراطورية البيزنطية للاستيلاء على آسيا الصغرى مرة أخرى في أعقاب مصرع السلطان قلج أرسلان الأول سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م على نهر الخابور خلال معركة مع سلاجقة العراق ، فتدهورت دولة سلاجقة الروم

---

(١) The Alexiad, pp, 313-329; Setton, K.M. (Editor) A History of the Crusades, The Universitu of Wisconsin press, 1969, Vol I, pp, 284-288.

(٢) The Alexiad, pp, 230-237; William of Tyre A History of Deads Done Beyond the Sea, translated, and annotated by Emily Babcok and A.C. Krey, New York, 1943, Vol I,pp, 152-159.

(٣) The Cambride History of Islam, Vol IA, P,238.

(٤) Ostogorsky, George, History of Byzantine State, translated by Joan Hussy, Oxford, 1968, p, 364.

بعد وفاته ، وأفاد البيزنطيون من تلك الأزمة التي حلت بسلاجقة الروم ، فأخذوا المبادرة بالهجوم على جميع المناطق الساحلية للأناضول ، بحيث شرع الأتراك المسلمون في تلك المناطق في التراجع الى وسط الأناضول ، ولكن ذلك التراجع كلفهم خسائر جسيمة ، فبينما كان جمهور كبير من السكان الأتراك يخيمون بجوار يلوباد Ulubad هاجمهم البيزنطيون وذبحوهم عن آخرهم بمن فيهم النساء والأطفال . كما قام الكسيوس وابنه حنا الثاني بطرد الأتراك من غربي الأناضول وشمال وجنوب المناطق الساحلية وفتكوا بهم . واستمر الامبراطور حنا الثاني (١١١٨-١١٤٣م) في هجومه فهزم الأتراك مرة أخرى ، واحتل بلدان دينيزلي (لـوديكيا) Denizli (Laodicaea) ويلوبـورلو (سـوزوبوليس) Uluborlu (Sozopolis). وفي سنة ٥١٥هـ/١١٢٠م أفاد الأمير غازي الدانشمندى من العمليات البيزنطية في البلقان ، وهزم دوق طرابيزون Trebizond. ومع أن السلطنة كانت ـ حينذاك ـ بأيدي السلاجقة الا أن الحكام الحقيقيين للأناضول هم الدانشمنديون . وفي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م نهض عرب ، شقيق السلطان مسعود ، وصاحب أنقرة وقسطموني ، للاستيلاء على عرش السلاجقة بقونية ، فتحالف مسعود مع الامبراطور البيزنطي حنا الثاني وهزم أخاه وأجبره على اللجوء الى قيليقية ، وقد مكن هذا البيزنطيين كي يحتلوا قسطموني ، غير أن حملة الامبراطور على قيليقية ، ومحاولات أخيه الاستيلاء على العرش في القسطنطينية أثناء غيبته ، جعلت الامبراطور يعود ادراجه ، الأمر الذي ساعد الأمير غازي الدانشمندي فاستولى على ساحل البحر الأسود ، وفي الوقت نفسه تقدم السلطان مسعود في غرب الأناضول ، وفي فترة قصيرة صار الأمير غازي الدانشمندي أقوى حكام الأناضول .(١)

وفي سنة ٥٣٤هـ/١١٤٠م عقد الأمبراطور حنا الثاني العزم على القضاء على أتراك الأناضول ، فقام بحملة ضخمة قاصدا نكسار عاصمة الدانشمنديين فوصل اليها بعدما تكبد خسائر فادحة في جنوبي الأناضول وحاصر المدينة ، وخلال الحصار نشبت معارك طويلة وشرسة بين الأتراك المسلمين والبيزنطيين .

---

(١) The Cambridge History of Islam, Vol Ia, pp, 239-240.

ونجم عن طول الحصار وصمود نكسار اضطرابات داخل الجيش البيزنطي ، فلجأ أحد أمراء الامبراطور الى السلطان السلجوقي ، واعتنق الاسلام ، واستقر بعد ذلك في قونية بعد أن زوجه السلطان ابنته . واضطر الامبراطور الى العودة الى القسطنطينية ، عن طريق البحر الأسود . وترتب على فشل هذه الحملة الضخمة ، التي بدأت بطموحات وامكانات كبيرة لاستعادة كل فتوحات الأتراك ، أن تقدم السلطان مسعود على طول منطقة انطاليا على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى .[١]

وما حدث من انصراف السلطان مسعود لتوطيد نفوذه في الشرق ، واندفاع قبائل التركمان في غربي الأناضول ، متتبعين أودية نهري ميندريس Menderes وجيديز Gediz. جعل الأمبراطول مانويل الأول Manuel (١١٤٣ - ١١٨٠) يقوم في سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م بتجهيز حملة قادها بنفسه للقضاء على الأتراك في الأناضول . وبعد أن نجح في تصفية حسابه مع الأتراك في غربي الأناضول ، زحف نحو العاصمة السلجوقية قونية ، وهزم قوات السلاجقة في مدينة اكشيهير Akshehir وأحرق المدينة ثم اندفع الى قونية . ولما علم السلطان مسعود بدنو الخطر عاد مسرعا من الشرق ، وأعد جيشا في أقسراى Aksray، وكان البيزنطيون قد دمروا منطقة قونية بكاملها وقتلوا عددا كبيرا من السكان ، حتى أنهم نبشوا بعض قبور المسلمين . وأمام قونية هاجم السلطان مسعود البيزنطيين الذين فوجئوا بالهجوم ، فتراجعوا بعد أن أشرفوا على هزيمة خطيرة . وبرغم هذه المعركة فان قدوم الحملة الصليبية الثانية ، التي هددتها معا ، جعلت الامبراطور مانويل يعقد الصلح مع السلطان مسعود ، الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في نفوس الصليبيين[٢] .

---

(١) The Cambridge History of Islam, Vol Ia, p, 240.

(٢) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 241; Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire– 324-1453, 2 Vols, Madison, 1976, p, 417;
The Cambridge Medieval History, Vol IV The Byzantine Emprie, part I Byzantium and its Neighbours, Cambridge, 1966, p, 226.

على أن فشل الحملة الصليبية الثانية والهزائم التي حلت بالصليبيين على يد نور الدين محمود ، هيأت الفرصة للأمبراطور مانويل لفرض نفوذ الدولة البيزنطية على الصليبيين في بلاد الشام وبخاصة على امارة انطاكية التي كان يحكمها ، حينذاك ، ريجنالد دي شاتيون Reginald of Chatillon المعروف في المصادر الاسلامية باسم " أرناط " . والذي قام في سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م بغارة مدمرة على جزيرة قبرص التابعة للبيزنطيين ، وارتكب فيها أعمالا مشينة من القتل والهتك والنهب ، ومثّل بالبيزنطيين فيها أشنع تمثيل . فقام الامبراطور مانويل في سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م بحملة ضخمة ، ووصل الى قيليقية فاحتل مدنها الكبرى ، وحين شعر ريجنالد دي شاتيون بالخطر قَدِمَ الى الامبراطور عند المصيصة ، ودخل عليه حافي القدمين ، حاسر الرأس ، رابطا رقبته بحبل ، وقابضا على سيفه المسلول من طرفه ، وسلمه الامبراطور من مقبضه ، وانبطح على الأرض سائلا الامبراطور العفو والصفح ، فعفا عنه الامبراطور بعد أن اعترف بالتبعية للامبراطورية البيزنطية . كما حضر ملك بيت المقدس الصليبي بلدوين الثالث Baldwin (١١٤٤ - ١١٦٢م) وعقد معاهدة مع مانويل الأول اعترف فيها بالسيادة العليا للامبراطورية البيزنطية . ولما كان ملك بيت المقدس - يعتبر في عرف الصليبيين - هو السيد الأعلى لكل الامارات الصليبية في بلاد الشام ، فان تلك الاتفاقية أظهرت الأمبراطور البيزنطي وكأنه السيد الأعلى على الصليبيين في بلاد الشام . ثم توجه الأمبراطور البيزنطي الى انطاكية ممتطيا صهوة جواده ، وعلى رأسه التاج المرصع بالجواهر والى جانبه أرناط ماشيا وممسكا بلجام حصان الامبراطور ، وخلفه بلدوين الثالث حاسر الرأس بدون سلاح ، وقضى الامبراطور مانويل الأول ثمانية أيام في انطاكية ، واحتفى به أهلها ، وأعلامه ترفرف على أسوار المدينة وقلعتها .(١)

---

(١) William of Tyre, History of Deeds, Vol 2, pp, 274-282; Setton, A History of The Crusades, Vol I, pp, 540-547– The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, pp, 234-235– Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol II, pp, 426-427.
سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ص ٦٣٣ - ٦٣٤، ٦٥٣ - ٦٥٥.

ولا ريب أن الأمبراطور مانويل حقق نجاحا من وراء حملته تلك ، ومما ساعده فشل الحملة الصليبية الثانية ، فأصبحت الامبراطورية البيزنطية في نظر الصليبيين في بلاد الشام ، الملاذ الأخير الذي يصح أن يلوذوا به ، في وقت كان فيه نور الدين يمضي قدما في بناء الجبهة الاسلامية المتحدة ومنازلة الصليبيين . وفي انطاكية حاول الصليبيون حَمْلَ الأمبراطور مانويل الأول على مهاجمة نور الدين ، غير أنه استجاب أخيرا لعرض نور الدين بعقد الهدنة مقابل اطلاق سراح عدد كبير من أسرى الصليبيين الذين في أيدي المسلمين ، وتبادل الجانبان الهدايا ثم انسحب مانويل عائدا الى بلاده .[1] ويبدوا أن هدف الامبراطور من ذلك هو أن يبقى خطر نور الدين قائما على الصليبيين حتى يظلوا معترفين بسيادة الدولة البيزنطية ، لأنهم لا يعترفون بتلك السيادة الا حين يلوح الخطر ، ومتى انتفى الخطر ، انتفى الاعتراف بها . أما نور الدين فقد نهج بتلك الهدنة سياسة بعيدة الغور ، حتى لا يدخل في عداء صريح مع الامبراطورية البيزنطية ، ولكي يُبْقي على شعور الشك والريبة ـ القائم فعلا ـ بين البيزنطيين والصليبيين . ومما يبرهن على هذا أن نور الدين حينما أوقع بالصليبيين هزيمة ساحقة في سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤ م وفتح حارم وأسر بوهمند الثالث أمير انطاكية ، أشار عليه أصحابه بالمسير الى انطاكية والاستيلاء عليها ، رفض مشيرا الى أن مجورة بوهمند صاحبها «أحب اليّ من مجاورة صاحب قسطنطينية» ثم أطلق سراح بوهمند الثالث مقابل فدية كبيرة[2] . وهذا يدل على ادراك نور الدين لحرص الامبراطورية البيزنطية منذ فجر الحركة الصليبية على اعتبار انطاكية تابعة لها ، فآثر الا يفتح على نفسه جبهة ـ في ذلك الحين ـ هو في غنيً عنها .

ويرى بعض الباحثين المحدثين ان تلك الهدنة بين نور الدين ومانويل الأول تضمنت تحالفا ضد السلطان قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم[3] . على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ،
Stevenson, K.M. The Crusaders in The East, Cambridge, 1957, p, 181.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ١١ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

(٣) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 243.

أنه لا يمكن التسليم بهذا الاستنتاج ، لأنه لم يرد في المصادر المعاصرة أية اشارة لهذا التحالف المزعوم ، كما أن نور الدين محمود ـ بما عرف عنه من صدق العقيدة ، وشدة التقوى والورع ، والحرص الشديد على قضية الجهاد وعلى مصالح المسلمين ـ لا يمكن أن يُقْدِم على التحالف مع الامبراطور البيزنطي المسيحي ضد دولة اسلامية مهما كانت الأسباب .

ومما يدل على تأكيد السيادة البيزنطية على مملكة بيت المقدس الصليبية وسائر الامارات الأخرى ، تلك المعاهدة التي عقدها بلدوين الثالث مع الأمبراطور مانويل ، وضمن بها مساعدة بيزنطة ضد المسلمين ، بالاضافة الى نقش في بيت لحم يعود الى سنة ١١٦٩م جاء فيه اسم الامبراطور مانويل قبل اسم الملك عموري الأول Amaury I ملك بيت المقدس الذي خلف بلدوين الثالث .(١) وتوطدت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين بزواج عموري الأول ملك بيت المقدس سنة ١١٦٩م من ماريا Maria ابنة حنا كومنين وشقيقة الامبراطور البيزنطي مانويل الأول .(٢) وأعدّ الامبراطور البيزنطي في سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م اسطولا بحريا لمشاركة عموري الأول في غزو مصر ، بعد أن ضمها نور الدين الى مملكته ووصل الأسطول وهاجم دمياط وفشل في الاستيلاء عليها بسبب الاجراءات الدفاعية التي اتخذها صلاح الدين ازاء تلك الحملة ، وبسالة أهل دمياط .(٣)

أما عن تطور العلاقات بين الامبراطور مانويل والسلطان قلج أرسلان الثاني والتي أفضت الى معركة ميريوكيفالوم الحاسمة ، فقد عمل مانويل كل ما في وسعه لتحقيق الهدف البيزنطي العتيد والمتمثل في الاستيلاء على آسيا الصغرى وطرْد الأتراك منها ، فعمد الى سياسة ماكرة تخدم هدفه في نهاية المطاف ، وهي اذكاء المنافسات وتعميق الانقسامات بين الحكام الأتراك في آسيا الصغرى ، أي تشجيع التدمير المتبادل للعنصر التركي ، ولا سيما بين قلج أرسلان الثاني وبين

---

(١) حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٢٨ .

(٢) William of Tyte, History of Deeds, Vol II, p, 344.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ص ٦٨٧ ـ ٦٩٠ .

أخيه شاهنشاه صاحب أنقرة وقسطموني ثم بين قلج أرسلان وبقية الأمراء الدانشمنديين .[١] ويبدو أن الامبراطورية البيزنطية حرصت على العمل على حفظ التوازن بين الأمراء الأتراك كيما تستنزف قواهم وامكاناتهم في الصراعات الداخلية . ولما كانت تدرك أن أقوى أولئك الحكام الأتراك في آسيا الصغرى هو قلج أرسلان الثاني ، فقد عملت على الحد من قوته وجَعْلِهِ تحت المراقبة حتى لا تزداد قوته على حساب الحكام الآخرين مما يهددها في نهاية الأمر ، ولذلك أرسلت القسطنطينية حملة سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م ضد قلج أرسلان ، وأوعزت الى بعض الأمراء الدانشمنديين بمهاجمة أملاك قلج أرسلان من ناحية الشرق كما شارك في الحملة حجاج صليبيون قدموا من جزيرة رودس ، وحققت الحملة النجاح على قلج أرسلان في وادي نهر الميانذر Meander الأمر الذي أجبره على طلب الصلح من الامبراطور مانويل .[٢]

وفي سنة ٥٥٧هـ/١١٦١ - ١١٦٢م زار السلطان قلج أرسلان القسطنطينية فاستقبله الامبراطور مانويل استقبالا حافلا . وقد وصفت المصادر اليونانية (البيزنطية) الشرقية هذا الاستقبال ، فذكرت أن السلطان أمضى ثمانين يوما في العاصمة البيزنطية القسطنطينية ، حيث عُرِضَتْ ، بتفاخر ملفت للأنظار ، كل ثروات وأبهة العاصمة أمام الضيف الشهير الذي انبهر بمظاهر الاستقبال في القصر حتى أنه لم يجرؤ على الجلوس بجوار الامبراطور ، وبعد ذلك أقيمت على شرف السلطان مبارزات الفروسية البيزنطية ، ومهرجان بحري مع مناورة للنار الاغريقية . وفي مكان اقامته كان يُقَدَّم له الطعام مرتين في اليوم في آنية الذهب والفضة ، ثم لا تستعاد الآنية بل ترتب في محل اقامته ، وفي أحد الأيام ، وبعد ما تناول الامبراطور والسلطان مأدبة الغداء ، قدَّم الامبراطور

---

(١) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 243– Ostrogorsky, History of The Byzantine State, p, 390– The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 236.

(٢) Runciman, Steven, A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1968, vol II, p, 356–
The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 236.

الأوسمة وكل تلك الآنية هدية لضيفه[١] . ثم وقّع السلطان قلج أرسلان على معاهدة سلام ودية مع الامبراطور مانويل ، ومن شروط تلك المعاهدة ، أن يعيد قلج أرسلان المدن البيزنطية التي فتحها السلاجقة المسلمون منذ وقت قريب ، وأن يوقف الغزوات على حدود الامبراطورية ، وتعهد قلج أرسلان بأن يزود الجيش البيزنطي بفرقة عسكرية في أوقات الطوارىء .[٢] وهكذا ظهر قلج أرسلان بموجب تلك المعاهدة وكأنه أصبح تابعاً للامبراطورية البيزنطية .

غير أن تلك المعاهدة كانت قصيرة الأمد ، اذ لم يلبث السلطان أن أعلن لأصدقائه وحاشيته أنه أنزل بالامبراطورية البيزنطية أفدح الضرر بما حصل عليه من هدايا كثيرة قيمة من الامبراطور مانويل[٣] . ويبدو أن قلج أرسلان اعتقد أن الامبراطورية اشترت مسالمته بالمال حتى لا يهاجم حدودها ، ولذلك فقد انتهز فرصة انشغال الامبراطور مانويل الأول في بلغاريا ، لتعزيز موقفه في آسيا الصغرى[٤] . دون ان يدرك ان الامبراطورية البيزنطية ستعمل كل ما في وسعها للحيلولة دون ازدياد نفوذه ، ونمو قوته في آسيا الصغرى ، حتى لا يغريه ذلك بمهاجمتها . ففي سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م خرج مانويل قاصدا البلاد التي بيد قلج أرسلان وابن دانشمند ، فاعترض التركمان طريق الامبراطور ، واتّبعوا أسلوب الهجمات الخاطفة في الليل والاختفاء نهارا ، الأمر الذي أوقع الاضطراب في صفوف الجيش البيزنطي ، وقُتل من أفراده أعداد كبيرة ، فاضطر الامبراطور الى العودة الى القسطنطينة (ولما عاد ملك المسلمون منه عدة حصون)[٥] .

---

(١) Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol II, pp, 427-428.
وفي الحقيقة أن هذا تقليد درجت عليه الامبراطورية منذ عهد الكسيوس كومنين جد مانويل ، فعندما استقبل زعماء الحملة الصليبية الأولى غمرهم بالهدايا وتظاهر أمامهم بالفخامة والعظمة حتى يقسموا له يمين الولاء .
انظر : The Alexiad, pp, 313-326.

(٢) The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 236– Ostrogorsky, op. cit., p 390- Runciman, op.cit., Vol 2, p, 356.

(٣) Vasiliev, op.cit., vol II, p, 448.

(٤) Ostrogorsky, op.cit., p, 390; The Cambridge Medieval History, Vol Iv, part I, p, 236.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

وفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م نشبت الفتنة بين قلج أرسلان الثاني وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وتطورت الى اندلاع الحرب الشديدة بينهما ، فانهزم قلج أرسلان أمام ابن دانشمند ، فاستنجد قلج أرسلان بالامبراطور البيزنطي مانويل الأول الذي أرسل له مساعدة عسكرية طبقا لسياسته في اذكاء نار الخلافات بين الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى . ولكن ياغي ارسلان لم يلبث أن توفي واستولى قلج أرسلان الثاني على بعض بلاده « واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد ابن دانشمند ، لأنه ملك بعد عمه ياغي أرسلان ، واستولى ذو النون محمد ابن دانشمند على مدينة قيسارية . وملك شاهان شاه بن مسعود ، أخو قلج أرسلان ، على مدينة انكورية ، واستقرت القواعد بينهم واتفقوا »[1] كما يقول ابن الأثير . غير أن تفكك دولة بين دانشمند أغرى قلج أرسلان الثاني بأن يضم اليه بعض بلادهم ، ففي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م زحف على ملطية وسيواس فاستولى عليها وطرد منها صاحبها ذا النون محمد ابن دانشمند ، فهرب الأخير ، ملتجئا الى نور الدين محمود ومستمدا العون منه ، فأكرمه وأرسل الى قلج أرسلان يطالبه باعادة بلاد ذي النون اليه ، فلم يجبه الى طلبه . «وكانت عادة نور الدين ، أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة ، اما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما»[2] وإزاء إصرار قلج أرسلان على موقفه ، لم يجد نور الدين بدا من الضغط عليه عسكريا ، فسار الى جنوب آسيا الصغرى واستولى على بعض الحصون التابعة لقلج أرسلان ، كما أرسل فرقة عسكرية انتزعت سيواس وأعادتها الى ذي النون ، وعندما شعر قلج أرسلان بجدية تهديد نور الدين أرسل اليه طالبا الصلح ، فأجابه نور الدين الى طلبه ، وأرسل اليه شروطه ومن أهمها قوله : « اذا طلبت عسكرك الى الغزاة تُسَيّره ، فانك ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم ، فاما أن تنجدني بعسكرك لاقاتل بهم الافرنج ، واما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم » ولم يسع قلج أرسلان

---

(١) المصدر نفسه ج١١ ص ٣١٧ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتاكية ص ١٦٠ .

الا الموافقة على شروط نور الدين الذي ترك فرقته العسكرية في سيواس لمساعدة ذي النون بن دانشمند[١] .

وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م عاد قلج أرسلان واستولى على بلاد ذى النون مرة أخرى[٢] . ولم يجد ذو النون ابن دانشمند حليفا يشد من أزره ويقف الى جانبه ، بعد وفاة نور الدين ، فلجأ الى القسطنطينية شاكيا من قلج أرسلان كما أن شقيق قلج أرسلان شاهان شاه لجأ هو الآخر الى القسطنطينية بعد أن انتزع منه بلاده[٣] . ومن الطبيعي أن يستجيب مانويل الأول لذى النون وشاهنشاه ، ولاسيما بعد أن ازدادت قوة قلج أرسلان كثيرا بعد أن عزل سائر منافسيه وأصبح هو الحاكم الأقوى في آسيا الصغرى[٤] . كما أن قلج أرسلان استأنف من جانبه غزواته على حدود الدولة البيزنطية بتشجيع من الامبراطور الألماني فردريك بربرسا Frederick I Barbarassa الذي يبدو أن هدفه من ذلك تحويل انتباه مانويل عن التدخل في الشئون الأوروبية من ناحية ، وتخفيف الضغط على الامارات الصليبية في بلاد الشام من جانب المسلمين من ناحية أخرى[٥] .

ولذلك شرع مانويل في تحصين نشط لحدوده فأعاد بناء دوريليوم Dorylaeum كما أحرز بعض الانتصارات البسيطة في صيف سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م وأرسل الى البابا في روما يحثه على الدعوة الى حملة صليبية جديدة ، وبدأ في اعداد قوات الامبراطورية للزحف على آسيا الصغرى . ويبدو أن قلج أرسلان علم بالاستعدادات الضخمة للامبراطور مانويل وتصميمه على اجتياح بلاده ، فأرسل في شتاء ٥٧١ هـ/١١٧٥ - ١١٧٦م رسولا الى القسطنطينية ملتمسا تجديد اتفاقية الصلح ، فقوبل هذا الالتماس بالرفض[٦]

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص ٣٩٢ .

(٣) Runciman, A History of the Crusades, Vol II, P, 412; The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 237.

(٤) The Cambridge Histoty of Islam, Vol IA, p, 243.

(٥) Ostrogosrky, op.cit., p, 390– Browning, Ropert, The Byzantine Empire, New York 1980, P, 130– Hussey. J.M The Byzantine World, London, 1970, p, 62.

(٦) The Cabmbridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 237– Runciman, op.cit., Vol 2, p, 412.

وفي ربيع عام ٥٧٢ هـ/١١٧٦م قاد الامبراطور مانويل الأول كل قوات الامبراطورية البيزنطية عاقدا العزم على طرْد الأتراك من غربي آسيا الصغرى طردا تاما ، ثم الاستيلاء على العاصمة السلجوقية قونية[١] . ثم أرسل الامبراطور مانويل حملة من قواته بقيادة ابن عمه اندرونيكوس فاتاتزيس Aandronicus Vatatzes وبصحبته ذى النون الدنشمندى للاتجاه الى نكسار لانتزاعها من قلج أرسلان وتسليمها الى ذى النون ، ولكن ذا النون تخلى عن القيام بالدور المطلوب منه لمساعدة البيزنطيين[٢] . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا تخلف ذو النون عن القيام بالدور المناط به ؟ الحقيقة أنه لم يرد في المراجع المتداولة تفسير السبب الذي جعل ذا النون لا يقوم بالدور المكلف به . غير أن السبب لا يخفى على الباحث الحصيف اذا ما نظر للحوادث نظرة شمولية ، وعرف الموقف برمته في منطقة الشرق الأدنى حينذاك ، فالراجح أن ذا النون خشي أن تفشل حملة الامبراطور مانويل ـ وهو ما حصل بالفعل ـ وبالتالي لا يبقى له مكان يلجأ اليه هربا من انتقام قلج أرسلان ولا سيما وأن نور الدين محمود الذي حماه في السابق قد توفي في ذلك الحين ، وانقسم البيت الزنكي ، كما هو معروف ، وبدأ النزاع يحتدم بين صلاح الدين والزنكيين على السيطرة على بلاد الشام . كما لا يستبعد أن ذا النون شعر أن انتصار مانويل يعني انهيار نفوذ الترك وسيطرتهم على آسيا الصغرى ، وهذا يعني أن ذا النون يشارك في تدمير قومه مما سيلحق به عارا لا يمحى اذا ما شارك في الحملة . وكي لا يظهر بمظهر الخائن في نظر المسلمين بمشاركته أعدائهم . كل هذه الأسباب ، وربما بعضها ، حمل ذا النون على التخلي عن البيزنطيين ومخالفة الخطة المتفق عليها . وفي ربيع الأول ٥٧٢ هـ/سبتمبر ١١٧٦م وبعد أن تخلى ذو النون عن البيزنطيين حلت الهزيمة الساحقة بحملة اندرونيكوس فاتاتزيس عند أسوار نكسار ، وقُتِلَ وأُرسلت رأسه كدليل على النصر إلى السلطان قلج أرسلان[٣] .

(١) Browning, The Byzantine Empire, p, 130.

(٢) The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p, 237– Runciman, A History of the Crusades, Vol II, p, 412

(٣) Runciman, op.cit., vol II, p, 412.

والراجح أن خطة الامبراطور مانويل ارتكنت الى أن ينجح ابن عمه اندرونيكوس في الاستيلاء على نكسار في الوقت الذي يكون فيه الامبراطور قد حاصر قونية عاصمة قلج أرسلان ليبدأ بعد ذلك اندرونيكوس في الضغط على سلاجقة قونية من الشرق ، ويتم وضع مملكة قلج أرسلان بين فكي كماشة للاطباق عليها .

وكيفما كان الأمر ، فقد جمع قلج أرسلان عساكره من جميع حلفائه وأتباعه ، فأصبح يناهز في العدد جيش الأمبراطور البيزنطي وان كان يقل عنه في الأسلحة والعدة[1] ، ويبدو أن قوات السلطان الرئيسية تتكون من قبائل التركمان الرماة الذين يمتازون بدقة التصويب وخفة الحركة . وسار الأمبراطور مانويل بجيشه الهائل المثقل بالأمتعة والمؤن ومعدات الحصار ، قاصدا قونية عبر اقليم فريجيا Phrygia، واجتاز طريق لوديكيا Laodicaea وأعالي وادي نهر الماندر Meander مارا بحصن سوبلا يوم الذي بناه في السنة السابقة حتى وصل منطقة جبلية قريبة من الحدود ، بينما تقدم قلج أرسلان بقواته بمحاذاة اكشيهير Akshehir، وهنا جدد قلج أرسلان طلبه عقد الصلح ، فرفض مانويل مرة أخرى . وصعد الامبراطور بجيشه وادي الماندر نحو السلسلة الضخمة من جبل السلطان والمشتمل على شعب ضيق شديد الانحدار شمالي بحيرة اجريدير Egridir (المسمى حاليا ممر تشارداك Chardak pass) ويقع في نهاية الشعب حصن بيزنطي مهجور يعرف باسم ميريوكيفالوم Myriocephalum قرب الحدود . وكان الجيش السلجوقي قد احتشد حول التلال الجرداء المشرفة على الشعب بحيث أصبح واضحا بجلاء للبيزنطيين . وانقسم الرأي بين قادة الجيش البيزنطي ، فالقادة المتمرسون من ذوي الخبرة الطويلة في حروب آسيا الصغرى ، والمدركين لأساليب الترك القتالية أشاروا على الامبراطور بالتراجع ، وحذروه من مغبة مواصلة الزحف ، في حين حث القادة الشباب المتحمسين الامبراطور على المضي قدما عبر

---

(١) Ibid, vol II, p, 413

الممر متوهمين أن في مقدورهم اكتساح الأتراك واحراز النصر وتحقيق المجد فاستجاب الامبراطور لرأي القادة المتهورين[1] .

وفي ربيع الأول ٥٧٢ هـ/١٢ سبتمبر ١١٧٦م مضت مقدمة الجيش داخل الشعب الضيق غير مبالية بالأتراك الذين اعترضوا طريقها وحاولوا في البداية المقاومة ثم تراجعوا ، وفق خطة مرسومة على الأرجح ، وأخذ الأتراك المسلمون يدورون حول التلال ، وينقضون على جناح الجيش البيزنطي ومؤخرته ، في الوقت الذي واصلت فيه فرق الجيش الأخرى التقدم داخل الشعب ، وضغطوا على بعضهم البعض بشده ، وحاول صهر الامبراطور بلدوين الأنطاكي رد الهجوم التركي فقاد فرقة من الفرسان في هجوم مضاد على التلال غير أنه قُتل مع كل الفرسان الذين معه ، وكان الأتراك يلوِّحون برأس اندرونيكوس فاتاتزيس لكي يحطموا معنويات البيزنطيين ويفتوا في عضدهم ، نظرا لأنهم لا يعلمون المصير الذي آلت اليه حملته . وكان لمصرع بلدوين ورؤية رأس اندرونيكوس أسوأ الأثر على معنويات البيزنطيين المتورطين في الشعب . وفي تلك الأثناء فقد الأمبراطور شجاعته وولى هاربا خارج الشعب لا يلوى على شيء . وتبعه كل أفراد الجيش الذين وجدوا أنفسهم متشابكين مع عربات الأمتعة والمؤن التي سدت الطريق خلفهم ، وهناك انحدر عليهم الأتراك المسلمون من أعالي التلال ، وشرعوا يحصدونهم حتى حلول الظلام ، أما الامبراطور فقد جرى ايقافه أخيرا من قبل بعض ضباطه . وكان في الامكان ابادة الجيش البيزنطي بأكمله وأسْرْ الامبراطور مثلما حدث في ملاذكرد ، غير أن قلج أرسلان أمر أتباعه بالتوقف عن القتل فأنقذ

---

(١) Browning, The Byzantine Empire, p, 130– Runciman, op.cit., vol II, pp, 412-413– The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p, 237, 743– The Cambridge History of Islam, Vol Ia, p, 243.

ما تبقى من فلول الجيش البيزنطي ، على أن معظم الجيش الامبراطوري أبيد في المعركة[١] .

وقد صور المؤرخ البيزنطي المعاصر نيستاس خونياتس Nicetas Choniates تلك المعركة بأنها كانت « منظرا بالغ التمزق ، بل أنه يبز القول ، فالكارثة كانت عظيمة اذ أن القول أنها كانت فاجعة لا يكفي فالحفر امتلأت الى ذروتها بالجثث ، وهناك في الوهاد وأدغال الجبال كانت أكوام من القتلى ، ولم يعبر أحد بدون جروح أو عويل ، فالجميع كانوا يبكون ويولولون منادين أصدقاءهم وأقرباءهم المفقودين بأسمائهم»[٢] ..

شرع مانويل في جمع شتات بقايا جيشه الممزقة، وقَبِلَ السلطان قلج أرسلان التماس الامبراطور السلام ، واشترط عليه هدم الحصنين الجديدين ، دوريليوم وسوبلا يوم . فقبل مانويل راضيا وشاكرا هذه الشروط السهلة ، وانسحب مخربا تحصينات سوبلا يوم وتاركا دوريليوم ، وعاد مع بقاياه الممزقة صوب القسطنطينية . وقد أرسل معه السلطان ثلاثة أمراء من السلاجقة كمرافقين لحمايته من هجمات التركمان أثناء عودته[٣] .

---

(١) Browning, op.cit., pp, 130-131–
Runciman, op cit., vol II, p, 413–
The Cambridge History of Islam, Vol IA, p, 243– The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p, 237– Diehl, Charls, Greatness and Decline, New Jersey, 1957, pp, 207-208.

(٢) Vasiliev, History of the Byzantine Empitre, Vol II, p, 428.

(٣) The Cambridge History of Islam, vol IV IA, p,243– The Cambridge Medieval History, Vol IV, part I, p,237– Runciman, A History of The Crusades, vol II, p, 413.

لقد كان في مقدور السلطان قلج أرسلان املاء شروط قاسية على الامبراطور ، مثل اخلاء كل آسيا الصغرى فورا وتركها نهائيا للسلاجقة . ولذلك يعجب بعض أساتذة التاريخ البيزنطي لتلك الشروط السهلة التي قدَّمها قلج أرسلان لمانويل بعد المعركة ، والتي لا تتناسب مطلقا مع ما حازه من انتصار . ويذكرون أنه لأسباب لا تزال غير معروفة استخدم قلج أرسلان انتصاره باعتدال وفتح باب المفاوضات مع الامبراطور والتي أفضت الى معاهدة سلام معقولة لم تتضمن سوى تدمير بعض الحصون البيزنطية(١) . ويعزو بعض الباحثين الآخرين شروط قلج أرسلان السهلة ، إما لأنه كان قانعاً بحدوده المميزه وأن ما ينشده على الحدود الغربية هو الأمن والسلام ، أو لأنه لم يدرك حجم الانتصار الذي أحرزه(٢) . والواقع ان الأسباب التي حدت بقلج أرسلان الى تقديم شروط سهلة للامبراطور البيزنطي ، هي أن جُلّ اهتمامه كان منصبا نحو الشرق ، فكان يريد السلام على الحدود الغربية كيما ينصرف الى توطيد نفوذه في الشرق واخضاع بقية الامارات المستقلة في تلك المناطق ، ثم العمل على توسيع نفوذه في أعالي الجزيرة والشام ، ولا سيما وأن نور الدين محمود قد توفي ، وهو الرجل الذي كان قلج أرسلان يخشاه في هذه المناطق . اضافة الى أن صلاح الدين كان ـ حينذاك ـ منهمكا في توطيد نفوذه في مصر وفي جهاد الصليبيين ، بل وكان النزاع محتدما بين صلاح الدين وبين بقايا الزنكيين في شمال الشام والجزيرة . الأمر الذي يبدو أنه جعل قلج أرسلان يسارع بعقد الصلح مع الامبراطور مانويل ، لكي يفيد من ذلك النزاع لحسابه الخاص . ومما يزكى هذا الرأي أن قلج أرسلان شرع فعلا في التوسع في أعالي الشام والجزيرة وفرض الحصار على حصن رعبان المهم في شمال الشام ، والذي كان قد انتزعه منه نور الدين وهو في ذروة مجده ، ولكن صلاح الدين ـ رغم انشغاله حينذاك بقتال الفرنج وتخريب حصن بيت الأحزان ـ

---

(١) Vasiliev, op.cit., vol II, p,429.

(٢) The Cambridge History of Islam, Vol IA, p,243– The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p,237.

أرسل ابن أخيه تقي الدين عمر لنجدة رعبان فأنزل الهزيمة بقلج أرسلان ومنعه من التوسع في شمال الشام[١] . ولعل قلج أرسلان أدرك أن القضاء التام على نفوذ الدولة البيزنطية في كل آسيا الصغرى قد يحدو بها الى استثارة البابوية والغرب الأوروبي مما يجعلهم يشعرون بالخطر ـ مثلما حدث بعد ملاذكرد ـ الأمر الذي سيدفع بهم الى تجريد حملة صليبية ضده ، في وقت لا تزال فيه بعض أجزاء من آسيا الصغرى في الشرق والجنوب خارجة عن سيطرته .

وقد أدرك الأمبراطور مانويل نفسه مدى الكارثة التي حلت به وبالامبراطورية البيزنطية في معركة ميريوكيفالوم ، حتى أنه شبهها بمعركة ملاذكرد (مانزيكرت) التي وقعت للأمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس Romanos Diogenes قبل قرن من الزمان[٢] . ويقرر المؤرخ الألماني كوجلر Kugler ان معركة ميريوكيفالوم قررت والى الأبد مصير الشرق[٣] . ويمكن لنا القول : انها كانت نقطة تحول في تاريخ العالمين الاسلامي والمسيحي في ضوء النتائج التي تمخضت عنها وهي :

أولا : فيما يتعلق بسلاجقة الروم فالحقيقة أن معركة ميريوكيفالوم تضارع في أهميتها ونتائجها معركة ملاذكرد . فاذا كانت معركة ملاذكرد قد فتحت أبواب آسيا الصغرى على مصراعيها أمام الأتراك السلاجقة فان معركة ميريوكيفالوم وطدت ورسخت وجود الأتراك السلاجقة المسلمين على أرض آسيا الصغرى .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٥٨ .

(٢) Woodhouse C.M. Modern Greece, A Short History, London, 1968, pp, 76-77– Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p, 391– Browning, The Byzantine Empire, p,131.

من الاتفاقات العجيبة أن معركة ميريوكيفالوم تشبه معركة ملاذكرد حتى في بعض حوادثها ، اذ طلب قلج أرسلان الصلح قبيل المعركة مثلما فعل السلطان ألب أرسلان قبيل ملاذكرد ، ورفض مانويل مثلما رفض سلفه رومانوس . وكان هدف مانويل عاصمة السلطان قلج أرسلان مثلما كان هدف رومانوس عاصمة ألب أرسلان ، واعتمد السلاجقة المسلمون على خفة الحركة مثلما فعل اسلافهم في ملاذكرد ، وكان الجيش البيزنطي مثقلا بالمؤن والمعدات مثلما كان سابقه في ملاذكرد .

(٣) Vasiliev, History of The Byzantine Empire, vol II, p, 430.

ذلك أنه ترتب على معركة ملاذكرد ردة فعل عنيفة لدى الأباطرة البيزنطيين استمرت على مدى قرن من الزمان ، فبذلوا كل ما في وسعهم من محاولات لاسترداد آسيا الصغرى ، وتجسدت تلك المحاولات في الاستنجاد بالغرب الأوربي والبابوية من قبل ميخائيل السابع والكسيوس كومنين[1] ، ثم ما أمله الكسيوس من الافادة من الحملة الصليبية الأولى في استرداد آسيا الصغرى ، وما قام به الأباطرة من أسرة آل كومنين من محاولات جادة ، عن طريق الحملات التي قادوها بأنفسهم ضد الأتراك السلاجقة . فجاءت معركة ميريوكيفالوم لتبدد ردة الفعل تلك ولتقضي والى الأبد على كل الآمال والأحلام البيزنطية في اعادة آسيا الصغرى الى حظيرة الامبراطورية ، ناهيك عما نجم عن معركة ميريوكيفالوم من ازدياد الضعف والخور الذي انتاب الامبراطورية البيزنطية مما جعلها تقف عاجزة حتى عن الدفاع عن وجودها أمام الحملة الصليبية الرابعة بعد ٢٨ سنة على معركة ميريوكيفالوم . فصارت بلاد آسيا الصغرى أرضا للترك ، ومنذ أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أصبحت تدعى في المصادر الغربية باسم تركيا . كما أن قلج أرسلان تمكن بعد معركة ميريوكيفالوم من ارسال قواته الى غربي آسيا الصغرى ، ففتحت مناطق يلوبورلو Uluborlu وكوطاهيا Kutahya واسكى شهر Eskishehir . ولم يجد التركمان المسلمون بعد معركة ميريوكيفالوم صعوبة في التوغل بخيولهم وسائمتهم مع مجاري الأنهار حتى مصباتها في بحر ايجه . وبفضل هذا النصر الحاسم توطدت الوحدة السياسية للأناضول وساد بها القانون والنظام وبدأت حقبة التقدم الاقتصادي والثقافي ، وبلغت دولة سلاجقة الروم ذروة المجد في عصرها الذهبي الذي استمر حتى الغزو المغولي سنة

---

(١) عن استنجاد الدولة البيزنطية بالبابوية والغرب الأوربي
انظر :
Vasiliev, op.cit., Vol I, p, 358, vol II, pp, 358-389– The Cambridge Histoty of Islam, vol IA, p, 235.

٦٤١هـ / ١٢٤٣م، كما تكثفت طرق المرور الهامة للتجارة العالمية في تلك المنطقة وأصبحت آسيا الصغرى جزءا رئيسيا من العالم الاسلامي[١] .

ثانيا: كانت معركة ميريوكيفالوم بالنسبة للامبراطورية البيزنطية كارثة عظمى منيت بها . أراد الامبراطور مانويل أن يبدد الخطر السلجوقي فاذا به يقع مع امبراطوريته في هوة سحيقة لا سبيل الى الخروج منها . ومع ذلك فان مادحا مجهولا لمانويل قلب فراره الفعلي أمام الأتراك المسلمين الى واحدة من مآثره الرائعة حينما قال : « بعد الاصطدام مع حشود المهاجمين الأتراك اندفع (مانويل) الى الهرب بمفرده دون أن يخشى السيوف والسهام والرماح »[٢] . أما ابن أخت مانويل فقد زين بيته الجديد بصور زيتية ومن ضمنها صور تتضمن أعمال السلطان على الجدران ، ولكنه وضعها في الأماكن المظلمة من الدار تعبيرا عن التشاؤم ، وهي في حقيقتها تشرح الكارثة التي حلت بالامبراطورية في معركة ميريوكيفالوم[٣] . ورغم ادراك مانويل لابعاد الكارثة التي حلت به وحقيقة ما فقده في المعركة ، فانه حاول التقليل من هزيمته الساحقة في نظر معاصريه ، ففي رسالة طويلة بعث بها الى صديقه الغربي الملك هنري الثاني بلاتاجنيت Henery II Platagenet ملك انجلترا ، أعلن مانويل هزيمته ، ورغم أنه حاول بوضوح أن يخففها قليلا ، الا أن القصة الكاملة للمعركة أعطيت من جانبه في تلك الرسالة ، كما أورد فيها معلومات مهمة تتعلق باشتراك الرجال الانجليز في المعركة ، والذين خدموا الأباطرة البيزنطيين كجنود مرتزقة منذ سنة ١١٦٦م وبخاصة في الحرس الأمبراطوري[٤] .

---

(١) The Cambridge History of Islam vol IA, pp, 243-244, 258– Vryonis, Speros. Jr, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and The Process of Islamization From Eleventh through the Fifteenth Century, Los Angeles, 1971, pp, 124-126.

(٢) Vasilive, op.cit., vol II, p, 429.

(٣) Ibid, vol II, p, 429.

(٤) Ibid, vol II, p, 429.

غير أن كل تلك المحاولات لم تجد نفعا في التخفيف من وقْع الكارثة على الأمبراطورية ، فهيبة مانويل انحدرت الى الحضيض ، اذ أن هزيمته في معركة ميريوكيفالوم أذكت الرغبة لدى الأباطرة الجرمان من أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen في أن تصبح سيطرتهم عالمية الطابع ، أي على الشرق والغرب على حد سواء . فقد أرسل الامبراطور مانويل بعد معركة ميريوكيفالوم رسالة الى الامبراطور فردريك الأول بربرسا صاحب الامبراطورية الرومانية المقدسة The Holy Roman Empire صوَّر فيها وضع السلطان قلج أرسلان وكأنه ضعيف . غير أن فردريك بربرسا قد علم في ذلك الحين بحقيقة هزيمة مانويل الساحقة ، وفي رده عليه ، أعلن فردريك أن الأباطرة الجرمان تسلموا سلطتهم من أباطرة الرومان العظام ، ليحكموا ، ليس فقط الامبراطورية الرومانية بل المملكة اليونانية (الدولة البيزنطية) ، ولذلك أمر فردريك الملك اليوناني مانويل بأن يعترف بالسلطة للامبراطور الغربي ، ويذعن لسلطة البابا ، وأنهى فردريك خطابه بالاشارة الى أنه سوف يعدِّل سلوكه في المستقبل ازاء مانويل الذي كان يزرع عبثا القلاقل بين الأتباع الاقطاعيين ضد الامبراطورية الغربية . وهذا كله يشير بوضوح الى انهيار هيبة الامبراطورية البيزنطية ورغبة الامبراطور الألماني في استغلال هزيمة البيزنطيين وفرض سيطرته عليهم(١) .

ولم يستطع مانويل أن يخفى الأثر الذي تركته معركة ميريوكيفالوم في نفسه . وقد وصف المؤرخ الصليبي المعاصر وليام الصوري William of Tyre حالة مانويل النفسية حين زار القسطنطينية سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩م في طريق عودته من مجلس اللاتران الثالث Lateran Council الذي انعقد في روما ، وفي القسطنطينية حضر بعض الاحتفالات الامبراطورية ، ووصف حالة مانويل النفسية مؤكدا على أنه لم يسترد عافيته وطمأنينته أبدا ، وأنه لا يزال يحمل في قلبه أثرا عميقا منذ هزيمة ميريوكيفالوم ، ولم يعد يبدى روحا مرحة ، وهي التي كانت تميزه في السابق ، ولم

(١) Vasiliev, op.cit., vol II, p, 430– Hussey, The Byzantine World, p, 62– ostrogorsky, History of the Bzyzantine State, p, 391– The Cambridge Medieval History, vol IV, part I, p, 238.

يظهر مبتهجا أمام مواطنيه مهما تضرعوا اليه ولم يعد ينعم بصحة جيدة ، بعد أن كان قبيل تلك الحادثة مفعما بالصحة ، رابط الجأش بدرجة ملفته للنظر ، اذ أن تلك الهزيمة أخمدته الى الأبد . وأشار وليام الصوري الى ما تركته هزيمة ميريوكيفالوم من أثر سيء في نفوس الصليبيين[١] .

ونتج عن معركة ميريوكيفالوم تدمير الجيش البيزنطي الذي أنشيء تدريجيا وبتضحيات جسيمة للبيزنطيين . ولفترة من الزمن أصبحت الأمبراطورية بدون حماية عسكرية ، وجرى تطويقها من جانب أعدائها الذين طمعموا فيها . أما حلم مانويل في جعْل الامبراطورية مرة أخرى قوة عظمى فقد ذهب أدراج الرياح . وأخيرا طُردت الحاميات البيزنطية القليلة من ايطاليا وشرع الهنغاريون في جس الحدود الشمالية ، وأسهم الصربيون في زعزعة السيطرة البيزنطية ، وليس هناك سوى القليل الذي استطاع أن يفعله مانويل ازاء تلك الأزمات التي أخذت تترى على الامبراطورية بعد معركة ميريوكيفالوم ، فبدد موارد الامبراطورية ، وأنفق الثروة المكدسة من قبل والده ، الشديد الحرص في النفقة ، كما أنفق النفائس المعدة للاستخدام في أوقات الطوارىء على الجنود المرتزقة ، وابتدع حكم الطبقة العسكرية التي انفرد أعضاؤها بكراهية الشرقيين[٢] . والأمر الذي لا شك فيه أن فناء الجيش البيزنطي في معركة ميريوكيفالوم يفسر السهولة التي سقطت بها القسطنطينية أمام الحملة الصليبية الرابعة ، اذ لو قدر لجيشها البقاء لأصبح من العسير جدا على الحملة الصليبية الرابعة اقتحام القسطنطينية والاستيلاء عليها .

وصفوة القول ، أن الامبراطور مانويل كان يريد السيادة العليا على الإمارات الصليبية في الشرق والنجاح في هنغاريا ، وتوهم أن في مقدوره أن يحتل منطقة واسعة في ايطاليا وأن يحافظ على مركزه في سائر الميادين الشرقية والأوربية . جاءت معركة ميريوكيفالوم الحاسمة لتبدد كل المكاسب التي أحرزتها الامبراطورية

---

(١) William of Tyre, History of Deeds, vol II, pp, 414-416.

(٢) Browning, The Byzantine Empire Empire, pp, 131-132.

في السابق فانهار النفوذ البيزنطي في الشرق وطُرِدَ البيزنطيون من قيليقية وفقدوا السيطرة على آسيا الصغرى الى الأبد[١] .

ثالثا : أما عن أثر معركة ميريوكيفالوم على الصليبيين ، فقد حاول مانويل أن يثبت في السنة التالية للمعركة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م أنه لا زال قادرا على مساعدة الصليبيين فأرسل أسطوله بحرا للمشاركة مع مملكة بيت المقدس الصليبية لغزو مصر غير أن الحملة لم تبحر الى مصر مطلقا بسبب تقاعس فيليب كونت فلاندر Philip Count of Flander الذي وصل مؤخرا من أوروبا . ورغم احتفاظ مانويل بعلاقات جيدة مع أصدقائه الصليبيين في بلاد الشام وجهوده في سبيل ازالة الحواجز بين اليونانيين واللاتين ، وعمله على تقليص المشاحنات السياسية اللاذعة والتيارات الدينية المتنافرة بين الجانبين[٢] ، فان ذلك كله لا يمكن أن يحجب حقيقة تدمير قوات الأمبراطورية في معركة ميريوكيفالوم وانهيار السياج الأخير الذي يمكن أن يركن الصليبيون الى مساعدته في وقت الشدائد . وقد أدرك المؤرخ الصليبي المعاصر وليام الصوري تلك الحقيقة كما ذكرنا آنفا . ويعلق بعض الباحثين المحدثين بقوله : « إن الهزيمة الساحقة التي حلت بالامبراطور مانويل من جانب سلاجقة قونية (١٧ سبتمبر ١١٧٦) أقصت البيزنطيين بوصفهم حليفا فعالا في مستقبل الحملات الصليبية في بلاد الشام ومصر»[٣] .

ذلك أنه برغم شعور الشك والريبة الذي ساد بين الدولة البيزنطية والصليبيين منذ فجر الحركة الصليبية فانهم كانوا يلوذون بها وقت الأزمات وقد شاركتهم أحيانا في شن الحرب مباشرة على المسلمين مثل الحملة البيزنطية الصليبية المشتركة التي قادها الامبراطور حنا كومنين ضد عماد الدين زنكي سنة

---

(١) Ostrogrisk, op.cit., p, 391-Diehlg, Byzantium, Greatness and Decline, p, 208- Mayer, Hans Eberhard, The Crusades, translated by John Gillingham, Oxford University press, 1972, p, 125.

(٢) The Cambridga Medieval History, Vol IV, part 1, p, 238.

(٣) Ehrenkreutz, Andrew, S, Saladin, New York, 1972, p, 116 .

٥٣١هـ / ١١٣٨م[١] . لذلك كله من الطبيعي أن تصيب معركة ميريوكيفالوم الصليبيين بالفزع والهلع، لأنهم أدركوا أن انكماش الامبراطورية البيزنطية عن آسيا الصغرى وزوال مساعداتها المقدمة اليهم ولا سيما الى امارة أنطاكية بالذات جعلهم في الميدان وحدهم أمام المسلمين[٢] .

رابعا : أما عن أثر المعركة على الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين بقيادة صلاح الدين ، فعلى الرغم من أن سلاجقة الروم لم يرسلوا قواتهم للاشتراك مع صلاح الدين في جهاد الصليبيين الا أن قضاءهم على الجيش البيزنطي في معركة ميريوكيفالوم كفل الأمن للجناح الشمالي لجبهة صلاح الدين ، فقد كانت تلك الجبهة ، كما رأينا ، مصدر قلق لنور الدين محمود ابان حياته وحالت بينه وبين الامعان كثيرا في الضغط على الصليبيين . وليس هذا فحسب ، بل لقد أصبحت الامبراطورية البيزنطية بعد وفاة مانويل تتخلى نهائيا عن سياستها الصليبية وقلبتها رأسا على عقب ، فلم تجد غضاضة في التماس صداقة صلاح الدين فعقدت معه معاهدة سلام وصداقة ضد المصالح الصليبية في بلاد الشام[٣] . وبذلك خدمت معركة ميريوكيفالوم القضية الاسلامية برمتها . وهكذا كانت هذه المعركة الحاسمة احدى المآثر العظيمة التي قام بها الأتراك المسلمون في التاريخ الاسلامي .

---

(١) عن هذه الحملة انظر تفاصيلها في ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٥١ ـ ٥٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٦٩ ـ ٥٧٢ .

(٢) Runciman, A History of the Crusades, vol II, p, 414; Mayer, The Crusades, p, 125, Setton, A History of The Crusades, vol I, pp, 494-495.

(٣) Ehrenkreutz, Saladin, p, 154; Setton,op. cit, vol I, p, 584.
وعن طبيعة العلاقات بين الدولة البيزنطية وصلاح الدين وتطورها ، انظر : حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٣٤ ـ ٢٤٢ .

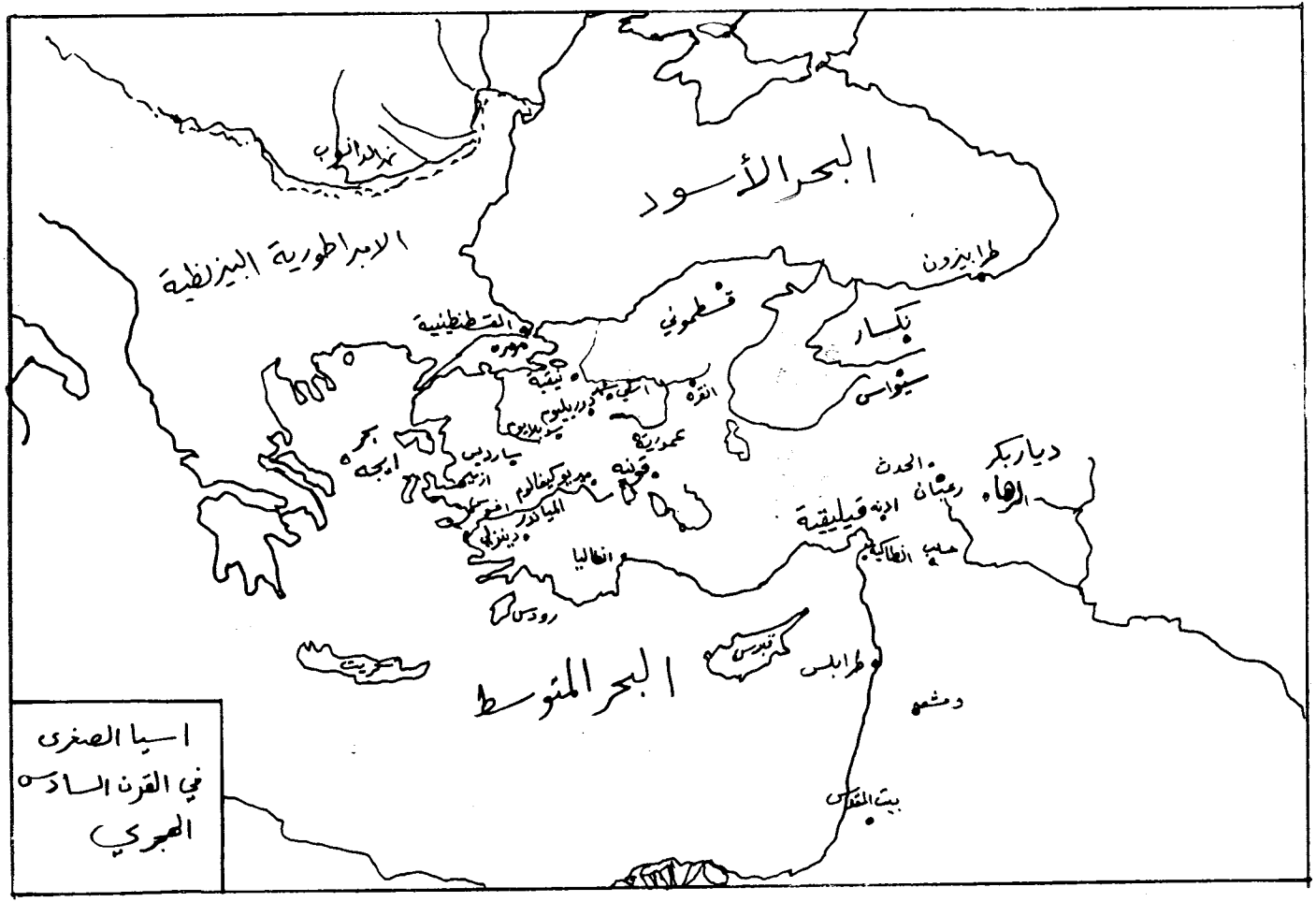
البحر الأسود
الامبراطورية البيزنطية
نهر الدانوب
القسطنطينية
مودرة
نيقية
دوريليوم
سيدي بلاريس
انقرة
قسطموني
طرابزون
نكسار
سيواس
عمورية
قونية
بحر ايجه
ازمير
ميلتوس
المياندر
ديزنزلي
انطاليا
رودس
قبرص
كريت
البحر المتوسط
طرابلس
دمشق
بيت المقدس
قيليقية
ادنة
انطاكية
حلب
الحدث
رعبان
الرها
ديار بكر
اسيا الصغرى
في القرن السادس
الهجري

مصادر ومراجع البحث

- ابن الأثير (علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ت. ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)
١ - الكامل في التاريخ ج ١١ بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م
٢ - التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر احمد طليمات القاهرة ، ١٩٦٣م
- ابن القلانسي (ابو يعلي حمزة بن القلانسي ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م). مفرج الكروب في اخبار بني ايوب جـ ١ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ م.
- حسنين محمد ربيع :
دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م
- سعيد عبد الفتاح عاشور :
الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧٨م

— Anna Comnena :
The Alexiad of Anna Comnena, translaterd by E.R.A. Sewter, London, 1969.
— Browning, Robert :
The Byzantine Empire, New York, 1980.
— The Cambridge History of Islam, vol IA, Cambridge 1980.
— The Cambridge Medieval History, vol IV (The BYzantine Empire, part I, Byzantium and its Neighbours) Cambridge, 1966.
— Diehl, Charls :
Byzantium, Greatness and Decline, New Jersey, 1957.
— Ehrenkreutz, Andrew, S.:
Saladin, New York, 1972.
— Hussey J.M:
The Byzantine World, London, 1970.
— Mayer, Hans Eberhard :
The Crusades, translated by Gillingham, Oxford University Press 1972.
— Ostrogorsky, George:
History of the Byzantine State, translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.
— Runciman, Steven :
A History of The Crusades, 3 vols, Cambridge, 1968.

— Setton, Kenneth M. (Editor) :
A History of The Crusades, 2 vols, The University of Wisconsin Press, 1969.

— Stevenson, K.M :
The Crusades in the East, Cambridge, 1907.

— Vasiliev, A.A. :
History of the Byzantine Empire, 324-1453, 2 vols, Madison, 1976, 1978.

— Vryonis, Speros, Jr :
The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from Eleventh through the Forteenth Century, Los Angeles, 1971.

— William of Tyre :
A History of Deeds Beyond the Sea, translated and annotated by Emily Babcock and A.C.Krey, New York, 1943.

— Woodhouse, C.M :
Modern Greece, A Short History, London, 1968.

٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-٤

الوظيفة الدينية وأثرها على التركيب الداخلي واستخدامات الأرض بمدينة مكة المكرمة

إعداد
أ.د. ناصر بن عبد الله الصالح
كلية العلوم الاجتماعية - قسم الجغرافيا
جامعة أم القرى

« تعريف بالباحث »

- د . ناصر عبد الله عثمان الصالح .
- بكالوريوس آداب - قسم جغرافيا - جامعة الملك سعود ١٣٨٤ هـ .
- ماجستير آداب - جامعة اريزونا - الولايات المتحدة الامريكية ١٣٩٠ هـ .
- دكتوراه آداب - قسم الجغرافيا - جامعة درم - انجلترا ١٣٩٥ هـ .
- يعمل حالياً استاذاً بقسم الجغرافيا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ومشرفاً عاماً على مركز أبحاث الحج بالجامعة أيضاً .
- عضو في العديد من المجالس والهيئات والجمعيات العلمية .

ملخص الوظيفة الدينية وأثرها على التركيب الداخلى واستخدامات الأرض بمدينة مكة المكرمة

كان وما يزال وسيظل لمكة المكرمة مكانة خاصة في نفوس المسلمين في كافة بقاع الأرض ذلك أنها بالنسبة لهم تشكل الموقع الذى اختاره الله ليضع فيه بيته الحرام وتشكل في نفس الوقت مهبط الوحي لخاتم الرسل سيدنا ونبينا محمد ﷺ وإلى جانب ذلك تظل محفورة في أذهانهم كلما إتجهوا إليها في صلواتهم في اليوم خمس مرات . إن الوظيفة الدينية لمكة المكرمة لا تتوقف عند هذا الحد الذهني البعيد بل تتجسد في كونها مدينة مقدسة يفترض في المسلم الحج إليها في العمر مرة واحدة على الأقل مع الاستطاعة ولهذا فإن المدينة تشهد زخماً بشرياً هائلاً ليس فقط في أشهر الحج بل وفي مواسم أخرى من السنة مثل شهر رمضان وشهر رجب وربيع الأول ليشهدوا العمرة ومنافع أخرى . ان مثل هذه المدينة المقدسة التى يزداد زوارها والحجاج إليها طوال أيام السنة في الآونة الأخيرة عن ستة إلى ثمانية أضعاف عدد سكانها الدائمين قد قامت بهذه الوظيفة منذ ولادتها الأولى على يد سيدنا إبراهيم عليه السلام وإقتضى ذلك أن تكون لها شخصيتها الحضرية المتميزة .

إن البحث والدراسة ستركز على إظهار الوظيفة الدينية لهذه المدينة وتبرز بشكل تفصيلى تأثير هذه الوظيفة على التركيب الحضري للمدينة وإستخدامات الأرض ومدى تفاوت هذا الاستخدام حسب المواسم الدينية وستعتمد الدراسة على مسح عام لكافة أنواع استخدامات الأرض بالمدينة مع التركيز على معرفة أنماط توزع مثل هذه الاستخدامات حول الحرم الشريف .

الوظيفة الدينية وأثرها على التركيب الداخلى وإستخدامات الأرض بمدينة مكة المكرمـــة

مقدمـــة : تعتبر مدينة مكة المكرمة قلب العالم الإسلامي النابض ، ففيها قبلة المسلمين وإليها يفد مئات الآلاف من الحجاج والمعتمرين للقيام بأحد أركان الإسلام الخمسة وهو الحج وأحد الواجبات الأساسية في الدين الإسلامي وهو العمرة بصورة مستمرة عبر القرون الماضية ، وإلى جانب ذلك فهى مهبط الوحي ومولد المصطفى ﷺ ومسراه وترتبط في أذهان المسلمين بالعديد من المآثر والمزايا والصفات ، كما ترتبط بالتاريخ الإسلامي وقبله برابط قوي لا تنفصم عراه . ولهذا جاء الاهتمام بالدراسات الجغرافية لهذه المدينة المقدسة ، وكان من واجبنا ونحن نعيش في كنفها ومن حقها علينا وقد غمرتنا بجلالها وقدسيتها أن نفيها بعض حقها بالدراسة والبحث والمسح والاستقصاء . وها هو هذا البحث مقدم في سلسلة أبحاث أعتزم تكريسها في جغرافية مكة المكرمة وقد شاركني في ذلك الاتجاه أخوة وزملاء أعزاء بقسم الجغرافيا بجامعة أم القرى .

وتستهدف الدراسة المقدمة إلى ابراز وظيفة مكة المكرمة الدينية ودورها في العالم الإسلامي وما تستأثر به من مكانة روحية عالية كمدينة مقدسة لدى كافة المسلمين في أصقاع الأرض المختلفة ، وستعمد الدراسة إلى تتبع تأثير هذه الوظيفة الدينية على التركيب الداخلى وعلى (مورفولوجية) مكة المكرمة من حيث النسق العمراني وتركيب شبكة الطرق وتوجه الشوارع والمنازل والمساجد ، ومن حيث الامتداد والنمو العمراني والتركيب الإجتماعي ، كما ستحاول الدراسة تقصى تأثير الوظيفة الدينية لمكة المكرمة على الأنماط المختلفة لاستخدامات الأرض بها من حيث توزيع الاستخدامات التجارية والصناعية والحكومية وغيرها ، والتفاوت المكاني لهذه التوزيعات حسب البعد والقرب من المسجد الحرام الذي هو قلب المدينة ومركزها . ومع كل هذه الأهداف السابقة فإن الباحث يأمل عن طريق هذه الدراسة أن يفتح مجالات أخرى للبحث في هذا الموضوع الهام والحيوي ،

وأن تؤتى هذه الدراسة وأمثالها ثمارها بأن تكون منطلقاً للدراسات التطبيقية التى تفيد في مجالات التخطيط وحل المعضلات التى تواجهها مدننا المعاصرة . وقد اعتمدت الدراسة على المسح الحقلي والعمل الميداني إلى جانب المشاهدات العابرة والقراءات المتمعنة في المسوحات والدراسات السابقة . حيث شمل المسح الحقلى بعض الظاهرات كتوزيع المباني ذات الارتفاعات العالية وكذلك الاستخدامات الحكومية والصناعية والتجارية . كما تم الإطلاع على المسوحات التى أجرتها الشركة الاستشارية المكلفة بمخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة والدراسات التى أجراها كل من الدكتور مجدي حريري والدكتور غازي مكي والدكتور محمد السرياني والأستاذ معراج مرزا عن الاستخدامات المختلفة في مكة المكرمة .

المبحث الأول
الوظيفة الدينية لمكة المكرمة

الفصل الأول : وظيفة مكة المكرمة الدينية قبل البعثة النبوية :

تقع مكة المكرمة في بطن وادي إبراهيم ، أحد الأودية التهامية المنحدرة من مرتفعات الحجاز المتجهة غرباً أو جنوباً بغرب لتنتهي في البحر الأحمر أو تزول آثارها قبله . ومن المسلم به عقائديا أن موقع مكة المكرمة قد تم إختياره بوحي من الله إلى نبيه آدم عليه السلام حين أمره بتشييد أول بيت لعبادة الله على الأرض ﴿ إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾[1] وقد اختلف في معنى البيت في هذه الآية هل هو البيت على اطلاقه أم بيت العبادة والطواف ونحو ذلك . فإذا أخذنا بالرأى الأول تكون مكة المكرمة أول موقع للاستيطان البشري على هذه البسيطة كما تكون مكة المكرمة بذلك أول بقعة يتم بها أول شواهد العمران في العالم . أما إذا أخذنا بالقول الثاني ، وهو الأرجح[2] ، فإن

(١) سورة آل عمران الآية ٩٦ .

(٢) محمد على الصابوني ـ مختصر تفسير ابن كثير ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت ـ ١٤٠٢ هـ ـ المجلد الأول ـ ص ٢٤١ .

وظيفة مكة المكرمة الدينية تتأكد بهذا الوحي الآلهى ، وتصبح منذ خلق الله آدم على هذه الأرض موطناً لهذا البيت العتيق حيث أجاب رسول الله ﷺ عندما سأله أبو ذر عن أول مسجد وضع قال : « المسجد الحرام »[1] . وقد عقب ذلك مباشرة أن أرشد الله نبيه إبراهيم عليه السلام إلى مكان البيت وعرّفه إياه وأذن له ببنائه بعد أن كان دارساً مطموس المعالم[2] . ثم تأتى مرحلة فرض الحج إلى هذا البيت العتيق ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق** ﴾[3] وقد أصبح الحج منذ ذلك الوقت (٤ آلاف سنة تقريبا) فريضة يؤديها عباد الله المسلمين حيث يقصدونه للحج ، كما تقصده اجناس كثيرة على اختلاف معتقداتهم وديانتهم .

وقد تأكدت هذه الفريضة على يد خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام ومما سبق يتضح التالي :

١ ـ أن مكة المكرمة كموقع قد تم إختياره بوحي من الله ولم يكن للبشر فيه أى قرار وذلك لأنه الموقع الذي وجد فيه بيت الله وحرمه الذي خلق يوم خلق الله السموات والأرض وذلك بدليل قوله ﷺ إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض إلى آخر الحديث الوارد يوم فتح مكة[4] .

٢ ـ أن هذا الإختيار كان بهدف أن يكون للبيت العتيق وظيفة منفردة كما جاء في الآية الكريمة على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ **ربّنا إنى اسكنت من**

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٢٠١ وكذلك انظر ـ محمد القرطبي ، **الجامع لاحكام القرآن** ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ الجزء الثاني ـ ١٣٥٣ ص ١١٠ ـ ١١٥ .
كذلك أنظر محمد الإزرقي ، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار** ، تحقيق رشدى الصالح ملحس ـ مطابع دار الثقافة ، مكة ـ الطبعة الثالثة الجزء الأول ص ٣٢ ـ ٤٥ .

(٢) أحمد عبد الغفور عطار ـ **الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم** ـ مكة المكرمة ١٣٩٧ هـ ص ١٦ ـ ١٩ .

(٣) سورة آل عمران ـ الآيات ٢٦ ـ ٢٧ .

(٤) أحمد عطار ، مرجع سابق ـ ص ١٤ ـ ١٥ .

ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] فكان المقدّر في علم الله أن يكون لمكة المكرمة هذه الوظيفة الدينية قبل البعثة النبوية لسيدنا وخاتم رسلنا ﷺ . ولم تقتصر هذه الوظيفة على المستوطنين في مكة المكرمة بل شملت كافة العباد خارج مكة والجزيرة العربية لأن الحج إلى مكة كان من العبادات المفروضة والمألوفة .

٣ ـ أن الاستيطان البشري لمكة بدأ بذرية إبراهيم الخليل عليه السلام كما ورد في القرآن الكريم واستمر حول الكعبة ومتأثراً بها وعرف عن مكة دورها الرائد في إجتذاب العرب وتجارتهم بتأثير الوظيفة الدينية ونتيجة النفوذ الواسع لقبيلة قريش .

٤ ـ أن الوظيفة الدينية لمكة المكرمة قد انعكست على بعض المؤسسات التى كانت سائدة في ذلك العصر كالسدانة والسقاية والرفادة والحجابة واللواء والقيادة التى كان لها أصحابها والقائمون عليها والمسؤلون عنها[2] .

٥ ـ أن الوظيفة الدينية الأزلية لهذه المدينة انعكست على أسمائها التى عرفت بها ومعانيها حيث أنه من الثابت عند العرب أن تعدّد الاسماء لموقع واحد دليل على شرف المكان ومن الأسماء التى أشتهرت بها مكة المكرمة قبل وبعد البعثة النبوية إلى جانب هذا الأسم هى بكّة والبلد الامين وأم القرى وقرية النمل والحاطمة والحرم والعرش وبرّه وصلاح وقطام وطيبة ومعاد الخ . .[3] ومن معاني أسمائها أن كلمة مكة مشتقة من مكّ الذنوب أو امتصاصها وإزالتها أو من اجتلاب الناس من كل جانب من الأرض كما قيل أن مكة سميت كذلك لأزدحام الناس بها ، وكذلك قيل أن اسم بكة مأخوذ من أنها تبكّ أعناق الجبابرة إذا

---

(١) سورة ابراهيم ـ آية ٣٧ .

(٢) الأزرقي ، مصدر سابق ص ١٠٣ ـ ١١٧ .

(٣) عمر رضا كحالة ـ جغرافية شبه جزيرة العرب ـ مكتبة النهضة الحديثة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٤ هـ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

ألحدوا فيها بظلم أن تدق ، وقيل أنها سميت بكة لأن الاقدام تبك بعضها أى تزدحم[1] وقد سماها بطليموس مكواربي .

٦ ـ أن الوظيفة الدينية القديمة لمكة المكرمة تظهر بوضوح في أن قدسية المدينة وقدسية المنطقة التى تحيط بها قد ارتبطت وأتحدت معها عدة نظم وأعراف كانت سائدة قبل الجاهلية مثل تحريم الاقتتال فيها والصيد وقطع الأخشاب والأشجار كما ورد في حديث ان الله حرم مكة يوم خلق السموات . . الخ وغير ذلك .

٧ ـ ان البيت الحرام وهو مركز القدسية في هذه المدينة لم يكن وحده المنفرد بهذه القدسية بل تشترك معه وتحيط به منطقة كبيرة لها نفس القدسية والمكانة ويعتبر تحديد هذه المنطقة أمراً توقيفياً أى نزل بوحى من الله على ملائكته ورسله إذ أن مثل هذا التحديد قديم قدم آدم أو إبراهيم عليهما السلام[2] وقد احتفظت هذه المنطقة (تسمى الحرم) بحدودها وعلامات حدودها (وتسمى الانصاب أو الاعلام) إلى يومنا هذا وهى المنطقة المحرم على غير المسلمين دخولها . ولا تزال كثير من وظائف المدينة الدينية والدنيوية تعتمد على مثل هذا التحديد وتتأثر به كما سنعرفه من المناقشات القادمة .

٨ ـ أن الاستيطان البشرى والعمراني في مكة المكرمة كان يتمحور حول البيت العتيق ويتركز في المنطقة التى تخدمه ولم يحدث أن شذّ العمران عن هذه القاعدة وبالتالي فإن الاساس والهدف من الاستيطان في هذه البيئة القاسية المعروفة بشدة تضرسها وجفافها وحرارتها هو أساس ديني في المقام الأول ﴿ **ربنا إني اسكنت من ذريتى بواد غير ذي زرع** ﴾ . . إلى آخر الآية الكريمة السابق الاشارة اليها .

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٢) معراج مرزا ـ **الاساس الجيومورفولجى لتحديد منطقة الحرم بمكة المكرمة** ـ بحث غير منشور قدم إلى الندوة الثالثة لاقسام الجغرافيا بالمملكة العربية السعودية بالرياض ـ ١٤٠٧ هـ ص ١ .

الفصل الثاني: الوظيفة الدينية لمكة المكرمة بعد البعثة النبوية :

جاءت الرسالة المحمدية الهادية إلى خير البشرية لتؤكد قدسية مكة المكرمة وتؤصل وظيفتها الدينية ولعل اعظم أنواع هذا التكريم الرباني لهذه المدينة أن جعلها مولداً لأفضل وأكرم رسله وخاتم أنبيائه سيدنا محمد ﷺ كما جعلها منطلقاً لهذه الرسالة الخاتمة ومهبطاً لوحيه وقبلة للمؤمنين من خلقه وقد اكتسبت المدينة من هذا المنطلق الديني عدة أبعاد فيما يخص وظيفتها الدينية كما تحدده النقاط التالية :

١ ـ استمرار وتأكيد الوظيفة الدينية لمكة المكرمة في الدعوة الإسلامية وذلك لنزول القرآن الكريم بها وتعظيمها في هذا الكتاب المُبين بل وحلف الله بها في أكثر من موقع ثم الأمر باستقبال الكعبة في صلاة المؤمنين وهى أكثر العبادات المفروضة تكراراً وتعد هذه الظاهرة ذات تأثير كبير في إتجاهات المباني والطرقات في كافة أرجاء العالم الإسلامي كما سيرد تفصيله فيما بعد .

٢ ـ ومن الأمور التى أكدت وظيفة مكة المكرمة الدينية من خلال مبادىء الدين الإسلامي الحنيف أنها أصبحت مقصداً للحج والعمرة بشكل دقيق ومرسوم في ظل شروط وواجبات وشعائر معينة مما أدى إلى اتجاه مئات الآلاف من الحجاج والمعتمرين صوب مكة المكرمة كل عام منذ فرضت العمرة والحج قاصدين البيت العتيق والمشاعر المقدسة والمدينة المنورة . وليس هناك بقعة على وجه البسيطة تشهد مثل هذا الحشد البشرى السنوى والموسمي ما تشهده هذه المدينة . وتعد هذه الظاهرة ذات تأثير جذرى على تركيب المدينة واستخدامات الأرض بها كما سيرد تفصيله في الفصول القادمة .

٣ ـ اكتسبت المدينة سمعة دينية وأنيطت بها مهام دينية جديدة استمراراً لدورها ووظيفتها السابقة وذلك بوجود مولد الرسول ﷺ بها وبوجود المكان الذى هبطت به الكلمات الأولى للوحى مع كل ما يرتبط بتاريخ الفترة الأولى للرسالة المحمدية مما يعزز ويقوى قدسيتها ومكانتها لدى المسلمين في شتى أقطار العالم وهم يقدّرون بربع سكانه ويربطهم بها برابط روحى لا ينفصم .

٤ ـ أن الشريعة الإسلامية أكدت في اكثر من مناسبة قدسية مكة المكرمة وفضلها على سائر المدن وذلك بذكر كثير من صفات الخير والتقوى والثواب المنتظر لقاصديها والمصلين في مسجدها الحرام والمعتمرين والحاجين إليه ومن ذلك ما ورد في فضل العمرة وخاصة في رمضان وفضل حج الجمعة وفضل المقام بمكة وسكناها وفضل الصلاة في المسجد الحرام وفضل الهجرة إليها والموت بها والدفن في جوف أرضها كذلك فضل مواجهة الكعبة الشريفة وشرب ماء زمزم إلى غير ذلك من الفضائل والمميزات التى امتازت بها مكة واكدت وظيفتها الدينية[1] .

٥ ـ نتيجة لهذه القدسية والمميزات والفضائل إتجه الكثير من المسلمين عبر القرون إلى مكة المكرمة ومن سائر أنحاء العالم الإسلامي بقصد المجاورة والسكني والإقامة التماساً للأجر والثواب وبقصد التفرغ للعبادة كما أن البعض منهم قصد مكة المكرمة بهدف العمل والاكتساب خاصة في مواسم الحج والعمرة وبذلك إجتمع في مكة المكرمة سكان مهاجرون دائمون ومؤقتون من سائر بلاد العالم وهم يشكلون في مختلف العصور الغالبية العظمى من السكان وهو ما لم يحدث في أى مدينة أخرى وسيرد تفاصيل هذه الظاهرة وتأثيراتها في الفصول القادمة .

٦ ـ ومن تأكيد الإسلام لحرمة مكة المكرمة وقدسيتها وتأكيد دورها ووظيفتها كعاصمة دينية وقبلة للمسلمين ومهبط للوحي ومبعث الرسالة ومركز أبدى للحج والاعتمار أنه شدّد وأكد على تحريم الحرم وأبقى على حدوده التى ذكرنا سابقاً أنها قد حددت بوحي وإيعاز إلهى وتأكيد التحريم والتنزيه يتناول في الشرع الإسلامي تحريم الاقتتال فيها ولا يختلى خلالها ولا يعضد شوكها أو شجرها ولا ينفر صيدها ولا ترفع لقطتها ، كما يتناول الابتعاد عن كل الرذائل والتغليظ

---

(١) أنظر في مجمل فضائل مكة المكرمة ما يلى :
الأزرقي ـ مرجع سابق الجزء الأول ص ٤٦ ـ ٥٠ ، الجزء الثاني ص ٣ ـ ٣٢ ، ٥٥ ـ ٥٧ ، ص ٦٢ ـ ٦٥ ، ١٢١ ـ ١٣٨ ، ص ١٥١ ـ ١٦٤ ، ص ١٩٨ ـ ٢٠٤ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٢ ، كذلك أحمد بن اسحاق الفاكهي ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، تحقيق عبد الملك بن دهبش ، مطبعة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ، الجزء الأول ص ١٦٠ ـ ١٦٨ ، ص ١٩٥ ـ ٢٠٠ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٤ ، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٨ ، ص ٤٣٦ ـ ٤٥٠ ، الجزء الثاني ص ٢٤ ـ ٥٠ ، ص ٨٩ ـ ١٠٧ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٧ ، ص ٢٤٦ ـ ٣٥٠ .

بالوعيد الشديد لمقترف المحرمات . وقد جاء في الأثر أن السيئات في الحرم تتضاعف مثل مضاعفة الحسنات[1] كما أن المرء يؤاخذ بمجرد التفكير في عمل السيئات وذلك على خلاف المواقع الأخرى على وجه هذه البسيطة حيث تحتسب السيئة بسيئة واحدة فقط والحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله كما أن المسلم في غير الحرم لا يؤاخذ بنية عمل السيئات بل بالإقدام على عملها وهذا مما تنفرد به مكة المكرمة عن سائر البلدان .

الفصل الثالث : الحج والعمرة :

يعتبر الحج والعمرة أهم مظهر ونشاط بشري يعكس الوظيفة الدينية الأزلية لمكة المكرمة كما ويعتبر أحد أهم العوامل المؤثرة في التركيب الداخلى للمدينة واستخدامات الأرض بها ليس في فترات الحج والعمرة فقط بل وعلى مدار السنة وعبر التاريخ الطويل لهذه المدينة المقدسة ولذلك كان لا بد من أن يفرد لهذا المظهر فصل خاص ومستقل ويمكن القول في البداية بأن الحج محدود بفترة زمنية معينة في حين يكون المجال الزمني للعمرة مفتوحاً ويأتى الاختلاف الثاني بينهما في أن الحج قد فرض قبل العمرة كما أن الحج يتطلب أداء شعائر ونسك لفترة أطول ومجال مكاني أكبر ، كما أن المعلومات الإحصائية عن الحج متوفرة بشكل أفضل بكثير عن تلك المتوفرة عن العمرة ، وبشكل عام فيمكن تدوين ما يلى مع ملاحظة ترك التفاصيل الخاصة بتأثير الحج والعمرة على التركيب الداخلى واستخدامات الأرض إلى المبحث الثاني :

١ ـ بما أن الحج والعمرة من القربات والأعمال الصالحة المرغوبة في الإسلام (الحج فريضة على كل مسلم ويؤدي مرة واحدة في العمر في حين تعتبر العمرة سنة) فقد أصبحت مكة المكرمة مقصداً ومزاراً للحجاج والعمار المسلمين من شتى أقطار العالم وخاصة الإسلامي منه وأخذت مكة تستقبل الآلاف بل مئات الآلاف منهم كل سنة بزيادة واضحة نتيجة تحسن وسائل النقل والاتصال ونتيجة تحسن الخدمات الحكومية التى تقدم إليهم . ومن خلال الجدول رقم (١) يتضح مدى

---

(١) الأزرقي ـ مصدر سابق ، الجزء الثانى ـ ص ١٣٧ .

جدول رقم «١»

الحجاج القادمون خلال الفترة من ١٢٥٠هـ إلى ١٤٠٧هـ حسب سنوات القدوم*

عام القدوم	عدد الحجاج	عام القدوم	عدد الحجاج
١٢٥٠	٢٩٠٦٥	١٢٧٩	٢٥٢٢٦٩
١٢٥١	٢٠١٨١	١٢٨٠	٢٨٥٩٤٨
١٢٥٢	٢٥٢٩١	١٢٨١	٢١٦٤٥٥
١٢٥٣	٣٢٨٩٨	١٢٨٢	١٩٩٠٢٨
١٢٥٤	٣٢٨٢٠	١٢٨٣	٢٦٦٥٥٥
١٢٥٥	٤٩٥١٧	١٢٨٤	٢٨٢٢١٩
١٢٥٦	٧٦٢٢٤	١٢٨٥	٢٩٤١١٨
١٢٥٧	٥٩٥٧٧	١٢٨٦	٣١٦٢٢٦
١٢٥٨	٣٢١٥٢	١٢٨٧	٣١٨٥٠٧
١٢٥٩	٩٠٢٤	١٢٨٨	٣٧٤٧٨٤
١٢٦٠	٢٣٨٦٣	١٢٨٩	٤٠٦٢٩٥
١٢٦١	٢٤٧٤٣	١٢٩٠	٤٣١٢٧٠
١٢٦٢	٦٢٥٩٠	١٢٩١	٤٧٩٣٢٩
١٢٦٣	٣٧٨٥٧	١٣٩٢	٦٤٥١٨٢
١٢٦٤	٣٧٦٣٠	١٣٩٣	٦٠٧٧٥٥
١٢٦٥	٦١٢٨٦	١٣٩٤	٩١٨٧٧٧
١٢٦٦	٥٥٢٤٤	١٣٩٥	٨٩٤٥٧٣
١٢٦٧	٧٥٦١٤	١٣٩٦	٧١٩٠٤٠
١٢٦٨	٩٩٠٦٩	١٣٩٧	٧٣٩٣١٩
١٢٦٩	١٠٧٦٥٢	١٣٩٨	٨٣٠٢٣٦
١٢٧٠	١٠٠٥٧٨	١٣٩٩	٨٦٢٥٢٠
١٢٧١	١٤٨٥١٥	١٤٠٠	٨١٢٨٩٢
١٢٧٢	١٤٩٨٤١	١٤٠١	٨٧٩٣٦٨
١٢٧٣	١٦٤٠٧٢	١٤٠٢	٨٥٣٥٥٥
١٢٧٤	٢٣٢٩٧١	١٤٠٣	١٠٠٥٠٦٠
١٢٧٥	٢٢٠٧٢٢	١٤٠٤	٩١٩٦٧١
١٢٧٦	٢١٥٥٧٥	١٤٠٥	٨٥١٧٦١
١٢٧٧	٢٠٩١٩٢	١٤٠٦	٨٥٦٧١٨
١٢٧٨	٢٠٧١٧١	١٤٠٧	٩٦٠٢٨٦

المصدر: وزارة الداخلية - المديرية العامة للجوازات: إحصائية الحجاج لعام ١٤٠٧هـ.

* هذه الأعداد لا تشمل الحجاج القادمين إلى مكة المكرمة من داخل المملكة العربية السعودية فمثلاً نلاحظ أنه إلى جانب عدد الحجاج القادم من خارج المملكة ١٤٠٧هـ وهو ٩٦٠٢٨٦ حاجاً فإن عدد الحجاج من الداخل قد بلغ ٦٥٨٩٢٨ حاجاً منهم ٢٦٠٥٨١ سعودياً

الزيادة الهائلة في أعداد الحجاج فقط ، أما المعتمرون فإنه من الصعب أعطاء صورة عن اعدادهم حيث لا تتوفر احصاءات دقيقة عنهم لطبيعة العمرة كنسك دائم غير محدد بزمن معين .

٢ ـ أن حكومة المملكة العربية السعودية تكثف جهودها وتبذل طاقاتها الكبيرة في فترة الحج واكبر دليل على ذلك مئات الملايين من الريالات التى تنفق سنويا في سبيل توفير الخدمات واقامة المشاريع الضرورية للحجاج سواء في مكة المكرمة أو المشاعر المقدسة بمنى ومزدلفة وعرفات ويعتبر إنتقال إدارات الحكومة المركزية إلى جده ثم مكة في فترة الحج دليل على ايلاء الحكومة لهذا الأمر جل اهتمامها . ومما يشير إلى ذلك تشكيل لجنة عليا للحج برئاسة وزير الداخلية وعضوية تسعة وزراء بالإضافة إلى حاكم منطقة مكة المكرمة وكذلك تشكيل لجنة مركزية للحج تضم رؤساء الدوائر الحكومية ذات العلاقة بالحج والخدمات العامة بمنطقة مكة المكرمة .

٣ ـ نتيجة لهذا الإهتمام والتركيز على منطقة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة فإن الحج يصبح عاملاً أساسياً في تكثيف الخدمات والجهود وتمركزها في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة بحيث نجد أن كل قطاعات الدولة بما فيها الإدارات المركزية الحكومية والاعلام والأمن وغيرها إلى جانب المؤسسات الخاصة تصرف جلّ إهتمامها وطاقتها في هذه الفترة لتقديم خدمات أفضل للحجاج في فترة زمنية محددة وفي مكان محدد وتتطلب طبيعة ضيق المساحة المكانية لأعمال الحج وضيق الفترة الزمنية كفاءة عالية في التشغيل والإدارة مما يتطلب مضاعفة الجهود وتسخير الطاقات البشرية ذات الكفاءة العالية وتوفير الامكانات المادية الهائلة لإنجاز المخططات والمشاريع والخدمات اللازمة .

٤ ـ يصبح الحرم المكي الشريف خلال فترة الحج وفترات الذروة للعمرة كشهر رمضان قلب المدينة النابض ومركزها الذي تنطلق منه وتتجه إليه كافة الخدمات . . إليه يتجه مئات الالاف من المسلمين في اليوم خمس مرات على الاقدام أو بوسائل الانتقال المتوفرة ومنه يعود نفس العدد إلى مأواهم ومسكنهم . . حوله تعجّ الأسواق بالحركة وتنشأ أسواق جديدة وحوله تمتلىء

المساكن الخالية ويصبح الطلب على غرف الفنادق والشقق والعمارات أضعاف أضعاف المتوفر والمعروض . خلال فترة الحج والعمرة يصبح الانتقال من منطقة الحرم الشريف إلى أطراف المدينة شاقاً وعسيراً ويعتبر تكدس المرور أحد أبرز مشاكل الحج حتى إن منطقة الحرم قد منع دخول السيارات الخاصة وسيارات حجاج البر إليها . إن مظهر المدينة يتخذ طابعاً جديداً خلال فترة الحج والعمرة ويزداد الطلب على الماء والمواد التموينية والاستهلاكية وتصبح أطراف المدينة أكثر صلة بوسطها نتيجة إزدياد الحركة بينهما وتوفر وسائل النقل العام . إن الحرم الشريف يصبح خلال هذه الفترات محوراً لاستخدامات جديدة أو متجددة للأرض كما يصبح محوراً للحركة والانتقال .

٥ ـ يعتبر الحج الاساس الأول لقيام مدن المشاعر المقدسة المؤقتة وهى عرفات ومزدلفة ومنى حيث تصبح هذه المدن الثلاث مأوى لأكثر من مليوني حاج في فترة الحج الممتدة من ٨ ـ ١٣ من شهر ذي الحجة كل عام وتتوفر في هذه المدن وفي تلك الفترة كل مقومات التحضر وكافة مكونات استخدامات الأرض الحضرية وذلك على الرغم من قصر الفترة ومن عدم وجود مساكن ثابتة خاصة في عرفات ومزدلفة واعتماد الاسكان فيهما وفي الجزء الأكبر من منى على الخيام . كما تقوم في هذه المدن كافة الخدمات التى تلبى احتياجات الحجاج والقائمين على خدمتهم . وتشتد خلال هذه الفترة حركة الحجاج من هذه المدن وخاصة منى إلى وسط مكة المكرمة بقصد أداء أحد أنساك الحج الاساسية وهو طواف الافاضة ثم العودة إلى منى بقصد الإقامة فيها لمدة الأيام الثلاثة أو الأربعة الممتدة من ١٠ ـ ١٣ من ذي الحجة وهو نسك مهم آخر للحج . وتعتبر هذه الحركة من وإلى الحرم الشريف خلال هذه الفترة سواء باستخدام أحدى وسائل النقل أو بالمشي أحد أبرز معالم الحج التى تواكبها استخدامات للأرض متجددة والتى أصبح لها تأثير في حركة النقل وفي تركيب المدينة الداخلى . مما سنلقي عليه الضوء في المعالجات القادمة .

٦ ـ للحج والعمرة تأثير جوهري وحيوى على البنية الاقتصادية لمدينة مكة المكرمة فالأعداد الضخمة من البشر التى ترد إلى المدينة للحج والعمرة طوال أيام السنة تتطلب توفير السلع الاستهلاكية اللازمة وتستوجب تنفيذ العديد من

المشاريع الضخمة وتوفير المرافق والخدمات الضرورية كما أن كل ذلك يؤدي إلى ضرورة توفر اليد العاملة الكافية . وإلى جانب ذلك فإن هؤلاء الوافدين إلى مكة المكرمة يضيفون إلى دخل سكانها بنسبة كبيرة . ويمكن أن نشير بشيء من التفصيل إلى النقاط التالية :

(أ) تدل الاحصاءات على أن مجمل الانفاق الحكومي على مشاريع البلدية والطرق والمياه ومشاريع المشاعر المقدسة تقدر بنحو ١٣٤٤٧ مليون ريال في الفترة الممتدة من ١٣٩٥ ـ ١٤٠٣ هـ[١] وهذا بالطبع لا يتضمن المشاريع الأخرى الخاصة بالصحة والتجارة والأمن والدفاع وغيرها من القطاعات الأخرى التى تسهم أسهاماً فعالاً في مواسم الحج والعمرة . كما أن هذه الأرقام لا تشمل التكاليف المصروفة على توسعة المسجد الحرام والتى تتضمن تكلفة الانشاء والتصميم والدراسة وتكلفة التعويض عن الاملاك المنزوع ملكيتها .

(ب) يستأثر الحج والعمرة بنسبة كبيرة من دخل الفرد في مكة المكرمة ذلك لأن عدداً كبيراً من سكان مكة المكرمة ينصرف إلى العمل والاكتساب بطريق مباشر أو غير مباشر كالعمل في البيع والشراء وإسكان الحجاج والطوافة والنقل وغير ذلك وقد وجد أن ٨٪ من دخل الاسرة السنوى مستمد مباشرة من نشاطات الحج فقط في مكة المكرمة في حين نجد أن ١١٪ من أسر مكة المكرمة قد تحصل على دخل من إسكان الحجاج و ٥,٤٪ من التوظيف المؤقت و ٤,٨٪ من نشاطات تجارية خاصة[٢] وهذه الأرقام لا تدخل فيها النشاطات الخاصة بالعمرة التى لا تتوفر عنها احصائيات دقيقة .

(جـ) على الرغم من أن الحج يقع في فترة بسيطة من السنة الا أن اجمالي استهلاك الحجاج في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة يقدر بنحو ٤٥ ـ ٥٠٪ من الانفاق الاستهلاكي السنوي العام فيها . ذلك لأن الانفاق الفردي للحجاج في

---

(١) وزارة الشئون البلدية والقروية ، **مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة ، الاوضاع الراهنة** الجزء ٣ **أقتصاد منطقة تخطيط مكة المكرمة** ـ ذو القعدة ١٤٠٤ هـ . ص ٣٦ ـ ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ـ ص ٥٤ والجدول رقم ٦ ـ ص ٥٦ .

هذه الفترة يشتمل على السكن والطعام والمواصلات والرسوم والهدايا وغير ذلك[1] وهذا ينعكس على حجم الأعمال التجارية فنجد مثلاً أن ٦٨٪ من مجموع المؤسسات الصغيرة بمكة المكرمة قد تركزت أعمالها في فترة الحج بحيث أن حجم أعمالها التجارية فيها يزيد عن ٣٥٪ من مجموع حجم أعمالها التجارية في السنة كلها بل إن النسبة تصل لدى بعضها إلى ١٠٠٪[2] .

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ٥٥ والجدول رقم ٦ ـ ٢ ص ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ـ الجدول ٦ ـ ٤ ص ٦١ .

المبحث الثاني
مظاهر التركيب الداخلي واستخدامات الأرض بمكة المكرمة وعلاقتها بالوظيفة الدينية

الفصل الرابع : مظاهر التركيب الداخلى وعلاقتها بالوظيفة الدينية :

إن المتأمل لخريطة مكة المكرمة يجد ظاهرة ملفتة للنظر ذلك أن الحرم المكي الشريف يعتبر بؤرة المدينة ومركزها وقلبها النابض فهو مركز حركة المرور والنقل بالمدينة وحوله توجد جميع العمارات الشاهقة ذات الأدوار المتعددة التى تحيط به من جميع الجهات وتطل عليه بواجهاتها وحوله تقوم الأسواق الرئيسية في المدينة التى تتخصص في تجارة سلع معينة تخدم الوظيفة الدينية لمكة المكرمة ويمكن تتبع مظاهر التركيب الداخلى المرتبطة بالوظيفة الدينية في النقاط التالية :

١ ـ إن نشأة ونمو مدينة مكة المكرمة مرتبط بشكل وثيق بوجود وموقع الحرم المكي الشريف وقد سبقت الاشارة إلى أن الاصل في وجود المدينة هو بيت الله العتيق الذي أمر الله ببنائه في بيئة قاسية جرداء **لا تصلح للاستقرار** البشري وعلى ذلك فأصل الاستقرار البشري في المدينة هو لمجاورة البيت الحرام والعبادة فيه وكان أن تبع ذلك نشأة العمران حوله ومحيطاً به احاطة السوار بالمعصم . وقد استمر الحرم المكي الشريف محدِّداً لاتجاهات النمو العمراني والحضري لمكة المكرمة حتى يومنا هذا[1] فالشكل (١) و (٢) يوضحان بجلاء ارتباط نشأة العمران ونموه بالحرم المكي الشريف في بداية القرن الهجرى الأول ونهاية القرن الهجري الثالث عشر والشكل (٣) يوضح امتداد النمو العمراني لمكة المكرمة ومنه يلاحظ أن النمو الحضري للمدينة قد تأثر بعاملين أساسيين هما الحرم المكي الشريف والسلاسل الجبلية بالمدينة إذ تمتد الزيادات العمرانية خلال الأودية والشعاب متجنبة الجبال الممتدة في انحاء المدينة . وفي نفس الوقت نجد أن امتداد

---

(١) محمد محمود السرياني ـ مكة المكرمة : دراسة في تطور النمو الحضرى ـ الجمعية الجغرافية الكويتية ـ مارس ١٩٨٦ ـ ص ٩ ـ ٣٢ .

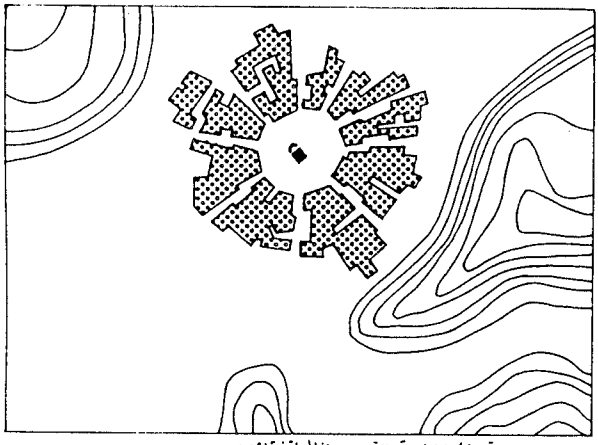

المصدر: وزارة الشئون البلدية والقروية، مخطط التنمية الشامل
لمنطقة مكة المكرمة، التقرير النهائي للمشروع، مكة ١٤٠٦هـ ص. ٦٦

شكل (١) امتداد العمران بمكة المكرمة في القرن الأول الهجري

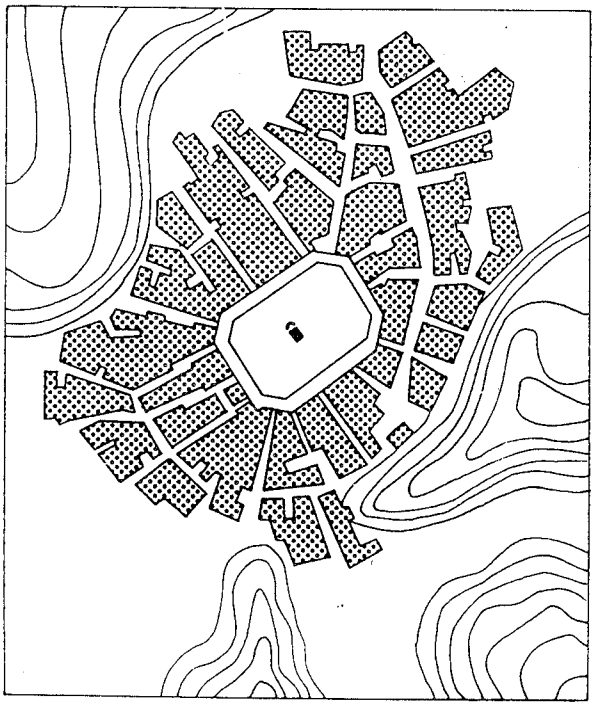

المصدر: وزارة الشئون البلدية والقروية، مخطط التنمية الشامل
لمنطقة مكة المكرمة، التقرير النهائي للمشروع، مكة ١٤٠٦هـ ص. ٦٦

شكل (٢) امتداد العمران بمكة المكرمة خلال القرن الثالث عشر الهجري

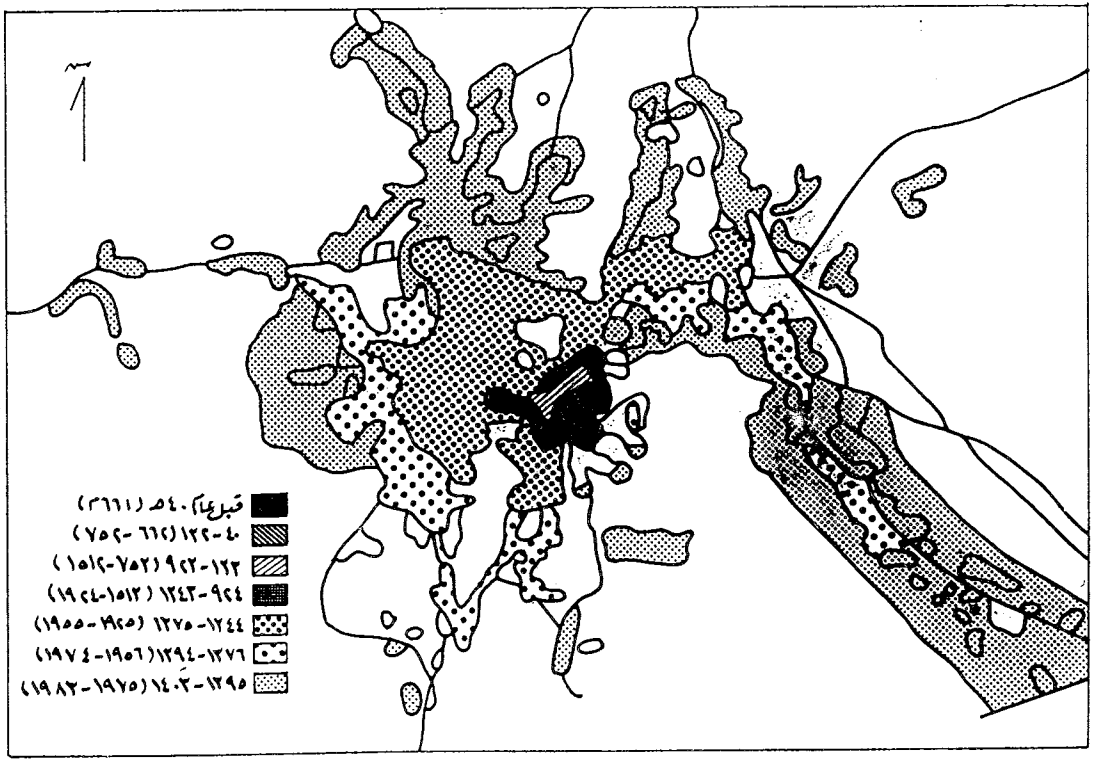

المصدر: الربابعة، تطور النمو الحضري بمكة المكرمة ص ١٩

شكل (٣) تطور نمو مدينة مكة المكرمة

مواقع الزيادات العمرانية مرتبطة بمواقعها النسبية للحرم المكي الشريف ولهذا فإننا نجد أن الحرم يقع تقريبا في منتصف المسافة بين الحد الأقصى للامتداد العمراني في الشمال والجنوب وكذلك في الشرق والغرب[1] هذا بالإضافة إلى أن ظاهرة نمو المدينة واتساعها نحو الاطراف كان بتأثير مباشر أيضاً من توسعات الحرم التى تعاقبت عليه خلال الفترات اللاحقة للبعثة النبوية وحتى العصر الراهن فأى توسعة للحرم تعنى هدم البيوت حوله مما يضطر أصحابها إلى القيام ببناء منازلهم في مكان أبعد عن الحرم وهكذا تتسع رقعة العمران في المدينة نتيجة اتساع مساحة الحرم المكي الشريف .

٢ ـ إرتبط بالتفاف العمران حول الحرم المكي الشريف ظاهرة أخرى هى اتجاه السكك والطرقات نحوه إذ أن الاستقرار حول الحرم بقصد العبادة قد جعل حركة السكان أيضاً متجهة نحوه مما أوجب أن تفضى السكك والطرقات اليه وهو ما تشير إليه الاشكال (١) و (٢) وبعد اتساع المدينة وترامي أطرافها وإدخال السيارات كوسيلة إنتقال نجد أن الهدف لم يتغير وبالتالي لم تتغير النتيجة ذلك أن حركة السكان اليومية في المدينة مرتبطة بموقع الحرم المكي الشريف وبالتالي فإن شبكة الطرق المعبدة الخاصة بوسائط النقل متأثرة في تركيبها ونمط توزيعها بموقع الحرم المكي كما يظهر ذلك من الشكل رقم (٤) الذى يوضح أن الطرق الرئيسية في الشبكة تتجه نحو الحرم مثل طريق المسجد الحرام وطريق أم القرى وطريق اجياد وطريق إبراهيم الخليل وطرق الانفاق من العزيزية وغيرها أو تلتف حوله لتفادى ازدحامات المرور الناجمة عنه مثل الطرق الدائرية التى تم إنشاؤها مؤخراً والمتمركزة حول الحرم المكي . وهى على ثلاث مستويات حسب البعد عنه وقد أفتتح العديد من الانفاق الجبلية يقدر عددها بحوالى ١٢ نفقاً لاستكمال هذه الشبكة الدائرية من الطرق . ومما يشير بصورة جلية إلى تأثر حركة السكان في شبكة الطرق الرئيسية وإرتباطها بموقع الحرم المكى أن كثافة الحركة تستند على الطرق المتجهة بشكل أساسي نحو الحرم المكى الشريف أو خارجة منه مثل الطرق المذكورة سابقاً كما يوضحه الشكل رقم (٥) .

---

(١) المصدر نفسه شكل ١٤ ص ٦٢ .

شكل (٤) شبكة الطرق الرئيسية بمكة المكرمة

المصدر : وزارة الشئون البلدية والقروية ، **مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة ، الاوضاع الراهنة** ، الجزء السادس ، المرور والنقل ، مسودة أولية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤ هـ ، ص ١٩ .

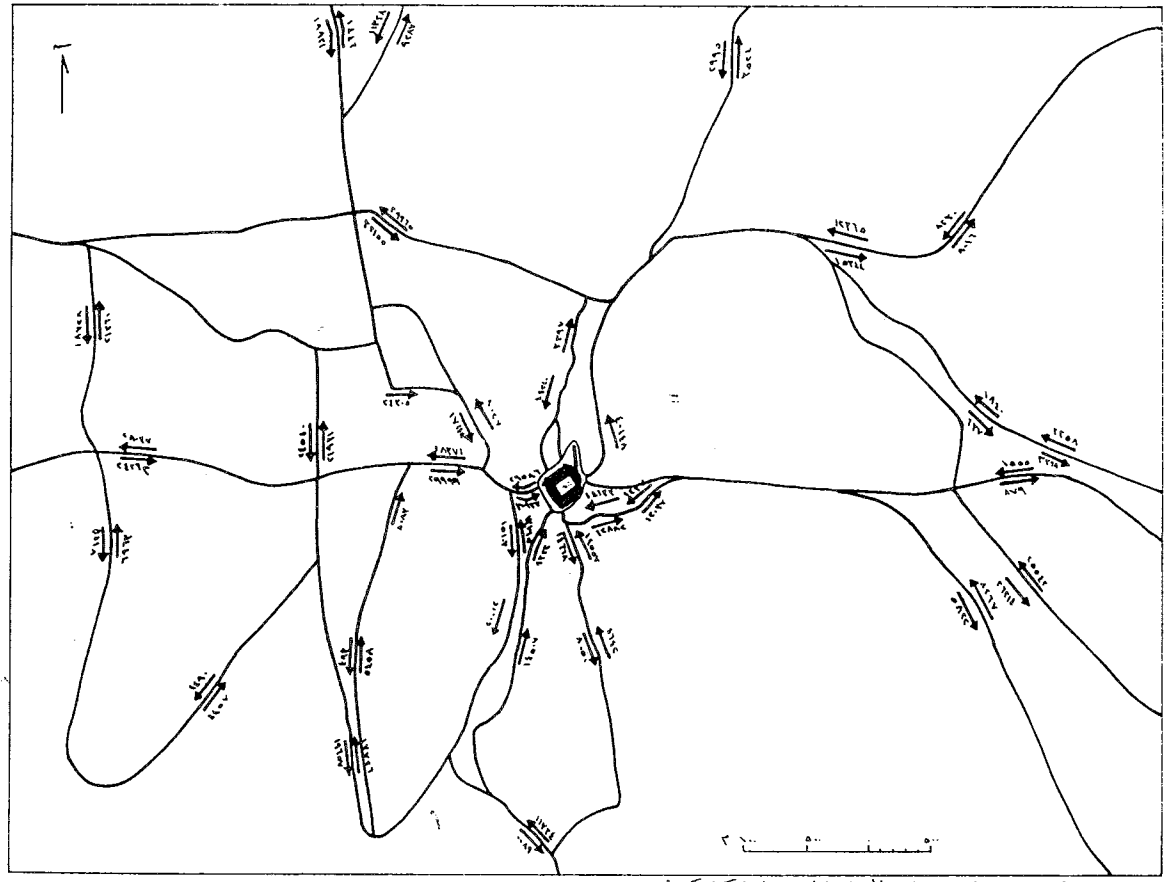

المصدر : وزارة الشؤون البلدية والقروية ، مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة ،
الأوضاع الراهنة : الجزء ٦ : المرور والنقل ، مكة ، ربيع الآخر ١٤٠١ هـ ، ص ٣٦

شكل "٥" كثافة حركة المرور على الطرق الرئيسية بمكة المكرمة

ويعتبر تأثير الحرم المكي على شبكة الطرق والشوارع في المدينة واضحاً وجلياً في تركيب تلك الشبكة أيضاً ذلك أن هذه الطرق والشوارع ذات طابع تقليدي وذات توجه نحو الحرم المكي ففي منطقة المدينة المركزية تتميز الشبكة بوجود تسلسل هرمي في توزيع الشوارع بها بحيث تتسع الطرقات والشوارع والسكك بالاتجاه نحو الحرم وتضيق بالابتعاد عنه أما في النطاقات العمرانية الجديدة فإن النظام الشبكى الحديث للطرق والشوارع هو السائد نتيجة تطبيق نظام البناء الجديد ذى الوحدات الأرضية المنتظمة وذي الوحدات السكنية المنفصلة مما يمكننا من رسم خريطتين أحداهما تبرز التركيب العمراني للمدينة في وسطها بالأزقة والسكك والبيوت المتراصة وأخرى للتركيب العمراني في المناطق الجديدة بنظام الفلل المنفصلة والطرق ذات النظام الشبكي[1] . وقد أتاح الدور الديني لمكة المكرمة أن ترتبط بشكل قوى بشبكة الطرق الوطنية والدولية على حد سواء وذلك بفضل وجود خمس طرق رئيسية تصلها بالمدن والاقاليم المجاورة (طريق السيل ـ الطائف ـ الرياض وطريق كرا ـ الطائف ـ الجنوب ، وطريق الليث ـ اليمن ، وطريق المدينة المنورة الشمال ، وطريق جدة ـ الشمال الساحلي) ومن هذه الطرق هناك أربع طرق سريعة ذات مسارات متعددة . وتستقبل مكة نتيجة هذا الاتصال الجيد آلاف المركبات والسيارات والحافلات المتجهة بطبيعة الحال نحو مركز المدينة وقلبها مما يزيد من ارباك الحركة المرورية بها ومضاعفة الاختناقات المرورية حول الحرم المكي الشريف وفي المشاعر المقدسة . وقد وضعت الدولة في الآونة الأخيرة سياسة حجز سيارات حجاج البر في مواقف خارج حدود النطاق العمراني لمكة المكرمة في فترة معينة من أيام الحج وذلك على طول الطرق الموصلة إلى مكة . وقد جهزت هذه المواقف بالخدمات الضرورية كما ربطت بمركز المدينة بخدمات النقل المتواصلة ، كما أنها حددت منطقة مركزية لمكة المكرمة مخصصة للمشاة فقط خلال فترة الحج ويقتصر استخدام السيارات فيها

---

(1) Ghazi Sahal Al-Otaibi, **Urban Dwelling Environments in Rapidly Growing Cities : Mecca, Saudi Arabia,** 1980, pp. 16 — 21 and pp. 46 — 51.

على سيارات الخدمات العامة الضرورية وتأخذ هذه المنطقة شكل دائرة حول الحرم المكي الشريف يتراوح قطرها بين ١ ـ ٢ كيلو متر .

٣ ـ إن قدسية الكعبة ومكانتها العالية في قلوب المسلمين عامة وساكني مكة المكرمة خاصة قد طبعت النمط العمراني والتركيب الداخلي للمدينة بطابع مميز . ذلك أن رغبة الأهالى في مواجهة الكعبة ومداومة النظر إليها قد دفعهم إلى بناء منازلهم محيطة بالحرم ومواجهة له بحيث نجد أن هذه المنازل تطل على المسجد الحرام والكعبة المشريفة من كل مكان وكأن ساكنيها يشاركون المصلين في المسجد الحرام صلواتهم ودعائهم وإبتهالاتهم وخشوعهم بل ان البعض كان بإمكانه متابعة المصلين في الحرم مع الامام في صلواتهم مع وجود مكبرات الصوت حتى إن المنازل قبل التوسعة السعودية كانت تحف بالحرم الشريف بشكل مباشر وقريب جداً لا يفصلها عنه سوى بضعة أمتار ، الشكل (٦) . ولقد ساعد على هذا التركيب وجود الجبال وإحاطتها بالحرم وخاصة من الناحية الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بحيث أصبحت المنازل في توزيعها حول الحرم كالمدرجات تطل من بعيد بواجهاتها نحو الكعبة المشرفة وبالتالي نجد أن تركيب المنطقة المحيطة بالحرم من حيث اتجاه واجهات المنازل والشوارع والطرقات والسكك متعلق ومرتبط بموقع الحرم ووجود الكعبة مع ما للظروف الطبيعية من تأثير في هذا الاتجاه نتيجة الطبيعة المتضرسة للمنطقة التى يقع بها الحرم وقد وجد أن هناك أكثر من ثلاثين شارعاً أو طريقاً أو سكة موصلة للحرم من المنطقة المحيطة به وهذه المنافذ المختلفة الأنواع والاتساع تحصر فيما بينها بلوكات أو مجاورات سكنية عمرانية تطل بواجهاتها نحو الحرم وهذا ينسحب على المجاورات السكنية (البلوكات) الأخرى الخلفية لها لأنها تعتمد عليها في توزيع واجهاتها وامتداد شوارعها وسككها ، شكل (٧) . وإلى جانب ما سبق ذكره فإن المناطق الجبلية المحيطة بالحرم يتيح للعمران عليها أن يأخذ طابع المدرجات بحيث يصبح لكل منزل واجهة مطلة نحو الحرم[١] . ويرتبط بتوجه المنازل والسكك والشوارع نحو الحرم ظاهرة أخرى

(١) مصطفى حاج عبد الباقي ، مكة المكرمة : إنتشارها وتركيبها الداخلى ؛ بحث قدم لندوة المدن السعودية إنتشارها وتركيبها الداخلى ـ قسم الجغرافيا ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود من ٧ ـ ٩ جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ ص ٣٠ .

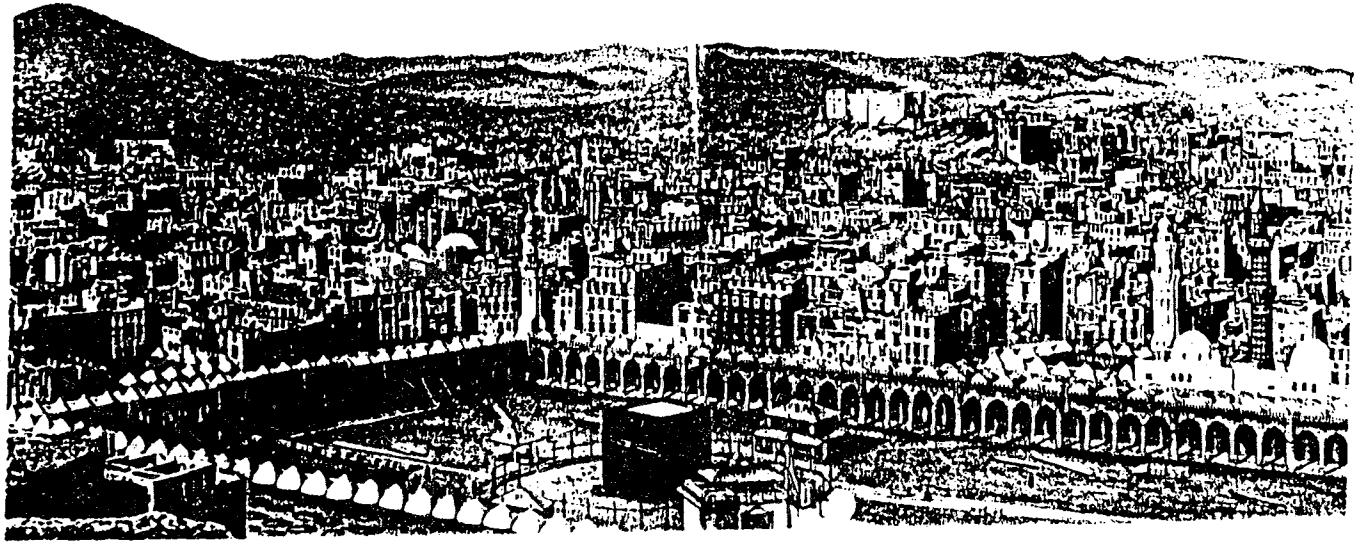

شكل (٦)

الحرم المكي الشريف والمباني الملاصقة له من كل جانب في

حوالي نهاية القرن الماضي (١٨٨٥م تقريباً)

C.S. Hugronge, **Mekka in the Later Part of The 19 The Centery,** Lieder Brill, 1970.

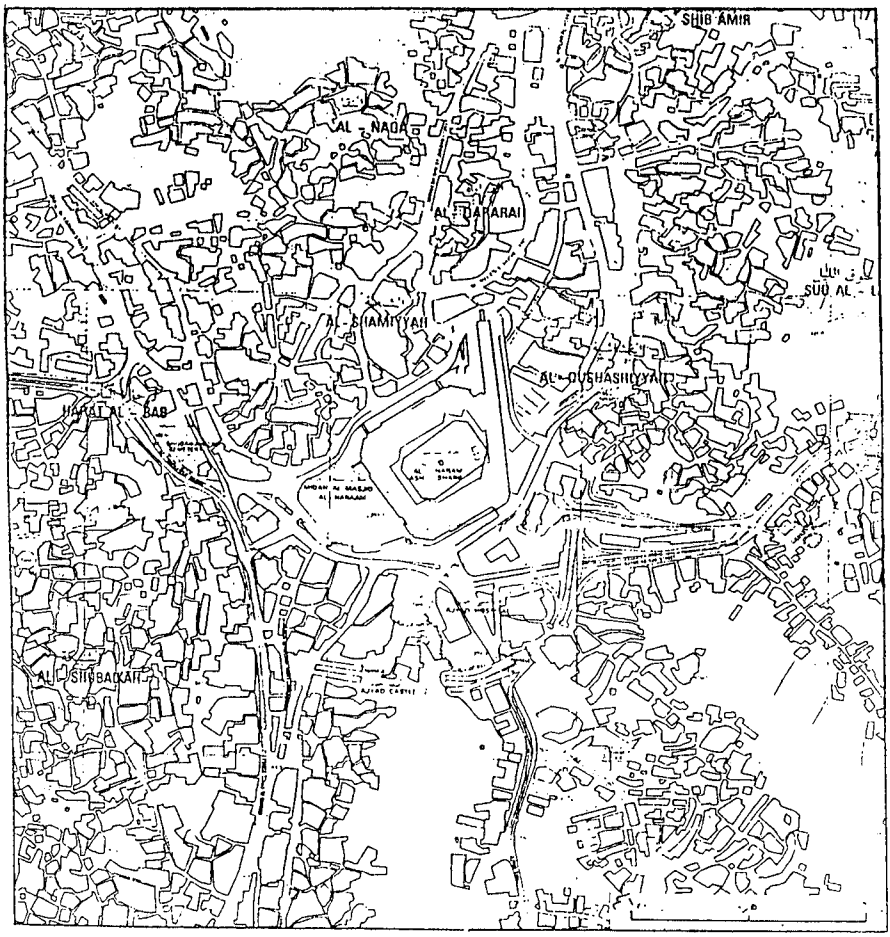

شكل ٧، النسيج العمراني حول الحرم المكي الشريف

المصدر : وزارة الشئون البلدية والقروية ـ وكالة الوزارة لتخطيط المدن الإدارة العامة للمساحة والسجل العقاري ـ خريطة مكة ١ : ٢,٥٠٠ ـ مشروع رقم ١٠٥ .

هامة ذات تأثير كبير في تركيب المدينة الداخلى ذلك أنه على الرغم من أن الطبيعة الجبلية لأراضى مكة المكرمة هى التى حددت مسارات الشوارع الرئيسية بالمدينة والتى تعتبر العمود الفقرى في تركيبها الا أن هناك كثيراً من هذه المسارات قد خطت بتأثير مباشر لموقع الحرم المكى فنجد أن الشوارع الرئيسية مثل المسجد الحرام وابراهيم الخليل واجياد مجارى لأودية هامة تخترق قلب المدينة (وادى ابراهيم مثلاً) ومعظم السكك والطرقات حول هذه الشوارع متأثرة بإمتدادها أو بإمتداد الأودية المتفرعة عنها أو التى تصب فيها كطريق شعب على وشعب عامر في حين نجد أن كثيراً من الشوارع الأخرى كشارع أم القرى (ابن خلدون والحفاير سابقاً) وشارع جبل الكعبة وعبد الله بن الزبير وعمر بن الخطاب وغيرها هى شوارع تتجه نحو الحرم المكي الشريف إلا أنها تعاكس مجاري الأودية أو تتبع الخطوط الكنتورية وبذلك فهنها قد شقت لتخدم هدف الوصول إلى منطقة قلب المدينة وهو الحرم المكى الشريف شكل (٨) فنجد أن شارع أم القرى مثلاً يوصل القادمين من جده إليه وكذا شارع جبل الكعبة يوصل القادمين من المدينة المنورة وهكذا . . وقد أدت صعوبة الوصول إلى الحرم المكى الشريف أو الاختناقات المرورية التى يتكرر حدوثها عنده إلى انشاء الطرق الدائرية أو طرق الانفاق المؤدية إلى خارج منطقة المدينة المركزية . وأسفرت هذه الحلول ونتيجة للطبيعة الجبلية للمدينة عن تغيير كبير في بنية المدينة وتركيبها الداخلى واستخدامات الأرض بها . وذلك أن أمثال هذه الطرق والأنفاق قد فتحت وسط المدينة وأنهت عزلته التى كانت تفرضها الجبال الشامخة المحيطة بوسط المدينة كجبل أبي قبيس وجبل خندمة وجبل قعيقعان (جبل هندى) وجبل عمر وجبل السبع البنات وجبل القلعة وجبل الناقة وغيرها . ولعل ذلك إلى جانب ما أتاحته التعويضات المقدمة لأصحاب الأملاك نتيجة تنفيذ هذه المشاريع الجبارة قد أدى إلى التوسع العمراني الهائل في أطراف المدينة مثل مناطق العزيزية والرصيفة والتنعيم إلى جانب أنها أوجدت احياء جديدة بكاملها مثل حي الهجرة الواقع في كدي وحي العوالي الواقع في جنوب حي العزيزية ، وقد أدى الوضع إلى أن تفقد المنطقة المركزية للمدينة بعض خصائصها التقليدية التخطيطية منها والمعمارية ، إذ

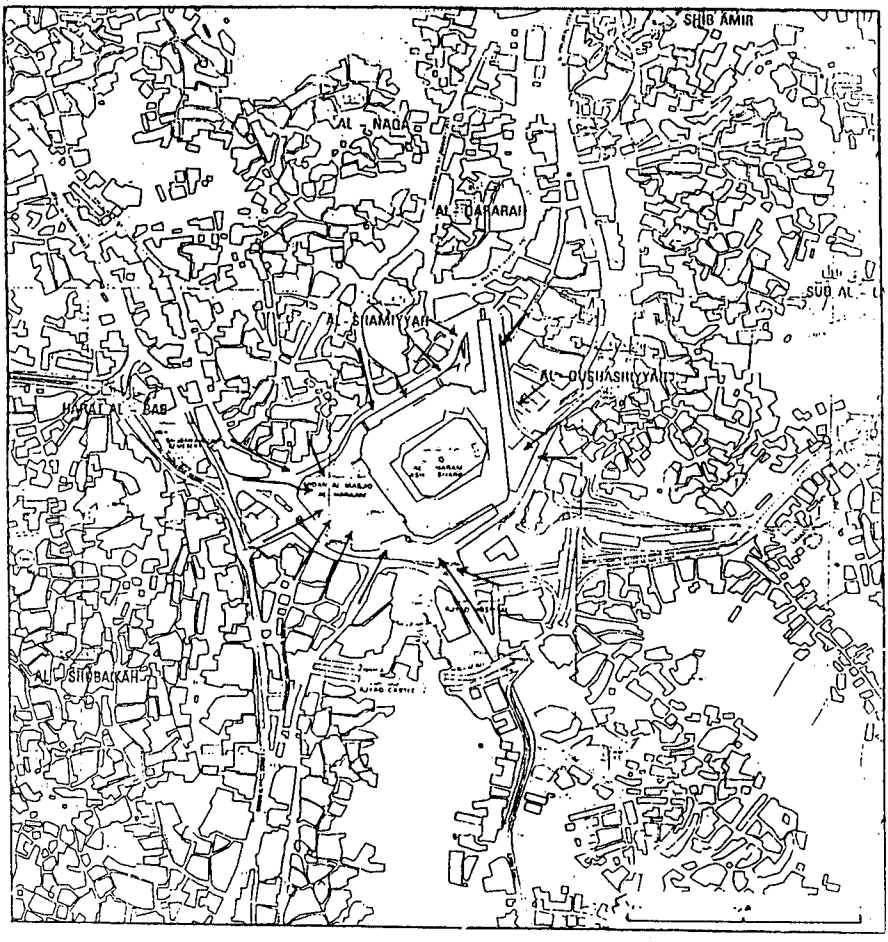

شكل ٨، اتجاهات الشوارع المحيطة بالحرم المكي الشريف

أخذ إستثمار الأرض في هذه المنطقة يتزايد وبدأ العديد من العمارات السكنية العالية تحلّ محل المساكن التقليدية الصغيرة وبدأت الأسواق الحديثة تغزو المنطقة بساحاتها الواسعة وأنواعها الجديدة وقد برز في الآونة الأخيرة رغبة الحكومة في توسيع الإستفادة من المنطقة المركزية وذلك بتشجيعها إنشاء شركة مكة للتعمير التي تقوم حالياً بتنفيذ أولى مشاريعها في المنطقة المركزية وهو مشروع يقضى بإزالة وهدم جزء من حي المسفلة الواقع جنوب الحرم المكي الشريف مباشرة وانشاء مجمع سكنى وتجاري كبير يخصص للحجاج والمعتمرين . ولا شك أن الخصائص التقليدية للمنطقة التى هدمت حتى الآن في منطقة المشروع لا تصلح لاستقبال مئات الالاف من الوافدين كل سنة إلى هذه المدينة المقدسة فقد أثبتت المنطقة عدم استطاعتها استيعاب العدد المتزايد من الحجاج كما أثبتت في كثير من الاحيان عدم صلاحيتها بسبب قدم كثير من مبانيها وخطر سقوطها وبسبب عدم توفر الكثير من المرافق والخدمات العامة أو عدم كفايتها ، مثل عدم وجود شبكات الصرف الصحي والماء وعدم كفاءة شبكة الكهرباء وصعوبة توفير وسائل السلامة كإطفاء الحريق بها وصغر حجم الوحدات السكنية وصعوبة الوصول إلى الكثير منها لعدم وجود السكك والطرقات النافذة إليها أو لضيقها . ولا شك أن نجاح هذه الشركة في هذه المنطقة سيؤدى حتماً إلى اختيار منطقة أخرى لاقامة مشروع آخر عليها وقد تردد في الآونة الأخيرة أن يقوم المشروع الثانى على منطقة اكبر تمتد شمال شرق الحرم المكي الشريف وقد جاء في التقرير النهائي لمخطط مكة المكرمة ما يلى :

« من الأمور التى لا يمكن تجاهلها حقيقة وجود مناطق ضخمة في مكة المكرمة ـ مجاورات سكنية بأكملها ـ تعاني من أوضاع بالغة السوء مما يستدعى القيام بإعادة تنميتها تنمية شاملة . فهى في حالتها الراهنة تعتبر رديئة وتبدو كأنها غير مكتملة التشطيب مما يترك أثراً سلبياً على الصورة العامة للمدينة المقدسة وطموحاتها ، وتتركز مثل هذه المناطق عموماً حول الحرم الشريف : في سوق الليل ، القشاشية ، وشعب عامر ، غير أنه يمكن مشاهدة أوضاع مماثلة في العتيبية شمالاً والهنداوية غرباً . فالنمط العمراني في مثل هذه المناطق متقارب : المنازل مشطبة تشطيباً رديئاً ، ووصول الخدمات البلدية والمركبات عسير أو متعذر ،

والاوضاع المعيشية للسكان غير صحية ولا مقبولة . ومما يجعل المشكلة تكتمل من كافة نواحيها إن هذه المجاورات السكانية الجبلية بأوضاعها الرديئة هى أول ما تقع عليه عين الزائر لدى دخوله إلى مكة المكرمة وتجوله حول مركز المدينة . ومن غير المتوقع وجود امكانية لتطبيق انظمة استعمالات الأراضي وانظمة البناء القياسية في مثل هذه المناطق بنفس الفعالية التى يمكن انجاز مقترحات المخطط الرئيسى الارشادي الأخرى وفقها . ولا يمكن لأية طريقة من طرق التجديد الحضري أن تحقق نجاحاً ما لم تتميز بجرأة مقترحاتها ، ليس في تيسير سبل الوصول إلى تلك المناطق فحسب ، بل أنها سوف تسهل إيصال الخدمات البلدية والمرافق العامة وتحسن الأوضاع الاسكانية . غير أن مشاريع التجديد الحضري على هذا المستوى مكلفة جداً ، حيث أنه من غير المجدي اقتصادياً العمل على إعادة تنمية كافة المناطق المعينة في مكة المكرمة من خلال الدعم الحكومي ، ولكن يمكن تحقيق نتائج طيبة من خلال تركيز الجهود على مناطق مختارة »[1] شكل (٩) .

٤ ـ إن أحد شواهد تأثير موقع الحرم المكي الشريف على التركيب الداخلي للمدينة هو ما نشاهده من توجه المساجد نحو الكعبة المشرفة فالقبلة نحو هذه الكعبة هى أول عنصر يؤثر في توجهات المسجد ووضع مخططه وتحديد أبعاده قبل بنائه وأثناءه ولذلك فإننا لا نجد مسجداً لا يلتزم القائمون على بنائه بهذا العنصر وبالتالي فإن القاعدة هى أن يصبح محراب المسجد (وهو الجهة والجزء من المسجد الذى يتجه إلى القبلة ويدل عليها) موجهاً نحو الكعبة بصورة دقيقة ومتوسطاً الضلع الأمامي للمسجد وبناءاً على ذلك يقوم إمتداد الشوارع المجاورة والملاصقة ويقوم العمران بتأثير مباشر من توجه المساجد نحو الكعبة قبلة المسلمين وهذا

---

(١) وزارة الشئون البلدية والقروية ، **مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة : التقرير النهائي للمشروع** ذو القعدة ، ١٤٠٦ هـ ، يوليو ١٩٨٦ ، ص ٤٨ .

المصدر: وزارة الشئون البلدية والقروية، الإدارة الفنية لشئون المنطقة مكة المكرمة،
التقرير النهائي للمشروع، مكة ١٤٠٦هـ ص ٤٩

شكل «٩» مناطق التجديد الحضري المقترحة

الأمر ليس حكراً على مكة المكرمة بل نجد مثيلاً له في كل المدن والقرى في العالم الإسلامي حيث تصبح القبلة وإتجاهها محددة لاتجاهات الشوارع والعمران[1] . وهذا الدور للمسجد تتضح صورته بشكل جلي في مكة المكرمة بالذات وذلك لأن كافة المساجد تتجه نحو الكعبة وهى نقطة واحدة على هيئة مركز للدائرة تحيط به المساجد من كل الجهات مما يجعل إتجاه القبلة فيها يختلف من جهة إلى أخرى حسب موقع المسجد وبالتالى فإن كون القبلة على هيئة دائرية حول الحرم المكي الشريف تتسع كلما إبتعدنا عنه أدى إلى أن السكك والشوارع والمجاورات السكنية للمساجد تأخذ نفس الطابع الدائري في التوزيع نحو الحرم وحول الكعبة المشرفة بحيث يندر أن نجد مثلاً تقاطعات عامودية للشوارع الرئيسية التى تجعل من المساجد أساساً لها في الامتداد .

٥ ـ لقد كان من نتاج وجود الكعبة المشرفة في مكة المكرمة كقبلة للمسلمين ومهوى لافئدتهم ومقصداً لحجهم وعمرتهم كما كان من نتاج الترغيب في الهجرة إلى هذه البقعة المقدسة وما ينتظره المحتسبون من البقاء بها وجعلها مسكناً ومقراً من أجر ومثوبة بالإضافة إلى ما يتوقعه القادم والمقيم في مكة من كسب مادي في حالة الاشتغال بأمور الحج والحجاج والتجارة ونحوها ، لقد كان من نتاج كل ذلك أن أصبحت مكة المكرمة مقصداً ليس فقط للحج والعمرة بل وملاذا من الاضطهاد والأرهاب الذى تواجهه بعض الاقليات الإسلامية في العالم ومركزاً تعليمياً يؤمه طلاب العلم كما أصبحت مهجراً يقصده المهاجرون من أجل نيل الثواب أو بحثاً عن الكسب والثراء عن طريق العمل والتجارة ونحوها . إن هذه الموجات البشرية تمخضت عن إستمرارية الهجرة إلى مكة المكرمة طوال الفترات المختلفة لتاريخها وهى هجرات بشرية من كل فج ومن كل صوب من العالم الإسلامي وغير الإسلامي مما أدى وبتعاقب السنين إلى وجود تكتلات بشرية

---

(١) أنظر مثلا :

— Abdol Hamid A. Bakasi, **Islamic Religion and Its Effect on The Street Pattern,** Unpublished M.A. Thesis, Arizona State Univ. 1980, p. 21 — 28.

متميزة تعيش في نطاقات عمرانية متميزة وهذا الوضع أوجد في المدينة ما يعرف بالنطاقات الاجتماعية Social Areas ، التى تشكلت نتيجة سكن أجناس معينة في أحياء أو مناطق من المدينة خاصة بهم . وقد عرف تاريخ مكة المكرمة هذه النطاقات الإجتماعية قبل بزوغ الإسلام فقد كانت مكة المكرمة تقسم إلى أجزاء وكل منها تسكنه قبائل معينة فمثلاً كانت قبيلة جرهم تسكن أعالي مكة وقطورا في أسفلها وذلك بعد إعمار إسماعيل للمدينة المقدسة في حين نجد وقبل البعثة النبوية بقليل أن المدينة مقسمة بين آل عبد المطلب الذين كانوا يسكنون شعب على وبنى مخزوم وبني تميم في منطقة اجياد وآل صيفي في المسفلة وبنى أسد في السوق الصغير وبنى عبد شمس في السفوح المطلة على المروة[1] . وقد أستبدل هذا الوضع القبلى بوضع آخر بعد إقامة الجاليات الإسلامية من مختلف الأجناس بمكة المكرمة نتيجة المبررات والأسباب السابق الإشارة إليها بحيث أصبحت أجزاء مكة المكرمة ونطاقاتها العمرانية متميزة بسيادة جنس أو عنصر واحد في كل نطاق أو جزء أو حي أو حارة حسب امتداد ذلك العنصر أو الجنس وتأثيره وحجمه وقد رسم لنا السرياني خريطة معبرة عن هذه الظاهرة تعتبر نتيجة لأبحاثه في تحديد النطاقات الإجتماعية لمكة المكرمة على أساس الأصول السكانية شكل (١٠) ومنها نستنتج أن النطاقات العمرانية القريبة من الحرم المكي الشريف تتميز بتعدد الأصول السكانية مع وجود نطاقات عمرانية خاصة بكل عنصر من العناصر أو جنس من الأجناس . وهكذا نجد تركز السكان ذوى الأصول الجاوية أى القادمون من أندونيسيا وماليزيا في أحياء القشاشية وشعب على والقرارة والنقا والشامية (تقع مباشرة إلى الشمال والشرق من الحرم المكي الشريف) وهناك حي السليمانية الذى تسكنه فئات من أصول أفغانية أما العناصر الهندية (من الهند والباكستان وبنجلاديش وبورما) فيشكلون معظم العناصر السكانية التى تقطن احياء أجياد والمسفلة والشبيكة وحارة الباب إلى الجنوب والغرب من الحرم المكي إلى جانب وجود جيوب في هذه الاحياء تتركز بها العناصر البخارية كما في أجياد المصافي

---

(١) محمد محمود السرياني ، « مورفولوجية مكة الإجتماعية » ، مجلة العواصم والمدن الإسلامية العدد الثالث ـ محرم ١٤٠٤ هـ ص ٥٣ .

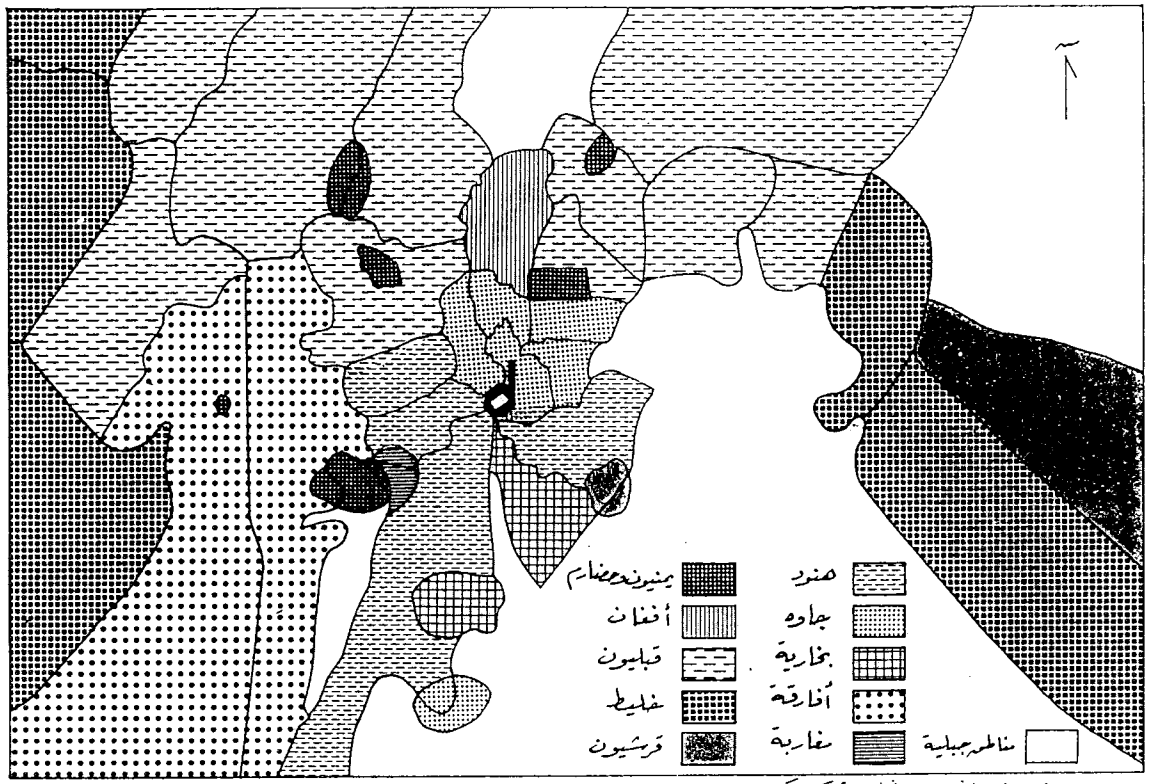

المصدر: محمد محمود السرياني، "سوسيولوجية مكة المكرمة"
مجلة العلوم والدراسات الإسلامية، العدد الثالث، المحرم ١٤٠٤هـ.
ص. ٦٢

شكل "١٠" النطاقات الاجتماعية بمكة المكرمة

والعناصر المغربية في أجزاء من المسفلة والشبيكة[1] . أما الأجزاء المحيطة بهذه المناطق والاحياء الواقعة في المنطقة الانتقالية فقد كانت إلى بداية عهد الحكم السعودي خارج نطاق الامتداد العمراني لمكة المكرمة وكانت تسكنها جماعات ذات أصول قبلية من داخل المملكة العربية السعودية خاصة في أحياء الملاوى والمعابدة والعتيبية وجرول في الشمال والغرب في حين أن جزءاً من هذه المنطقة الانتقالية كان يقطنه السكان ذوو أصول تنتمى إلى القارة الافريقية جنوب الصحراء الكبرى كأحياء الطندباوي والهنداوية[2] . في حين أننا بازدياد البعد من الحرم المكي الشريف نجد أنفسنا في المنطقة الهامشية التى نشأت فيها الحركة العمرانية المنظمة من ربع قرن فقط فامتد بذلك العمران إلى احياء جديدة ذات مخططات ومرافق عامة كالعزيزية والزاهر والزهراء والنزهة والرصيفة والتنعيم والعدل والشرائع وجبل النور وشارع الحج والروضة وغيرها . وكان عمران هذه المناطق والاحياء الجديدة نسبياً نتيجة مباشرة لتوسعة الحرم الشريف أو تخطيط المدينة وما صحبه وصاحبه من بذل تعويضات سخية لاصحاب العقارات التى دخلت في التوسعة أو المشاريع البلدية . وكان أيضاً من نتيجة هذا الأعمار الجديد للأراضى والأحياء الجديدة أن أصبحت العناصر السكانية بها خليطاً من أصول سكانية مختلفة ليس لاحدها غلبة على غيرها إلا أن مثل هذا الاعمار قد تم بناءً على معطيات اقتصادية مما قد نجم أو ينجم أو سينجم عنه نطاقات إجتماعية مبنية على معطيات أو عوامل وأسس اقتصادية كمستوى الدخل ونوع المنازل ومستوى التعليم وغيرها . وهى مجرد إفتراضات تحتاج إلى المزيد من المعالجة والدراسة[3] . ويمكن أن يلخص هذا

---

(١) نفس المرجع ص ٥٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٨ .

(٣) انظر مثلاً :

— Mohamed S. Carami «Residenticl patterns of Ethnic Groups in Mecca» **A.A.G. Program Abstracts,** Robert C.West and Clarissa Kimber (eds.), New Orleans, 1978, p. 298.

التركيب لسكان المدينة وحسب القرب من الحرم المكي الشريف والبعد عنه بالشكل التخطيطي الدائرى التالى : انظر شكل (١١) .

١ ـ منطقة الحرم المكي الشريف وتقع في الوسط .

٢ ـ منطقة المدينة المركزية وتقع حول الحرم المكي الشريف وتقطنها جاليات إسلامية متميزة في أحياء متميزة كما سبقت الاشارة إليه .

٣ ـ المنطقة الانتقالية وتقع مباشرة بعد وحول منطقة المدينة المركزية وتقطنها جاليات إسلامية افريقية في الجزء الجنوبي الغربي وسكان من أصول قبلية من داخل المملكة .

٤ ـ المنطقة الهامشية وتقع مباشرة بعد وحول المنطقة الانتقالية ويسكنها خليط من العناصر السكانية وهى المنطقة التى ينتهى عندها الامتداد العمراني لمكة المكرمة .

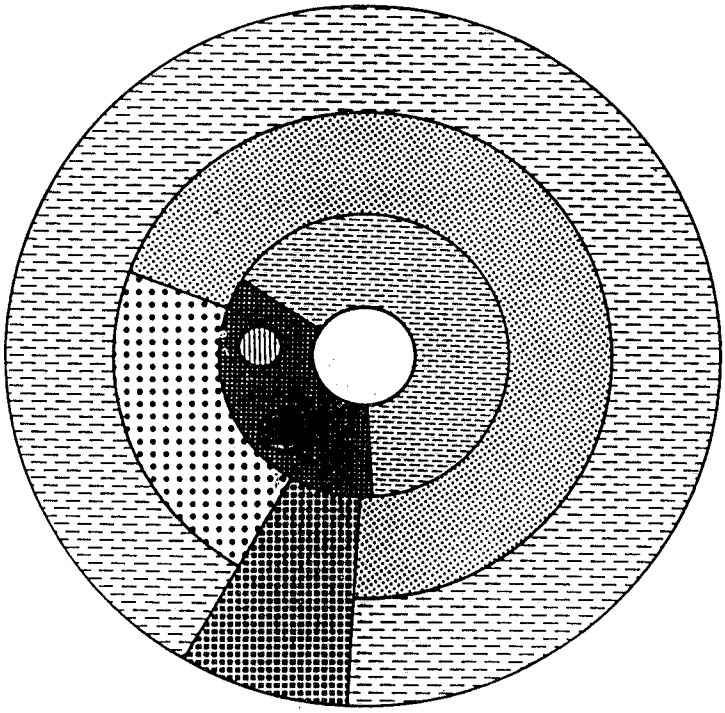

شكل «١١» نموذج تجريدي لتوزيع النطاقات الاجتماعية حول الحرم المكي الشريف

- جاليات جاوية مستقره
- جاليات هندية مستقره
- بخاريه
- مغربية
- أصول قبلية
- جاليات إسلامية افريقيه
- خليط
- برماويه

الفصل الخامس : استخدام الأرض بمكة المكرمة وعلاقته بالوظيفة الدينية :

لا شك أن نوعية إستخدام الأرض ودرجة تركزه وتوزيعه الجغرافي في أى مدينة من المدن يعتمد ويتعلق مباشرة بالعديد من المؤثرات المرتبطة بوظائف المدينة ولا تخرج مكة المكرمة عن هذه القاعدة فإن وظيفتها الدينية ومكانتها كقبلة للمسلمين ومهوى لافئدتهم ومقصداً لهم في حجهم وعمرتهم قد طبعت نوعية إستخدام الأرض ونمطه وتوزيعه ودرجة تركزه بالعديد من الخصائص . كما أنه قد سبقت الاشارة إلى أن المسجد الحرام يستقطب مئات الآلاف من الحجاج والمعتمرين كل سنة وبصفة متتالية ودائمة مما أدى إلى أن يشكل عامل المسافة والبعد عن الحرم قاسماً مشتركاً ومؤثراً حيوياً وأساسياً في توزيع العديد من الخدمات المتصلة بهؤلاء الحجاج والمعتمرين سواءً بطريق مباشر أو غير مباشر ولهذا فإن استخدامات الأرض بالمدينة وخاصة في المناطق المحيطة بالمسجد الحرام تتخذ أنماطاً معينة يجدر بنا التركيز عليها ومقارنتها بالأنماط الأخرى التى يمكن أن نجدها في بقية أنحاء مكة المكرمة .

١ ـ **الكثافة السكانية** : لعل من المفيد أن نوضح أن مكة المكرمة تتميز بوجود فترتين في حياتها كل سنة فترة تتصاعد فيها اعداد السكان والخدمات إلى مستوى عال جداً نتيجة وجود الحجاج والمعتمرين فيها وهذا ما يطلق عليه محلياً اسم الموسم وتمتد هذه الفترة على طول شهر رمضان وحتى نهاية شهر ذي الحجة وفترة أخرى تمتد على طول أشهر السنة الباقية وهى الفترة التى تعود فيها معدلات السكان والخدمات إلى معدلاتها الطبيعية . وهذا يجعل سكان مكة من فئتين فئة السكان الدائمين وفئة السكان الموسميين . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن وفود اعداد كبيرة جداً إلى الحج والعمرة من كافة بقاع الأرض على طول السنة قد أوجد ظاهرة سكانية أخرى هى ظاهرة السكان المتخلفين أو المقيمين اقامة غير نظامية ويمكن اعتبار مكة المكرمة أحدى أكبر المدن السعودية التى تحتوى على نسبة كبيرة من هذه الفئة من السكان . وفي كل الحالات فإننا نجد بأن المسجد الحرام يعتبر نقطة تركز سكانية حيث تلتف حوله نطاقات الكثافة السكانية وبصورة

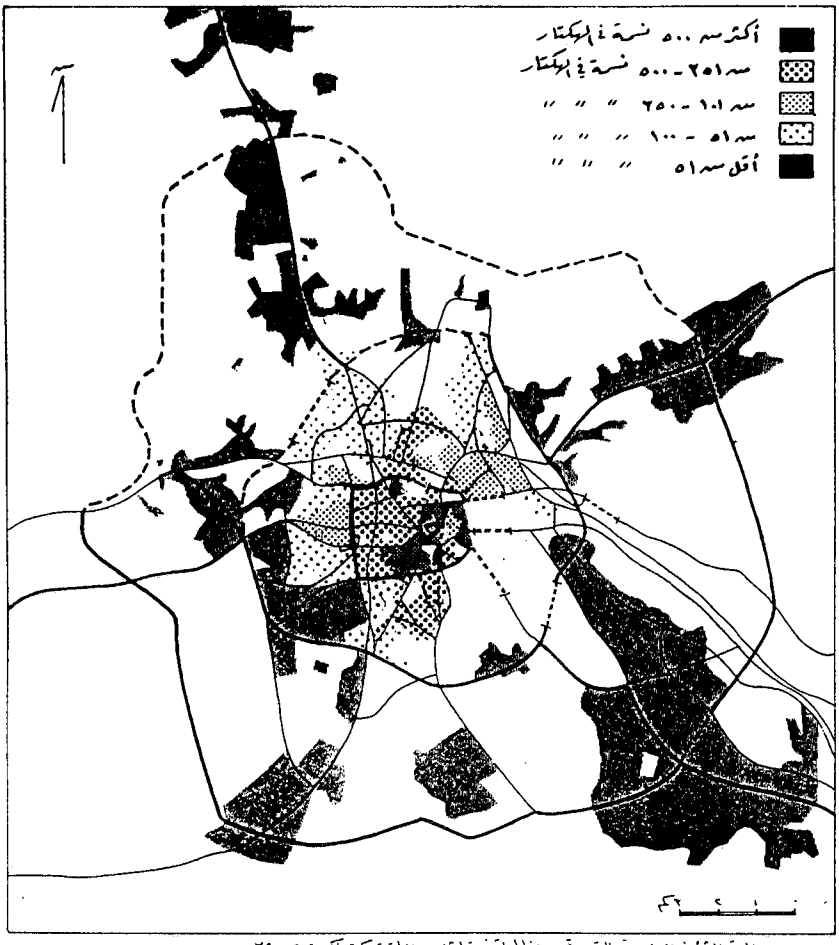

المصدر : وزارة الشئون البلدية والقروية ، مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة ص ٢٩

شكل (١٢) الكثافة السكانية في مدينة مكة المكرمة

متدرجة نحو أطراف المدينة بحيث نجد أن نطاق الكثافة السكانية العالية يتوزع قريباً من المسجد الحرام وفي دائرة لا يتعدى نصف قطرها كيلو متراً واحداً في حين تبقى الكثافات متوسطة على طول الشوارع الرئيسية خارج ذلك النطاق ثم تنخفض بشكل واضح في أطراف المدينة شكل (١٢) . وهذا النمط من الكثافة السكانية المتمركز حول فكرة البعد والقرب من المسجد الحرام تتأكد في مواسم الحج والعمرة لأن منتهى رغبة الحجاج والمعتمرين أن تكون المسافة الحاجزة بينهم وبين المسجد الحرام عند الحد الأدنى . ويزيد من تأكيد نمط الكثافة السكانية في المنطقة المركزية من المدينة أن المساحات الشاغرة وغير القابلة للاستغلال العمراني تشكل نسبة عالية من مساحة هذه المنطقة المركزية مما يعنى أنه على الرغم من معوقات التوسع العمراني في هذه المنطقة فإنها لا تزال تمثل المنطقة الأكثر كثافة من الناحية السكانية على عكس المناطق الأخرى البعيدة عن المسجد الحرام .

٢ ـ **ثمن الأراضي وقيمة الإيجارات** : لقد كان من نتيجة العوامل السابقة أى ضرورة تواجد السكان حول المسجد الحرام وبمعدلات مرتفعة جداً خلال الأيام العادية وبصورة مكثفة ومركزة خلال مواسم الحج والعمرة وكذلك نتيجة ضيق الأرض الصالحة للاستغلال العمراني بسبب تضرس المنطقة المحيطة بالمسجد الحرام أن أصبحت قيمة الأرض عالية جداً سواءاً كانت للبيع أو الاستئجار . وقد زاد من هذه الظاهرة ووسع مجالها التوسعة التى أجرتها الحكومة للمسجد الحرام والتى انتهت سنة ١٣٩٣ هـ . إن هذه التوسعة إستلزمت ضم الأراضي والعقارات المجاورة وتعويض أصحابها بمبالغ ضخمة وقد أوجد هذا ضغطاً على المنطقة الأخرى التى كانت تقع خلف المنطقة المنزوعة وأصبحت الآن في مواجهة الحرم المكي الشريف وذلك أن أصحاب العقارات السابقة المنزوعة قد قاموا بإستثمار المبالغ التى تحصلوا عليها من عقاراتهم المنزوعة في هذه المنطقة . وقد أدت هذه الظروف إلى تصعيد أسعار الأراضى وبصورة تلقائية إلى تصعيد إيجارات العقارات سواءاً كانت خالية أو معمورة وقد بلغت أسعار الأراضي وإيجاراتها حدوداً خيالية فقد أستؤجرت أراضي خالية بما يقارب ٣٥٠٠ ريال للمتر المربع الواحد في السنة (١٠٠٠ دولار تقريباً) وبنفس القدر أستؤجرت مساحات

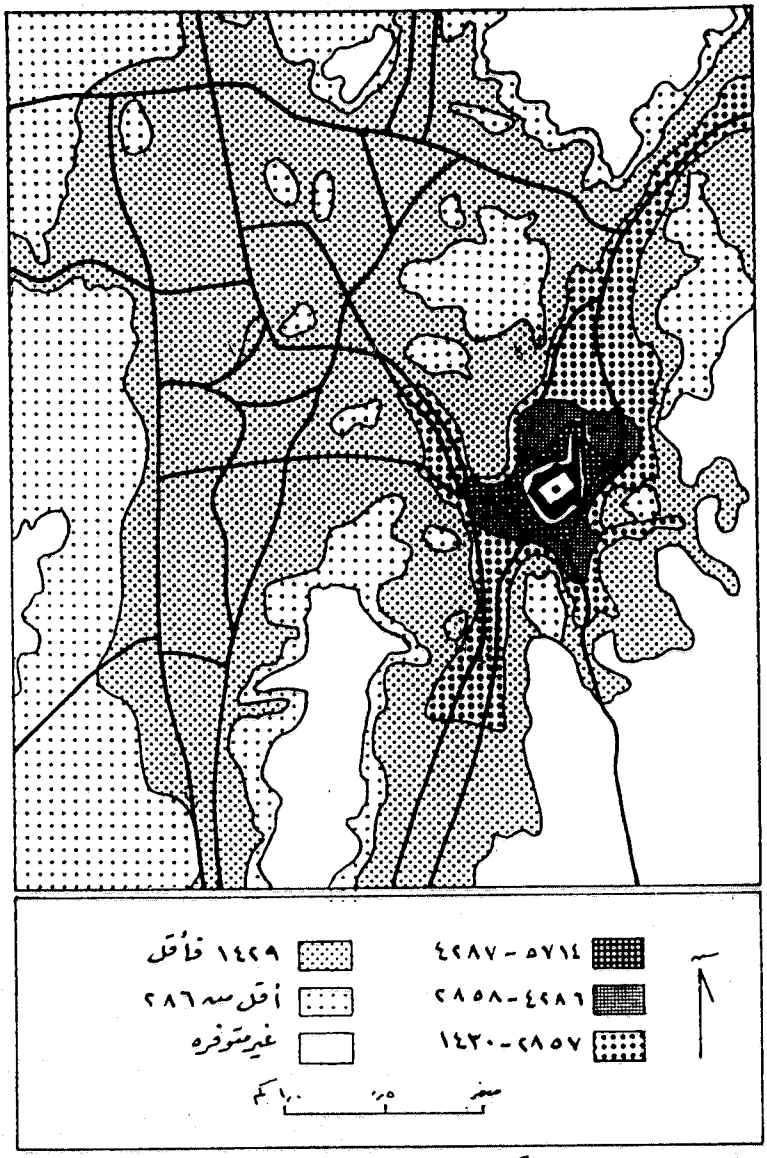

المصدر: محمد سعيد فارسي، التكوين المعماري والحضري لمدن الحج بالمملكة العربية السعودية، دار عكاظ، جدة: ١٤٠٤هـ، ص

شكل «١٣» أثمان الأراضي بمكة المكرمة ١٢٩٣هـ

" بالدولار الأمريكي للمتر المربع "

معمورة كشقق أو غرف ، ويمكن أن نتبين تأثير الحرم المكي الشريف في ارتفاع أثمان الأراضي من واقع الخريطة الموضحة بالشكل رقم (١٣) حيث تتدرج هذه الأثمان في الانخفاض بالبعد عن الحرم المكي الشريف وقد كان ذلك عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) وقد ازدادت هذه الظاهرة ترسيخاً عبر الزمن فنجد أولاً أن هذه الأسعار قد ازدادت بشكل كبير كما نجد ثانياً ازدياد ثمن الأرض كلما اقتربنا من الحرم المكي الشريف كما يظهره الشكل رقم (١٤) حيث أن الصورة في عام ١٤٠٤ هـ قد أكدت الصورة التى كانت عليها أثمان الأراضي قبل ثلاثين سنة سواءاً من حيث التركز حول الحرم المكي أو من حيث أرتفاع الأسعار المتواصل الذى تضاعف ثلاث مرات خلال هذه الفترة .

٣ ـ تركز العمارات ذات الأدوار المتعددة : لقد نشأ عن ضيق المساحة المتوفرة في قلب المدينة المحيط بالمسجد الحرام مع إرتفاع اثمان وإيجارات العقارات بها وضرورة إسكان أكبر عدد من الحجاج والمعتمرين بها أن إزدادت أرتفاعات المباني في المنطقة المحيطة بمركز المدينة ومن خلال مسح قام به الباحث للعمارات السكنية التى تبلغ إرتفاعاتها ستة أدوار فأكثر في كافة أنحاء مكة المكرمة* تبين أن أكثر من ٦٠٪ من تلك العمارات يتوزع حول الحرم الشريف في دائرة لا يزيد نصف قطرها عن كيلو متر واحد جدول (٢) وتبدو الظاهرة أكثر وضوحاً برسم منحنى لورنز للنسب المجمعة لهذه العمائر حسب البعد عن الحرم المكي حيث يتبين أن هذا المنحنى يقترب جداً من مرحلة التركز الشديدة (شكل ١٥ ، ١٦) وهذا دليل واضح وقوى على تأثير الحرم الشريف كمركز جذب سكاني تتوزع حوله الخدمات الخاصة بالإسكان حيث أن مثل هذه العمائر ذات الأدوار المتعددة مخصصة لاسكان الحجاج والمعتمرين وهذا يعنى أن تلك العمائر تكاد تشكل أغلبية المباني في الاحياء المحيطة بالمسجد الحرام في حين يقتصر وجودها وتوزيعها على طول الشوارع الرئيسية كلما إبتعدنا عنه .

٤ ـ حجم قطع الأراضي السكنية : ويرتبط بالعوامل السابقة مجتمعة وينتج عنها ظاهرة تفاوت حجم قطع الأراضي السكنية بالبعد عن الحرم المكي الشريف فندرة الأرض الصالحة لاقامة المساكن عليها في المنطقة المركزية لمدينة مكة المكرمة

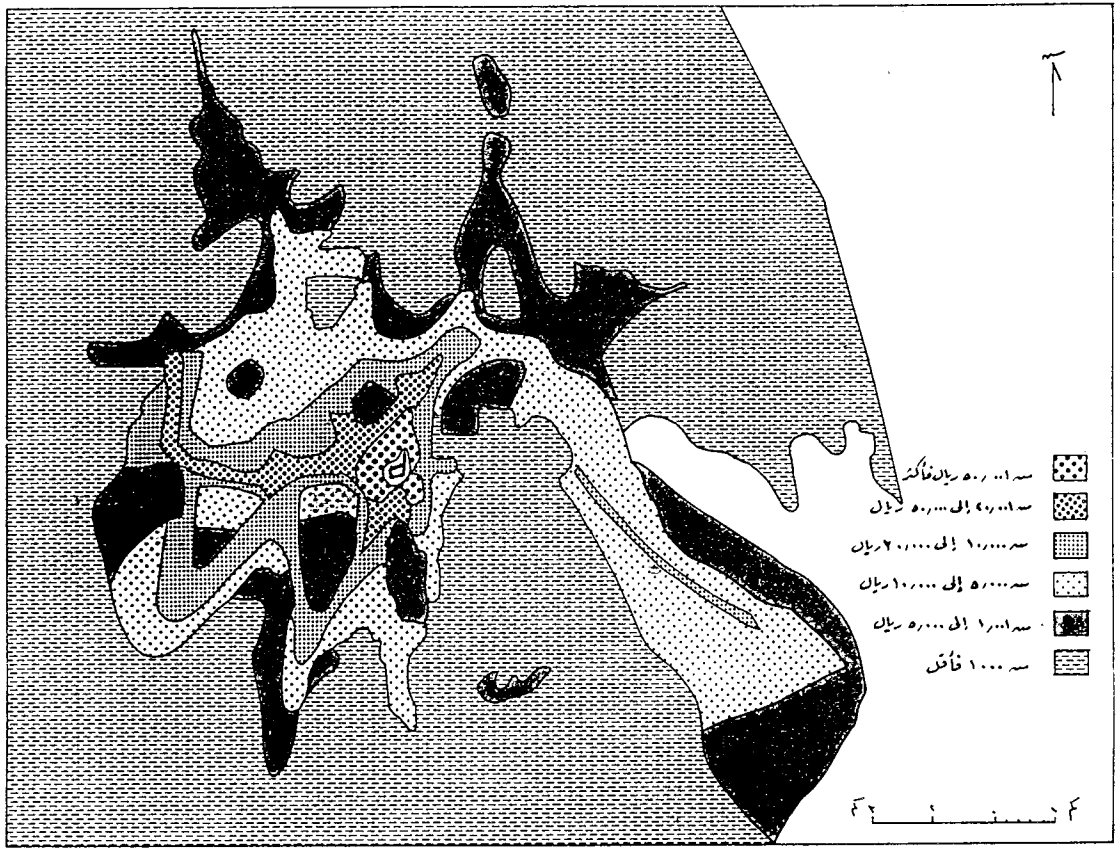

المصدر: وزارة الشئون البلدية والقروية، خطط التنمية الشاملة لمنطقة مكة المكرمة، الأوضاع الراهنة الجزء ٥: استعمالات الأراضي، شكل ٦-١

شكل «١٤» أثمان الأراضي بمكة المكرمة ١٤٠٤ هـ

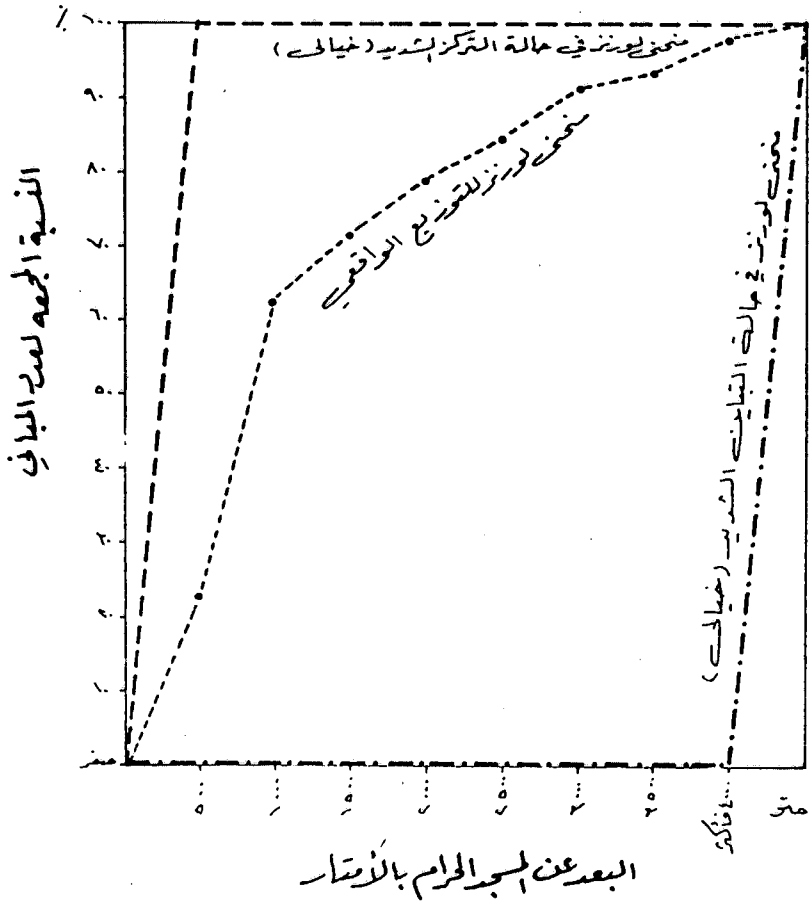

شكل (١٥) منحنى لورنز لتوزيع المباني ذات الأدوار العالية "٦ فما فوق" حسب البعد عن المسجد الحرام

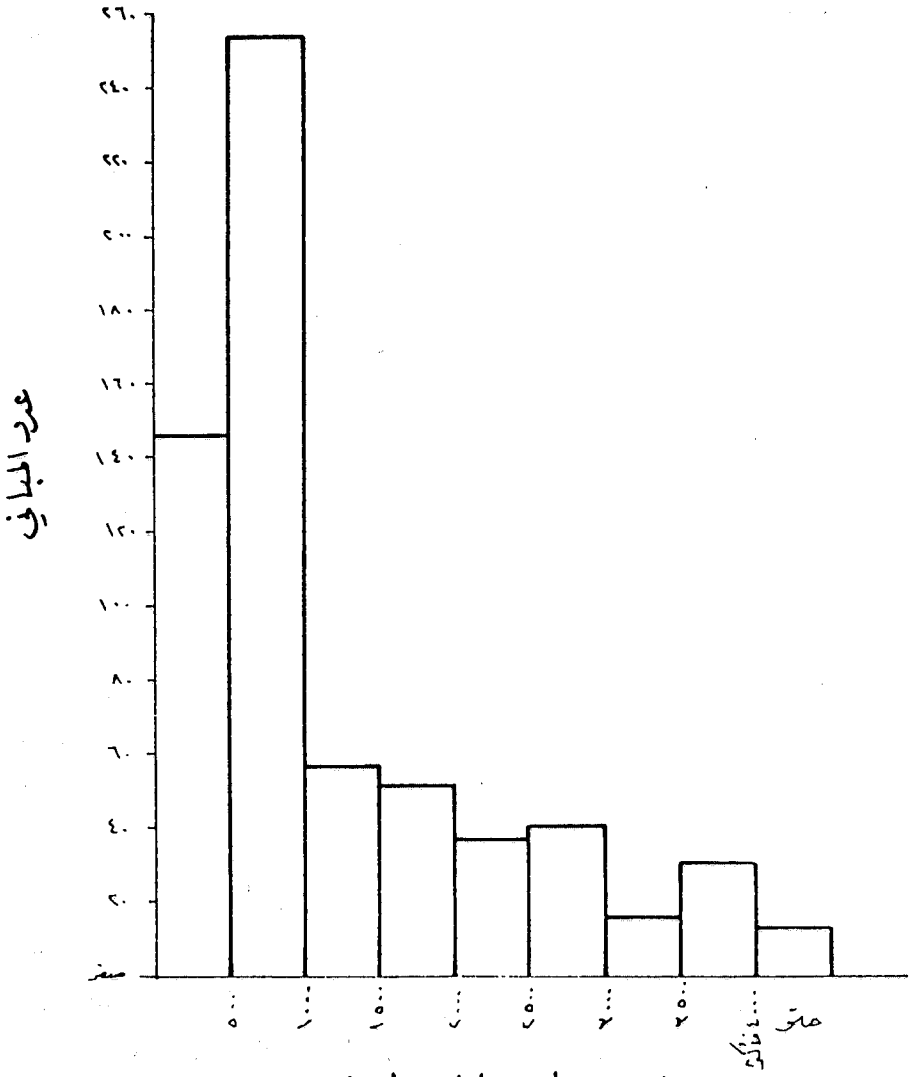

شكل «١٦» توزيع المباني ذات الأدوار العالية «٦ فما فوق»
حسب البعد عن الحرم المكي الشريف

مع الطلب الشديد عليها قد أدى إلى أن تصبح أحجام قطع الأراضي السكنية صغيرة جداً في المنطقة المحيطة بالمسجد الحرام وتكبر تلك الاحجام بالابتعاد عنه حيث نجد الأراضي المخططة تخطيطاً نظامياً وهذا النمط على الرغم من أنه عام ويشمل كافة مدن الشرق الأوسط القديمة إلا أنه نمط متميز في مكة المكرمة ومتأثر بشكل مباشر وقوى جداً بالحرم المكي الشريف وذلك حسب ما يتضح من الشكل (١٧) والجدول (٣) حيث يتبين لنا بشكل جلى أن الاحياء التى تسود فيها المساحات الصغيرة لقطع الأراضي السكنية هى تلك المجاورة للحرم المكي الشريف حيث تبلغ نسبة قطع الأراضي السكنية الصغيرة (١٠٠ م٢ فأقل) إلى أكثر من ٤٠٪ في أجياد والمسفلة والشبيكة وحارة الباب والشامية والقرارة وسوق الليل والنقا وهى الحارات الملاصقة للحرم المكي الشريف في حين تبلغ نسبة القطع الكبيرة (٥٠٠ م٢ فأكثر) معدلات عالية في كل من العزيزية والهجرة والرصيفة والنزهة والتنعيم وهى الحارات الواقعة في أطراف المدينة .

٥ ـ الاستخدامات المؤقتة أو الموسمية : يعتبر إسكان الحجاج من أهم مصادر الدخل العام لسكان مكة المكرمة إذ تبلغ نسبته حوالى ٧٢٪ من مجموع العائدات الواردة إلى الأسر مباشرة من نشاطات الحج[١] . ويرجع ذلك بالطبع إلى أن معظم الحجاج يرغبون في الاقامة خلال فترة الحج في منطقة قريبة من المسجد الحرام وقد قدر أن ٥٣٫٣٪ من حجاج سنة ١٤٠٢ هـ قد أقاموا في نطاق كيلو متر واحد من الحرم الشريف وأن ٩٠٪ منهم قد أقام في نطاق كيلو مترين منه[٢] . وقد سبقت الاشارة إلى أن الظروف الطبيعية في المنطقة المحيطة بالمسجد الحرام قد حدَّت من المساحة القابلة للإعمار مما أوجد ضغطاً عليها وأدى بالتالي إلى التعويض عن ذلك بالتوسع الرأسي وإقامة المباني ذات الارتفاعات الشاهقة في وسط المدينة وحيث إن العائدات من الاسكان لفترة السنة كلها ضئيلة جداً ولا تقارن بالعائدات التى تدرها عملية اسكان الحجاج والمعتمرين في فترة بسيطة

---

(١) وزارة الشئون البلدية والقروية : **مخطط التنمية الشامل لمنطة مكة المكرمة** ـ الجزء ٨ ـ الحج ذو القعدة ١٤٠٤ هـ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٤ .

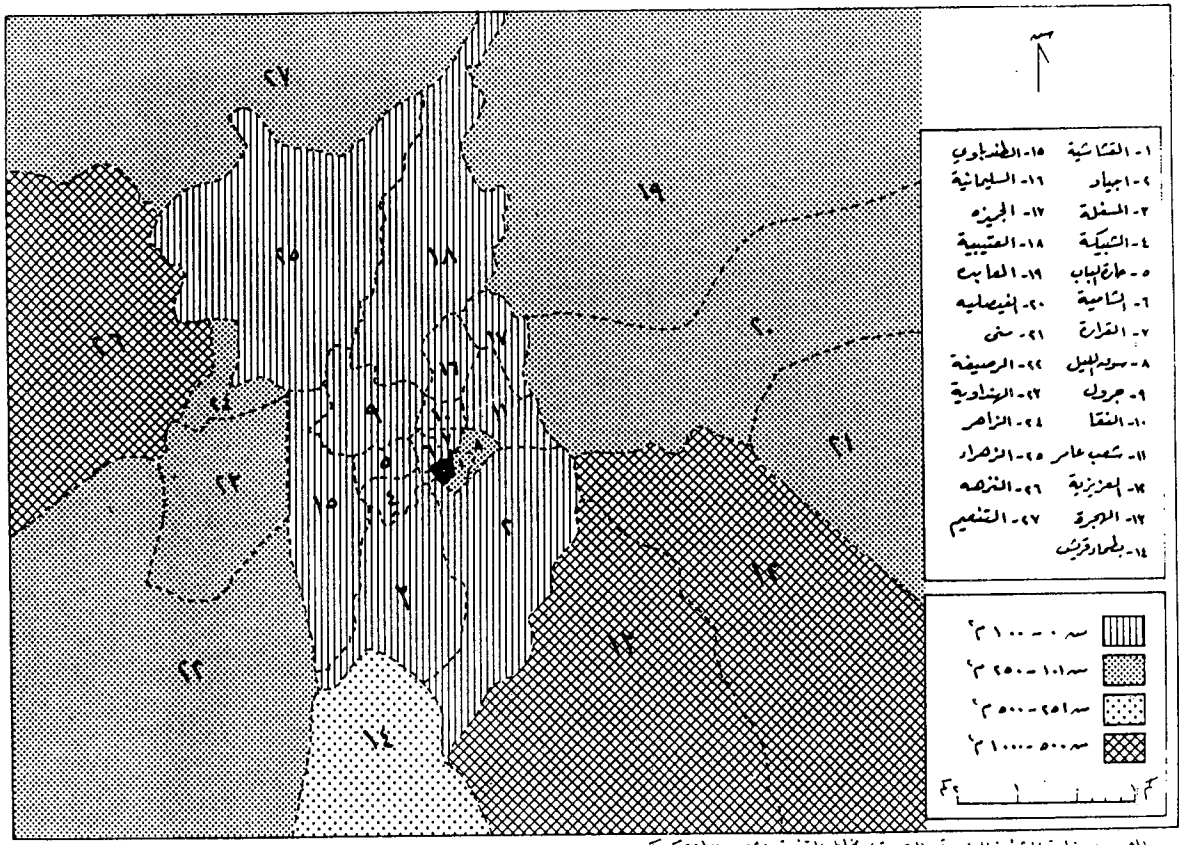

المصدر: وزارة الشئون البلدية والقروية، الخطط التنفيذية الشاملة لمنطقة مكة المكرمة
الأوضاع الراهنة الجزء استعمالات الأراضي، شكل ٢٠٥

شكل "١٧٠" حجم الأراضي السكنية بمكة المكرمة

جدول رقم " ٢ "

النسب المجمعة لعدد العمارات العالية [٦ أدوار فما فوق] حسب البعد عن المسجد الحرام .

البعد عن الحرم المكي	عدد العمارات العالية [٦ أدوار فما فوق]	النسبة	النسبة المجمعة
أقل من ٥٠٠م	١٤٤	٢٢,٤	٢٢,٤
٥٠٠ -	٢٥,٦	٢٩,٨	٦٢,٢
١٠٠٠ -	٥٧	٨,٩	٧١,١
١٥٠٠ -	٥٢	٨,١	٧٩,٢
٢٠٠٠ -	٣٦	٥,٦	٨٤,٨
٢٥٠٠ -	٤١	٦,٢	٩١,١
٣٠٠٠ -	١٥	٢,٣	٩٣,٤
٣٥٠٠ -	٣١	٤,٨	٩٨,٢
٤٠٠٠م فما فوق	١٢	١,٨	١٠٠
	٦٤٤	١٠٠	

جدول (٣) نسبة حجم قطع الأراضي في بعض أحياء مكة المكرمة القريبة والبعيدة جداً من الحرم المكي الشريف

الأحياء	١٠٠م فأقل	١٠١ - ٥٠٠	٥٠١ فأكثر
القشاشية *	٢٩,٤	٦٤,٧	٥,٩
أجياد *	٥٤,٠	٤٤,١	١,٩
المسفلة *	٦٩,٦	٢٩,٥	٠,٩
الشبيكة *	٧١,١	٢٨,٥	٠,٤
حارة الباب *	٥٠,٩	٤٨,٠	١,١
الشامية *	٥٤,٦	٤٤,٧	٠,٧
القرارة *	٤٦,٩	٥٢,٣	٠,٨
سوق الليل *	٤٠,٧	٥٨,٢	١,١
النقا *	٤٩,١	٥٠,٠	٠,٩
العزيزية X	٦,٨	٤٧,٢	٤٦,٠
الهجرة X	١٠,١	٣٩,٥	٥٠,٤
النزهة X	٢,٥	٣٤,٦	٦٢,٩
التنعيم X	٢٢,٠	٥٠,٧	٢٦,٣
الرصيفة X	٢٧,٥	٥٨,٧	١٣,٨

* الأحياء المحيطة بالحرم الشريف

X الأحياء المتطرفة

فإن الملاك يفضلون بالطبع تأجير مساكنهم خلال هذه الفترة في حين تبقى خالية بقية السنة . وتعد هذه الظاهرة من استخدامات الأرض مما تتميز وتنفرد به مكة المكرمة عن باقي مدن المملكة[1] ، إذ أننا نجد أن نسبة كبيرة من مساكن مكة المكرمة تقفل تماماً عند إنتهاء موسم الحج أو تستغل كمسكن للملاك خلال بقية أشهر السنة وعند إبتداء الموسم يغادر الملاك هذه المنازل أو يشغلون جزءاً منها وتستغل كشقق أو غرف لإيواء المعتمرين والحجاج بإيجارات عالية جداً . تنتشر ظاهرة المباني الخالية معظم السنة كلما إقتربنا من المسجد الحرام حيث نجد أن أكثر من ٥٠٪ من الطوابق السكنية خالية في غير وقت الموسم في كل من حارات القشاشية وحارة الباب والقرارة وسوق الليل[2] .

في حين تنخفض هذه النسبة كلما إبتعدنا عن المسجد الحرام وذلك بإستثناء منطقة منى التى تعتبر أحد المشاعر المقدسة ويقيم بها الحجاج اقامة دائمة ثلاثة أيام على الأقل من أيام الحج ولذلك فإن مساكنها تبقى خالية تماماً في غير أوقات الحج إلا من السكان المحليين .

ولا تقتصر الاستخدامات الموسمية أو المؤقتة على المساكن المخصصة للتأجير على الحجاج والمعتمرين بل إنها تشتمل على أنواع متعددة من الاستخدامات منها إستعمالات الأراضى الفضاء والاماكن العارضة كالجزر المرورية والأرصفة وتحت الجسور ومثل هذه الا ستخدامات تختفي تماماً في غير أوقات الحج والعمرة وهى تشكل نوعاً فريداً من الاستخدامات تتميز به مكة المكرمة إذ تستخدم هذه الأراضى الفضاء والاماكن العارضة في إيواء الحجاج وفي الاغراض التجارية كإنشاءات مؤقتة (متاجر ـ كشك) تتم فيها تجارة التجزئة بصورة أساسية (جدول ٤) .

---

(1) Khalid M. Al-Ankary, **Geographical Evolution of the Urban Structure of Mecca, Saudi Arabia,** M.A. Thesis, University of Oregon, 1977, pp. 93-99.

(2) Ministry of Municipal and Rural Affairs, **Makkah Region: Compreheusive Development plan: Vol.** 5, **Land Use and Activity Pattern,** August 1984, p.108-113.

٦ ـ **الاستخدامات التجارية** : لقد كان من تأثير الحرم المكي الشريف أن أصبحت الأسواق التجارية تحفّ به من كل جانب حتى إن مثل هذه الأسواق كانت قبل التوسعة الأخيرة للحرم تلاصق أبوابه في كل إتجاه وترتبط هذه الظاهرة بدور الحرم الشريف الذى يفد إليه مئات الالاف من الحجاج والمعتمرين كل سنة وهؤلاء لهم مطالبهم واحتياجاتهم اليومية من المأكل والمشرب والملبس والكماليات وغير ذلك كما أن غالبيتهم يحمل معه إلى بلده العديد من الهدايا والمواد التذكارية وبالتالي نشأت حول الحرم المكي الشريف أسواق متخصصة بل وسميت حارات بأكملها بأسماء السوق مثل سوق الليل والسوق الصغير وغير ذلك . وتعتبر الأسواق والمتاجر المتخصصة في بيع مستلزمات خاصة بالحجاج والمعتمرين من الظواهر الفريدة في إستخدامات الأرض بمكة والمتأثرة مباشرة بموقعها من الحرم المكي الشريف إذ أننا نادراً ما نجد مثل هذه المتاجر التقليدية في المناطق أو الاحياء البعيدة عن الحرم المكي الشريف ومن أمثال هذه المتاجر متاجر العطور والسبح والمساويك والذهب ومتاجر هدايا الحجاج والمصارف ومتاجر الكتب الدينية وسجاجيد الصلاة وكل ما يجذب إنتباه الحجاج وتعتبر أسواق المدعى والجودرية وسوق الليل وسوق أجياد من أبرز الأمثلة على هذه الأسواق التى تضم في غالبيتها متاجر متخصصة من هذا النوع . وتنتشر مثل هذه المتاجر كذلك على طول الشوارع الرئيسية والفرعية المؤدية إلى المسجد الحرام في حين أنها تختفي تماماً من الأسواق بالبعد عن المسجد الحرام نحو الاحياء المتطرفة التى تسود فيها المتاجر الحديثة والأسواق المركزية هذا إلى جانب أن الاستخدامات التجاريه من هذا النوع تشمل كل الدور الأول للمباني السكنية المجاورة للمسجد الحرام[1] .

إن الاستخدام التجاري لا يقتصر على الأسواق بل يشمل معظم الاستخدامات حول الحرم حيث إن الاستخدامات السكنية تطغى على كافة أنواع الاستخدامات وهي في جل الحالات مخصصة لسكني الحجاج والمعتمرين على هيئة

---

(1) Majdi Mohamed Hariri, **Housing in Central Makkah: The Influence of Hajj,** Unpublished ph. D. Diss. Univ. of Newcastle Upon Tyne, Dec. 1986, p.29.

جدول رقم " ٤ "

الاستعمالات الخاصة بتجارة التجزئة على قطع الأراضي الفضاء والساحات المكشوفة والأماكن العارضة لموسم الحج لعام ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

	الأراضي الفضاء	الأماكن العارضة
الإجمالي		
متاجر مؤقتة	٤٨٧	٢٢٠
أكشاك مؤقتة	٤٢٧	١١٨١
في نطاق كيلومتر واحد من الحرم الشريف		
متاجر مؤقتة	٢٦٩	٢٩٢
أكشاك مؤقتة	١١٥	٨٢٤

المصدر : وزارة الشئون البلدية والقروية - مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة - الأوضاع الراهنة الجزء ٨ الحج ذو القعدة ١٤٠٤هـ ص ٤٨

غرف أو شقق مفروشة أو فنادق وقد رأينا في معالجتنا السابقة كيف تتركز المباني ذات الأدوار العالية حول منطقة الحرم ونقول هنا بأن كل الفنادق المسجلة في مكة المكرمة تقع ضمن دائرة محيطة بالحرم المكي لا يزيد نصف قطرها عن ١٠٠٠ متر ما عدا فندق واحد له حالة خاصة وظروف خاصة وهذا تأكيد لدور الحرم المكي في جذب أحد أوجه النشاط التجاري السكني في هذه المدينة ونفس الشيء يمكن أن يقال عن جذبه للمباني التى تضم غرفاً أو شققاً مفروشة تؤجر بشكل كامل للحجاج والمعتمرين في حين تبقى خالية بقية أيام السنة .

٧ ـ **الاستخدامات الصناعية والحكومية** : وعلى النقيض من الاستخدامات التجارية فإن الاستخدامات الحكومية والصناعية تبتعد عن مركز المدينة وهو الحرم المكي الشريف ولأسباب مفهومة ومنطقية ذلك أن الأستخدام التجاري المُركَّز على هيئة أسواق وعمارات في المناطق المحيطة بالحرم الشريف مع الكثافة الشديدة للسكان في بعض شهور السنة يؤدى إلى إعاقة للحركة وصعوبة الاتصال هذا إلى جانب أن الاستخدام التجاري هو الأكثر رواجاً من الناحية الإقتصادية وبالتالي فإنه يجذب ويستحوذ على كل أنواع الاستثمار وخاصة العقارى منه وقد تم مسح الاستخدامات الحكومية من واقع خريطة الفارسي لمكة المكرمة وثبتت مواقع تلك الاستخدامات على خريطة رسمت بها دوائر مركزها الحرم المكي الشريف وبانصاف أقطار تساوى ٥٠٠ متر على الطبيعة تم بناءً على ذلك عمل جدول رقم (٥) ورسم منحنى لورنز الموضح بالشكل رقم (١٨) ومنه يلاحظ إتجاه منحنى لورنز للاستخدام الحكومي نحو خط التطرف في حالة البعد الشديد عن الحرم المكي الشريف على عكس منحنى لورنز السابق الذي لاحظناه في حالة توزيع المباني العالية ويمكن إعتبار ذلك نتيجة مباشرة لمقترحات تطوير المخطط الرئيسى لمكة المكرمة التى قدمها الاستشاري روبرت ماثيو عام ١٣٩٣ هـ والتى كانت تقضى بإبعاد المباني الإدارية الضخمة عن المنطقة المركزية لمكة المكرمة لتخفيف الضغط عنها والتأكيد على دورها الديني والروحي[١] ، أما من حيث

---

(١) الفارسي ـ مرجع سابق ـ ص ٧٢ .

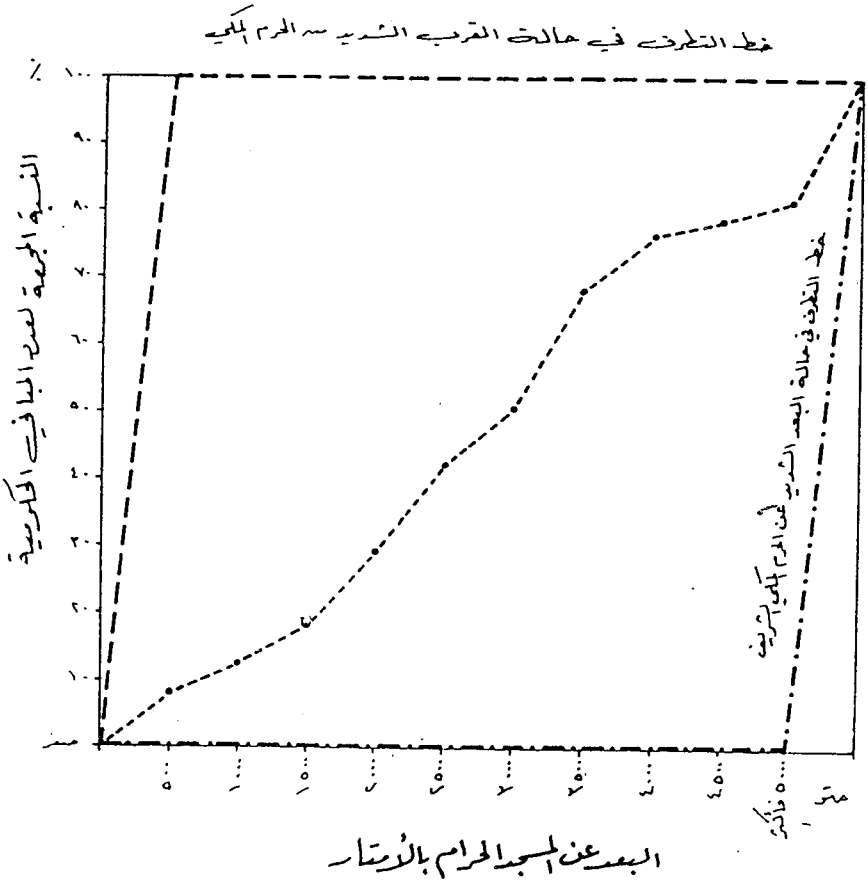

شكل «١٨» منحنى لورنز لتوزيع المباني ذات الاستخدام الحكومي حسب البعد عن الحرم المكي الشريف

الاستخدامات الصناعية فيكفي أن نقول بأن الدولة قد حددت منطقة صناعية خاصة تقع في حى التنعيم وخارج حدود المنطقة الحرام بمكة المكرمة بحيث تكون بعيدة عن الحرم المكي الشريف وتستطيع الاستفادة من الخبرات الاجنبية الصناعية غير المسلمة[1] وقد أكدت مخططات مدينة مكة المكرمة الارشادية على ضرورة منع القيام بأى نشاط صناعي في المنطقة المركزية للمدينة[2] .

---

(١) وزارة الداخلية ـ مخطط المنطقة الغربية : تقرير المخطط الرئيسى مكة المكرمة ، ١٣٩٣ هـ ص ـ ٢٠٥ .

(٢) الفارسي ـ مرجع سابق ـ ص ٧٢ .

جدول (٥) توزيع المباني ذات الاستخدام الحكومي بمكة المكرمة حسب البعد عن المسجد الحرام

البعد عن المسجد الحرام	عدد المباني	النسبة	النسبة المجمعة
الدائرة الأولى نصف قطرها ٥٠٠م	٩	٨,٢	٨,٢
" الثانية " " ١٠٠٠م	٥	٤,٦	١٢,٩
" الثالثة " " ١٥٠٠م	٦	٥,٦	١٨,٥
" الرابعة " " ٢٠٠٠م	١٢	١١,١	٢٩,٦
" الخامسة " " ٢٥٠٠م	١٤	١٢,٠	٤٢,٦
" السادسة " " ٣٠٠٠م	٩	٨,٢	٥٠,٩
" السابعة " " ٣٥٠٠م	١٩	١٧,٦	٦٨,٥
" الثامنة " " ٤٠٠٠م	٩	٨,٢	٧٦,٥
" التاسعة " " ٤٥٠٠م	٢	١,٩	٧٨,٧
" العاشرة " " ٥٠٠٠م	٣	٢,٨	٨١,٥
" الحادية عشرة " " ٥٥٠٠م	٢٠	١٨,٥	١٠٠

النتائـــج :

خلصت هذه الدراسة المتقدمة إلى عدة نتائج نجملها في النقاط التالية :

١ ـ تأكيد دور ووظيفة مكة المكرمة الدينية كعاصمة وقبلة للمسلمين على مر العصور وأن هذه الوظيفة أزلية ودائمة وترتب على هذه الوظيفة أن أصبحت المدينة تستقبل سنوياً العمار والحجاج إلى بيت الله الحرام بأعداد هائلة تتزايد سنة بعد أخرى كما ترتب على ذلك أن أصبحت ولا تزال محط أنظار المسلمين ومهوى أفئدتهم بحيث شدّ إليها الكثير رحالهم واعتبروها المقام الأخير لهم بغرض التعبد والزهد أو العلم وإكتساب الرزق .

٢ ـ تعتبر وظيفة مكة المكرمة مرتبطة بموقع البيت العتيق فيها والذي أصبح مركز المدينة وقلبها والمحدد لمعظم الأنشطة والتحركات وأنماط العمران وتركيب المدينة المورفولوجي والإجتماعي وإستخدامات الأرض في المنطقة المركزية للمدينة وبصورة مباشرة أو غير مباشرة في المناطق الأخرى بها .

٣ ـ كان من نتائج هذا التأثير ما يتعلق ببنية وتركيب المدينة ومورفولوجيتها إذ نجد أن المنطقة المركزية تتمحور في نسق عمرانها وشبكة الطرق بها وتوزيع وإتجاهات منازلها ومساجدها حول الحرم المكي الشريف الذى يحوى البيت العتيق أو الكعبة المشرفة .

٤ ـ تمتد آثار الكعبة المشرفة وموقعها إلى الأنشطة الاقتصادية للسكان وتحركاتهم وتوزيع المناطق الإجتماعية بالمدينة حيث أوضحت الدراسة تأثير وظيفة المدينة في النشاط الاقتصادي للسكان وإعتماد العديد من الأسر في دخلهم السنوى على الموارد الناجمة عن العمل أو التجارة في موسم الحج والعمرة أو إسكان الحجاج والمعتمرين وغيرها كما بينت الدراسة تمحور حركة المرور وكثافتها حول الحرم المكي الشريف أو توزيع النطاقات الاجتماعية سواءاً كان داخل المنطقة المركزية أو خارجها وعبر فترات التوسع والنمو التى شهدتها المدينة فقد كان متأثراً بشكل مباشر بوظيفة المدينة الدينية وموقع الحرم المكي الشريف .

٥ ـ أثبتت الدراسة التأثير الشديد لموقع الحرم المكي الشريف على إستخدامات الأرض بمكة المكرمة على وجه العموم وبالمنطقة المركزية منها على وجه الخصوص . ومن ذلك تركز الاستخدامات الموجهة لخدمة الحجاج والمعتمرين وإسكانهم وتجارتهم بها مما أدى إلى نمط معين من العمران في هذه المنطقة يتسم بالعمارات العالية المستخدمة كفنادق أو غرف مفروشة ، وبالأسواق التقليدية المتخصصة كما أدى إلى أرتفاع في أثمان العقار وإيجاره . وقد دلت الدراسة على أن التركز في الاستخدامات التجارية بالمنطقة المركزية قد انعكس على توزيع الاستخدامات الأخرى بالمدينة حيث تميل الاستخدامات الحكومية والصناعية مثلاً في توزيعها نحو البعد عن الحرم المكي الشريف .

* * *

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

القرآن الكريم :

الأزرقي ، محمد . **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار** ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، الطبعة الثالثة / مطابع دار الثقافة ، مكة المكرمة : ١٣٩٨ هـ .

باشا ، حفيظ أحمد ، **توقعات الاقبال على الحج حتى عام ١٤٢٠** تقرير غير منشور مركز أبحاث الحج جده : (بدون تاريخ) .

البتنوني ، محمد لبيب . **الرحلة الحجازية** . الطبعة الثالثة . مطبعة الجمالية ، ١٣٢٩ هـ .

توفيق ، فؤاد محمد عمر . « تخطيط الاسكان على سفوح الجبال في مكة المكرمة » **البلديات** . العدد الأول السنة الأولى ـ رجب ١٤٠٥ هـ ، أبريل ١٩٨٥ ، ص ١٧ ـ ٢١ .

حمدان ، جمال . **المدينة العربية** ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ مطبعة الجبلاوي القاهرة : ١٩٦٤ م .

الدسوقي ، محمود عبد العزيز . « مكة المكرمة : دراسة في جغرافية المدن » ص ٣١٧ ـ ٣٨٥ من كتاب **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول** ، المجلد الخامس ، الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤ هـ .

رفعت باشا ، إبراهيم . **مرآة الحرمين** ، جزآن ، دار الكتب المصرية ١٩٢٥ ، ١٣٤٤ .

رفيع ، محمد عمر . **مكة في القرن الرابع عشر الهجري** ، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع مكة المكرمة : ١٤٠١ هـ .

السباعي ، أحمد . **تاريخ مكة** ، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الرابعة ، ١٣٩٩ هـ .

السرياني ، محمد محمود . « مورفولوجية مكة الإجتماعية » ، **مجلة العواصم والمدن الإسلامية** ، العدد الثالث السنة الثانية - محرم ١٤٠٤ هـ أكتوبر ١٩٨٣ م ص ٤٣ - ٦٦ .

السرياني ، محمد محمود . « حول تعريف المدينة السعودية » ، **البلديات** ، العدد الثاني عشر ، السنة الثالثة ربيع الثاني ، ص ٣٣ - ٤٥ .

السرياني ، محمد محمود . **مكة المكرمة : دراسة في تطور النمو الحضري** ، الكويت ، الكويت تايمز جمادي الآخرة ١٤٠٦ هـ .

السرياني ، محمد محمود . **مكة المكرمة دراسة في مخططات الأراضي** ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤٠٦ هـ .

السرياني ، محمد محمود . **مكة المكرمة : دراسة في التغيير السكاني ١٣٩٤ - ١٤٠٣ هـ** ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤٠٧ هـ .

إسماعيل ، أحمد على . « حركة الحج من دول العالم الإسلامي » ص ٢٠٩ - ٢٤٢ من كتاب **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول** ، المجلد الخامس ، الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤ هـ .

الشريف ، أحمد . **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٥ م .

الشاعر ، عيسى موسى . « أعداد ومواطن الحجاج المسلمين بين الماضي والحاضر » ص ٢٤٥ - ٢٧٤ - من كتاب **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول** ، المجلد الخامس ، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤ هـ .

الصابوني ، محمد على . **مختصر تفسير ابن كثير** ، دار القرآن الكريم ، بيروت : ١٤٠٢ هـ ، المجلد الأول .

الصالح ، ناصر عبد الله . « الأحوال الجغرافية لمكة وجدة والطائف » بحث قدم إلى اللجنة الاستشارية لبحث الأوقات الحرة ـ كلية التربية ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ ١٣٩٧ هـ .

الصالح ، ناصر عبد الله ، ومحمد محمود السرياني .
الجغرافيا الكمية والإحصائية ، مطابع دار الفنون ـ جده ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م .

الصالح ، ناصر عبد الله « أحوال السكان بالمملكة العربية السعودية » ، **مجلة كلية التربية** ، عدد خاص عن الجغرافيا رجب ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

الصالح ، ناصر عبد الله **بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية** ، مطابع كويت تايمز ١٤٠٣ هـ .

الصالح ، ناصر عبد الله . **المؤثرات والأنماط الجغرافية للعمارة التقليدية بالمملكة العربية السعودية** ، المقاصد الإسلامية ١٤٠٤ هـ .

عبد الله ، عبد الرحمن صالح . **تاريخ التعليم في مكة المكرمة** . بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٢ هـ .

عبد الباقي ، مصطفى حجاج . « مكة المكرمة : انتشارها وتركيبها الداخلى » بحث قدم إلى ندوة المدن السعودية : إنتشارها وتركيبها الداخلى المنعقدة في ٧ ـ ٩ جمادى الثاني ١٤٠٣ هـ . الموافق ٢١ ـ ٢٣ مارس ١٩٨٣ م بقسم الجغرافيا ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود .

عبد الباقي ، مصطفى حاج . « النمو العمراني الحضري في مكة المكرمة ـ المشاكل والحلول » ـ بحث قدم إلى المؤتمر العام الثامن لمنظمة المدن العربية . المنعقد بالرياض في الفترة من ١٢ إلى ١٤٠٦/٧/١٦ هـ الموافق ٢٢ ـ ١٩٨٦/٣/٢٦ م .

عطار ، أحمد عبد الغفور . **الكعبة والكسوة منذ أربعة الآف سنة حتى اليوم** ، مكة المكرمة ١٣٩٧ هـ .

الغامدي ، عبد العزيز ، محمد محمود السرياني ، معراج مرزا ، زهير كتبى . **مكة المكرمة العاصمة المقدسة** ، منشورات أمانة العاصمة المقدسة . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م .

الغامدي ، عبد العزيز . **مواقع المساجد بمكة المكرمة** ، جامعة أم القرى مكة المكرمة ـ ١٤٠٧ هـ .

غضبان ، ياسين محمد نجيب . « المسجد في تخطيط المدينة العربية الحديثة » بحث غير منشور مقدم إلى المؤتمر العام الثامن لمنظمة المدن العربية المنعقد بالرياض في الفترة من ١٢ ـ ١٦ رجب ١٤٠٦ هـ الموافق ٢٢ ـ ٢٦ مارس ١٩٨٦ م .

فارسي ، أديب . **الرياض : وثبة ازدهار في الصحراء العربية** ، الطبعة الثانية ، مطبعة الحرية ، بيروت ١٤٠٤ هـ .

فارسي ، محمد سعيد . **التكوين المعماري والحضري لمدن الحج بالمملكة العربية السعودية** ، عكاظ للنشر والتوزيع ـ جده ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

الفاكهي ، محمد بن اسحاق . **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه** ، ثلاثة أجزاء تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة : ١٤٠٧ هـ .

القرطبي ، محمد . **الجامع لاحكام القرآن** ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة : ١٣٥٣ هـ .

قاضى ، ع . ع ، حازم إبراهيم . **تخطيط المدن في المملكة العربية السعودية** . جده : شركة الطباعة العربية ١٤٠١ هـ .

كحاله ، عمر رضا . **جغرافية شبه جزيرة العرب** ، مكتبة النهضة الحديثة ـ الطبعة الرابعة ١٣٨٤ هـ .

كتبي ، زهير محمد جميل . **تصريف مياه الأمطار بالعاصمة المقدسة** . مكة : مطبوعات أمانة العاصمة المقدسة ـ ١٤٠٨ هـ .

الكردي ، محمد طاهر . **التاريخ القديم لمكة وبيت الله الكريم** ـ مكتبة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة ١٩٨٥ م .

المطري ، خالد السيد . « الحج : دراسة في حركة السكان » ص ٢٧٧ ـ ٣١٣ من كتاب **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول** . المجلد الخامس . الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤ هـ .

متولى ، أبو بكر . « تخطيط المناطق وأهميته للمملكة العربية السعودية » **مجلة الإقتصاد والإدارة** جامعة الملك عبد العزيز ، جده . العدد الأول ، رجب ، ١٣٩٥ هـ .

مرزا ، معراج نواب . « أثر العوامل الطبيعية على النمو العمراني لمكة المكرمة » **مجلة العواصم والمدن الإسلامية** . العدد ٤ ، ١٤٠٤ هـ .

مرزا ، معراج نواب . « الاساس الجيومورفولوجي لتحديد منطقة الحرم بمكة المكرمة » بحث غير منشور قدم إلى الندوة الثالثة لأقسام الجغرافيا بالمملكة العربية السعودية ـ كلية العلوم الإجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الفترة من ١٧ ـ ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ .

مصيلحي ، فتحي محمد . **شخصية المدينة السعودية** . دار الاصلاح ـ الدمام : ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م .

مكي ، غازي عبد الواحد . « وضع الإسكان في مكة المكرمة خلال فترة الحج وأثره في مقترحات الحجاج نحو الحصول على مساكن أفضل في المستقبل » بحث قدم إلى ندوة المدن السعودية انتشارها وتركيبها الداخلي المنعقدة في ٧ ـ ٩ جمادي الثانية ١٤٠٣ هـ الموافق ٢١ ـ ٢٣ مارس ١٩٨٣ م بقسم الجغرافيا ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود .

مكي ، غازي عبد الواحد . **الحالة العامة للمساكن التى يعيش فيها الحجاج بمدينة مكة المكرمة خلال فترة الحج** ، ذات السلاسل : الكويت ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

مليبارى ، محمد عبد الله . **المنتقى في أخبار أم القرى** ـ مطابع الصفا . مكة المكرمة : ١٤٠٥ هـ .

الموسوعي ، مصطفى عباس . **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية** . دار الرشيد للنشر بغداد : ١٩٨٢ م .

الهذلول ، صالح . « نمو وتطور المحيط العمراني المعاصر في المملكة العربية السعودية » بحث غير منشور مقدم للمؤتمر الثامن للمدن العربية المنعقد في الرياض في الفترة من ١٢ ـ ١٧ رجب ١٤٠٦ هـ الموافق ٢٢ ـ ٢٧ مارس ١٩٨٦ م .

* * *

ثانياً : المراجـع الأجنبيـة :

— Abu-Lughud, Janet, and Richard Hay, Jr. (eds.) **Third World Urbanization,** Methuen, New York: 1979.

— Al-Ankari, K.M. **Geographical Evolution of the Urban Struture of Makkah, Saudi Arabia,** Unpublished Masters Thesis, University of Oregon, 1977.

— Al-Otaibi, Ghazi S. **Urban Dwelling Environment in Repidly Growing Cities,** Unpublished M.Sc. thesis (M.I.T.) Cambridge, May 1980.

— Bakasi, Abdulhmid A. **Islamic Religion and its Effect on the Street Pattern,** Unpublished Masters Thesis, Arizona State University, May 1980.

— Birks, J.S. «Overland Pilgrimage From West Africa to Mecca: Arachronism or Fashion» **Geography,** 62 (1977) pp. 216-217.

— Blake, Gerald, «A Rising Tide in Mecca» **Middle East International,** Vol. 58, April, 1976, pp. 16-18.

— Bourne, Larry S. (eds.) **Internal Structure of the City: Readings on Space and Environment,** Oxford Univ. press, New York: 1971.

— Boxhall, peter, «The Hard Way to Mecca» **Middle East International,** Vol. 62, August, 1976, pp. 23-28.

— Carami, M.S. «Residential Patterns of Ethnic Groups in Mecca» AAG program Abstracts, New Oreleans: 1978, p. 298.

— Cobbold, Evelyn, Lady. «Pilgrim to Mecca» **The Geographical Magazine,** Vol.1, May - October, 1935, pp. 107- 16.

— Fadan, Yousef. «Traditional Houses of Makkah: The Influence of Socio-Cultural Themes Upon Arab-Moslim Dwellings» in Germen, Aydin (ed.) **Islamic Architecture and Urbanism,** King Faisal University, Dammam: 1404 (1983), pp. 295-326.

— Ghafur, Abdul,Sheikh «From America to Mecca on Airborne pilgrimage» **The National Geographic Magazine,** Vol. 104, July 1953, pp. 1-60.

— Hamidullah,M. «The City State Mecca», **Islamic Culture:** The Hyderabad Quarterly Review, Vol. 12,July, 1938, pp. 255-75.

— Hariri,M.M. **Housing in Central Makkah: Influence of Hajj,** Unpublished ph.D. Dissertation, University of Newcastte Upon Tyve, 1986.

— Ibrahim, Hazim. «Historical Evolution of Saudi town» **Albenaa,2,** April-May, 1979: 52.

— Isaac, Evich. «THe Pilgrimage to Mecca» **Geographical Review,** Vol. 63, 1973, pp. 405-409.

— King, Leslie. and Reginald G. Golladge, **Cities Space, and Behavior: The Elements of Urban Geography,** Printice-Hall, Inc. New Jersey: 1978.

— King, Russell. «The pilgrimage to Mecca: Some Geographical Historical Aspects». **Erdkurde,** Vol. 26, 1972, pp. 61-75.

— Makky, Ghazi. **Mecca: The pilgrimage City,** London, Groon Helm, 1978.

— Makky, Ghazi.**Characteristics of pilgrim Accommodation in Mecca,** Unpublished PH.D. Dissertation, University of Michigan, 1981.

— Mirza, M. **The Impact of Selected Physical Factors on Urban Development in Makkah, Saudi Arabia,** Unpublished Masters Thesis, Eastern Michigan University, 1979.

— Rugg, Dean S. **Spatial Foundations of Urbanism,** WM.C. Brown Company publishers, Dubuque, Iowa, 1972.

— Sardar, Ziauddin, and M.A.Zaki Badawi (eds.) **Hajj Studies,** Vol.1, Croom Helm, London: (No date).

ثالثاً : التقارير والكتب السنوية والإحصائية :

وزارة الداخلية ـ إدارة تخطيط المدن والمناطق ، **تقرير المخطط الرئيسي لمكة المكرمة** ، ١٣٩٣ هـ .

وزارة الداخلية ـ الأمن العام ـ الإدارة العامة للمرور ، **تعليمات السير لحج عام ١٤٠٧ هـ** ، شركة المدينة للطباعة والنشر ـ (بدون تاريخ) .

وزارة الداخلية ـ المديرية العامة للجوازات ، **احصائية الحجاج لعام ١٤٠٧ هـ** سنة الطبع والناشر غير معروف .

وزارة الشئون البلدية والقروية ـ وكالة الوزارة لتخطيط المدن ، **مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة الأوضاع الراهنة** : الجزء الثاني : السكان والخصائص السكانية ـ الجزء الثالث : اقتصاد منطقة تخطيط مكة المكرمة ـ الجزء الرابع : الزراعة والموارد المائية ـ الجزء السادس : المرور والنقل ـ الجزء السابع : إدارة وتنظيم التخطيط ـ الجزء الثامن : الحج ـ الجزء التاسع : نظرة عامة . المسودات الأولية (التقديم الثاني) ذو القعدة ١٤٠٤ هـ أغسطس ١٩٨٤ م .

وزارة الشئون البلدية والقروية ، **مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة ، التقرير النهائي للمشروع** ، مكة : ١٤٠٦ هـ .

— Ministry of Municipal and Rural Affairs, **Makkah Region Comprehensive Development plan, Existing Conditions** Vol.I. physical Background and Intrastructure, May 1984.

٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-٥

حصر التركيب الدقيق

لصبغ الأكردين البرتقالي المرتبط بقوالب الحمض الديوكسي ريبوزي النووي في أسرطان مثانة الإنسان

د/ محمد فتحي اسماعيل

قسم علم الحيوان

كلية العلوم - جامعة المنصورة

تعريف بالباحث

الاسم : د. محمد فتحي محمد اسماعيل

الوظيفة : استاذ مساعد بقسم الأحياء ـ كلية العلوم التطبيقية والهندسية جامعة أم القرى .

التاريخ العلمي : ـ بكالوريوس العلوم من جامعة المنصورة ـ قسم الحيوان بتقدير جيد جدا سنة ١٩٧٣ م.

ـ ماجستير في علم الحيوان ـ كلية العلوم ـ جامعة المنصورة سنة ١٩٧٧ م.

ـ دكتوراه من كلية الطب ـ جامعة أدنبره ـ قسم المسالك البولية سنة ١٩٨٣ م.

« بسم الله الرحمن الرحيم »

حصر التركيب الدقيق لصبغ الاكردين البرتقالي المرتبط بقوالب الحمض الديوكسي ريبوزي النووي في سرطان مثانة الانسان

د. محمد فتحي اسماعيل
قسم علم الحيوان ـ كلية العلوم ـ جامعة المنصورة

كان الهدف الأساسي من هذه الدراسة التمييز بين الرتبة المنخفضة والرتبة المرتفعة لسرطان طلائية مثانة الانسان باستخدام صبغ الاكردين البرتقالي كطريقة كيميائية خلوية دقيقة .

وقد بينت الدراسة أن الزيادة المميزة لتفاعل الكروماتين بصبغ الاكردين البرتقالي في الرتبة المنخفضة لسرطان المثانة ترجع الى وجود حافز يعمل على مستوى قوالب الحمض الديوكسي ريبوزي النووي في الخلايا السرطانية وهذا الحافز كان موجودا أصلا في الخلايا السوية أثناء عملية التكوين الجنيني . وهذا الحافز يعمل على ازالة البروتين النووي الكابح لنشاط قوالب الحمض الديوكسي ريبوزي النووي .

وقد أظهرت الرتبة المرتفعة لسرطان المثانة خطوات متعاقبة من النضوج ، حيث أن حبيبات صبغ الاكردين تقل تدريجيا من الخلايا القاعدية الى الخلايا السطحية . وقد أمكن الافتراض أن جزءا ذا شأن من هذه الخلايا السرطانية المتقدمة لم تترك الدورة الانقسامية الا بفضل نقص نشاط قوالب حمض الديوكسي ريبوزي النووي .

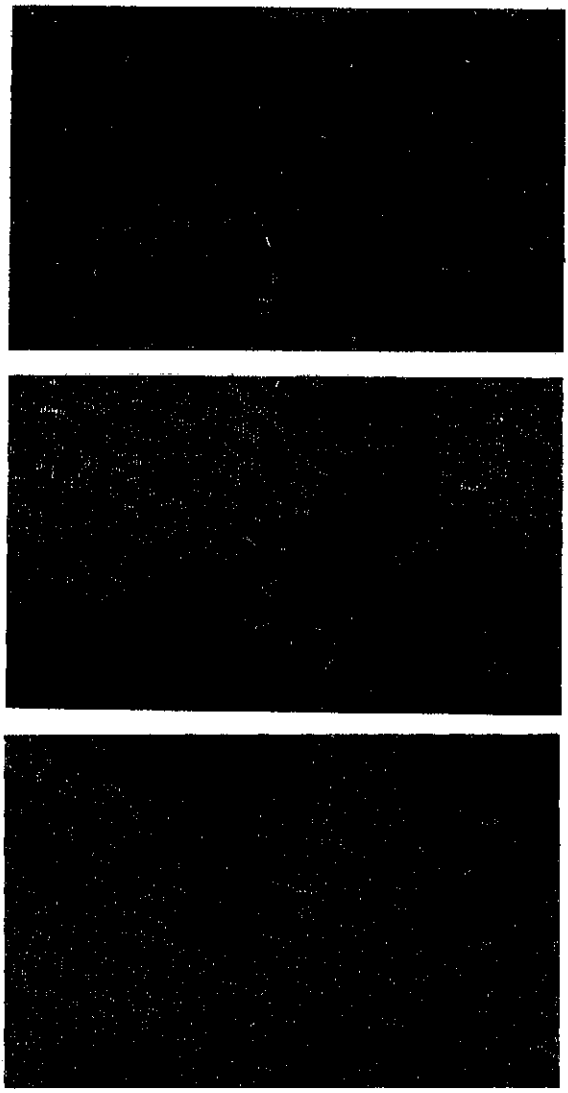

Fig. 2: Electron micrographs of high grade papilloma of human urothelium (a) Superficial cells, × 15,000 (b) Intermediate cells, × 9,000 (c) basal cells, × 15,000 Electron-dense reactions (arrows) is confined to the euchromatin.

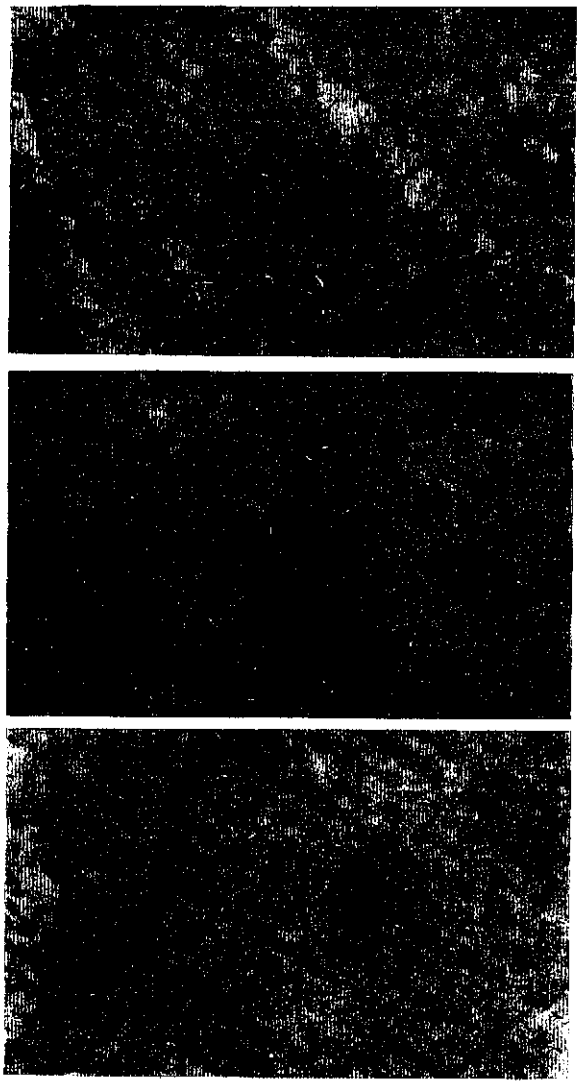

Fig. 1: Electron micrographs of low grade papilloma of human urothelium. (a) Superficial cells, × 9,000 (b) Intermediate cells, × 15,000 (c) basal cells, × 15,000. Electron-dense reactions (arrows) is confined to the euchromatin.

14 . Pugh, R.C.B. (1973): The pathology of cancer of the bladder. Cancer, 32: 1267-1274.

15 . Saunders, E.F.; and Mauer, A.M. (1969): Reentry of nondividing leukemic cells into a proliferative phase in acute childhood leukemia. J. Clin: Invest., 48: 1299-1305.

16 . Sjølin, K.U.; Nyholm, K.; Trautner, K. (1976): Studies of transitional cell tumours of the bladder. Acta Pathol. Microbiol. Scand. (A) 84: 361-374.

17 . Turkington, R.W. (1971): Changes in hybridizable nuclear RNA during the neoplastic development of mouse mammary cells. Cancer Res. 31: 427-432.

18 . Veneema, R.J.; Fingerhut, B.; and Graff, S. (1971): Nucleic acid synthesis in bladder tumours. J. Urol., 105: 392-396.

19 . WHO, Geneva (1973): Histological typing of urinary bladder tumours, International Histological Classification of Tumours, No. 10.

6 . Frenster, J.H., Landrum, S.R.; Masek, M.A.; and Wilson, L.S. (1975): Nuclear maturation within neoplastic cells in vivo. J. Cell Biol., 67: 123a-124a.

7 . Frenster, J.H.; Landrum,, S.R.; Masek, M.A.; and Wilson, L.S. (1976): Control of DNA helix openings during in vivo neoplastic cell maturation. Proc. Amer. Assoc. Cancer Res., 17: 15-16.

8 . Gold, P. (1971): Antigenic reversion in human cancer. Annu. Rev. Med., 22: 85-94.

9 . Herstin, P.R., and Frenster, J.H. (1972): In "Embryonic and fetal antigens in cancer" (N.G. Anderson and J.H. Coggins, eds.), vol. 2, pp. 5-7, Nat. Tech. Inform. Serv., U.S. Dep. Commerce, Springfield, Virginia.

10 . Ismail, M.F. (in press): Age-related changes in DNA template activity of human bladder urothelium: An acridine orange ultracytochemical study. Bulletin of the Faculty of Science, Mansoura Univ.

11 . Lehmann, R.; and Slavkin, H. (1976): Localization of "transcriptively active" cell during odontogenesis using acridine orange ultrastructural cytochemistry. Develop. Biol., 49: 438-456.

12 . Ooms, E.C.M.; kurver, P.H.J.; Veldhuizen, R.W.; and Alons, C.L. (1981): Grading of bladder tumour with the aid of morphometry comparison with grading by pathologists. In "Bladder carcinoma: A morphometrical study" (E.C,M.Ooms ed.). 58-69 Univ. of Leyden, Amsterdam.

13 . Peckham, M.J.; and Cooper, E.H. (1969): Proliferation characteristics of the various classes of cells in Hodgkin's disease, Cancer, 24: 135-146.

include the cells of the high grade papillary tumours of the present material, which was found to have less DNA template activity than the normal counterpart.

Finally, study of the DNA template activites in bladder tumours is not only an important research tool, but also appears to have clinical application in patients who have tumour and resist endoscopic therapy, radiotherapy or chemotherapy. A biopsy specimen of such tumour could be processed for AO chromatin interaction and if there is a high DNA template activity in all the cell layers, this would be considered as low grade tumour. However, if there is a low DNA template activity and a decline of the probes number from the base to the surface, the tumour would be considered as high grade tumour.

Acknowledgements

The author wishes to express his thanks to prof. G.D. Chisholm and his theatre staff in the Western General Hospital, Edinburgh, U.K. for their help with the biopsies.

References

1 . Ahearn, M.J.; and Trujillo, J.M. (1973): Acridine orange binding capacity in human leukemic bone marrow cells. Abstracts thirteenth annual meeting American Society for Cell Biology. J. Cell Biol., 59: 3a.

2 . Bergkvist, A.; Ljungavist, A. and Moberger, G. (1956): Classification of bladder tumours based on the cellular pattern. Acta Chir. Scand., 130: 371-378.

3 . Broders, A.C. (1922): Epithelioma of the genito-urinary organs. Ann. Surg., 75:574.

4 . Church, R.B.; and McCarthy, B.J. (1967): Ribonucleic acid synthesis in regenerating and embryonic liver. J. Mol. Biol., 23: 477-486.

5 . Frenster, J.H. (1971): Electron microscopic Localization of acridine orange binding to DNA within human leukemic bone marrow cells. Cancer Res., 31: 1128-1133.

Discussion

In the Low grades papillary tumours, the cells were found to have high amount of DNA template activity. Increasing derepression of DNA templates was noted if neoplastic cells were assayed for the diversity of RNA species being synthesized as the neoplasm progressed first to a benign nodule, then to a spontaneous neoplasm, and finally to a transplantable highy malignant neoplasm (Turkington, 1971). Also, Veneema et al. (1971) observed that well differentiated tumours had unexpectedly high rate of nucleic acid synthesis.

During the course of embryogenesis in the developing liver, a progressive decrease in the diversity of RNA species being synthesized was observed, but when the adult liver was induced to regenerate following partial hepatectomy, derepression of previously repressed DNA templates again allowed the reappearance of those RNA species characteristic of the embryonic state (Church and Mc Carthy,1967). Such a derepression of normally repressed DNA template may account for the reappearance within adult human neoplasms of cell surface antigens characteristic of normal fetal life (Gold, 1971). A quite similar reappearance of normal fetal antigens has been observed in both chemically induced and virus induced neoplasms in experimental animals (Herstein and Frenster, 1972).

In the high grade carcinoma, the DNA template activities were found to decline as cell differentiation progressed, but that decrease was less than that found in the normal urothelium. A similar decrease has been observed during nuclear blebbing maturation of human acute Leukemia blast cells (Ahearn and Trujillo, 1973) and during the nuclear blebbing (Frenster et al. 1975) and maturation (Frenster et al., 1976) of neoplastic Reed-sternberg cells in the lymph nodes of untreated patients with Hodgkin's disease. It has been suggested that during the course of neoplastic cell survival a signifiant fraction of advanced neoplastic cells leave the proliverastive cycle by virtue of decreasing their DNA template activity (Peckham and Cooper, 1969; Saunders and Mauer, 1969; Ahearn and Trujillo, 1973), and that might

Results

As previously shown in other systems (Frenster, 1971; Lehmann and Slavkin, 1976) incubation with AO and subsequent digestion with DNase resulted in electron-dense reaction products within nuclei of normal and tumour cells of human urothelium. The AO chromatin reaction products were specifically localized over the euchromatin portion of the nucleus. They were not found in the heterochromatin, cytoplasm or associated with extracellular matrix components (Figs. 1 and 2).

Observations on the normal human urothelium were listed in a previous report (Ismail, in press). It was found that the number of AO probes decline as normal cell differentiation progressed. Also, the number of the probes decline but to a lesser degree in high grade tumour (table 1 and fig. 2 a,b,c). However, in low grade tumour the situation is different and it seems to be constant from the base to the surface (table 1 and fig. 1 a,b,c).

In Low grade tumours the number of AO chromatin interaction was found to be significantly higher than that of normal urothelium especially in the intermediate and superficial cells (table 1). However, in high grade tumour the number of the probes in the basal and intermediate cells was found to be significantly less than those of normal urothelium (table 1).

Table (1) : The mean probe count of human papillary tumour and the normal counterpart. The standard error of each value is indicated.

Cell type	Normal	Low grade	High grade
Superficial	-	96.88±8.76	18.45±2.59
		P<0.001	
Intermediate	53.15±5.82	88.59±13.53	30.04±3.88
	P<0.001	P<0.001	
	P<0.001		
Basal	79.10±5.82	95.65.±7.75	38.75±6.51
	P<0.01	P<0.001	
	P<0.001		

grading of bladder tumours is consistent and reproducable, in the first place to ascertain that the right patient gets the right treatment (Sjølin et al., 1976). Moreover, the comparison of the clinical results of different institutions is invalidated by a great variation in grading results (Ooms et al., 1981).

In this paper, it is considered interesting to study the AO binding sites within nuclei of human bladder carcinomas in order to find out if any variation occurs in low and high grades.

Material and Methods

The human papillary tumour biopsies were obtained with Storz forceps, mainly from elderly males who had no other symptoms suggestive of infection or urinary obstruction, and the samples were taken before any form of treatment was initiated. The samples were initially checked by light microscopy. The light microscope examination and tumour grading were carried out according to the WHO grading system.

The method described by Frenster (1971) was applied. After fixation in 5% glutaraldehyde in medium 199 for 2 hours, the fixed tissue were treated with 10^{-3}M acridine orange in medium 199 for 1 hour. The samples were next washed three times in medium 199 and incubated at 37°C for 30 minutes in Eagle's minimum essential medium containing 1.0 mg/ml pancreatic DNase I. The incubated samples were then prepared for electron microscopy by being postfixed for 1 hour in 1% osmium tetroxide, dehydrated with graded concentration of ethanol and propylene oxide, and embedded in Epon. Thin sections were cut with an LKB ultramicrotome, stained with 5% uranyl acetate for 30 minutes, and examined at 80 KV in an AEI-BM6 electron microscope.

Statistical analysis: A random sample of five blocks from each of the samples to be analysed was used to count within each cell the electon-dense granules. Statistical comparisons between cells of the normal urothelium, the low and high grades of papillary carcinomas were made using the student t-test.

Ultrastructural Localization of Acridine Orange Binding to DNA Template in Human Bladder Cancer.

M.F. Ismail

Zoology Department, Faculty of Science, Mansoura University, Mansoura, Egypt.

Abstract

The primary object of the present study was to distinguish the low grade tumour from the high grade tumour of human urothelium, using the acridine orange (AO) as ultracytochemical probe.

In the present study, the increased interaction of AO chromatin observed in the low grade tumour was attributed to the presence of derepressors in the neoplastic cells which are normally found during embryogenesis. However, the high grade tumour showed definite sequences of cell maturation, where the number of AO probes declines from the base to the surface. It has been suggested that a considerable fraction of advanced neoplastic cells leaves the proliverative cycle by virtue of decreasing their DNA template activity.

Introduction

Broders (1922) introduced a system for grading of bladder tumours. Bergkvist et al. (1965) and Pugh (1973) formulated their tumour grading in more detail. Also, in 1973, the WHO divided the urothelial tumours into three grades . Anaplastic carcinomas formed a separte group in this grading system. However, these three grading systems are basically quite similar in that the grades I, II and III in the three grading systems do not differ significantly, and that the grade IV tumours in Bergkvists' classification are designated as anaplastic carcinomas in the WHO system.

In clinical practice, grade I and II tumours (Low grade tumours) are treated conservatively with transurethral resection or with local chemotherapeutical application, Whereas the high grade tumours (grade III and over) are treated more aggressively. It is clear that it would be very desirable if the

٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-٦

إتجاهات طلاب الكفاءة المتوسطة نحو بعض عوامل البيئة المادية للمدرسة وأثرها في تحصيلهم الدراسي

د/ حسن علي مختار
أستاذ مساعد
قسم المناهج وطرق التدريس
كلية التربية - جامعة أم القرى

تعريف بالباحث

د . حسن علي مختار ـ من مواليد مكة المكرمة عام ١٣٦٥ هـ ـ بكالوريوس جغرافيا ـ دبلوم عالي في التربية ـ أمريكا ، ماجستير ودكتوراه في المناهج ـ أمريكا ، لديه عدة مؤلفات ودراسات منشورة . . عضو هيئة تدريس بقسم المناهج كلية التربية جامعة أم القرى ـ من خبراته الوظيفية الى جانب التدريس مدرس ، موجه تربوي ، محاضر ، أستاذ مساعد ، وقد تولى الإشراف الأكاديمي بكلية التربية ثم رئاسة قسم التربية الفنية بنفس الكلية . .

ملخص بحث اتجاهات تلاميذ الكفاءة المتوسطة نحو بعض عوامل البيئة المادية للمدرسة وأثرها في تحصيلهم الدراسي

بحث الدكتور حسن على مختار

البيئة المادية للمدرسة هي المحيط الذي أوجده الإنسان مثل المنشآت والمباني والامكانات وكل ما يدخل ضمن هذا التصنيف ، والبيئة المادية للمدرسة حسب هذا التعريف تشمل المبنى المدرسي والتسهيلات والامكانات من أثاث ووسائل تعليمية وملاعب وخدمات ومرافق لغرض تحسين العملية التعليمية .

إن هناك عوامل في المدرسة غير الخبرات التعليمية والنشاطات المنهجية يتفاعل معها التلاميذ سلباً أو إيجاباً قد يساعد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على اكتساب الخبرات التعليمية وتنمية المهارات المطلوبة . . وهذه الدراسة محاولة لمعرفة اتجاهات التلاميذ نحو بعض العوامل البيئية وتأثيرها على تحصيلهم الدراسي من وجهة نظرهم ، وقد تساعد نتائج البحث في معرفة رغبات وحاجات التلاميذ لنوع البيئة التي تمكنهم من تحصيلهم وايجاد الطرق التدريسية وتخطيط المناهج بشكل ملائم لذلك .

اختيرت ست مدارس متوسطة ومجموع ٥٤٩ تلميذاً بها ، ثلاث منها بيئتها المادية جيدة والأخرى منخفضة المستوى ، وقد تم اعداد مقياس لهذه الاتجاهات يتكون من ٢٦ مفردة تمثل خمس عوامل :

المواد والوسائل ، التجهيزات والظروف الملائمة ، طريقة تنظيم الفصل ، الامكانات والتسهيلات ، والتصميم المعماري وشروطه .

اتضح من النتائج ان التلاميذ في كلا المجموعتين من المدارس قد عبروا عن ارتياحهم للعوامل البيئية المادية للمدرسة ، واعتقدوا ان توفرها في المدرسة وحسن نوعيتها يساعدهم على التحصيل الدراسي بشكل أفضل ، ولذا فإن الاستنتاج العام للدراسة تمثل في الاتجاه الايجابي نحو العوامل البيئية الخمس التي حددت في إدارة البحث .

المقـــــــدمة

البيئـة الطبيعيـة بشكل عـام هي البيئة المـادية أو الفيـزيقيـة Physical Environment وتشمل المحيط الذي يعيش فيه الانسان ويتكون من الأشياء الطبيعية التي خلقها الله ولا دخل للانسان في ايجادها مثل الأنهار والأشجار والجبال وغير ذلك . كما تشمل البيئة أشياء صنعها الانسان بنفسه مثل المباني والمنشآت وكل ما يدخل في هذا التصنيف ، وعندما نتكلم عن البيئة الطبيعية فإنما نقصد البيئة المادية التي تختلف عن البيئة الاجتماعية والتي تتكون من أفراد وجماعات بشرية .

وإذا ما نظرنا إلى المدرسة نجد أن بيئتها الاجتماعية تتكون من المدير والمعلمين والموظفين والتلاميذ وغيرهم . والبيئة المنزلية أيضاً اجتماعية حيث تتكون من الوالدين والأقربين ، والدراسات التي أجريت في هذا النطاق أظهرت فعلاً تأثير هذه البيئة في تعلم التلاميذ وتحصيلهم الدراسي .

ولعل البيئة المادية للمدرسة ذات تأثير أيضاً على تحصيل التلاميذ يقارب تأثير البيئة الاجتماعية . وهذه البيئة تشمل المبنى والتسهيلات والامكانات والأثاث والوسائل المختلفة والمكتبة والساحات والملاعب والتكييف وغير ذلك ، لقد بدأ الاتجاه في الدراسات الحالية يتجه نحو دراسة هذه الظاهرة أي أثر البيئة المادية للمدرسة في التحصيل الدراسي لامكانية تحسين هذه البيئة بشكل يساعد على اكتساب المعرفة . وإن كانت هناك دراسات قليلة في هذا المجال لأنها تواجه عمليات معقدة من الاجراءات .

ومن الفروض التي يعرضها الباحثون في هذا المجال قولهم أنه ربما تكون هناك فروق في التحصيل الدراسي بين التلاميذ الذين يدرسون في مدرسة حالتها البيئية جيدة من حيث حداثة المبنى وتوفر الأجهزة والادوات التعليمية والاثاث الفاخر والمرافق المناسبة والامكانات والتسهيلات مثل المكتبة والملاعب والمقاصف وغرف الوسائل والمعامل والفصول والأروقة المتسعة التي تعطي شعورا بالحرية في

التحرك والانتقال بسلام يساعد على تهيئة الظروف للدراسة . وعكس ذلك التلاميذ الذين يدرسون في مبنى سيىء التهوية سيىء الموقع منعدم الأثاث الجيد وقليل الامكانات والتسهيلات الأخرى . فهاتان البيئتان قد توجدان فروقا لدى التلاميذ في التحصيل والتفوق الدراسي حيث يفترض أن يكون التلاميذ في المدرسة الأولى أكثر تفوقاً من الثانية .

وهذا البحث ما هو إلا محاولة متواضعة للكشف عن الاتجاهات التي يرغبها التلاميذ في المدرسة نحو بعض متغيرات البيئة المادية حيث قد تساعد النتائج في إعداد البيئة الاعداد الأمثل لتحقيق الأهداف التعليمية والتربوية للمنهج الدراسي .

مفهـوم البيـئة المدرسـية :

تطور مفهوم البيئة المدرسية حسب قول تاياك (Tyack, 1974) خلال فترة طويلة من الزمن في تاريخ التعليم في العالم . ففي البداية كان التلاميذ يوضعون في غرفة واحدة كبيرة ، ولكن فيما بعد أضيفت أفكار جديدة في مجال المناهج والتدريس نتج عنها ابتكار برامج وطرق متنوعة وصممت وبنيت حسب ذلك مبانٍ مدرسية حديثة حيث شملت غرفاً للدراسة ومعامل وساحات للعب ومكتبات ومواد وأجهزة ضرورية ، وكذلك التسهيلات الأخرى التي تعتبر ذوات فائدة للتلاميذ والمعلمين والموظفين . ولقد شمل حديثاً جداً تغيرات في المباني المدرسية على هيئة مدارس ذات فراغات ومساحات مفتوحة بدون جدار ، مصممة لاستيعاب الطرق التدريسية المبتكرة في التعليم المفتوح (الحر) ، (مختار ، ١٤٠٦ هـ ، ص ٤٧ - ٥٦) .

ومع أن البيئة الاجتماعية للمدرسة لها تأثير قوى على سلوك التلاميذ وتعلمهم واتجاهاتهم ، فإن البيئة المادية لا يمكن تجاهلها حيث يقضي التلاميذ معظم وقتهم اليومي في المدرسة للمرور بالخبرات التعليمية والاخلاقية من خلال تفاعلهم مع الأقران والمعلمين أو مع المحيط المادي للمدرسة . وكل هذه العوامل تؤثر فيما يدور في الفصل وبالتالي في سلوك واتجاهات التلاميذ والمعلمين . ولقد وصف جون ديوي (Dewey, 1938) هذا التفاعل في الغرف الدراسية بين التلاميذ والمعلمين من جهة وبينهم وبين محيطهم المادي من جهة أخرى بأنه مهمٌ جداً لخبرات التلاميذ التعليمية التي يمرون بها في المدرسة . ويقول ديوي :

« إن الخبرة دائماً ما تكون كذلك لأن التفاعل الذي يحدث بين الفرد وفي نفس الوقت بين ماتمثله بيئته سواء كانت البيئة تتكون من أشخاص يتحدث إليهم عن أمر ما ، أو ألعاب يلعب بها أو كتب يقرؤها (حيث ظروف البيئة في نفس الوقت ربما تكون انجلترا أو اليونان القديم أو إقليماً خيالياً) أو مواد لتجربة يقوم بها . البيئة بمعنى آخر تشمل أي ظروف تتفاعل مع الحاجات الشخصية والرغبات والأغراض والامكانات وذلك لخلق خبرة يحصلها حتى ولو يبنى شخص قلعة في الهواء فإنه يتفاعل مع أشياء هو يبنيها في خياله » . (ص ٤٣ - ٤٤)

وتلعب البيئة دوراً مهماً في تعليم التلاميذ حيث يفترض بعض المربين أن البيئة تكون بديلة للسلوك (انظر سكينر : Skinner, 1953) .

ولقد توصلت عدد من الدراسات في مجال البيئة ومجال المناهج والتدريس إلى دليل على أهمية البيئة المادية على السلوك الانساني حيث أشار باقادر وآخرون (١٤٠٣ هـ) إلى أن البيئة من منظور الإسلام تعتبر ذات أهمية حيث يدعو الإسلام إلى المحافظة عليها لأنها تكون جزءا من مؤثرات في حياة الانسان بما تحتويه من نعم وموارد سخرها الله له للانتفاع بها . كما أشار كل من جلاس وآخرون (Glass, 1969) إلى تأثير هذه البيئة على التعليم والآداء المدرسي وعلى السلوك العقلي والعاطفي والجسمي حيث أكد بأنه سواء كان التأثير مباشراً أو غير مباشر فإنه إما أن يسهل أو يعرقل التحصيل الدراسي . وبمعنى آخر فإن متغيرات البيئة المادية للمدرسة مثل المبنى والأثاث والمظهر وطريقة ترتيب المقاعد والمكتبة والإضاءة والتدفئة والتكييف والمواد والوسائل السمعية والبصرية والتسهيلات الأخرى للمدرسة يمكن أن توحي للتلاميذ والمعلمين بما يجب أن يفعلوه ويتشكل بذلك سلوكهم (انظر زيفربلات ودويل Zifferblatt, 1972, Doyle, 1977) .

من جهة أخرى يحدد شلبي (١٩٨٤) المفهوم العام للبيئة بقوله :

« الاطار الذي يعيش فيه الانسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى ويمارس فيه علاقته مع أقرانه من بني البشر » ص ١٦ .

وبهذا المعنى يعتقد شلبي أن البيئة تتوفر فيها موارد يستمد منها الانسان مقومات حياته ويقسم البيئة إلى نوعين ، بيئة تتكون من عناصر غير حيّة أوجدها الله أو شيدها وأقامها الانسان ، وبيئة من عناصر حية اجتماعية (ص ١٧ ـ ١٨) .

ويعتقد شلبي أن المواقف التعليمية التي تتهيأ في البيئة المدرسية لتحقيق الأهداف التربوية تتمثل في المعمل المدرسي والحديقة المدرسية والمتحف المدرسي التي تمكن التلاميذ من التطبيق والممارسة للعديد من المناشط التعليمية التي تقوم

على أسس الملاحظة والتجربة والاستنتاج مما يكسبهم مهارات عقلية قيمية مرغوبة (ص٩٤ - ٩٥) .

أما ما أشار إليه زيدان (بدون تاريخ ص ٢٣ - ٩٠) في معرض بحثه عن عوامل الكفاية الإنتاجية فانه يصف البيئة المدرسية بأنها تتكون من عدة عوامل وهي العوامل البشرية مثل إدارة المدرسة والمعلمين والموظفين ، والعوامل المادية وتشمل المبنى المدرسي والمكتبة المدرسية والمعامل والملاعب والحديقة والعوامل شبه المادية مثل الكتب والرسائل والمناهج . وهذه الأمور تؤدي إلى رفع الكفاية الإنتاجية للمعلم وبالتالي للتلاميذ حيث ترتكز على تحسين الظروف المحيطة وتوفير الامكانات والتسهيلات للتعلم الأمثل .

وإذا استنتجنا من هذه المناقشة تعريفاً لمفهوم البيئة المدرسية المادية فيمكن القول بأنها هي الحيز المكاني الذي يشتمل على كل ما وفرته المدرسة من مواد وامكانات وتجهيزات وتسهيلات اقامتها وشيدتها لغرض تحسين ظروف العملية التعليمية ورفع مستوى انتاجية التلاميذ والمعلمين .

أهمية الدراسة وعلاقتها بالمنهج وطريقة التدريس :

إن ما يدور في داخل المدرسة وفصولها لا يقتصر فقط على ممارسة أنشطة تعليمية يقوم بها التلاميذ ، ولا يقتصر على تلقين وإلقاء يقوم به المعلمون ولا تقتصر العملية التعليمية فى المدرسة على اكساب التلاميذ المعرفة والخبرة والمهارة ، وليس وجود التلاميذ في المدرسة لغرض حشو أذهانهم بالمعلومات وغرس اخلاقيات معينة ، وإنما هناك أمور تجري يتم من خلالها التفاعل بين التلاميذ وكل شيء يحيط بهم في الوسط المدرسي أو الحيز المكاني الذي تحتله .

يقول راج (Wragg, 1984) إن هناك عوامل أخرى في المدرسة غير النشاط المنهجي والخبرة التعليمية وهو التفاعل الذي يتم بينها وبين التلاميذ . فالمناخ المدرسي المحيط يتفاعل معه التلاميذ سلباً أم إيجاباً مما يساعد بطريقة غير محسوسة على استكمال تعلم التلاميذ للخبرات التعليمية والمهارات المطلوبة .

وقد اتجهت الدراسات الحديثة نحو تحليل هذه العوامل في تعلم وتحصيل التلاميذ الدراسي وتنمية القيم التعليمية أو الأخلاقية المرغوبة ، ويؤكد ريان (١٩٨١ ص ٣٤) أن المناخ المدرسي يؤثر في كل جانب من جوانب المنهج المدرسي . ورغم أن تحليل هذا العنصر يعتبر جزءا مهما في عملية تخطيط وتطوير المنهج إلا أنه من النادر قيام الهيئة التعليمية بتحليله وتقويمه ، ومن هنا جاءت أهمية هذه الدراسة حيث سيكون لها علاقة وطيدة بالمنهج المدرسي وطرق التدريس الملائمة وتتلخص هذه الأهمية في أن نتائجها قد :

١ ـ تساعد المعلم على اختيار الظروف المناسبة في الفصل لتحقيق أهداف المنهج .

٢ ـ تساعد المعلم على تهيئة المناخ والمحيط الدراسي المناسب لممارسة نشاط المنهج الذي يمكن التلاميذ من اكتساب خبرات ومهارات مرغوبة .

٣ ـ تساعد المعلم على اختيار أفضل الطرق في تنظيم الفصل الدراسي وتهيئته للتعليم .

٤ ـ تساعد المعلم على اختيار نوعية المواد والوسائل التعليمية المناسبة والتي تدفع التلاميذ إلى المادة الدراسية .

٥ ـ تساعد المعلم على اختيار أفضل الطرق التدريسية لتنفيذ خطته التدريسية في ظل الظروف المادية المناسبة للمدرسة .

٦ ـ تساعد المدرسة على تهيئة المحيط المادي الذي يميل إليه التلاميذ والاهتمام به لتحقيق الأهداف التربوية .

٧ ـ تساعد المدرسة على توفير الامكانات والتسهيلات المادية المناسبة التي تمكن التلاميذ من ممارسة أنشطة المنهج لتنمية المهارات والخبرات التعليمية .

٨ ـ تساعد المدرسة على توفير أنسب الخدمات والمرافق والتجهيزات التي تعمل على اكساب التلاميذ القيم والخبرات المرغوبة .

هدف ومشكلة البحث :

تتوفر في بعض المدارس الامكانات والظروف المناسبة التي تساعد التلاميذ على الدراسة والتحصيل بينما لا تتوفر في مدارس أخرى هذه الظروف مما قد

ينعكس على آداء التلاميذ وسيرهم الدراسي . وقد يكون لهذا الاختلاف في ظروف البيئة المادية للمدرسة أثر على ارتياح التلاميذ سلباً أو إيجاباً وبالتالي سيرهم وتقدمهم الدراسي . ومن هنا هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على اتجاهات التلاميذ نحو بعض عوامل البيئة المادية للمدرسة وأثرها في تحصيلهم الدراسي وتعليمهم وذلك من وجهة نظرهم الشخصية . وتتضمن بعض عوامل البيئة المادية المواد والوسائل التعليمية ، التجهيزات والظروف الملائمة وزيادة حرف العطف وطريقة تنظيم وترتيب الفصل ، الامكانات والتسهيلات ، التصميم المعماري وشروطه .

وفي ضوء هذا الهدف تحددت مشكلة البحث في السؤال التالي :

ما اتجاهات تلاميذ الكفاءة المتوسطة نحو بعض عوامل البيئة المادية للمدرسة وأثرها في تحصيلهم الدراسي ؟

وللإجابة على هذا التساؤل انبثقت عدة أسئلة :

١ ـ ما اتجاهات التلاميذ نحو المواد والوسائل التعليمية في الفصل ؟
٢ ـ ما اتجاهات التلاميذ نحو التجهيزات والظروف الملائمة ؟
٣ ـ ما اتجاهات التلاميذ نحو طريقة تنظيم وترتيب الفصل ؟
٤ ـ ما اتجاهات التلاميذ نحو الامكانات والتسهيلات في المدرسة ؟
٥ ـ ما اتجاهات التلاميذ نحو التصميم المعماري للمدرسة وشروطه ؟
٦ ـ ما الفرق في اتجاهات التلاميذ نحو بعض عوامل البيئة المادية للمدرسة ؟

تعريفـــات :

١ ـ البيئة المادية للمدرسة : هي المحيط أو الحيز المكاني في المدرسة والذي يشتمل على ما وفرته المدرسة من مواد وتسهيلات وتجهيزات اقامتها لغرض تحسين ظروف العملية التعليمية وتنفيذ المناهج الدراسية بشكل ملائم ، والمحافظة عليها لرفع مستوى انتاجية المعلمين والتلاميذ .

٢ ـ الامكانات : هي الامكانات المادية التي توفرها من خدمات للمرافق العامة بها والتسهيلات والمنشآت مثل خدمات الصيانة والنظافة وخدمات الماء والكهرباء والتكييف وغير ذلك .

٣ ـ التسهيلات : هي المباني والمنشآت التي توفرها المدرسة مثل مبنى الفصول الدراسية والملاعب والمسابح لممارسة الأنشطة الرياضية ، والحدائق ، والميضآت والمقاصف والورش والمعامل والمرافق العامة الأخرى .

٤ ـ التجهيزات : هي الاجهزة والادوات التي توفرها المدرسة للأغراض العامة والأغراض التعليمية مثل الأثاث من مقاعد ومكاتب وارفف وأجهزة علمية وسمعية وبصرية ، وكذلك تشتمل التجهيزات على أنظمة التهوية والاضاءة والنوافذ والأبواب ومتطلبات المظهر الجمالي الداخلي والخارجي للمدرسة .

٥ ـ المواد والوسائل التوضيحية : ما توفره المدرسة من مواد ووسائل علمية مطبوعة أو مصورة أو مجسمة تحتوي على معلومات في المنهج المدرسي سواء كانت هذه المواد جاهزة تم تأمينها عن طريق الشراء من مصادر تجارية أو قام بانتاجها التلاميذ وتوضع في الفصول استكمالا للخبرات التعليمية في المنهج المدرسي .

٦ ـ الاتجاهات : جمع لكلمة اتجاه وهو مصطلح له عدة تعريفات إلا أن التعريف الاجرائي له في هذا البحث هو موقف تلاميذ الكفاءة المتوسطة ووجهة نظرهم الشخصية بناء على خبراتهم التعليمية التي يمرون بها أثناء يومهم المدرسي من بعض متغيرات وعوامل البيئة المادية للمدرسة واعتقادهم بمدى تأثيرها على تحصيلهم الدراسي .

٧ ـ الكفاءة المتوسطة : هي المرحلة التعليمية المتوسطة التي تقع بين المرحلة الابتدائية ومرحلة التعليم الثانوي حسب نظام السلم التعليمي في المملكة العربية السعودية ، ومدتها ثلاث سنوات .

٨ ـ التحصيل الدراسي : عبارة عن مستوى قدرة التلميذ في استيعاب وفهم معلومات المقررات التعليمية التي يدرسها . وهذا ما يدل عليه مجموع ما حصله من علامات في هذه المقررات في نهاية اختبارات العام الدراسي .

الدراسات السابقة :

تأتي الدراسات البيئية من مجالات تخصصية متعددة مثل العلوم الاجتماعية ، الهندسية ، المعمارية ، والعلوم الطبيعية ، ويعالج حقل التربية وعلى الخصوص مجال المناهج والتدريس العلاقات بين البيئة المادية للمدرسة والسلوك الانساني في الوسط المدرسي التربوي ، ويفحص تأثيرها على العملية التعليمية والتحصيل الدراسي .

فقد أبرزت الدراسات حول تصميم المبنى المدرسي وتسهيلاته نتائج مشجعة فيما يتعلق بالسلوك للمعلم والتلميذ ، حيث أفادت وينستاين (Weinstein, 1977) وبايوتروسكي (Piotrowski,1976) أن التصميم والتسهيلات الطبيعية للمبنى المدرسي باستطاعتها أن تنتج سلوكاً مرغوبا معينا في المعلم والتلميذ .

وهناك دراسات أخرى عالجت تصميم وتسهيلات المدرسة على السلوك المشاكس ، والنشاطات ، والشخصية ، حيث وجد ويب (Webb, 1977) أن سلوك التلاميذ العدواني له علاقة بنوع التسهيلات المتوفرة في المدرسة ، فقد أجرى الدراسة على التلاميذ في نوعين من المدارس هي المدارس الحرة (المفتوحة) والمدارس التقليدية ، ووجد أن التلاميذ في المدارس ذات التسهيلات المفتوحة (الحرة) اظهروا سلوكا عدوانيا أقل من أولئك الموجودين في المدارس التقليدية .

وفيما يتعلق بالروابط بين التسهيلات المدرسية المادية ، وبين القيم الوجدانية مثل فهم الذات ، والشخصية ، والاتجاهات ، فإن بعض الدراسات أظهرت أنه لا علاقة ذات أهمية بين هذين العاملين مثل دراسة مارتن ولافورج ونيل (Martin, 1977 : Laforge, 1972 : and Neil, 1982) .

ولم تجد دراسات أخرى أيضا علاقة بين التسهيلات الطبيعية للمدرسة وبين المقررات أو البرامج الدراسية مثل دراسة جونسون ولوكازافيتش (Johnson, 1977 : Lukasevich, 1978) وأشار بعض الباحثين أن البيئة المادية للمدرسة لها تأثير على مظاهر معينة من الناتج النفسي وذلك مثل القلق النفسي في

دراسة تجريبية لرايكروفت (Rycroft, 1972) حيث أجرى هذه الدراسة في نوعين من المدارس المفتوحة الحديثة والمدارس التقليدية ، فقد اختار عينة من الطلاب وقسمهم إلى مجموعة تجريبية ومجموعة انضباطية حيث بعد نتائج التجربة وجد أن المجموعة التجريبية أظهرت انحصارا نفسيا في المدرسة المفتوحة أقل من مجموعة الانضباط في المدرسة التقليدية . وكذلك دراسة لوكازافيتش وزميلها (Lukasevich, 1978) أظهرت أن البيئة ذات تأثير على الناحية الوجدانية حيث وجد أن طلاب المدرسة المفتوحة الحديثة أظهروا اتجاها عاطفيا ايجابيا أكثر من مجموعة طلاب المدرسة التقليدية من حيث البرامج وتصميم المدرسة وامكاناتها .

وبدلاً من دراسة سلوك الانسان وعلاقته بمتغيرات البيئة الطبيعية أجرى جومب (Gump, 1976) تحقيقاً في بعض العوامل البيئية وعلاقتها بالعمليات التعليمية . وبمعنى آخر فإنه فحص هذه العلاقة من الجانب البيئي الذي يعتقد أنه قد تفرض فيه البيئة المادية نوعاً من النشاطات والخبرات التي يتفاعل معها التلاميذ والمعلمون خلال اليوم الدراسي .

وقد حدد جومب هذه العمليات بالوقت الذي يقضيه التلاميذ والمعلمون في المحيط المدرسي ، واطلق عليه مفهوم الاجزاء « Segments » حيث يشير بأن التلاميذ ينتقلون في اليوم الدراسي من خلال سلسلة من الأجزاء المحيطة حيث أن كل جزء يتكون من محيط واجزاء أساسية من البرنامج الدراسي ، ويمر التلاميذ بالخبرات التي فرضتها البيئة أو المحيط ، وقد أظهرت نتيجة هذه الدراسة أن معظم نشاطات وخبرات التلاميذ والمعلمين مرتبطة بالتصميم ولكن بشكل عام لم تكن سببا له .

وقد وجد ايجلتسون (Eggleston, 1977) أن عمر المبنى المدرسي وحالته ذات أهمية في تحديد هجرة التلاميذ وأداء المعلمين التدريسي ، حيث أشار إلى أن التلاميذ يميلون في المباني القديمة إلى ترك مدارسهم أكثر من أقرانهم في المباني الحديثة ، ويصف أيضا المعلمين في المباني القديمة بأنهم أقل كفاية أكاديمية واخفض في رواتبهم .

ومن عناصر البيئة المادية الأخرى النوافذ والأبواب والضوضاء ونسبة عدد التلاميذ في المدرسة والاضاءة والتهوية وغير ذلك . فقد كان يعتقد بأن المدارس ذات الفصول التي بها نوافذ أو لم يكن بها نوافذ وكذلك الزخرفة والمظهر الجمالي يمكن أن يكون ذا تأثير على تعلم التلاميذ .

إن ابتكار المدارس ذوات الحائط المفتوح في العالم الغربي وفي امريكا على الخصوص قد أزالت وجود النوافذ والأبواب ولكن أكدت على أهمية الزخرفة والمظهر الجمالي الداخلي . فبعض مباني المدارس الحديثة بها نوافذ كبيرة واسعة وبعض المدارس القديمة بها نوافذ مكسورة ، ومظهرها سيء للغاية ، فما تأثير مثل هذه الظروف البيئية على تحصيل التلاميذ ؟

ففي محاولة للإجابة على هذا التساؤل أجرى كل من ماسلو ومنتز (Maslow and Mintz, 1956) تجربة فيما يتعلق بمظهر الغرفة الجمالي . فقد جهزا غرفة دراسية جميلة بألوان جذابة واضاءة وأثاث جيد وغرفة دراسية أخرى قبيحة المنظر ومتوسطة الجودة ، وطلبا من التلاميذ أن يعطوا تقديرا لفصولهم حيث بينت النتائج أن التلاميذ في الفصول الجميلة أعطوا تقديرا عاليا ذا دلالة احصائية مهمة . ومن الطبيعي توقع مثل هذه النتيجة ولكن لا زالت الدراسة لم تجب على السؤال الذي يبحث في تأثير هذا المكان والمحيط . وعلى كل فليس لهذه الدراسة قيمة للاستفادة منها في عملية التدريس ولكن أعطت انطباعا فقط بما يفضله التلاميذ حول مظهر فصولهم الدراسية .

وفي دراسة أخرى لغرض ايجاد علاقة بين عدم وجود نوافذ للفصول ونتاج التلاميذ من الناحية الوجدانية والعقلية لاحظ كل من كارمل (Karmel, 1965) ورومني (Romney, 1975) أن السلوك العدواني للتلاميذ يزداد في المحيط الذي لا يوجد فيه نوافذ ، لذا فإن كارمل أشار إلى أن الاطفال الذين يدرسون في الفصول عديمة النوافذ ينتابهم شعور سلبي نحو مدارسهم ، وكمجموعة عبروا عن أنفسهم بكونهم ذوى تصرف منحرف وغير سعداء ، بعكس أولئك التلاميذ الذين يدرسون في فصول ذوات نوافذ وأبواب متعددة .

ولقد أجريت هذه الدراسات في مدارس ذات فصول مفتوحة لا توجد فيها نوافذ أو أبواب لأن مبانيها قد صممت خصيصا لتلائم المفهوم المنهجي الحر . وكان من الممكن أن تكون ذات فائدة علمية أكثر لو أخذ في عين الاعتبار المباني المدرسية القديمة وحالتها السيئة مثل فصول ذوات أبواب ونوافذ مكسورة ، وجدار متهالكة وظروف سيئة لمرافقها وتسهيلاتها . وعلى أي حال فقد ألقت هذه الدراسة الضوء على بعض التساؤلات للمربين حول كيفية تصميم الفصول الدراسية ونوع المحيط الذي يفضله التلاميذ بشكل عام والتي قد تؤدي إلى الارتياح النفسي وبالتالي الاستقرار والمواظبة على التحصيل الدراسي .

ويعتقد أن بعض متغيرات البيئة المادية لها علاقة بعملية التعلم مثل كثافة الفصل والزحام والضوضاء . رغم أن البحوث في هذا المجال قليلة جداً فإنها لم تبين أي دلالة على العملية التدريسية والتعليمية ، فقد أجرت دراسة من ثلاث تجارب من قبل ويلدون وزملائه (Weldon et al, 1981) لفحص تأثير ومتغيرات في محيط التعلم مثل الزحام ، الظروف البيئية التي يمكن تحملها ، وتصميم الغرفة الدراسية ، والضوضاء على التحصيل الدراسي للتلاميذ ، وبشكل عام ، فإن نتائج التجارب لم تشر إلى تأثير مثل هذه المتغيرات على آداء التلاميذ . ورغم أن التجربتين الأولى والثالثة قد تضمنتا أن مستوى كثافة الفصل العالية لا تأثير لها على آداء التلاميذ والمدرسين ، فإن نتيجة التجربة الثانية أشارت بأن كثافة الفصل المعتدلة يمكن أن تفيد تحصيل التلاميذ . ولم تدعم هذه التجارب أي علاقة بين كثافة الفصل والآداء لأن حجم العينة قليل ومعظمهم من تلاميذ المرحلة الثانوية حيث يكونون أقل تأثراً من هذه المتغيرات وكذلك قصر مدة التجارب ذاتها .

وأبرزت دراسات أخرى مثل دراسة واينر وآخرين (Winer et al 1977) أن الكثافة العالية والزحام في الفصل كان لها تأثير ايجابي وسلبي على آداء التلاميذ واستجاباتهم النفسية سواء كانت الواجبات التي يقومون بها تشتمل على نشاطات تعليمية أم غيرها . وتوصلت وينستاين (Weinstein, 1979) إلى استنتاجات مشابهة في بحث نشر لها عن الدراسات السابقة في هذا المجال حيث وجدت أن

التلاميذ يظهرون سلوكاً غير مرغوب فيه في الفصول الدراسية ذوات الكثافة العددية العالية ، ومن هذا السلوك على سبيل المثال المزاج العصبي ، وازدياد السلوك العدواني .

وراجعت وينستاين دراسات أخرى حول متغيرات بيئية مثل الضوضاء والخصوصية وعلاقتهما بأداء التلاميذ . ومع أن هذه الدراسات لم توجد أي علاقة ، إلا أنها أشارت إلى أن الدراسات التي أجريت حول الضوضاء أبرزت بعض الدلالات مثل مقاطعة وتوقف الدروس عن التحصيل . وفي هذا أشار قناديلي (١٤٠٦ هـ ص ١٩ - ٢٠) في معرض مناقشته للدراسات السابقة إلى أن نتائج بعض الدراسات أكدت تأثر التلاميذ من الضوضاء حيث أصيبوا بنقص في قدراتهم الاستيعابية للدروس وشعورهم بالتعب والملل وقضاء فترة طويلة لحل التمارين . بينما أظهر هؤلاء الطلاب عكس ذلك في الأجواء الهادئة . وأشارت بعض الدراسات أيضاً إلى أن مستوى المهارات العقلية والتحصيل الدراسي تعودان إلى قدرات التلاميذ الذاتية بالدرجة الأولى . وقد وجد بيزو (Pizzo, 1982) علاقة قوية بين التحصيل الدراسي ودرجة الضوضاء حيث تطابقت مع اسلوب التدريس الذي يفضله التلاميذ . وقد حصل التلاميذ الذين يفضلون الدراسة في محيط ضوضائي على درجات تحصيلية عالية مثل ما حصل عليه التلاميذ الذين يفضلون الهدوء . . واقترح بيزو أن المعلم يمكن أن يعتبر هذا التفضيل نوعاً من أساليب التدريس . فالمعلم الذي يتوقع آداء عالياً لتلاميذه باستطاعته أن يتبع تنظيمات معينة للفصل الذي يدرسه وذلك باختيار اسلوب التدريس حسب المحيط الذي يفضله التلاميذ .

وتعتبر الإضاءة ودرجة الحرارة من المتغيرات البيئية المهمة حيث أن بعض الباحثين غير التربويين قد تناولوها بالدراسة . فقد عبر السليمان (Al-Soliman, 1978 ص٤) في دراسته عن اعتقاده بأن التسهيلات المادية للمدرسة في مدارس المملكة العربية السعودية غير كافية لآداء هذه المدارس لدورها في العملية التعليمية من حيث تصميمها والأجهزة ، وترتيب الفراغات ، والخدمات ، والمناخ العام السائد . كما يضيف عوامل أخرى مثل الظروف البيئية

السيئة للمدرسة كمستوى الحرارة والهواء الصافي ، ومستوى الاضاءة ، وعدم الاهتمام بالظروف المناخية ، ومقدار ضوء الشمس . وإن كانت هذه عبارة عن آراء من ملاحظات شخصية للباحث ولم تعتمد على تجريب أو دراسة إلا أنها جديرة بالتأمل والاستقصاء .

أما في حقل المناهج والتدريس فقد بينت ندرة واضحة لابحاث منظمة حول مثل هذه المتغيرات . وعلى أي فقد أظهرت دراسات أن هناك درجة حرارة فعالة للفصل الدراسي وذلك في نتائج أبحاث نشرت في أحد اعداد مجلة مجلس ادارة التعليم الأمريكي (ASBJ, 1977) مشيرة إلى أن القدرة على التعلم تقل كلما وضعت درجة الحرارة فوق ٨٠ ف ، (أي ٢٦٫٦٧ سنتجريد تقريبا) . وإذا كان هذا حقيقياً نستنتج أن التأخر الدراسي لدى التلاميذ في البلاد التي تتجاوز درجات الحرارة فيها عن هذا المعدل يعود إلى الحرارة كمتغير من متغيرات البيئة . ولم تبين هذه الدراسة المنشورة البحوث السابقة والتي يمكن أن تساعد للوصول إلى تعميم وتطبيق هذه النتيجة . وبالعكس فقد راجه كيفان (Kevan, 1980) الدراسات السابقة بهذا الخصوص وجد أن الحرارة لها تأثير قليل على أداء التلاميذ .

وفي مقالة لاتحاد مدارس فيونكس بأمريكا (PUHSD, 1973) تبين أن حرارة الفصل المريحة مع استخدام محيط مصطنع لتكييف الهواء له تأثير على تحصيل التلاميذ . وقد استنتج في المقالة أن التلاميذ الذين يدرسون في فصول مكيفة ذوي تحصيل أعلى من التلاميذ الذين لا توجد في فصولهم مكيفات ، ويفضل المعلمون أيضاً الفصول الدراسية المكيفة . وقد تحسن اتجاه المعلمين والتلاميذ وانتظامهم في المدرسة عندما اصبحت الفصول مكيفة . ولأن المقالة لم تذكر الدراسات السابقة في هذا المجال ، والاجراءات والطريقة التي اتبعتها للوصول إلى هذه النتائج ، فلا يمكن الاستفادة من هذه النتائج واعتبار أن الحرارة المعتدلة مؤدية إلى التعلم الا بعد الحصول على دليل علمي ودراسة جيدة .

وفيما يتعلق بتأثير الاضاءة على تعلم التلاميذ ، قام كريمسكي (Krimskey, 1982) باجراء تجربة لفحص كيفية أداء التلاميذ تحت أي نوع من الاضاءة مثل الاضاءة الساطعة أو الخافتة أو المعتمة .

وقد أعطى التلاميذ في هذه التجربة اختباراً تشخيصياً للتعرف على اسلوب التعلم المفضل لديهم ، ثم أدوا اختبارين أخرين للتعرف على سرعة القراءة وصحة القراءة ، وقد أشارت النتيجة إلى أن العلامات التي حصل عليها التلاميذ لكلا الاختبارين (سرعة القراءة وصحة القراءة) كانت أعلى وبشكل ثابت عندما كان المحيط المضاء مطابقاً لاسلوب التعلم المفضل لدى التلاميذ ، ويمكن الاستنتاج من هذا على أن العلاقات قد اعتمدت على تفضيل التلاميذ لأسلوب التعلم وليس إلى الاضاءة في حد ذاتها . ولم تتعرف الدراسة على نوع الاضاءة (ساطعة ، خافتة ، معتمة) التي يمكن أن يعمل تحتها التلاميذ بشكل أفضل .

ويتضح من هذه الدراسات جميعها أن النتائج التي توصلت إليها لم تشجع على الأخذ بها وبالتالي الاستفادة منها في مجال المناهج والتدريس للعمل على اختيار أساليب التدريس والمناهج الملائمة مع البيئة المادية للمدرسة .

ويظهر قلة الفائدة نتيجة قلة الدراسات في مجال البيئة المدرسية وتعدد المجالات المعرفية التخصصية التي تقوم بالاهتمام بهذه المتغيرات وكذلك كثرة متغيرات البيئة المادية وتعقيدها وصعوبة التحكم فيها مما أدى إلى صعوبة اجراء دراسات منظمة ومركزة في هذا المجال . كما أن معظم هذه الدراسات قد تم اجراؤها بين المدارس التقليدية والحديثة (المفتوحة الحرة) من حيث اختلاف البرامج الدراسية لهاتين المدرستين . والمأمول هو بحث البيئة وأثرها في مدارس تكون برامجها الدراسية موحدة ولكنها تختلف من حيث الامكانات المادية للمدرسة والتي تشتمل على التسهيلات وما إلى ذلك مما تشمله البيئة المحيطة والتي سبق الإشارة إليها . وهذا ما يؤكد ضرورة إجراء المزيد من الدراسات وفي داخل البيئة المادية للمدرسة ، وهذه الدراسة هي إحدى المحاولات لسبر أغوار البيئة المادية للمدرسة وعلاقتها بالعملية التعليمية وتقدم التلاميذ الدراسي . وهي دراسة تأخذ اتجاها آخر من غير ما عرف من الدراسات التي تم مناقشتها في هذا الجزء حيث تستهدف دراسة اتجاهات التلاميذ تجاه بعض متغيرات البيئة المادية للمدرسة في مدارس محددة من الكفاءة المتوسطة في مكة المكرمة .

الطـــريقة والاجـراءات

حـدود وعينة البحث :

للاجابة على تساؤلات هذه الدراسة رأى الباحث أت تجرى الدراسة على طلبة الكفاءة المتوسطة للبنين في مكة المكرمة وذلك : أولا : لأن هذه السنة الدراسية في مرحلة انتقالية بين المدرسة المتوسطة والثانوية وثانيا : لكون التلاميذ في هذه السنة على درجة من النضج والنمو تساعد على الاستجابة لاداة البحث . وقد اتصل الباحث بإدارة التعليم في مكة المكرمة لتحديد المدارس التي تجرى فيها الدراسة حيث وضع عدة معايير في اختيار هذه المدارس وهي :

١ ـ أن يكون مدرسوا المدارس في مستوى متقارب من الآداء من حيث وجهة نظر الموجهين التربويين وتقويمهم .
٢ ـ أن تكون إدارات المدارس في مستوى متقارب من الأداء .
٣ ـ أن يكون تخريج مدرسي المدارس في الجامعة في فترة زمنية متقاربة .
٤ ـ أن يكون تقدير التخرج في الجامعة لمدرسي المدارس في مستوى متقارب حسب البيانات التي تحتفظ بها إدارة التعليم والمدارس .
٥ ـ أن يكون مدرسو المدارس في مستوى متقارب من التأهيل والإعداد التربوي أي أنهم من خريجي الكليات التربوية .
٦ ـ أن تكون المدارس المختارة في محيط متقارب من الناحية الاجتماعية والاقتصادية .

وقد ترك لإدارة التعليم اختيار المدارس على ضوء هذه المعايير ، كما كان من ضمن تصنيف هذه المدارس اختيار ثلاث مدارس ظروف بيئتها المادية جيدة إلى حد كبير وثلاث مدارس ظروف بيئتها المادية سيئة جداً . ومن هنا يتضح أنه لأجل ألا يكون هناك تأثير للعوامل البشرية من مديرين ومدرسين وطلاب فقد هدفت الدراسة إلى تقارب هذه المدارس في هيئتها التعليمية . ومن حيث تقارب المستوى الاجتماعي والاقتصادي لطلابها والاختلاف الوحيد بينها هو ظروف البيئة المادية للمدرسة من حيث المبنى المدرسي والتجهيزات والامكانات وغير ذلك .

وعمدت إدارة التعليم المدارس المعنية للتعاون مع الباحث لإجراء الدراسة ، وكانت هذه المدارس تتكون من متوسطات الملك فيصل ، مدرسة جعفر بن أبي طالب ، مدرسة العاصمة ، المدرسة الرحمانية ، ومدرسة عبد الله بن عمرو ، ومدرسة خالد بن الوليد .

وتجدر الإشارة إلى أن المدارس الثلاث الأولى تتشابه في ظروف بيئتها المادية حيث أنها مدارس حديثة المبنى وتتوفر بها العديد من الامكانات والتجهيزات ، أما المدارس الثلاث الأخيرة فظروف بيئتها المادية سيئة وفقيرة من حيث الامكانات والتجهيزات حيث تحتل مباني مستأجرة ومواقعها الجغرافية غير مناسبة . أما بالنسبة لمواقع المدارس فكل مدرسة تقع في جهة مختلفة في مكة المكرمة .

وقد بلغ طلاب الصف الثالث كفاءة ٧١١ طالباً في هذه المدارس موزعين على النحو التالي : مدرسة خالد بن الوليد ٨٠ طالباً ، عبد الله بن عمر ١٣٣ ، الرحمانية ١١٦ ، الملك فيصل ٨٨ ، جعفر بن أبي طالب ١٠٢ ، العاصمة ١٩٢ ، واعتبر مجموع الطلاب في هذه المدارس هو مجتمع الدراسة الذي اعتمدت عليه في جمع المعلومات وتحليل النتائج .

أداة البحث :

في ضوء ما تم استعراضه في الجزء النظري فقد استفاد الباحث من الدراسات السابقة في بناء مقياس من المستوى المعرفي الأول يشتمل على عدد من عوامل البيئة المادية للمدرسة وعرضه على عشرة من أساتذة جامعة أم القرى لتحكيمه . وقد أعيدت الاداة مع بعض التعديلات وتشمل تصنيف كل مجموعة من الفقرات ودمجها في عنصر واحد لتشابهها في قياس المطلوب ، ثم أعيدت من المحكمين مع إبداء ملاحظات مثل حذف بعضها وتعديل صيغة كل فقرة بحيث تقيس الاتجاه الذي يعتقده التلاميذ ، وصياغة بعض المفردات لتكون مفهومة من الناحية اللغوية للتلاميذ . وقد تم تعديل المقياس حسب هذه الملاحظات وعرضت مرة أخرى ووافق عليها المحكمون حيث اشتملت مفرداتها على ٢٦ فقرة . وقد طبق المقياس المعدل على عدد ١٠ من طلاب الكفاءة المتوسطة

وبعض طلاب الصف الأول الثانوي كتجربة أولية لمعرفة صعوبة المفردات وملاحظات أخرى . وهؤلاء الطلاب لم يكونوا من مجتمع الدراسة الأصلي . وقد كانت الاستجابات مرضية مما شجع الباحث على تطبيقها في المدارس التي تشتمل على مجتمع الدراسة . وتم توزيع المقياس بصيغته النهائية على المدارس حسب الأعداد المبينة ومجموعها ٧١١ طالباً أعيدت منها ٥٤٩ أي بنسبة ٢٢ر٧٧ ٪ مقياس فقط وهي العينة التي اعتمدت عليها هذه الدراسة منهم ٢٨٠ تلميذاً في المجموعة الأولى من المدارس أي بنسبة ٥١ ٪ و ٢٦٩ تلميذاً في المجموعة الثانية من المدارس أي بنسبة ٤٩ ٪ وجدول (أ) يوضح توزيع مقياس الاتجاهات .

جدول (أ) توزيع المقياس على مجتمع الدراسة

المدرســـــة	وزعت	أعيدت	استبعدت	المجموع
خالد بن الوليد	٨٠	٤٤	١	٤٣
عبد الله بن عمر	١٣٣	١٣٢	١٠	١٢٢
الرحمانية	١١٦	١١٢	٨	١٠٤
الملك فيصل	٨٨	٨٦	—	٨٦
جعفـــر	١٠٢	٩٨	٤	٩٥
العاصـــمة	١٩٢	١٠٦	٧	٩٩
المجموع الكلي	٧١١	٥٧٩	٣٠	٥٤٩

يتضح من جدول (أ) أن المقياس وزع على العدد الفعلي لكل مدرسة وقد طلب من المدرسة توزيعها على الطلاب قبل اجراء الاختبارات النهائية في آخر العام ١٤٠٦ هـ للإجابة عليها في داخل المدرسة لضمان اشتراك طلاب الكفاءة في هذه المدارس . غير أن مدرستين فيهما سلمت الأولى مقياس الاتجاهات للتلاميذ للإجابة عليها في بيوتهم ومن ثم إعادتها والأخرى تأخر تسليمها للطلاب إلى مابعد ظهور نتيجة اختبار الكفاءة مما كان له أثر في العدد المسترجع منه في هاتين المدرستين . كما يتضح أيضاً من الجدول نفسه أن هناك عدداً من المقاييس المعادة

استبعدت لعدم استكمال الاجابات لفقراتها وقد استبعدت حتى لا تؤثر على تحليل النتائج .

ويشمل ملحق (أ) على الأعداد المستخدمة في هذه الدراسة .

المعالجة الإحصائية :

قسمت المدارس إلى مجموعتين تشمل المجموعة الأولى مدارس الملك فيصل وجعفر بن أبي طالب والعاصمة وهي المدارس التي تتمتع ببيئة مادية جيدة ، وتشمل المجموعة الثانية مدارس الرحمانية وعبد الله بن عمر وخالد بن الوليد والتي تحيطها ظروف بيئية مادية سيئة .

ولقد تم اختبار المعالجة الاحصائية التالية لتحليل إجابة المقياس :

١ ـ التكرار والنسبة المئوية لاتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس معاً حيث أن هذه المعالجة بسيطة توضح مدى الاجابات في المقياس .

٢ ـ قيمة ك^{٢} (x^2) لمعرفة الفروق في اتجاهات التلاميذ بين تلاميذ المجموعة الأولى من المدارس وبين تلاميذ المجموعة الثانية من المدارس ، حيث أن هذه المعالجة أنسب طريقة إحصائية لمعرفة الفرق في الاجابة على المقياس .

وسيتم تحليل المعلومات التي جمعت من التلاميذ مستخدماً المعالجة المشار إليها حسب عوامل البيئة المادية للمدرسة والتي صنفت في المقياس على النحو التالي :

١ ـ عامل المواد والوسائل التعليمية وتشمل المفردات من ١ـ٤ .
٢ ـ عامل التجهيزات والظروف الملائمة وتشمل المفردات من ٥ـ٩ .
٣ ـ عامل طريقة تنظيم وترتيب الفصل وتشمل المفردات من ١٠ـ١٤ .
٤ ـ عامل الامكانات (التسهيلات) وتشمل المفردات من ١٥ـ٢١ .
٥ ـ عامل التصميم المعماري وشروطه وتشمل المفردات من ٢٢ـ٢٦ .

وسيتم في الجزء التالي تحليل هذه العوامل والوصول إلى النتائج العامة للدراسة .

تحليل النتائج

قسم محتوى المقياس إلى خمسة عوامل يمثل كل عامل مجموعة من المتغيرات لتقاربها في الخصائص والصفات الوظيفية . وتتكون من العامل الأول المواد والوسائل التعليمية ويشتمل على المتغيرات من ١-٤ ، العامل الثاني التجهيزات والظروف الملائمة من ٥-٩ ، العامل الثالث طريقة تنظيم وترتيب الفصل من ١٠-١٤ ، والعامل الرابع الامكانات والتسهيلات من ١٥-٢١ ، والعامل الخامس التصميم المعماري وشروطه من ٢٢-٢٦ ، مع ملاحظة ان المتغيرات من ١-١٤ تمثل بيئة الفصل الدراسي الداخلية والمتغيرات من ١٥-٢٦ تمثل بيئة المدرسة بشكل عام ، وسيتم اختيار المتغير ذي الأهمية إذا حصل على ٥٠ ٪ أو أكثر من اجابات التلاميذ في كلتا المجموعتين من المدارس . وتحلل المعلومات باستخدام التكرار والنسبة المئوية لكل فقرة من الاستبيان ومن ثم استخدام الاستدلال الاحصائي لقيمة ك٢ ، لكل فقرة لمعرفة الفروق بين اتجاهات التلاميذ في المجموعة الأولى مقابل المجموعة الثانية للمدارس ، وقد ضمت الاختيارات الثلاث الأولى التي تمثل أهمية بالنسبة لكل متغير لتعطي مجموع الجانب الإيجابي للاتجاهات . ويعرض الباحث العوامل المتضمنة مجموعة من المتغيرات بجمع التكرار والنسبة المئوية لكل متغير في كلتا المجموعتين من المدارس وذلك تسهيلا لتحليلها وتبسيطها لمعرفة الاتجاهات . ويمكن الرجوع إلى ملحق (ب) ، (ج) للمزيد من المعلومات الاحصائية ، وقد حدد مستوى الدلالة لجميع المتغيرات في ٠٫٠٥ .

جدول (ب) المواد والوسائل التعليمية في الفصل

المتغيـــر	الاجابـة بأهميتـــه					قيمة ك ٢
	المجموعة ت	الأولى ٪	المجموعة ت	الثانية ٪	درجة الحرية	
١ ـ ركن لوحة الاعلانات والمعلقات	٢٢٤	٤١	٢٣٠	٤٢	٥	٨ر٤٠
٢ ـ ركن للقراءة المنفردة	٢٢٠	٤٠	٢٢٤	٤١	٥	٤ر٥٢
٣ ـ اللوحات المنجزة	٢٤٥	٤٥	٢٤١	٤٤	٥	٣ر٤٩
٤ ـ توفر الوسائل	٢٦٠	٤٧	٢٤٩	٤٥	٥	٣ر٤٣

* درجات الحرية ٥ مجموع العينة ٥٤٩ لكل الجداول من ب ـ و .

** مستوى الدلالة (٠٥ر٠) .

يتضح من جدول (ب) أن عامل توفر المواد للوسائل التعليمية في الفصل من العوامل المهمة في نظر التلاميذ لارتياحهم نحو البيئة الطبيعية للمدرسة حيث حصلت جميع المتغيرات على أعلى نسبة من الاجابات . فوجود ركن خاص للوحة الاعلانات والمعلقات حصل على ٨٣ ٪ ووجود ركن خاص للقراءة المنفردة على ٨١ ٪ وعرض اللوحات التي ينجزها التلاميذ على ٨٩ ٪ ، وتوفر الوسائل في الفصل على ٩٢ ٪ وهذا يدل على ان اتجاه التلاميذ نحو هذه المتغيرات ايجابي حيث يعتقدون أنها تساعد على ارتياحهم النفسي للبيئة الطبيعية للمدرسة ومن ثم تحصيلهم الدراسي .

أما قيمة ك ٢ لكل متغير في هذا العامل فليست ذات دلالة احصائية مما يدل على التوافق الايجابي في اتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس ، نحو البيئة الطبيعية وتأثيرها على التحصيل الدراسي .

جدول (جـ) التجهيزات والظروف الملائمة

المتغيـــر	الاجابـة بأهميتـــه					قيمة ك ٢
	المجموعة ت	الأولى ٪	المجموعة ت	الثانية ٪	درجة الحرية	
٥ ـ حالة الأبواب والنوافذ	٢٦٢	٤٨	٢٤٧	٤٥	٥	١ر٥٤
٦ ـ الاضـــاءة	٢٦٧	٤٩	٢٥٠	٤٥	٥	٦ر٥١
٧ ـ التهوية الصحية	٢٦١	٤٨	٢٥٧	٤٧	٥	٥ر٠٩
٨ ـ حالة الأثاث	٢٦٣	٤٨	٢٥٠	٤٦	٥	٠ر٤٢
٩ ـ مظهر الغرفة الجمالي	٢١١	٣٨	١٨٥	٣٤	٥	٥ر٣٦

يتضح من جدول (جـ) ان عامل توفر التجهيزات والظروف الملائمة من العوامل المهمة في نظر التلاميذ لارتياحهم نحو البيئة الطبيعية للمدرسة حيث حصلت جميع المتغيرات على أعلى نسبة من الاجابات . فحالة الأبواب والنوافذ حصلت على ٩٣ ٪ ، والاضاءة على ٩٤ ٪ ، والتهوية الصحية على ٩٥ ٪ ، وحالة الأثاث على ٩٤ ٪ ، ومظهر الغرفة الجمالي على ٧٢ ٪ ، وان كان هذا المتغير نسبته أقل بالمقارنة مع بقية المتغيرات إلا أنه يعتبر ذا نسبة عالية ويمثل أهمية لارتياح التلاميذ .

أما قيمة ك ٢ لكل متغير في هذا العامل فليست ذات دلالة احصائية مما يدل على التوافق الايجابي في اتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس نحو ارتياحهم للبيئة الطبيعية للمدرسة وتأثيرها على تحصيلهم الدراسي .

جدول (د) طريقة تنظيم وترتيب الفصل

المتغيـــر	الاجابـــة بأهميتـــــه					قيمة ك ٢
	المجموعة ت	الأولى ٪	المجموعة ت	الثانية ٪	درجة الحرية	
١٠ ـ تقسيم التلاميذ إلى مجموعات	٢٣٧	٤٣	٢٤٠	٤٤	٥	٧ر٠٦
١١ ـ قلة الازدحـــام	٢٤٨	٤٥	٢٤٠	٤٤	٥	٤ر٨٠
١٢ ـ ترتيب المقاعد في صفوف	٢٥٢	٤٤	٢٣٧	٤٣	٥	٠ر٨٠
١٣ ـ مقاعد مرتبة دائريا	١١٠	٢٠	٩٩	١٨	٥	٠ر٨٠
١٤ ـ مقاعد مرتبة صفوف	١٢٤	٢٣	١١٠	٢٠	٥	٠ر٧٥

يتضح من جدول (د) أن ثلاثة متغيرات من خمسة في هذا العامل حصلت على أعلى نسبة من الاجابات في نظر التلاميذ وأن عامل طريقة تنظيم الفصل مهمة لارتياح التلاميذ نحو البيئة الطبيعية للمدرسة حيث حصل المتغير : تقسيم التلاميذ إلى مجموعات على ٨٧ ٪ ، وقلة الازدحام في الفصل على ٨٩ ٪ ، وترتيب المقاعد في صفوف على ٨٧ ٪ ، وهذا يدل على أن اتجاه التلاميذ نحو هذه المتغيرات ايجابي حيث يعتقدون أنها تساعد على تحصيلهم الدراسي وبالتالي فإن عامل طريقة تنظيم الفصل من العوامل المهمة في نظر التلاميذ نحو ارتياحهم للبيئة الطبيعية للمدرسة .

وبالنظر إلى نفس الجدول لمعرفة نتائج المتغيرين ١٣ ، ١٤ يتضح عدم اهميتها في نظر التلاميذ حيث حصل المتغير : ترتيب المقاعد على شكل دائري على ٣٨ ٪ من الاجابات ، وترتيب المقاعد بشكل متقارب على ٤٣ ٪ وهي نسبة منخفضة جدا تدل على أن طريقة ترتيب المقاعد في الفصل الدراسي بأي من هذين الشكلين لا يؤثران على التحصيل للتلاميذ وفهمهم للدروس .

أما قيمة ك ٢ لجميع المتغيرات في هذا العامل فليست ذات دلالة احصائية مما يدل على التوافق الايجابي في اتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس نحو ارتياحهم للبيئة الطبيعية للمدرسة وتأثيرها على تحصيلهم الدراسي .

جدول (هـ) الامكانات والتسهيلات

المتغيـــر	الاجابـة بأهميتـــه					قيمة ك ٢
	المجموعة ت	الأولى ٪	المجموعة ت	الثانية ٪	درجة الحرية	
١٥ ـ النظافة والصيانة	٢٦٠	٤٧	٢٥٥	٤٧	٥	٣ر٤١
١٦ ـ خدمات المرافق	٢٧٠	٤٩	٢٥٨	٤٧	٥	٢ر٢٣
١٧ ـ المكتبة المدرسية	٢٦٤	٤٨	٢٥٣	٤٦	٥	١ر٩٥
١٨ ـ الملاعـب	٢٦٩	٤٩	٢٦٠	٤٧	٥	٢ر٣٨
١٩ ـ المعامل الدراسية	٢٦٦	٤٨	٢٤٨	٤٥	٥	٦ر٠٩
٢٠ ـ الحديقة	٢٥٧	٤٧	٢٤٢	٤٤	٥	٢ر٤٥
٢١ ـ المقصف	٢٦٥	٤٨	٢٥٤	٤٦	٥	١ر٢٠

يتضح من جدول (هـ) أن عامل الامكانات والتسهيلات في المدرسة من العوامل المهمة في نظر التلاميذ نحو ارتياحهم للبيئة الطبيعية وتحصيلهم الدراسي حيث حصلت جميع المتغيرات على أعلى نسبة من الاجابات . فالنظافة والصيانة حصلت على ٩٤ ٪ ، وخدمات المرافق من ماء وكهرباء على ٩٦ ٪ ، والمكتبة المدرسية على ٩٤ ٪ ، والملاعب على ٩٦ ٪ ، والمعامل على ٩٣ ٪ ، والحديقة على ٩١ ٪ ، والمقصف على ٩٤ ٪ وهذا يدل على أن اتجاه التلاميذ نحو هذه المتغيرات ايجابي حيث يعتقدون أنها تساعد على تحصيلهم الدراسي .

أما قيمة ك ٢ لكل متغير فيهذا اتجاهات دلالة احصائية مما يدل على التوافق الايجابي في اتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس نحو ارتياحهم للبيئة الطبيعية للمدرسة وتأثيرها على تحصيلهم الدراسي .

جدول (و) التصميم المعماري وشروطه

المتغيـــر	الاجابـة بأهميتـــه					قيمة ك ٢
	المجموعة ت	الأولى ٪	المجموعة ت	الثانية ٪	درجة الحرية	
٢٢ ـ التصميم المدرسي الحديث	٢٤٩	٤٥	٢٤٧	٤٥	٥	٦ر٣٣
٢٣ ـ الطرقات الواسعة	٢٤٥	٤٥	٢٤٤	٤٤	٥	٦ر٦٠
٢٤ ـ المظهر المبنى الجمالي	٢١٨	٤٠	٢١٨	٤٠	٥	٠ر٠٥
٢٥ ـ الهـــدوء	٢٦٣	٤٨	٢٥٢	٤٨	٥	٤ر٥٤
٢٦ ـ وسائل السلامة	٢٥٩	٤٨	٢٤٥	٤٥	٥	٢ر١٢

يتضح من جدول (و) أن عامل التصميم المعماري وشروطه من العوامل المهمة في نظر التلاميذ نحو ارتياحهم للبيئة الطبيعية للمدرسة ، حيث حصلت المتغيرات على أعلى نسبة من الاجابات . فالمبنى ذو التصميم المدرسي الحديث حصل على ٩٠ ٪ والطرقات الواسعة على ٨٩ ٪ ومظهر المبنى الجمالي عل ى٨٠ ٪ والهدوء على ٩٦ ٪ وتوفر وسائل السلامة على ٩٢ ٪ وهذا يدل على ان اتجاه التلاميذ نحو هذه المتغيرات ايجابي حيث يعتقدون انها تساعدهم على التحصيل الدراسي .

أما قيمة ك ٢ لكل متغير في هذا العامل فليست ذات دلالة احصائية مما يدل على التوافق الايجابي فى اتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس نحو البيئة الطبيعية للمدرسة وتأثيرها على تحصيلهم الدراسي .

وأخيراً . . يتضح من جميع الجداول السابقة الاتجاه الايجابي للتلاميذ نحو بعض عوامل البيئة المادية ولم توجد فروق ذات دلالة احصائية في اتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس .

خلاصـــة النتـــائج

لقياس اتجاه تلاميذ الصف الثالث المتوسط في مجموعتين من المدارس بمكة المكرمة نحو ارتياحهم للبيئة الطبيعية وتأثيرها على تحصيلهم الدراسي فقد تم توزيع مقياس مكون من ٢٦ فقرة في المستوى المعرفي الأول على جميع الطلاب وعددهم ٧١١ في هذه المدارس وأعيدت ومن ثم استبعد بعض المسترجع منه وهو الذي لم تستكمل اجابته وأسفر العدد عن ٥٤٩ يمثلون عينة البحث .

قسم محتوى المقياس إلى خمسة عوامل هي المواد والوسائل والتجهيزات والظروف الملائمة وطريقة تنظيم الفصل والامكانات والتسهيلات والتصميم المعماري وشروطه .

وباستخدام الاحصاء الوصفي من التكرار والنسبة المئوية لإجابة التلاميذ في كلا المجموعتين من المدارس ، ومن ثم استخدام قيمة ك ٢ لمعرفة الفروق بين اتجاهات التلاميذ في المجموعتين جاءت النتائج كما يلي :

اتضح من جدول أ ، ب ، جـ ، د ، هـ أن اتجاه التلاميذ في المجموعتين من المدارس كان ايجابيا لجميع العوامل حيث عبروا عن ارتياحهم النفسي لأهمية توفر معظم المتغيرات المتضمنة في تلك العوامل كجزء من البيئة الطبيعية للمدرسة وتأثيرها على تحصيلهم الدراسي .

فقد وصف التلاميذ أهمية وجود ركن خاص للوحة الاعلانات ، وركن للقراءة المنفردة ، والفصل الذي يحتوى على أعمال التلاميذ التي تم انجازها بأنفسهم ووجود الوسائل والمواد التعليمية التوضيحية في الفصل ، هذا في العامل الأول .

كما عبر التلاميذ عن أهمية العامل الثاني وهو التجهيزات وارتياحهم لتوفرها مثل الأبواب والنوافذ الجيدة ، الإضاءة المناسبة ، التهوية الصحية ، الأثاث النظيف والجيد ، ومظهر الفصل الجمالي .

كما ارتاح التلاميذ للعامل الثالث وهو طريقة تنظيم الفصل مثل تقسيم التلاميذ إلى مجموعات صغيرة ، قلة الإزدحام ، ترتيب مقاعد الدراسة على شكل صفوف ، أما ترتيب مقاعد الدراسة على شكل دائرة ومتقارب فلم يعبر التلاميذ عن ارتياحهم له .

وفيما يتعلق بعامل الامكانات والتسهيلات فقد عبر التلاميذ بشكل جماعي عن ارتياحهم لهذه الامكانات مثل النظافة والصيانة ، الخدمات العامة ، المكتبة المدرسية ، الملاعب ، المعامل ، الحديقة والمقصف حيث اعتبروا أنها مهمة في توفير الظروف الملائمة لتحصيلهم الدراسي .

أما عامل التصميم المدرسي الحديث للمبنى وشروطه فقد عبر التلاميذ عن ارتياحهم التام لتصميم المبنى والطرقات الواسعة والمظهر الجمالي للمبنى والهدوء المحيط بالمبنى وتوفر وسائل السلامة .

وبهذا تكون البيئة الطبيعية للمدرسة في نظر التلاميذ على جانب كبير من الأهمية حيث يعتقدون أنها تساعدهم على تحصيلهم الدراسي ، وهذا ما يجيب على السؤال الرئيسي ويبين مدى اتجاهات التلاميذ نحو بعض عوامل البيئة المادية للمدرسة وأثرها في تحصيلهم الدراسي .

ونتيجة الإجابة على التساؤلات الفرعية :

١ ـ الاتجاه الايجابي نحو العامل البيئي والمواد والوسائل التعليمية .
٢ ـ الاتجاه الايجابي نحو العامل البيئي : التجهيزات والظروف الملائمة .
٣ ـ الاتجاه الايجابي نحو العامل البيئي : طريقة تنظيم وترتيب الفصل .
٤ ـ الاتجاه الايجابي نحو العامل البيئي : الامكانات والتسهيلات .
٥ ـ الاتجاه الايجابي نحو العامل البيئي : التصميم المعماري وشروطه .
٦ ـ التوافق في اتجاه التلاميذ نحو هذه العوامل البيئية للمدرسة بين مجموعة التلاميذ في المدرسة الأولى والمدرسة الثانية وقد تبين أنه لا توجد فروق ذات دلالة احصائية بين اتجاهات التلاميذ في المجموعتين من المدارس .

التوصـــــيات

أولاً ـ التوصيات المتعلقة بطريقة واجراءات البحث :

١ ـ كانت عينة الدراسة منحصرة في مدارس بمنطقة مكة المكرمة ، والمأمول أن تجرى دراسة تالية على مستوى المملكة ودول الخليج العربية لتشابهها في ظروف البيئة المادية للمدارس .

٢ ـ أن تجرى دراسة تأخذ كل عنصر من العناصر التي تشكل البيئة المادية للمدرسة وبحثها بتعمق حيث أن هذه الدراسة شملت بعض عوامل البيئة المادية .

٣ ـ أن تجرى دراسة تجريبية يتم خلالها اختيار عينة من التلاميذ ويقسمون إلى مجموعتين تجريبية وضابطة حيث توفر في المجموعة التجريبية كل عوامل البيئة المادية المناسبة ، ولا توفر للمجموعة الضابطة مثل هذه الظروف ، ثم يجري اختبار تحصيلي لمعرفة الفروق بين تلاميذ المجموعتين تفيد النتائج في تحسين الظروف أو الإبقاء عليها .

ثانياً ـ التوصيات العامة :

إن قيمة أي دراسة علمية تكمن في مدى الإفادة من النتائج التي تتوصل إليها لتحسين الأساليب والطرق التي تمارسها الجهات المختلفة التي تجري حولها الدراسة ، وقد كانت نتائج هذه الدراسة مشجعة لأن نعرض عدداً من التوصيات التي ندعو من خلالها الجهات التعليمية والمسؤلين في المدارس إلى تحسين ظروف البيئة المادية للمدرسة ، حيث عبر التلاميذ في الدراسة عن ارتياحهم لعوامل البيئة المادية واعتقادهم بأنها تهيء لهم المناخ الملائم الذي يساعدهم على التحصيل الدراسي . . وعليه فالدراسة تحدد التوصيات التالية :

١ ـ أن تعمل المدرسة على توفير مواد ووسائل تعليمية في المدرسة وتشجع التلاميذ على الإفادة من منتجاتهم ووضعها في الفصل أو المدرسة مما يؤدي إلى ارتياحهم النفسي وبالتالي يدفعهم إلى بذل المزيد من الجهد للتحصيل والتعليم .

٢ ـ أن تعمل المدرسة على توفير الامكانات المتعددة في مجال النظافة والصيانة وعوامل التهوية والإضاءة وتوفير المناخ الهادىء الذي يمكن التلاميذ من التركيز على دراسة المناهج المقررة ومتابعة معلميهم للمزيد من التحصيل الدراسي .

٣ ـ أن تعمل المدرسة على توفير التجهيزات والأدوات المختلفة التي تساعد على آداء دورها في العملية التعليمية ، وأن تحاول أن تكون رائدة في هذا المجال لتحقيق الأهداف التربوية المنشودة .

٤ ـ أن تعمل الأنظمة التعليمية على إيجاد وبناء المدارس ذات التصميم المعماري المناسب والذي يساعد على توفير المناخ الجيد لاكتساب المعرفة وتنمية القدرات والمهارات اللازمة للتلاميذ .

٥ ـ أن تعمل الأنظمة التعليمية على توفير المنشآت والمرافق من مكتبة وملاعب ومعامل وحدائق ومقاصف وغير ذلك في مدارسها ليمارس التلاميذ الأنشطة المنهجية المختلفة والتطبيق الفعلي للمفاهيم التي تحتوي عليها المناهج المدرسية .

٦ ـ أن يقوم المعلم باستخدام الوسائل التعليمية وتنويعها بشكل دائم حيث تبين أن التلاميذ يجتذبون للمادة الدراسية باستخدام هذه الوسائل .

٧ ـ أن يعمل المعلم على تجهيز الفصل الدراسي بشكل يجعله ذا مظهر جميل وجذاب حتى يتمكن التلاميذ من التفاعل مع بيئتهم وبالتالي يتحقق التعلم .

٨ ـ أن يقوم المعلم بإعداد وترتيب الفصل من وقت لآخر وتغيير نظام الجلوس حتى يبعث نوعاً من الحيوية والجدة على بيئة الفصل ويساعد على زيادة تفاعل التلاميذ مع بيئتهم التعليمية .

٩ ـ أن يعمل المعلم على استخدام انتاج التلاميذ الجيد ووضعه في أماكن ظاهرة في الفصل مما يبعث على ارتياحهم وبالتالي انجذابهم نحو المادة الدراسية ، حيث تبين من نتائج البحث بأن التلاميذ يرتاحون لعرض انتاجهم أو نماذج من انتاجهم في الفصول أو في المدرسة .

الملاحق

ملحق أ : مقياس الاتجاهات
ملحق ب : الاجابات على الاستبانة لكل مجموعة من المدارس على حده
ملحق جـ : الاجابات على الاستبانة للمجموعتين من المدارس معاً

ملحق (أ)

مقياس الاتجاهات لطلاب الصف الثالث كفاءة بنيـــــن

أخى الطالب : تعتبر العوامل التالية من العوامل التى تساعد على ارتياح الطالـــــب النفسى نحو بيئة المدرسة المادية (الطبيعية) المحيطة فى الفصل أو المدرسة . وتؤثـــر بالتالى سلبا أو ايجابا على مستوى تحصيله الدراسى .

حدد من فضلك أهمية كل منها بالنسبة لمدى ارتياحك لها وتأثيرها على تحصيلـــك الدراسى وذلك بأن توضع علامة صح(✓) أمام كل عامل أو عبارة من رقم ١ وحتى ٢٦ حســب اختيارك للمقياس التالى :

مهم جـــــدا : ويعنى ان هذا العامل مهم بنسبة من ٨٥ – ١٠٠ ٪

مهم نوع مـــا : ويعنى ان هذا العامل مهم بنسبة من ٦٥ – ٨٤ ٪

متوسط الاهميـــة : ويعنى أن هذا العامل مهم بنسبة من ٥٠ – ٦٤ ٪

غير مهـــم : ويعنى ان هذا العامل ليس مهم بنسبة من٣٥– اقل من ٥٠٪

غير مهم بالمرة : ويعنى ان هذا ليس مهما بنسبة من صفر الى اقل من ٣٤٪

والآن ابدأ بالاجابة من العبارة رقم ١ :

	مهم جـــدا	مهم نوع ما	متوسط الاهمية	غير مهـــم	غيرمهم بالمرة
١– الدراسة فى فصل يشتمل على ركن خاص للهوايات ولوحة اعلانات ومعلقات					
٢– الدراسة فى فصل به مساحة مخصصة للعمل والقراءة والتفكير بمفردك					
٣– الدراسة بفعالية فى فصل يشتمل على عرض للاعمال التى انجزتها مثل(الصور، والخرائط ، والتقاريـر، والعينات ، والمجسمات ، والرسوم البيانية الخ)					
٤– الدراسة فى فصل يشتمل على العديد من الوسائل والمواد التوضيحية وبه ممرات مناسبة تمكن من استخدامهـــا بشكل ملائم.					
٥ – الدراسة فى فصل به ابواب ونوافذ فى حالة جيدة					
٦– الدراسة فى فصل تتوفر فيه الاضاءة الواضحة والملائمة					
٧– الدراسة فى فصل تتوفر فيه التهوية الملائمة والصحية					
٨– الدراسة بفعالية فى فصل يشتمل على اثاث من مقاعد وكراسى نظيفة وفى حالة جيدة.					

	مهم جدا	مهم نوع ما	متوسط الاهمية	غير مهم	غير مهم بالمرة
٩ - الدراسة بشكل افضل في فصل حالة مظهره جميلة وذات ستائر وزخرفة (ديكور) والوان جذابة .					
١٠- الدراسة في فصل يتيح تقسيم الطلاب الى مجموعات صغيرة للاندماج في مناقشة موضوع الدرس .					
١١- الدراسة في فصل قليل الازدحام بالطلاب					
١٢- الدراسة بفعالية في فصلتكون المقاعد فيه مرتبة على شكل صفوف متتالية ومتراصة .					
١٣- الدراسة بفعالية في فصل تكون المقاعد فيه مرتبة على شكل دائرى او نصف دائرى .					
١٤- الدراسة في فصل ذو مقاعد مرتبة بشكل متقارب ومتراص مما يجعل الطلاب يتقاتلون دائما ويعطلون الدرس من وقت لآخر .					
١٥- الدراسة في مدرسة تتوفر فيها النظافة والصيانة بصورة جيدة .					
١٦- الدراسة في مدرسة تعمل وتتوفر فيها خدمات الماء والكهرباء والتكييف بشكل جيد					
١٧- الدراسة في مدرسة تتوفر فيها مكتبة تستخدم بشكل ملائم للقراءة والبحث وقضاء وقت الفراغ .					
١٨- الدراسة في مدرسة تشتمل على ملاعب لممارسة التربية البدنية والترويح في الاوقات الحرة .					
١٩- الدراسة في مدرسة تشتمل على معامل(لغة عربية ، لغة انجليزية ، القرآن ، العلوم الخ)وذلك لغرض تطبيق الدرس عمليا .					
٢٠- الدراسة فيمدرسة تشتمل على حديقة لاستعمالها في الاوقات الحرة او المناقشة ومراجعة الدروس والواجبات او الترويح والاسترخاء					
٢١- الدراسة في مدرسة تشتمل على مقصف منظم (كفتريا)لتقديم الطعام والمشروبات النظيفة الجيدة .					
٢٢- الدراسة في مدرسة يكون مبناها ذو تصميم حديث وانشىء خصيصا لان يكون مدرسة .					
٢٣- الدراسة في مدرسة تتوفرفيمبناها الطرقات والممرات الواسعة والملائمة					
٢٤- الدراسة في مدرسة يكون مظهرها الخارجي والداخلي مغريا وجذابا .					
٢٥- الدراسة في مدرسة يحيطها الهدوء وبعيدة عن الضوضاء والازعاج .					
٢٦- الدراسة في مدرسة تتوفر فيها وسائل السلامة مثل (ادوات الاطفاء ، والاسعاف . الخ) .					

أشكر لك تعاونكم . وفقكم الله .

د. حسن مختار .

ملحق (ب)

الاجابات على المقياس لكل مجموعة من المدارس على حدة

الفقرة		مهم جدا		مهم نوعا ما		متوسط الاهمية		غير مهم		غير مهم بالمرة		لا اجابة	
		تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪
١-	م١	٥٦	١٠ر٢	٩٣	١٦ر٩	٧٥	١٣ر٧	٣٠	٥ر٥	٢٤	٤ر٤	٢	٠ر٤
	م٢	٧٦	١٣ر٨	٨١	١٤ر٨	٧٣	١٣ر٣	١٩	٣ر٥	١٦	٢ر٩٠	٤	٠ر٧
٢-	م١	١١٣	٢٠ر٦	٦١	١١ر١	٤٦	٨ر٤	٤٠	٧ر٣	١٧	٣ر١	٣	٠ر٥
	م٢	١٠٣	١٨ر٨	٧٠	١٢ر٨	٥١	٩ر٣	٣٣	٦	٩	١ر٦	٣	٠ر٥
٣-	م١	١١٨	٢١ر٥	٦٧	١٢ر٢	٦٠	١٠ر٩	٢٥	٤ر٦	٩	١ر٦	١	٠ر٢
	م٢	١٠٢	١٨ر٦	٦٤	١١ر٧	٧٥	١٣ر٧	٢٠	٣ر٦	٧	١ر٣	١	٠ر٢
٤-	م١	١٣٠	٢٣ر٧	٨٢	١٤ر٩	٤٨	٨ر٧	١٣	٢ر٤	٦	١ر١	١	٠ر٢
	م٢	١٣٤	٢٤ر٤	٧٢	١٣ر١	٤٣	٧ر٨	٨	١ر٥	١١	٢	١	٠ر٢
٥-	م١	١٨٢	٣٣ر٢	٤٨	٨ر٧	٣٢	٥ر٨	١٢	٢ر٢	٣	٠ر٥	٣	٠ر٥
	م٢	١٦٧	٣٠ر٤	٤٣	٧ر٨	٣٧	٦ر٧	١٥	٢ر٧	٣	٠ر٥	٤	٠ر٧
٦-	م١	٢٣٢	٤٢ر٣	٢٤	٤ر٤	١١	٢	٥	٠ر٩	٢	٠ر٤	٦	١ر١
	م٢	٢٠١	٣٦ر٦	٢٩	٥ر٣	٢٠	٣ر٦	٩	١ر٦	٣	٠ر٥	٧	١ر٣
٧-	م١	٢٠٦	٣٧ر٥	٣٩	٧ر١	١٦	٢ر٩	١	٠ر٢	٤	٠ر٧	١٤	٢ر٦
	م٢	٢١١	٣٨ر٤	٣٣	٦	١٣	٢ر٤	٣	٠ر٥	١	٠ر٢	٨	١ر٥
٨-	م١	١٥٨	٢٨ر٨	٧٢	١٣ر١	٣٣	٦	٩	١ر٦	٣	٠ر٥	٥	٠ر٩
	م٢	١٥٢	٢٧ر٧	٦٩	١٢ر٦	٢٩	٥ر٣	١١	٢	٣	٠ر٥	٥	٠ر٩
٩-	م١	٧٧	١٤	٧٩	١٤ر٤	٥٥	١٠	٤١	٧ر٥	١٦	٢ر٩	١٢	٢ر٢
	م٢	٥٤	٩ر٨	٧٨	١٤ر٢	٥٣	٩ر٧	٥١	٩ر٣	١٩	٣ر٥	١٤	٢ر٦
١٠-	م١	١٠٠	١٨ر٢	٨٦	١٥ر٧	٥١	٩ر٣	٢٨	٥ر١	١٥	٢ر٧	—	—
	م٢	١٠٤	١٨ر٩	٨٦	١٥ر٧	٥٠	٩ر١	١٧	٣ر١	٩	١ر٦	٣	٠ر٥
١١-	م١	١٢٩	٢٣ر٥	٦٨	١٢ر٤	٥١	٩ر٣	١٨	٣ر٣	١١	٢ر٠٠	٣	٠ر٥
	م٢	١١٠	٢٠ر٠	٨٠	١٤ر٦	٥٠	٩ر١	٢٠	٣ر٦	٥	٠ر٩	٤	٠ر٧
١٢-	م١	١١٤	٢٠ر٨	٧٨	١٤ر٢	٥٠	٩ر١	٢٠	٣ر٦	١٠	١ر٨	٨	١ر٥
	م٢	١١٢	٢٠ر٤	٧١	١٢ر٩	٥٤	٩ر٨	١٧	٣ر١	٨	١ر٥	٧	١ر٣
١٣-	م١	٢١	٣ر٨	٤٥	٨ر٢	٤٤	٨	١٠٠	١٨ر٢	٦٦	١٢	٤	٠ر٧
	م٢	١٨	٣ر٣	٣٧	٦ر٧	٤٤	٨	١٠١	١٨ر٤	٦٥	١١ر٨	٤	٠ر٧

الفقرة		مهم جدا		مهم نوعاما		متوسط الاهمية		غير مهم		غير مهم بالمرة		لا اجابة	
		تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪	تكرار	٪
١٤	م١	٦٠	٩ر١٠	٣٥	٤ر٦	٢٩	٣ر٥	٣١	٦ر٥	١٢٢	٢ر٢٢	٣	٠ر٥
	م٢	٥٣	٧ر٩	٢٩	٣ر٥	٢٨	١ر٥	٣٨	٩ر٦	١١٧	٣ر٢١	٤	٧ر٠
١٥	م١	٢٠٢	٨ر٣٦	٤٢	٧ر٧	١٦	٩ر٢	٩	٦ر١	٤	٧ر٠	٧	٣ر١
	م٢	١٩٢	٣٥	٤٠	٣ر٧	٢٣	٢ر٤	٤	٧ر٠	٣	٥ر٠	٧	٣ر١
١٦	م١	١٩٣	٢ر٣٥	٥٥	١٠	٢٢	٤	٤	٧ر٠	٢	٤ر٠	٤	٧ر٠
	م٢	١٨٩	٤ر٣٤	٥٥	١٠	١٤	٦ر٢	٤	٧ر٠	١	٢ر٠	٦	١ر١
١٧	م١	١٩٥	٥ر٣٥	٤٧	٦ر٨	٢٢	٤	٧	٣ر١	٤	٧ر٠	٥	٩ر٠
	م٢	١٧٦	١ر٣٢	٥٣	٧ر٩	٢٤	٤ر٤	٩	٦ر١	٤	٧ر٠	٣	٥ر٠
١٨	م١	١٩١	٨ر٣٤	٥٤	٨ر٩	٢٤	٤ر٤	٥	٩ر٠	٤	٧ر٠	٢	٤ر٠
	م٢	١٧٤	٧ر٣١	٥٤	٨ر٩	٣٢	٨ر٥	٥	٩ر٠	٢	٤ر٠	٢	٤ر٠
١٩	م١	١٧٩	٦ر٣٢	٥٩	٧ر١٠	٢٨	١ر٥	٥	٩ر٠	٧	٣ر١	٢	٤ر٠
	م٢	١٥٧	٦ر٢٨	٧١	٩ر١٢	٢٠	٦ر٣	٩	٦ر١	٧	٣ر١	٥	٩ر٠
٢٠	م١	١١٢	٤ر٢٠	٩٣	٩ر١٦	٥٢	٥ر٩	١٧	١ر٣	٥	٩ر٠	١	٢ر٠
	م٢	٩٧	٧ر١٧	٨٤	٣ر١٥	٦١	١ر١١	٢١	٨ر٣	٥	٩ر٠	١	٢ر٠
٢١	م١	١٧٧	٢ر٣٢	٦٤	٧ر١١	٢٤	٤ر٤	١٠	٨ر١	٤	٧ر٠	١	٢ر٠
	م٢	١٧١	١ر٣١	٥٥	١٠	٢٨	١ر٥	٩	٦ر١	٤	٧ر٠	٢	٤ر٠
٢٢	م١	١٢٩	٥ر٢٣	٧٦	٨ر١٣	٤٤	٨	١٩	٥ر٣	٨	٥ر١	٤	٧ر٠
	م٢	١٥١	٥ر٢٧	٦٥	٨ر١١	٣١	٦ر٥	١٤	٦ر٢	٦	١ر١	٢	٤ر٠
٢٣	م١	١١٠	٢٠	٨٦	٧ر١٥	٤٩	٩ر٨	١٩	٥ر٣	١٣	٤ر٢	٣	٥ر٠
	م٢	١٢٠	٩ر٢١	٧٤	٥ر١٣	٥٠	١ر٩	١٦	٩ر٢	٤	٧ر٠	٥	٩ر٠
٢٤	م١	٩٩	١٨	٧٣	٣ر١٣	٤٦	٤ر٨	٣٧	٧ر٦	١٨	٣ر٣	٧	٣ر١
	م٢	٨٤	٣ر١٥	٨٠	٦ر١٤	٥٤	٨ر٩	٣٢	٨ر٥	١٦	٩ر٢	٣	٥ر٠
٢٥	م١	٢١٨	٧ر٣٩	٢٤	٤ر٤	٢١	٨ر٣	٥	٩ر٠	٣	٥ر٠	٩	٦ر١
	م٢	١٩٧	٩ر٣٥	٣٧	٧ر٦	١٨	٣ر٣	٣	٥ر٠	٤	٧ر٠	١٠	٨ر١
٢٦	م١	٢٠٧	٧ر٣٧	٣٥	٤ر٦	١٧	١ر٣	٣	٥ر٠	٧	٣ر١	١١	٢
	م٢	١٨٤	٥ر٣٣	٤٠	٣ر٧	٢١	٨ر٣	٣	٥ر٠	٨	٥ر١	١٣	٤ر٢

المجموع ٥٤٩ (١٠٠ ٪)

مجموع المدرسة الاولى ٢٨٠ (٥١ ٪)

مجموع المدرسة الثانية ٢٦٩(٤٩٪)

ملحق (ج)

الاجابة على المقياس للمجموعتين من المدارس معا وقيمة كا٢

الفقرة	مهم جدا تكرار	مهم جدا ٪	مهم نوعما تكرار	مهم نوعما ٪	متوسط الاهمية تكرار	متوسط الاهمية ٪	غير مهم تكرار	غير مهم ٪	غير مهم بالمرة تكرار	غير مهم بالمرة ٪	لا اجابات تكرار	لا اجابات ٪	قيمة ك٢
١	١٣٢	٢٤	١٧٤	٣١ر٧	١٤٨	٢٧	٤٩	٩	٤٠	٧ر٣٠	٦	١ر١	٨ر٤٠٤
٢	٢١٦	٣٩ر٣	١٣١	٢٣ر٩	٩٧	١٧ر٧	٧٣	١٣ر٣	٢٦	٤ر٧	٦	١ر١	٤ر٢٥٣
٣	٢٢٠	٤٠ر١	١٣١	٢٣ر٩	١٣٥	٢٤ر٦	٤٥	٨ر٢	١٦	٢ر٩	٢	٠ر٤	٣ر٤٨٦
٤	٢٦٤	٤٨ر١	١٥٤	٢٨ر١	٩١	١٦ر٦	٢١	٣ر٨	١٧	٣ر١	٢	٠ر٤	٣ر٤٢٧
٥	٣٤٩	٦٣ر٦	١٩١	١٦ر٦	٦٩	١٢ر٦	٢٧	٤ر٩	٦	١ر١	٧	١ر٣	١ر٥٣٨
٦	٤٣٣	٧٨ر٩	٥٣	٩ر٧	٣١	٥ر٦	١٤	٢ر٦	٥	٠ر٩	١٣	٢ر٤	٦ر٥٠٦
٧	٤١٧	٧٦	٧٢	١٣ر١	٢٩	٥ر٣	٤	٠ر٧	٥	٠ر٩	٢٢	٤ر٠٠	٥ر٠٨٨
٨	٣١٠	٥٦ر٥	١٤١	٢٥ر٧	٦٢	١١ر٣	٢٠	٣ر٦	٦	١ر١	١٠	١ر٨	٠ر٤١٨
٩	١٣١	٢٣ر٩	١٥٧	٢٨ر٦	١٠٨	١٩ر٧	٩٢	١٦ر٨	٣٥	٦ر٤	٢٦	٤ر٧	٥ر٣٦١
١٠	٢٠٤	٣٧ر٢	١٧٢	٣١ر٣	١٠١	١٨ر٤	٤٥	٨ر٢	٢٤	٤ر٤	٣	٠ر٥	٧ر٠٦٠
١١	٢٣٩	٤٣ر٥	١٤٨	٢٧	١٠١	١٨ر٤	٣٨	٦ر٩	١٦	٢ر٩	٧	١ر٣	٤ر٧٧٣
١٢	٢٢٦	٤١ر٢	١٤٩	٢٧ر١	١٠٤	١٨ر٩	٣٧	٦ر٧	١٨	٣ر٣	١٥	٢ر٧	٠ر٨١٢
١٣	٣٩	٧ر١	٨٢	١٤ر٩	٨٨	١٦	٢٠١	٣٦ر٦	١٣١	٢٣ر٩	٨	٠ر٥	٠ر٨٠٤
١٤	١١٣	٢٠ر٦	٦٤	١١ر٧	٥٧	١٠ر٤	٦٩	١٢ر٦	٢٣٩	٤٣ر٥	٧	١ر٣	١ر٧٥٢
١٥	٣٩٤	٧١ر٨	٨٢	١٤ر٩	٣٩	٧ر١	١٣	٢ر٤	٧	١ر٣	١٤	٢ر٦	٣ر٤٠٩
١٦	٣٨٢	٦٩ر٦	١١٠	٢٠	٣٦	٦ر٦	٨	١ر٥	٣	٠ر٥	١٠	١ر٨	٢ر٣٣٣
١٧	٣٧١	٦٧ر٦	١٠٠	١٨ر٢	٤٦	٨ر٤	١٦	٢ر٩	٨	١ر٥	٨	١ر٥	١ر٩٥٠
١٨	٣٦٥	٦٦ر٥	١٠٨	١٩ر٧	٥٦	١٠ر٢	١٠	١ر٨	٦	١ر١	٤	٠ر٧	٢ر٣٨٢
١٩	٣٣٦	٦١ر٢	١٣٠	٢٣ر٧	٤٨	٨ر٧	١٤	٢ر٦	١٤	٢ر٦	٧	١ر٣	٦ر٠٩٢
٢٠	٢٠٩	٣٨ر١	١٧٧	٣٢ر٢	١١٣	٢٠ر٦	٣٨	٦ر٩	١٠	١ر٨	٢	٠ر٤	٢ر٤٥٣
٢١	٣٤٨	٦٣ر٤	١١٩	٢١ر٧	٥٢	٩ر٥	١٩	٣ر٥	٨	١ر٥	٣	٠ر٥	١ر٢٥٩
٢٢	٢٨٠	٥١	١٤١	٢٥ر٧	٧٥	١٣ر٧	٣٣	٦	١٤	٢ر٦	٦	١ر١	٦ر٣٣٢
٢٣	٢٣٠	٤١ر٩	١٦٠	٢٩ر١	٩٩	١٨	٣٥	٦ر٤	١٧	٣ر١	٨	١ر٥	٦ر٦٤٩
٢٤	١٨٣	٣٣ر٣	١٥٣	٢٧ر٩	١٠٠	١٨ر٢	٦٩	١٢ر٦	٣٤	٦ر٢	١٠	١ر٨	٠ر٠٥١
٢٥	٤١٥	٧٥ر٦	٦١	١١ر١	٣٩	٧ر١	٨	١ر٥	٧	١ر٣	١٩	٣ر٥	٤ر٥٤١
٢٦	٣٩١	٧١ر٢	٧٥	١٣ر٧	٣٨	٦ر٩	٦	١ر١	١٥	٢ر٧	٢٤	٤ر٤	٢ر١٢١

عينة الدراسة ٥٤٩ (١٠٠ ٪)

تلامذة مجموعة المدارس الاولى ٢٨٠ (٥١ ٪)

تلامذة مجموعة المدارس الثانية ٢٦٩ (٤٩ ٪)

المراجع والمصادر العربية

با قادر ، أبو بكر أحمد ، الصباغ ، عبد اللطيف توفيق ، الجليد ، محمد السيد ، والسامرائي ، مؤمل يوسف (١٤٠٣ هـ) . **دراسة أساسية عن حماية البيئة في الإسلام** (نشرة مشتركة للاتحاد الدولي لصون الطبيعة والموارد الطبيعية ومصلحة الأرصاد وحماية البيئة بالمملكة العربية السعودية) سلسلة دراسات النظم والقوانين البيئية رقم ٢٠ ، جلاند : سويسرا .

ريان ، فكري حسن (١٩٨١ م) **تخطيط المناهج الدراسية وتطويرها** ، مكتبة الفلاح ، الكويت ص ٣١ ـ ٣٦ .

زيدان ، محمد مصطفى (بدون تاريخ الطبع) **عوامل الكفاية الانتاجية في التربية** ، دار الشروق ، جدة ، ص ١٠ ـ ١١٤ .

شلبي ، أحمد ابراهيم (١٩٨٤ م) « البيئة والمناهج المدرسية » ، **في معالم تربوية** ، إشراف د . أحمد اللقاني ، مؤسسة الخليج العربي ، مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة .

مختار ، حسن على (١٤٠٦ هـ) **قضايا ومشكلات في المناهج والتدريس** ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ص ١٠٩ ـ ١١٤ .

قناديلي ، عبد الله أحمد (١٤٠٦ هـ) « **التربية البيئية في المملكة العربية السعودية** » ـ رسالة ماجستير ـ كلية التربية ـ جامعة أم القرى ـ ١٤٠٦ هـ ، مكة المكرمة .

الوكيل ، حلمي أحمد (١٩٨٢ م) **تطوير المناهج : أسسه ، أسبابه ، أساليبه ، خطواته ، معوقاته** ، الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ص ٢٠٨ ـ ١١٥ .

المراجع والمصادر الأجنبيـــة

Al-Soliman, Tarik M. A. (1978). **Elementary shool facilities for Saudi Arabia : Three, design concepts.** (Master of architecture thesis, University of Washington, 1978).

ASBJ. (1977). " Will children,s learning be stunted, and teacher irked by low school tempareture ? " **American School Board Journal.** vol. 161,# 1, Jan. pp. 43-45.

Dewey, John. (1938). **Experience and education.** 21 rst printing 1979. New York :Macmillan Publishing Co. Inc.

Doyle, Walter. (1977) " Learning the classroom environment : An ecological analysis. " **Journal of Teacher Education.** 28, 51-55.

Eggleston, J. (1977). **The ecology of the school.** London: Methuen.

Glass, D. C: Singer, J. E. and Friedman, L.E. (1969) " Psychic cost of abaptation to an environmental stressor. " **Journal of Personality and Social Psychology.** vol. 12, pp 200-210.

Gump, Paul V., and Good, Lawrence R. (1976). " Environments operating in open space and traditional designed schools." **Journal of Architecture Research.** vol. 5,# 1, pp. 20-27. March.

Johnson, Gussie. (1977). " A comparison of eighth grade pupils achievement in selected portions of biology using the traditional indoor and the experimental outdoor environment taught from external morphological approach." **Dissertation Abstract Internatonal.** # 38.

Karmel,L,J. (1965). "Effects of windowless classroom environment on high school students." **Perceptual and Motor Skills.** vol. 20, pp 277-278.

Kevan, Simon M: and howes, John D. (1980). "Climatic conditions in classrooms." **Educational Review.** vol. 23,#, 3, pp. 281-292.

Krimsky, Jeffrey S. (1982) " A comparative study of the effects of matching and mismatching fourth grade students with their subsequent reading speed and accuracy scores. (Doctoral dissertation, St. John,s University, 1982). **Dissertation Abstract International. 43,** 67-A.

Laforge H.E. (1972) "The effect of the open space design of an elementary school upon personality characteristics of students." **Dissertation Abstract Inetrnational.** # 33.

Lukasevich, Ann and Gray, R. F. (1978), "Open spacn, open education and pupil performance". **Elementary School Journal.** vol. 79, #, 2, November.

Martin, P. H. (1977). "Effects of child environment in physically modifying the classroom environment on student attitudes toward school and student evaluation of classroom setting". **Dissertation Abstract International.** #38.

Maslow, A.H. and Mintz, M.L. (1956). "Effects of esthetic surrounding, 1, initial effects of three esthetic conditions upon perceiving energy and well-being in faces". **Journal of Psychology.** vol. 41, pp 247-275.

Neil, S.R.: and Denham, E.J.M. (1982). "The effects of pre-school building design". **Educational Research.** vol. 24, - 2, Feb.

Piotrowski, William D. (1977). "A study of the effect of classroom environment on student behavior: Open pod versud selfcontained". **Dissertation Abstract International.** #38.

Pizzo, J. (1982). "Quite vs. sound: Under what conditions do your students work best ?" **Early Years.** 12:32-33, January.

PUHSD. (1973). "The effect of air-conditioning on student and teacher performance." Phoenix Union High School District, Arizona. (Department of Research and Planning). (ERIC Document Reproduction Services #ED131 580).

Romney, Bryan M. (1975). "The effects of Windowless classroom on the cognitive and affective behavior elementary school students." A master thesis. (ERIC Document Reproduction Services #ED 126 622).

Rycroft, John D. (1972). "The effect of the physical facility on the manifest anxiety of elemntary school pupils." **Dissertation Abstract International.** #33.

Skinner, B.F. (1953). **Science and human behavior.** New York Mcmillan Publishng Co., Inc.

Tyack, David B. (1974). **The one best system.** Harvard Press.

Webb, James D. (1976). "The effect of the physical facility on disruptive behavior of elementary school pupils." **Dissertation Abstract International.** #37.

Weinstein, Carol R.S. (1977, summer). "Modifying student behavior in an open classroom through changes in the physical design." **American Research Journal.** 14, 249-262.

Weintsein, Carol R.S. (1979). "Physical environment of the school : A review of the research." **Review of Educational Research.** 49:577-610, Fall.

Weldon, David E.; et. al (1981). "Crowding and classroom Learning" **Journal of Experimantal Education.** 49.160-176. Spring.

Winer, Janice I.; et. al. (1977). "Factors affecting perception of response to crowded environments." (ERIC Document Reproduction Services #ED151 634).

Wragg, E.C.; and Dooley, P.A. (1984). "Class manegement during teaching practice." In **Classroom teaching skills.** Edited by E.C. Wragg. Nichols Puplishing Co.; New York. pp. 21-46.

Zifferblatt, S.M. (1972). "Architectur and human behaviors: Toward increased understanding of a functional relationship." **Educational Technology.** 12; 54-57.

٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-٧

نحو استراتيجية تربوية ونفسية اجتماعية للحد من مشكلة المخدرات بين الشباب المسلم

دراسة من إعداد
الدكتور زايد عبيد الحارثي
رئيس قسم علم النفس
للدراسات العليا

كلية التربية - جامعة أم القرى

١٤٠٩ هـ

تعريف بالباحث

- د . زايد عجير الحارثي .
- من مواليد ميسان بني الحارث .
- انهى المرحلة الابتدائية بالطائف وكذلك المرحلة المتوسطة والثانوية من دار التوحيد بالطائف .
- البكالوريوس والماجستير من جامعة الملك عبد العزيز - فرع مكة .
- الدكتوراه في التخصص الدقيق علم النفس الاجتماعي والاحصاء من جامعة منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٥ م .
- يعمل حالياً استاذاً مساعداً لعلم النفس الاجتماعي والاحصاء ورئيساً لقسم علم النفس بكلية التربية بجامعة أم القرى .
- عضواً في الجمعية الامريكية لعلم النفس منذ عام ١٩٨٥ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

« صدق الله العظيم »

« الأعراف : آية رقم ١٥٧ »

ملخص Abstract

هذه الدراسة هى محاولة وصفية شمولية لحجم المشكلة في العالم من حيث عدد المتعاطين ونوعيتهم ، ونوعية المخدر المتعاطى ، وتحاول هذه الدراسة التعرف على أهم الأسباب الكامنة وراء ادمان الأفراد على المخدرات والآثار المترتبة عليها ، مع التركيز بوجه خاص على العالم الإسلامي .

ان هذه المشكلة التي انتشرت بشكل لم يسبق له مثيل بين الشباب المسلم تتطلب رؤية ومعالجة علمية تنبع وتنطلق من مبادىء وقيم المجتمع المسلم وكذلك الاستفادة من معطيات العلم لقهر هذه المشكلة . ومن خلال هذا الاطار حاولت هذه الدراسة تقديم استراتيجية وقائية للحد من المشكلة في ضوء التصور الخاص بظروف المجتمع الإسلامي ومنطلقاته ويمكن أن تكون هذه الاستراتيجية نموذجا عالميا ، كما يمكن تنفيذها على مرحلتين :

١ ـ مرحلة وقائية بعيدة المدى يستثمر من خلالها معطيات الدين الإسلامي والتربية والعوامل الاجتماعية والثقافية المختلفة .

٢ ـ ومرحلة متممة ويمكن ان تكون متزامنة مع الأولى وفيها توظيف توجيهات الدين الإسلامي الشرعية والاجتهادية في عقاب مدمني المخدرات الذين لم تجد معهم الوسائل الأخرى المناسبة .

في ضوء تطبيق ما سبق يمكن لنا أن نأمل في مجتمع خال من مدمني المخدرات .

مقدمـــــة

لقد ازداد البحث والحديث عن المخدرات في هذه الأيام حتى لقد أصبح من أهم أحاديث الساعة فما يكاد يمر يوم الا ونقرأ ونسمع ونشاهد مزيدا من ضحايا ترويج واستعمال المخدرات . . وهذا شيء طبيعي يعكس استفحال هذه المشكلة وانتشارها بين الأفراد والمجتمعات في كثير من دول العالم .

إن توعية أفراد المجتمع بخطورة هذه المشكلة عبر وسائل الإعلام المختلفة هي خطوة ايجابية وانعكاس طيب لاستجابة هذه الوسائل للقيام بأحد أهم وظائفها ، ولكن هذه العملية لا تكفي بل تحتاج إلى خطوات ومجهودات مؤازرة ، تنهض بها وتدرس أسبابها واقتراح حلولها جهات اجتماعية أخرى كالجامعات ومصادر البحث العلمي وغيرها من الجهات .

وهذه الدراسة هي محاولة لالقاء مزيد من الضوء على هذه المشكلة وتقديم تصور جديد سماه الباحث استراتيجية تربوية نفسية اجتماعية للتخلص من المشكلة بين الشباب المسلم .

ولقد بدأت الدراسة ببعض التعريفات الضرورية لتبصير القارىء بمعانيها وخطورتها ، ثم خص جزء خاص لاستقصاء حجم المشكلة عالميا مع استنتاج حالة العالم الإسلامي وكان ذلك ضمن ثلاثة مؤشرات :

١ ـ عدد المتعاطين .

٢ ـ نوعية ما يتعاطى .

٣ ـ نوعية المتعاطين .

وزيادة في استقصاء خطورة المشكلة وتباين الحاجة إلى دراستها أورد الباحث جزءا خاصا بالآثار النفسية والاجتماعية لتعاطى الخمور والمخدرات ، أما الآثار الأخرى كالآثار الاقتصادية والسياسية وخلافها فلا يعتقد الباحث أن مجالها مناسبا للعرض في هذه الدراسة .

ولكي يتم تقديم استراتيجية مناسبة للقضاء على المشكلة ، استعرض الباحث أهم الأسباب المحتملة لتعاطي المخدرات والتي منها انهيار القيم الروحية والتفكك الأسرى ، والعوامل النفسية والاجتماعية الأخرى .

وقد ختم الباحث الدراسة بوضع تصور لاستراتيجية يمكن لو توفرت لها الامكانات والمتابعة اللازمة أن تنجح في القضاء على تعاطى المخدرات والمساهمة في بناء شباب مسلم قوى معتمدا على نفسه ومجتمعه وأمته بعد الله .

والله ولي التوفيق ،،

تعريفـــات

الادمـــان : Addiction

يعرف علميا بأنه (حالة يكون فيها الإنسان معتمدا اعتمادا جسميا على عقار أو عادة معينة ، وبصفة عامة الادمان يتضمن زيادة القدرة في تحمل ذلك العقار واعتمادا جسميا ونفسيا على ذلك العقار وظهور أعراض الانسحاب حينما يتوقف استخدام العقار . (Chaplin 1985 — P. 11)

المخـــدرات : Narcotic or Anaesthetics

المخدرات من العقاقير (والخدر هو الضعف والفتور يصيب البدن والأعضاء كما يصيب المتعاطي قبل السكر ـ ولفظ الخدر ـ أصل اشتقاق المخدرات والذى يتفق في المعنى اللغوى مع الخمر) (مركز أبحاث الجريمة ، وزارة الداخلية ١٤٠٥ هـ ، ص ١٧ ، ١٨) . أما التعريف العلمي للمخدرات فهو (المخدر مادة كيميائية تسبب النعاس والنوم أو غياب الوعي المصحوب بتسكين الألم) وكلمة مخدر ترجمة لكلمة (ناركوتك) Narcotic والتى تعنى (يخدر أو يجعل مخدرا) (نفس المرجع السابق ، ص ١٩ ـ ٢٠) .

ويعرف الدكتور سعد المغربي (١٩٨٤) المادة المخدرة بأنها « هي كل مادة خام ، أو مستحضرة ، تحتوى على جواهر منبهة ، أو مسكنة ، من شأنها إذا استخدمت في غير الأغراض الطبية والصناعية الموجهة أن تؤدى إلى حالة من التعود أو الادمان عليها مما يضر بالفرد والمجتمع جسميا ونفسيا واجتماعيا » (ص ٣٨ ـ ٣٩) .

وبعد تعريف المصطلحين السابقين (الادمان) ، و (المخدرات) نجد أن العلاقة بينهما لا تحتاج إلى أكثر من القول بأن المخدرات تدخل ضمن الادمان فهي وسيلة من وسائله .

وزيادة في المعلومات عن المخدرات وتعريف بعض أنواعها نقول : تعتبر أشهر المواد التى يبحث عنها الإنسان ويتعاطاها ويعتاد عليها أو يدمن عليها في الوقت الحاضر هي كما يلي : (صادق ، ١٩٨٦ ص ٤٧ ـ ٤٨ ، ومصيقر ، ١٩٨٥ ، ص ٢٥ ـ ٤٧) :

١ ـ المنومات والمهدئات	Tranquillizers and Hypnotics
٢ ـ الخمور	Alcohol
٣ ـ القـات	Khat
٤ ـ الكافيين	Caffeine
٥ ـ المسكنات	Sedatives
٦ ـ المنشطات	Stimula nts
٧ ـ النيكوتين	Nicotine
٨ ـ الحشيش	Hashish
٩ ـ عقاقير الهلوسة	Hallucinoqenic Drugs
١٠ ـ المستنشقات	Sniffings
١١ ـ الافيون ومشتقاته	Opium and Related products
١٢ ـ مورفين	Morphine
١٣ ـ هيروين	Heroin
١٤ ـ الكوكايين	Cocaine

ويمكن الآن اعطاء تعريفات مختصرة لبعض أنواع المخدرات وكيفية تأثيرها وآثارها وذلك كما ورد في تقرير الأمم المتحدة الأخير (United Nations, 1987, pp. 20 — 28) .

١ ـ القنب ـ المارونا : Cannabis — Marjuana

إن أشجار القنب تنمو في البرية أو تزرع في مناخ معتدل واستوائي وهو عشب قاس وينمو في أماكن منتشرة من العالم ومنذ آلاف السنين والناس في آسيا وافريقيا يستخدمون القنب في أشكال مختلفة في تدخينه عادة أو خلطه مع التبغ

Tobacco أو مع الشراب . أما عنصر التأثير النفسي الأساسي للقنب فهو ما يسمي بـ Delta-9-Tetre — Hydrocannabinol (وهو ما يرجع له بـ delta-9-THC) .

وأعراض استخدام القنب كثيرة وتعتمد على مقدار الجرعة والتوقع الشخصي للمستخدم فتأثير الاستخدام القليل والمتوسط يتمثل في المرح الصاخب Hilarity والثرثرة الخفيفة Loquacious Euphoria والتغير في إدراك الوقت والفضاء Changes in perception of Time and space وكذلك في الحكم والذاكرة Judgement and Memory وزيادة حساسية الرؤية والسمع Increased visual and auditory sensitivity والتهاب باطن الجفن والشعبي Conjunctivitis and bronchitis .

أما استخدام القنب بكميات كبيرة فيؤدى إلى أعراض منها خداعات Illusions وتضليلات Delusions واكتئاب Depresion وخلط Confusion واغتراب alienation وهلوسات Hallucinations .

هذا وان استخدام القنب بصفة مستمرة ولمدة طويلة قد يتلف الوظائف النفسية الحسية والغدد الصماء ويقلل من المناعة ومقاومة الميكروبات .

٢ ـ الكوكائين ـ أوراق الكوكا : Cocaine/Coce Leaf

الكوكا هي شجيرة دائمة الخضرة تنمو أساسا في الجبال في القطاع الغربي من جنوب أمريكا ويمكن استخلاص المواد المخدرة بعملية كيميائية من أوراق الكوكا .

ومن الاساءات المستخدمة هي تدخين الكوكا باستا وهي أعشاب فرعية من الكوكائين وهذا بالتالى يؤدى إلى تعزيز الاعتماد النفسي Psychic dependence وأمراض نفسية Psychopathology والزيادة في تعاطيه يمكن أن يسبب تسمما Poisoning .

أما الكوكائين وهو عقار مثير a stimulant drug فيستطيع أن يحدث نشاطا مثيرا Euphoric excitement وخبرات هلوسة Hallucinatory experience .

وحيث أن تعاطي هذا العقار يقود إلى اشعار متعاطيه بقوة عضلية شديدة وصفاء ذهني فإن المستخدم ينزع إلى المبالغة في قدرة وطاقة الجسم وهذا الاحساس بالعظمة والقوة مشتركا مع حدوث الخداع المرضي والهلوسات السمعية والبصرية يمكن أن يؤدى بالشخص المتعاطي إلى ارتكاب جريمة أو فعل سيء ضد المجتمع .

وهناك نوع جديد من الكوكائين وهو خطير ومميت يسمى بـ (Crack) وهذا النوع كما يذكر تقرير الأمم المتحدة المشار اليه سابقا يؤدى بالشخص المتعاطي إلى التوتر ويجعله في نشوة لعدة دقائق ثم يترك المتعاطي في حالة اهتياج واحتياج لمزيد منه ، وهذا النوع من الكوكائين خطير على الدماغ والقلب والرئة والأعصاب ، وكذلك له تأثيرات نفسية خطيرة كجنون العظمة paranoia والذهان psychosis والعنف Violence .

٣ ـ الهيروين ـ الأفيون : Heroin / Opiates

الأفيون عصير متخثر من الكبسولات غير الناضجة من نبت الخشخاش وتنمو هذه الأعشاب في جو معتدل أو شبه استوائي وتستخدم منذ زمن بعيد في ايران ومصر والصين وأوربا .

وبرغم أن الأفيون ومشتقاته كالمورفين Morphine والكودين Codeine له استخداماته الطبية من خلال العناصر الأولية (الخام) الا أن اساءة استخدامه قد وصل إلى مرحلة خطرة على مستوى العالم . ولقد أدى الاهتمام العالمي باساءة استخدام الأفيون في بداية هذا القرن إلى صياغة المعاهدات العالمية الأولى لضبط المخدرات .

ويؤدى المورفين إلى اعتماد مادى ينمو ويزيد بسرعة مع زيادة الجرعات المستخدمة مما يؤدى إلى الادمان وهذا العقار ينتج مستوى سريعا من التسامح أى عدم الحساسية ، مما يتطلب زيادة في الجرعات لتحقيق التأثير المرغوب وزيادة الجرعات تؤدى إلى اعتماد نفسي وجسمى أكبر مما يؤدى إلى الادمان .

أما الهيروين وهو يشتق بطريقة كيمائية بسيطة من المورفين فهو الأكثر استخداما وأكثر خطورة على عامة الناس مما قد يكون سببا في الأمراض والتسمم

وسوء الصحة . ونتيجة لهذه الخطورة ، برغم استخدامات المورفين والهيروين لأغراض طبية محدودة ، فقد أوصت الصحة العالمية WHO بتحريم صناعة واشتقاق الهيروين لأى سبب كان ، ومعظم دول العالم استجابت لهذه التوصية .

٤ ـ عقارات أخـــرى : Other Drugs .

(أ) عقارات الاكتئاب : Depressants

وهذه العقارات التى تعمل مع النظام العصبي المركزى صنعت لاثارة السلوك ، وهذه العقارات تتصف بأنها مسكنات وفي حالة تعاطيها بكثرة تسبب النوم . ومن المعلوم أن الانسحاب من تناول المسكنات والمهدئات بعد استخدام طويل يؤدى إلى آلام شديدة ويهدد الحياة .

(ب) عقارات الهلوسة : Hallucinogens

وهذه العقارات الكيمائية هي عقارات مختلفة عن العقارات الأخرى حيث أن استخدامها يؤدى إلى تغيرات عقلية واضحة كالشعور بالنشاط والقلق Anxiety وخداع الحواس Sensory distortion وهلوسات سمعية وبصرية وتغير في السلوك وفقدان الاحساس بالذات A sense of identity loss وغيرها من التغيرات العقلية . وأشهر هذه المهلوسات وأخطرها ما يسمي بـ (LSD) .

(جـ) منشطات : Stimulants

وهذه المنشطات ـ في بعض الوجوه ـ ترتبط صيدليا Pharmacologically بالكوكائين . وهي مثل الكوكائين لديها القدرة على زيادة الانفعال وازالة التعب والاعتماد النفسي على هذا النوع من العقارات ينمو بسرعة ويمكث بقوة مما يجعل المتعاطي يصل إلى أعلى درجات الاثارة والنشاط ، وقد يظهر كنتيجة لاستمرارية التعاطي تسمم نفسي بعد عدة أسابيع من التعاطي ، وهذا النوع من العقارات وتعاطيه يؤدى إلى الشعور بالخوف والعدوان ، وربما ارتكاب سلوك أو عمل عدائى ضد المجتمع .

(د) مستنشقات : Inhalants

والمستنشقات هي مجموعة عقارات كيميائية مختلفة تثير العقل ، وتسبب رد فعل نفسي ، وأمثلة هذه المستنشقات كالقازولين والغراء وغيرها ومن آثارها تعطيل القدرة على الحكم عند أحكام الأشخاص المتعاطين وتقليص رد الفعل العضلي وكذلك الموت المفاجىء .

الحجم العالمي للمشكلة

سيكون الحديث عن حجم المشكلة العالمي من خلال ثلاثة مؤشرات :

١ ـ عدد المتعاطين .

٢ ـ نوعية ما يتعاطى .

٣ ـ نوعية المتعاطين .

ـ أولاً عدد المتعاطين :

لقد قدر عدد من يستخدم المهدئات والمنبهات في العالم في بداية الستينات بخمسة ملايين فرد ، ثم زاد هذا العدد ليصبح هناك عشرة ملايين مدمن مخدرات في نهاية السبعينات (عبد السلام ، ١٩٧٧ م) .

وتشير أحدث الاحصاءات التى نشرتها الأمم المتحدة مؤخرا إلى أن هناك ما يزيد عن عشرين مليون مدمن مخدرات في جميع أنحاء العالم (أحمد الجبيلى ، ١٤٠٧ هـ ، ص ١٥) بل أن بعض النشرات (الوطن ، ١٩٨٨) تشير إلى أن الرقم يصل إلى خمسين مليون مدمن في العالم يتوزعون كالآتي : ثلاثين مليونا يدخنون الماريجوانا ، وثمانية عشر مليونا يتعاطون الكوكايين ، و١,٧ مليون يتعاطون الافيون ، وثمانين الفا يتعاطون الهيروين ، ويتعاطى الباقون مخدرات أخرى (ص ١٦) .

إن تعاطى المخدرات في معظم قارات العالم في تزايد ، ففي آسيا والشرق الاقصى يستمر تعاطي الهيروين على وجه الخصوص حيث وصل إلى نسبة وباء عالية في كثير من الدول بما فيها دول لم يصلها من قبل ، على سبيل المثال بنغلاديش ، وجد أن عدد متعاطي الهيروين لأول مرة عام ١٩٨٥ م ، يساوى عشرة آلاف متعاط تقريبا (الأمم المتحدة ١٩٨٧ م) وفي الاتحاد السوفيتي يقدر عدد المعلن عنهم فقط بـ ١٤٩,٠٠٠ لعام ١٩٨٧ م (الشرق الأوسط العدد ٢٩٦٢) وفي الهند يقدر عدد المتعاطين بنصف مليون لعام ١٩٨٦ (نيوزويك) ،

وكذلك الباكستان يقدر عدد المتعاطين بـ ٤٥٠,٠٠٠ تقريبا (نيوزويك) ، وفي ماليزيا يقدر عددهم بحوالي مليون ونصف لعام ١٩٨٦ م (الشرق الاوسط العدد ٣٠١٦) .

وفي أفريقيا هناك تزايد في استخدامات العقارات المخدرة وبالذات يعتبر الـ Cannabi القنب (الحشيش المستخرج من القنب الهندى) هو الأكثر استخداما حتى اليوم في هذه القارة . ففي موريشوس على سبيل المثال ، وجد ما يقارب من خمسة عشر الف متعاطي للهيروين عام ١٩٨٥ م ، (الأمم المتحدة ١٩٨٧ م) .

وفي الامريكتين وجد أن القنب والكوكائين هما العقاران الأكثر تداولا ، ففي كندا ـ على سبيل المثال ـ وجد أن هناك ٣٢٧٥ متعاطي للهيروين فقط في عام ١٩٨٥ م ، وفي الولايات المتحدة وحدها وجد ٤٩٢٫٠٠٠ تقريبا مدمن هيروين في عام ١٩٨٤ وجد ٥,٨ مليون متعاطي كوكائين (عكاظ العدد ٧٤٣٧) ، وفي دول أمريكا الجنوبية وجد ارتفاع في عدد المتعاطين لـ Coca Paste (وهو منتوج من أعشاب الكوكا فرع من الكوكائين) ففي دولة بوليفيا Bolivia وجد ارتفاع في تعاطي هذا الشراب ففي عام ١٩٨٥ م وجد أن عدد المتعاطين لهذا العقار يقدر بـ ٤٠٫٠٠٠ شخص (المرجع السابق) .

وفي أوربا لا تقل خطورة ازدياد تعاطي المخدرات بأنواعها المختلفة عنها في أى قارة أخرى فقد وجد مثلا أن هناك ١٦٫٣٤٩ متعاطي مخدرات في النمسا (المرجع السابق ص ١٢) وفي عام ١٩٨٥ م منهم ٢٠٪ يتعاطون هيروين ، وفي فرنسا وجد حوالى ٧٥٫٠٠٠ شخص يتعاطي المخدرات في عام ١٩٨٤ م (المرجع السابق ، ص ١٢) وفي ايطاليا وجد أن المتعاطين للهيروين فقط لعام ١٩٨٥ م يساوى ٢٠٫٠٠٠ (المرجع السابق ص ١٢) وفي هولندا وجد أن هناك ما بين ١٥٫٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ تقريبا يتعاطون الهيروين لعام ١٩٨٥ م ، وفي بريطانيا وشمال ايرلندا ارتفع عدد متعاطي الهيروين لعام ١٩٨٥ م بنسبة ٢٥٪ منه عن عام ١٩٨٤ م (المرجع السابق) وفي سويسرا وجد ما يقارب ١٠٫٠٠٠ شخص يتعاطي الهيروين في عام ١٩٨٤ م . (المرجع السابق) .

وفي الشرق الأسط وجد ـ كما أثبتت تقارير الأمم المتحدة ـ أن انتشار تعاطي الهيروين والكوكائين قد ارتفع بالذات في مصر ، الكويت ، لبنان ، قطر ، باكستان وغيرها من دول الشرق الأوسط ، وفي باكستان وحدها وجد في عام ١٩٨٥ م ما يقارب من ٣٠٠ر٠٠٠ شخص متعاطي للهيروين (المرجع السابق) وفي الأمارات العربية المتحدة قدر عددهم بحوالى ألف شخص عام ١٩٨٧ م (عكاظ ، العدد ٧٥٢٣) وفي اليمن يعتبر القات أكثر أنواع المخدرات استخداما يكاد يتعاطاه معظم الفئات من المجتمع اليمني .

وأخيراً في استراليا ونيوزيلندا ارتفعت نسبة متعاطي الهيروين بشكل ملحوظ (المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨) ففي استراليا وحدها قدر عدد متعاطي الهيروين فقط لعام ١٩٨٦ م بـ ٣٠ر٠٠٠ (نيوزويك) .

ـ ثانياً : نوعية ما يتعاطي :

لقد ثبت من الاحصاءات السابقة ـ وهي أمثلة وليست حصرا ـ أن أغلب أنواع المخدرات التى ورد ذكرها فيما سبق يتم تعاطيها بصورة أو بأخرى في معظم دول العالم بنسب متفاوتة . ففي الدول التى تصنع أو تزرع ما يمكن أن يكون مخدرا ينتشر بين أفرادها ما يتم زرعه أو صناعته في ذلك البلد . ففي دول أمريكا الجنوبية على سبيل المثال ، حيث يتم زراعة الكوكا نجد أن نسبة متعاطي الكوكائين ومشتقاته هى الأكثر شيوعا ، وفي الدول التى تزرع القات كاليمن نجد أن الشائع في نوعية المتعاطى هو القات . وفي الدول التى تزرع القنب كالهند نجد أن تعاطي القنب هو الأكثر انتشارا . . وهكذا .

ان أخطر أنواع المخدرات هما : الهيروين والكوكائين ، ونجد أن انتشارهما يقلق الكثير من الدول والمجتمعات . فاستخدامات الهيروين انتشرت في العديد من الدول ، سواء تلك التى لها خبرة بالمشكلة ، أو جديدة عليها . ففي أفريقيا أصبحت مشكلة جديدة بالنسبة لها ، وهي مستمرة في شمال أفريقيا وآسيا ، والشرق الأدنى ، ومعظم دول أوربا (الأمم المتحدة ١٩٨٧) . أما الكوكائين

Cocaine فقد زادت خطورتها وانتشارها في معظم بلاد العالم وبخاصة في أمريكا وأوربا واستراليا ونيوزيلندا . أما استخدامات مشتقات الكوكا والكوكاباستا Cocaine and Coca Paste فقد ارتفعت على وجه الخصوص في دول أمريكا الجنوبية . (United Nations, 1987) .

ثالثاً : نوعية المتعاطين :

من المؤسف أن عدوى أو (دعنا نسميها) « عبودية المخدرات » ، انتشرت بين فئات كثيرة من المجتمعات ، والأخطر من هذا كله ، أنها انتشرت في الشباب بشكل لم يسبق له مثيل .

ويذكر تقرير الأمم المتحدة لعام ١٩٨٧ م ما يلي :

أن الفئات المتأثرة بالمخدرات في أفريقيا معظمها من الشباب ، ففي نيجيريا ـ على سبيل المثال ـ أصبح استخدام الهيروين يزداد بين الشباب وبالذات بين الذكور فيما بين ١٨ ـ ٣٥ سنة ، وفي تونس وجد أن استخدام الهيروين يشيع بين الذكور فيما بين ٢٠ ـ ٣٠ سنة ، ويذكر التقرير ان تعاطي المخدرات في أفريقيا وبالذات أنواع الحشيش المختلفة يتأثر به كل الطبقات الاجتماعية All Social Strata .

وفي كندا ـ في قارة أمريكا ـ يذكر التقرير المشار اليه آنفا أن معظم متعاطي الهيروين تتراوح أعمارهم ما بين ٣٠ ـ ٣٩ سنة من بينهم ٣٢٪ من الاناث وكذلك بالنسبة لمتعاطي الكوكائين حيث وجد أن أعمارهم تتراوح ما بين ٢٥ ـ ٢٩ سنة من بينهم ٢٠٪ من الاناث وهكذا الحال بالنسبة لبقية دول أمريكا الجنوبية يقع المدى العمرى لمتعاطي المخدرات في نفس المدى العمرى السابق (مرحلة الشباب) .

أما في آسيا والشرق الاقصى فالوضع يختلف قليلا بالنسبة لفئات المتعاطين ، فقد وجد أن مدى المتعاطين يتراوح ما بين ١٦ ـ ٣٠ سنة لأصغر الفئات أو ٢٥ ـ ٢٩ سنة لأكبر الفئات من الذكور ونسبة المتعاطيات للمخدرات في اليابان يساوى ١٦٪ من المتعاطين . وفي أوربا يذكر تقرير الأمم المتحدة أن في

فرنسا وحدها على سبيل المثال تتراوح اعمار معظم المتعاطين ما بين ٢١ ـ ٢٥ سنة ، ١٨٪ منهم من الاناث ، وفي ايطاليا نجد أن المدى العمرى للمتعاطين أقل ، إذ يتراوح ما بين ١٨ ـ ٢٩ سنة ، ٢٠٪ منهم من الاناث ، وفي بريطانيا وشمال ايرلندا ، يذكر التقرير أن مدى المتعاطين يتراوح فيما بين الاعمار ٢١ ـ ٢٥ ، ٢٩٪ منهم من الاناث ، والفئات العمرية لمتعاطي الكوكائين في المانيا الغربية يتراوح ما بين ٢٥ ـ ٣٠ سنة .

وفي الشرق الأوسط والأدني تتراوح أعمار من قبض عليهم من المتعاطين وبالذات في مصر ما بين ٢٠ ـ ٤٠ سنة أغلبهم من الأميين ، وفي الكويت تتراوح من قبض عليهم ما بين ٢٠ ـ ٣٠ سنة وهم من الطبقات الوسطى من الذكور من الحضر ، وفي الباكستان وجد أن معظم من قبض عليهم هم من الفئات العمرية ١٥ ـ ٤٥ سنة . . وفي الأردن يبلغ أعمار من قبض عليهم ما بين ١٧ ـ ٤٠ سنة وفي المملكة العربية السعودية وجد أن ١٦٪ من مدمني المخدرات ـ وهم قليل جدا بالمقارنة بدول العالم ـ تقل أعمارهم عن ٢٢ سنة كما أن أغلبهم من الذكور من الأميين أو من لم يكملوا المرحلة الابتدائية . (الحسن ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٣٢) .

وفي اليمن يضيع كثير من اليمنيين ثروتهم ووقتهم على القات ، ولا يختلف في ذلك ثرى أو معدم كما يذكر كريكوريان (١٩٨٧ م ص ٤١) .

وأخيراً لا يختلف الوضع كثيراً في استراليا ونيوزيلندا من حيث الأعمار المتأثرة ونوعية المتعاطى الذى هو يمتد ما بين الكوكائين والهيروين حسب التقرير السابق .

وهكذا نجد أنه لم تنج دولة من دول العالم تقريبا من هذا الوباء الخبيث ، وان كانت النسب متفاوتة من دولة إلى دولة ومما ينذر بالسوء أن الفئات التى يتوقع لها البناء والمساهمة في المجتمعات وهي فئات الشباب هي التي تقع فريسة هذا الخطر .

وهكذا نخلص إلى أن المدى الذى يقع ضمنه الفئة الأكثر استعمالا للمخدرات كما يفيد بذلك تقرير الأمم المتحدة الأخير (١٩٨٧ م) هو من تقع أعمارهم بين ١٨ ـ ٣٥ سنة .

وما نحتاج إلى قوله في هذا الخصوص أن دول العالم الإسلامي هى جزء من العالم الذى تعيش فيه وهي بالتالى متأثرة بهذا الخطر الداهم ، وان كانت المؤشرات تشير إلى زيادة الخطورة في واقع العالم الإسلامي حيث تشير الاحصاءات وبخاصة في الدول العربية (الترساوى ، ١٩٨٨ م) إلى أن المشكلة في ازدياد مضطرد ، خاصة بين الشباب حيث تدل الدراسات إلى أن ٧٥٪ من المتعاطين هم ممن في سن الشباب . والذى يدفعنا إلى افتراض زيادة المشكلة في العالم الإسلامي عدة أمور ، منها :

١ ـ أنها مستهدفة أصلا من دول استعمارية حاقدة على الإسلام والمسلمين .
٢ ـ الحروب القائمة في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي تساعد على ترويج المخدرات وتسهل تداولها .
٣ ـ العوامل المشتركة مع كثير من الدول الأخرى كالفقر والمستوى التعليمي المتدني وخلافه .

لكن مسؤولية العالم الإسلامي للتصدى لهذه المشكلة تفوق أى عالم آخر تجاه محيطه وتجاه العالم الآخر وذلك لعالمية الرسالة وعظم المسؤولية فماذا يمكن أن تقوم به دول العالم الإسلامي تجاه نفسها وتجاه أجيالها القادمة وتجاه تحرير الإنسان من عبودية المخدرات ؟

هذا ما سنتناول جزءا منه في الصفحات التالية ، وبقية الاجابة تطرح لمزيد ومزيد من البحث والاستقصاء .

* * *

الآثار النفسية والاجتماعية لتعاطي الخمور والمخدرات

ولكي يتبين لنا مخاطر هذه الآفات والأخطار النفسية والاجتماعية نستعرض الآن في عجالة الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة على تعاطي الخمور والمخدرات .

لقد أثبتت الدراسات مثلا (حسنين ١٤٠٤ هـ ، ومركز أبحاث الجريمة ١٤٠٥ هـ) أن تعاطي الخمور والمخدرات يؤثر على الجهاز العصبي للإنسان ، تبعا لكمية المخدر المستعمل ، لأنه يتكون من مواد دهنية بروتينية فورية قابلة للامتزاج مع خاصية الكحول وذوبانها في الهيبوثلاموس Hypothalamus (المهدأ التحتاني) وهو جزء مهم جدا في المخ ومن وظائفه المختلفة التحكم في السلوك والانفعال والسلوك العدواني وغيرها في الدرجة الأولى من التأثير حينما يتعرض لكميات مخدرة تمتد من طريق الجهاز العصبي .

أما عن كيفية تأثير المخ على الادمان فتكشف الدراسات (صادق ، ١٩٨٦ م) على أن نشاط المخ للإنسان وتحرك المواد الكيمائية بين خلاياه قائم على حقيقة وهي تحقيق أقصى درجات اللذة وتقليل الألم ، والعقاقير التي يتناولها الإنسان تتمشي مع التكيف البيولوجي للمخ ، وهي بهذا يكون لها صفة التعزيز الذاتي Self — Reinforcement (المصدر السابق) .

ويرتبط بالاضطرابات العصبية ، الاضطرابات الانفعالية والتى تقسم إلى اضطرابات سارة كالشعور بحسن الحال ، الطرب أو التيه ، التفخيم ، النشوة وإلى اضطرابات غير سارة كالاسى ، والحسرة ، والاكتئاب ، والقلق ، والتبلد الانفعالي وغير ذلك من أعراض (مركز أبحاث الجريمة ١٤٠٥ هـ) .

كل تلك الأعراض والتأثيرات التى تحصل لمتعاطي الكحول والمخدرات تقود إلى ارتكاب سلوك إجرامي فالعقار قادر على جعل مستهلكه أكثر اثارة وانجذابا لتحقيق الرغبة المباشرة وعدم الاكتراث بثمن وتكاليف الاستخدام وما يترتب عليها من أفعال قد يقوم بها ممارسها دون وعي منه . (Wilson and Herrnstein 1985) .

هذا ويؤدى الادمان إلى إهمال المريض لعمله وأولاده وأسرته مما يؤدى إلى زيادة حالات الطلاق وضياع الأولاد وكذلك الانحراف الاجتماعي والاخلاقي بين أفراد أسرة المدمن وتزداد كذلك حالات السلوك الاجتماعي الانحرافي كالسرقات والنصب والجرائم الأخلاقية وغيرها .

وقد أظهرت دراسة علمية أجريت في الكويت (حنوره ١٩٨٨ م) أن الوظائف المعرفية لدى المتعاطين أكثر تدهورا وبشكل واضح خاصة فيما يتعلق بالإدراك والذاكرة أما عن الخصائص الوجدانية فقد اتضح ارتفاع مستوى الميل للأمراض النفسية العصابية والذهانية والقابلية للايحاء لدى المتعاطين وهو ما يدل على أن هناك مضارا واضحة على السلوك في ابعاده المختلفة يرجح أنها راجعة لتعاطى الكحوليات .

ومن الآثار السلبية للمخدرات على المجتمعات التأثير السلبي على الثقافة وذلك أن ثقافة العقار ومستخدميه The drug Subculture قد تشكلت حول العالم لسنوات طويلة ولكن الخطر المحدق اليوم أن العقار المخدر قد توغل في جوانب الحياة المختلفة ليغزو المدارس والمؤسسات المالية والصناعية وحقول وميادين الرياضة وغيرها من الأماكن الأخرى وثقافة مستخدمي العقار المندسة خلف الثقافة الرئيسية تنمو وتعزل نفسها وراء عيون القانون والأخلاق وهذه الحلقة من الثقافة غير المشروعة تهدد الثقافة الشرعية للمجتمعات بالتدمير .

ولقد ثبت أن تأثيرات المخدرات قد انتقلت لتشمل وقوع كثير من الناس المتعاطين لبعض العقارات ضحايا لمرض العصر المعروف بالايدز A IDS (Acquired Immune Deficiency Syndrome) United Nationa, 1987.

ويمكننا أن نجمل تأثيرات المخدرات السلبية على العائلة وأماكن العمل كما يلي :

إن التأثير المدمر للمخدرات على العائلة هو أول الطريق إلى تدمير المجتمعات فحينما يبدأ أحد أفراد الأسرة تعاطي المخدرات سواء كان ذلك الأب أو أحد الابناء والأقارب يبدأ نسيج الأسرة وتماسكها يضطرب مما يجعل كل عضو من أعضاء الأسرة يتأثر بطريقة أو بأخرى .

ومكمن الخطورة يتمثل في ادمان أحد الوالدين أو كلاهما على المخدرات مما قد يدفع الأطفال وبقية أفراد الأسرة إلى تعاطي المخدرات وهذا بالطبع يؤثر على قيم الأسرة وترابطها وغياب القدوة فيها هذا إذا لم يحدث في الأسرة ممارسات سلوكية شاذة ومحرمة وربما ارتكاب سلوك إجرامي .

وما يزيد من تأثير المخدرات المحزن والمؤسف أن كثيرا من أفراد المجتمعات الذين يتعاطون المخدرات هم من طبقة الشباب والمراهقين ـ الفئة التى يتوقع لها أن تكون عماد المجتمع وأمله في البناء والعمل . ولقد أورد التقرير الأخير للأمم المتحدة عن ضبط استخدام المخدرات .United Nations, 1987 أن معظم مستخدمي المخدرات في العالم اليوم هم ممن تقع أعمارهم بين ١٨ ـ ٣٥ سنة والسؤال الذى يمكن أن يطرح هو هل يمكن أن نتساهل مع هذه الفئة بصفة خاصة في حالة انغماسها ذاتيا Self — Indulgence في تناول العقارات المخدرة وتسبب في تدهور الأمن العام للمجتمعات ؟ بطبيعة الحال الاجابة بلا .

ذلك لأن من الآثار المترتبة على تعاطي الخمور والمخدرات ارتكاب الجريمة وذلك لأنه وجد في كثير من الحالات أن مدمني المخدرات يمكن أن يعملوا أى شيء في سبيل استمرارية ارضاء عاداتهم . ويأتى تأثير الكحول والمخدرات على السلوك الإجرامي عن طريقين :

(أ) طريق مباشر وذلك حينما يحدث تغير في العدوان A ggresiveness والاندفاع Impulsiveness .

(ب) طريق غير مباشر ويحدث حينما يكون تعاطى المخدرات وبالذات الهيروين كمعزز Reinforcer للكثير من الناس للعدوان حتى ارتكاب الجريمة (Wilson and Hermstein, 1985) ولقد وجد من دراسة حديثه على المساجين في دولة صناعية .United Nations, 1987, p. 43 أن ٥٠٪ منهم اعترفوا بأنهم كانوا تحت تأثير العقارات المخدرة في الوقت الذى ارتكبوا فيه الجريمة التى بسببها ادخلوا السجن .

وهكذا وجد أن سوء التكيف الشخصى والاجتماعي والجريمة ،

والحوادث ، واعتلال الصحة والوفيات لها في كثير من الاحيان ارتباط مع سوء استخدام العقارات المخدرة (United Nations, 1987, p. 4) .

ما سبق ذكره هو مجرد استعراض موجز لبعض الآثار النفسية والاجتماعية التي تحدثها المخدرات على الأفراد والمجتمعات وهناك الكثير من التأثيرات السلبية الأخرى الاقتصادية والسياسية وسواها على المجتمعات ولكننا آثرنا تركها باعتبارها ليست داخلة في محور هذه الدراسة .

والشيء الذى نود أن نختتم به الحديث عن هذه الآثار السيئة هو التحذير من استغلال أعداء الأمة الإسلامية ـ إن لم يكونوا قد بدأوا فعلا ـ في تعطيل وتخريب العقل المسلم عن طريق نشر وترويج المخدرات وهم بذلك يكونون قد هزموا الأمة الإسلامية بطريقة غير عسكرية وهي أشد وأخطر وهذا ما يحذر منه أيضا بعض قادة وعلماء المسلمين كتصريح شيخ الجامع الأزهر في جريدة المسلمون . (المسلمون ١٤٠٨ هـ) .

أسباب الادمان على المخدرات

لا يوجد سبب واحد يبرر تعاطي المخدرات والادمان عليها ، ولكن هناك عدة أسباب محتملة بعضها يلعب دوراً أكبر من غيره لوحده أو مع مجموعة عوامل أخرى . ومعرفة الأسباب أمر هام ليس فقط كمتطلب للبحث العلمي ولكنها في مجال بحثنا ذات أهمية خاصة في عملية رسم خطة الوقاية والعلاج . ونورد فيما يلي أهم الأسباب المحتملة التى تقود إلى الإدمان على المخدرات :

١ ـ تدهور النظام القيمي : Detorioration of the Value System :

ان الصراع القيمي بين الثقافات المختلفة التى يعيش فيها أفراد المجتمع الواحد وكذلك تصارع القيم بين جيل وجيل وضعف الوازع الديني تقود بلا شك إلى ارتكاب الجرائم ومنها تعاطي الخمور والمخدرات (عبد الله قادرى ١٤٠٥ هـ) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون** ﴾ المائدة آية ٩١ .

٢ ـ تأثير الأسرة : Family Influence

كما نعلم أن الأسرة تقوم بدور هام جدا في عملية التنشئة الاجتماعية لأفرادها يجب أن نعلم أيضا أن الشباب وفئات العمر المختلفة أيضا التى تعيش في ظل أسرة مفككة يعانون من المشكلات العاطفية والاجتماعية بدرجة أكبر من الذين يعيشون في أسر سوية وبالتالى فإن المناخ الأسرى المفكك قد يقود أفراده إلى تعاطى الخمور والمخدرات كما وجدت ذلك بعض الدراسات .

٣ ـ سمات شخصية : Personality Characteristics :

لقد وجد من البحوث والدراسات العديدة (انظر مثلا مصقير ، ١٩٨٥ م Coleman et al., 1985. جلال ١٩٨٦ م ، صادق ١٩٨٦ م) أن هناك علاقة قوية بين أنماط الشخصية المختلفة وبين بعض الأمراض النفسيولوجية من جهة وبينها

وبين تعاطي الخمور والمخدرات من جهة أخرى وبرغم ان هذه العلاقات ليست سببية ولا قاطعة الا انها ذات دلالات علمية . أما السمات الشخصية التى ترتبط بهذه الأنواع من السلوك فإنها مرتبطة بهذه الأنواع من الشخصية :

(أ) الشخصية الاكتئابية : Depressive personaltiy :

ومن سمات هذا النوع من الشخصية (فقدان الرغبة أو الاستمتاع في الأنشطة الحياتية اليومية ، قلة مستوى النشاط (الطاقة) انسحاب اجتماعي ، اتجاه عام يتسم بالكآبة والتشاؤم) .

وصاحب هذه الشخصية يجد نفسه مضطرا لتناول المواد المخدرة لترفع معنوياته وتجلب له السرور الذى يفتقده بشكل دائم . وهو واهم في شعوره ولكنه يقوده إلى ما يسميه علماء الطب النفسي سلوك تحطيم الذات : Self — Destructive Behavior .

(ب) الشخصية القلقة : Stressed Personality :

ومن السمات السلوكية المميزة لهذا النوع من الشخصية (القلق المستمر ، عدم الاستقرار ، سهولة الاستثارة والعصبية والاندفاع وعدم الصبر) (صادق ١٩٨٦ م ص ٣١٠).

فهذا النوع من الشخصية يجد أن المواد المخدرة تزيل عنه التوترات وتجعله هادئا بارداً مسترخيا متأنيا ويجد نفسه ميالا لاستعمال هذه المواد بشكل مستمر أو متقطع .

وهو كذلك نوع من الوهم والمرض النفسي الذى قد يقوده إلى سلوك عدواني ومنه ادمان على المخدرات .

(جـ) الشخصية السيكوباتية : Psychopathic Personality :

ومن سمات سلوك الشخصية السيكوباتية أو ضد الاجتماعية Anti Social Personality (التهرب من أداء الواجب ، الجنوح ، التخريب ، انتهاك المعايير الاجتماعية ، الاندفاعية ، اللامعقولية ، العدوانية ، طيشان السلوك ، وعدم القدرة على التخطيط المستقبلي) (Chaplin, 1985, p. 31.)

وهذا النوع من الشخصية قد يتناول المخدرات أو يسلك سلوكا يعبر به عن احتجاجه وعدم رضاه عن المجتمع وهو سلوك مرضي بطبيعة الحال .

٤ ـ وسائل الإعـلام : Mass Media Influence :

تؤثر وسائل الإعلام المختلفة بطرق مباشرة أو غير مباشرة على سلوك واتجاهات المتعاطين من مشاهدين ومستمعين وقراء (مصيقر ١٩٨٥ م) وكثيرا ما أبرزت بعض الدراسات أن ممارسة بعضهم السلوك العدواني ـ وبخاصة الأطفال ـ انما يكون مرد ذلك ما تعلموه وما شاهدوه من التلفزيون ووسائل الإعلام المختلفة عن طريق التقليد والمحاكاة والحال يمكن أن يقال عن استخدام الخمور والمخدرات .

٥ ـ سهولـة توفـر المخدرات :

لقد ثبت ان المجتمعات التى تتساهل في تعاطي المخدرات وتوفيرها ترتفع فيها نسبة تعاطي المخدرات وكذلك الجرائم عما سواها (مصيقر ١٩٨٥ م) .

٦ ـ النقص في وسائل الترويح وقضاء وقت الفراغ :

ومن مقالها عن الفراغ كمشكلة الفرد والمجتمع تقول الدكتورة ثريا العريض (١٤٠٦ هـ) (علاقة الفرد بمجتمعه علاقة لا بد منها وهى إذا لم تكن علاقة إيجابية أى علاقة تعاون وتفاهم تكون علاقة سلبية يؤذى فيها الفرد الآخرين ويرضي حاجاته إلى تحقيق ذاته وقدراته وملء وقته بالنشاطات دون مراعاة لاحتياجات الآخرين وحقوقهم الخاصة كأن يسرق ممتلكاتهم أو ينشغل في نشاطات تضره هو شخصيا إلى جانب الاضرار بغيره كادمان المخدرات) (ص ٧) .

أن الشبـاب والفـراغ والجـدة مفسـدة لـلمـرء أى مفسـدة

وبيت الشعر هذا يتضمن بعض ما نريد قوله في هذا الخصوص وهو ان وجود الفراغ بدون استثمار وكذلك البطالة قد تكون مدعاة إلى ارتكاب بعض انماط السلوك الانحرافي كتعاطي الخمور والمخدرات كما اثبتت ذلك بعض الدراسات (انظر عاطف عجوه ١٤٠٦ هـ) .

٧ ـ الفشل الدراسي : **School Failure :**

لقد اثبتت البحوث في بعض الدول (United Nations, 1987, p. 40) ان احتمالية تعاطي المارجوانا بصفة متكررة من الطلاب الحاصلين على درجات دنيا أو راسبين أو متسربين من المدارس هو الضعف مقارنة بزملائهم المتفوقين أو العاديين . وتفسير ذلك هو أن الطالب حينما يستخدم مخدر ما فإن الاحتمالية هي أن قدرة الطالب على التعلم تضعف أو تتلف .

ويضيف تقرير صدر حديثا للأمم المتحدة بعنوان (الأمم المتحدة وضبط استخدام العقارات لعام ١٩٨٧ م) The United Nations and Drug Abuse Control, 1987 p: 16-17 . إن أهم الأسباب الواضحة التى تلعب دورا في استخدامات العقارات المخدرة هى ستة عوامل فقط : الأقران ، الاستطلاع ، الجهل ، الغربة ، تغير البناء الاجتماعي ، والتحضر والبطالة .

٨ ـ ضغط الأقــران : **Peer Pressure :**

مستخدمو العقارات المخدرة مثل أى ناس آخرين يبحثون عن استحسان سلوكهم من أقرانهم وذلك لكي يقنعوا الآخرين بمشاركتهم في عادتهم كطريقة للبحث عن استحسانهم ومن المؤسف ان نفس ضغط الاقران الذى يحاول أن يحافظ على نمط السلوك للحد المقبول يستطيع أن يدفع الأفراد المشككين إلى المسار الخاطيء .

٩ ـ الاستطــلاع : **Curiosity :**

لقد ثبت في كثير من الأبحاث والدراسات بأن التذوق الأول لمن يريد أن يستطلع ويجرب المخدرات له مفعوله في التأثير على استمرارية الأفراد في تعاطي المخدرات وكلما كان سن المتذوقين صغيرا كلما كانوا أكثر قابلية لمحاولة تكرارها .

١٠ ـ الجهــل : **Ignorance :**

لقد ثبت أن كثيرا من متعاطي المخدرات ومدمنيها لا يعرفون مخاطر استخدامات العقار في حالة تناولهم وإذا قدم العقار للفرد التأثير الذى يبحث عنه فإن افتقاد ذلك الفرد للمعرفة الخاصة بالنتائج الصحية تسمح له بمواصلة الاستخدام وحينما يدرك الفرد الخطر الناتج يكون ذلك الوقت متأخرا .

١١ ـ الغربة (أو الاغتراب) : **Alienation :**

من الدوافع الإنسانية الاجتماعية المعروفة رغبة الإنسان في البحث عن الانتماء لأحد ، لعائلة ما أو لقبيلة معينة أو جماعة أو دولة معينة وإذا فشل الفرد في الانتماء لأحد لأى سبب من الأسباب وأحس بالعزلة Isolation فإنه عادة ما يحاول أن يبحث عن جماعة لينتمي اليها وعادة ما تكون الجماعة التى تستقبل ذلك الشخص هى تلك الجماعة التى تتشابه معه في احساسها بالعزلة وعدم الانتماء لجماعة ما وحينما يشعر ذلك الفرد بالترحيب في ذلك المناخ حيث يعتبر التعاطي شيئا مقبولا فإن هذا سيقود إلى نتائج مدمرة للفرد وللمجتمع بصفة عامة .

١٢ ـ تغير البناء الاجتماعي : **Changing Social Structures :**

من العوامل الرئيسية التى تؤدي إلى ادمان المخدرات التدهور أو التحول في نمط البناء الاجتماعي القائم فحينما تبدأ الوحدة الاجتماعية التي خدمت الجماعة في مساعدة أفرادها تتغير فإن بعض الأفراد يصبحون غير قادرين على التكيف مع هذا التغير مما يضطرهم للبحث عن ملجأ وربما يكون بحثهم متجها صوب عالم المخدرات . وهذا التحول في نمط التركيبة الاجتماعية والأعراف الاجتماعية الشبه الثابتة وكذلك الذوق الاجتماعي يمكن أن يقود بعض الناس إلى المسار الخاطيء وإلى تناول العقارات .

١٣ ـ التحضر والبطالة : **Urbanization and Unemployment :**

في كثير من دول العالم لا يزال التحول والهجرة من الريف إلى المدينة مستمرا وحينما ينتقل الأفراد بحثا عن حياة أفضل عادة ما يواجهون عقبات لأول مرة كالانفصال عن أفراد العائلة والقيم التقليدية والبناء الاجتماعي المساعد وبالتالى فإن ذلك يقود إلى الوحدة والعزلة واليأس كما وأن عدم التعليم والافتقار للمهارات اللازمة والتى تترجم إلى البطالة يمكن أن تكون عملية ليست سهلة ليتكيف معها الأفراد وكثير من المشكلات التى ترتبط بنشأة حياة جديدة يمكن أن تقود الأفراد إلى التعاطي والمتاجرة بالمخدرات .

* * *

استراتيجيات تربوية نفسية اجتماعية للحد من مشكلة المخدرات لدى الشباب في المجتمع الإسلامي

يمكننا محاصرة مروجي المخدرات بنشر الجنود على الحدود وتشديد العقوبات الصارمة ضد مروجي ومتعاطي المخدرات بانواعها المختلفة لكننا لا نضمن مع ذلك عدم تعاطي الناس وترويجهم للمخدرات .

إن الضمان الحقيقي هو ذلك النابع من اقتناع أفراد المجتمع بعدم ترويج المخدرات وتعاطيها ، وهذه القناعات الداخلية ليست عملية بسيطة ولا يتم بناؤها وتنميتها الا من خلال برامج وخطط مدروسة تتوفر لها الامكانات اللازمة لذلك . والباحث لا يقترح الغاء أو التقليل من قيمة الجهود الخارجية والعقوبات الصارمة ، بل انه بالإضافة لذلك يقترح العمل على صياغة برامج تخلق الوعي الذاتي والقناعات الشخصية لدى الأفراد ، بل ولدى الأطفال والشباب لكي ينمو الشباب محررا من عبودية المخدرات والممارسات السلوكية والاجتماعية المنحرفة .

إن البرنامج الذى نتحدث عنه ـ ليس برنامجا مثاليا ـ وانما هو برنامج واقعي طموح شامل قابل للتطبيق يهدف في أساسه إلى خدمة العالم الإسلامي ويمكن أن يكون نموذجا لكثير من دول العالم وينطلق مجال حديثنا في هذا الجزء من الدراسة من فكرةأن العلة كامنة في الوقاية أولا ثم في العلاج (الهوارى ١٤٠٧ هـ) .

انه على ضوء العرض للموضوعات السابقة يمكن أن نصوغ الاستراتيجية التى خصصنا لها هذا الجزء من هذه الدراسة والتى تهدف إلى القضاء على المخدرات على مرحلتين متداخلتين ومتزامنتين في بعض اجزاءها وتنطلق من ان السياق الثقافي والاجتماعي والنفسي المتكامل هو سر نجاح الاستراتيجية .

١ ـ المرحلة الأولي :

وتتطلب استثمار وتوظيف الدين الإسلامي ، وكذلك استثمار وتوظيف التربية ، وبخاصة التربية المقصودة ومعطيات العلم ، ثم توظيف عوامل التأثير

والتنشئة الاجتماعية في تكوين قناعات لدى الأفراد بعدم الادمان على المخدرات وتكوين اتجاهات مضادة للمخدرات وبالتالى القضاء على كثير من مظاهر السلوك الانحرافي Deviant behavior وهذه المرحلة هي ما نسميها بالمرحلة الوقائية .

٢ ـ المرحلة الثانية :

وهي مرحلة متممة للمرحلة الأولى ومتزامنة معها ، ومن خلالها يمكن توظيف توجيهات الإسلام القانونية والاجتهادات المنظمة التى لا تتعارض معها في عقاب مدمني المخدرات الذين لم تجد معهم الوسائل الوقائية .

وبتنفيذ المرحلتين السابقتين يمكن أن يكون هناك مجتمع إسلامي خال من مدمني المخدرات ومرتكبي السلوك الانحرافي . . وفيما يلي تفصيل لما سبق ذكره .

١ ـ لقد أدرك كثير من العلماء والباحثين ان تدهور النظام القيمي والوازع الديني والصراعات الروحية لدى أفراد المجتمع هى أحد العوامل الجوهرية في اثارة كثير من الغرائز الشيطانية والممارسات الشاذة كالادمان على المخدرات وسواها من الانحرافات السلوكية والاجتماعية وعليه فإن غرس القيم الإسلامية الصحيحة هى أنجح الأدوية الوقائية والعلاجية لكثير من الآفات فهي تحد من تفشي كثير من الأمراض والانحرافات وتساعد على إزالة القلق والتوتر والاحباطات وتساعد على توفير الامان والحماية النفسية . وقد أورد الدكتور الهوارى ، (١٤٠٧ هـ) انه ليس هناك من مهذب لطبائع الشعوب كالدين الإسلامي الذى يحمي الإنسان ويحيطه بسياج من الوقاية يحميه من أن يقع في الخبائث بعد أن يغرس في نفسه قواعد الحلال ويعرفه على المباح والمحظور وبدون ذلك ستظل البشرية تتخبط في تجاربها بين نظام وآخر حتى تعود إلى حظيرة الدين الإسلامي الصحيح .

وهنا تتجلي عظمة الإسلام الذى جعل من أهم الضروريات أن يحافظ الإنسان على عقله ونفسه وماله ووقته والا يلقى بنفسه إلى التهلكة وحذره من أن يقرب دائرة الحرام بل وأن يقرب من دائرة الشبهات حتى يستبرىء لدينه وماله وعرضه (ص ٢٠٠) وتؤكد الابحاث العلمية بأن أحد أسرار نجاح الدين الإسلامي في علاج مرضي المخدرات هو الأمل الذى يعطيه الدين للأفراد .

EL-Sendiony, 1985.

ولكن علينا الا نبالغ في تصورنا لدور الدين في علاج الأمراض النفسية ذلك أن التمسك بالتعاليم والقيم الدينية ليس معناه ضمان خلو الأفراد والمجتمعات من الأمراض فبعض الاضطرابات الذهانية كالجنون (مالك بدرى ١٤٠٥ هـ) يكون للناحية البيولوجية العضوية دور هام في تكوينها . فهي من هذا الأساس كالمرض الجسمي لا تفرق بين مسلم وكافر . والحال أيضا صحيح بالنسبة لمرض الصرع الذى يسببه اضطراب في الايقاع الأساسي للمخ وعليه فإن المؤمن القوى حتى ذلك الذى يعيش في مجتمع إسلامي مثالي معرض للاصابة بمثل هذه الأمراض ولكن الفارق العام بينه وبين غيره هو احتسابه عند الله وصبره على البلاء النفسي والعقلى الذى يصيبه حتى يصبح سببا في ادخاله الجنة وغير المؤمن يكون سببا في سخطه وزيادة في حدة اعراضه (المرجع السابق ص ١٤ ـ ١٥) .

الذى نريد قوله هو ان الإسلام يساعد المؤمنين به على التغلب والتخفيف من آثار اكثر الاضطرابات النفسية التى يكون للمنشأ النفسي الاجتماعي الحضارى دور كبير في احداثها وقد أورد الدكتور مالك بدرى (١٤٠٥ هـ) استنتاجا مبنيا على الاحصاءات التى ترد عن المؤسسات العربية وهيئة الصحة العالمية تبرز الأدلة القاطعة على ان انتشار الاضطرابات النفسية والادمان والانتحار والجنوح والاجرام في البلدان الغربية تفوق بشكل واضح اضعافا مضاعفة ما يوجد في البلدان الإسلامية (ص ١٣ ـ ١٤) .

٢ ـ أنه من خلال دراستنا واستقصائنا لحجم مشكلة المخدرات على المستوى العالمي يمكننا أن نقول أن الخطورة أكثر ما تكمن في انتشار هذا الوباء بين فئات الشباب والاطفال الذين هم عماد المستقبل وأمل الأمم ـ وهذا يتطلب ما يمكن أن نسميه ببرنامج تربوى وقائي شامل للحد من هذه المشكلة ومن انتشارها بين الشباب ، وقد تنبه لدور التربية المتناهي الأهمية في الحد من مشكلة المخدرات بين الشباب الكثير من الباحثين والمسؤولين في العديد من البلدان في الآونة الأخيرة (وأهم هذه الجهات هو تقرير الأمم المتحدة الثاني والثلاثين عن المخدرات لعام ١٩٨٧) وكذلك بعض الباحثين والمؤلفين مثل عبد العال (١٤٠٨ هـ) .

وقد ذكر تقرير الأمم المتحدة المشار اليه آنفا أن المناهج المدرسية الوقائية المرتبطة ببعض الأنشطة التربوية قد ثبت نجاحها حينما تختار كاستجابة لحاجات الجماعات ذات العلاقة كالآباء والمعلمين والأطفال ورجال الدين والعمال الذين يتعاملون مع مشكلات الشباب (ص ٣٢ ـ ٣٣) .

وفي كثير من الدول وجد أن التربية المصاغة لأجل المساعدة في بناء مجتمع ذى صحة جيدة وخال من العقاقير هي تلك التى تحتوى في مناهجها المدرسية على عناصر تحقيق تلك الغايات ويعزو الدكتور حسن عبد العال (١٤٠٨ هـ) فشل نظام التعليم في الوطن العربي في الحد من انزلاق الشباب في المخدرات إلى أن معظم المناهج التى يقدمها نظام التعليم في الوطن العربي (مبنية على دراسات وبحوث أجريت على مجتمعات غير عربية وبالتالى يشعر الشباب بالغربة نحو كل ما يقدم له في مراحل التعليم المختلفة وعلى الأخص في الجامعة أو قد يكون بسبب افتقاد الهوية الفكرية النابعة من تراث الأمة هذا إلى جانب أن كثيرا مما تقدمه المدرسة أو الجامعة من آراء ونظريات لا تقدم وجهة نظر ذاتية تنبع من هويتنا . وتقديم وجهة النظر هذه ضرورة حتى لا يترك الشباب نهبا للحيرة والشك والتردد في كل ما يقدم إليه بالإضافة إلى أن المناخ المدرسي والجامعي لا يهتم كثيراً بمطالب نمو الشباب ولا يلبي احتياجاتهم) (ص ٥٢ ـ ٥٣) .

فما هو البرنامج التربوى المقترح للمساهمة في توعية وتعليم الاجيال بخطورة المخدرات وغيرها من المشكلات السلوكية والاجتماعية المختلفة ؟ في رأى الباحث أن هناك عدة اجراءات يمكن عملها لكى يمكن صياغة الدور التربوى الناجح في هذا الخصوص :

(أ) إعادة صياغة أهداف التربية لكى تنبثق وتتلاءم مع أهداف التربية الإسلامية وبالذات في البلاد الإسلامية . وهنا يمكن التأكيد على الأهداف التربوية الإسلامية المتدرجة للحد من الجريمة والتى أوردها العالم المسلم مقداد يالجن (١٤٠٨ هـ ص ٤١) وهي :

١ ـ بناء خير انسان مسلم متكامل الشخصية .

٢ ـ بناء خير أمة أخرجت للناس .

٣ ـ بناء خير حضارة إنسانية إسلامية .

(ب) تنمية الشعور الديني الصائب لدى الشباب المسلم . يمكن أن تترجم تلك الأهداف في برامج ومناهج المدارس والجامعات وتضمين برامج التربية الإسلامية موقف الدين من المخدرات والمؤثرات العقلية وتحريمه القاطع لها (السراج ١٩٨٨ م) .

ويمكن التأكيد على ذلك في مواد الفقه والتفسير وغيرها في المراحل المختلفة .

(جـ) تنمية وتعليم الأطفال والشباب في المدارس والجامعات بخطورة تعاطي المخدرات على الجسم والعقل وذلك من خلال تضمين مواد العلوم والتربية الصحية والبدنية بالأسس العلمية لتلك المخاطر .

(د) وبما أن المعلم هو أحد العناصر الرئيسية في عملية التربية فإن الأهتمام باعداده وحسن اختياره لهذه المهنة يعتبر أمراً حيوياً وذلك لما لهذا من تأثير بالغ على من يتلقون العلم على يد ذلك المعلم ويقتدون به ـ فالقدوة لنا كمسلمين وكما أكدت ذلك بحوث التربية وعلم النفس المعاصرة ـ تلعب دوراً هاماً في الاستجابات والتلقي للمقتدى .

(هـ) كما ثبت فإن الاختبارات أو ما يسمي بالامتحانات هي أحد مثيرات تناول العقارات المخدرة وبخاصة تلك الحبوب الخاصة بالسهر ، وعليه ينبغي إعادة النظر في مفهوم وهدف هذه الوسيلة التربوية لتحقق جدواها بدلا من أن تصبح هدفاً في حد ذاته ويجدر بنا أن نشير إلى أن تطوير بعض مراحل التعليم في بعض الدول كالمملكة العربية السعودية فيما يسمي بالثانويات المتطورة التي يتلاشي فيها الاهتمام الكبير بالاختبارات عنه في النظام التقليدى هي خطوة ايجابية في الطريق الصحيح .

(و) انه من خلال النشاطات غير الصفية يمكن للمدارس والجامعات بث التوعية والتثقيف السامي لدى الشباب وتشجيعهم للدخول في نشاطات وبرامج من شأنها أن تنمي لديهم احترام ذواتهم والآخرين ومهارات الحياة الكريمة (كالقدوة على اتخاذ القرارات وحل المشكلات والتكيف مع الضغوط والاحباطات

والوعي بالقيم والتفاعل الاجتماعي بين الأفراد) وهذه المهارات والقيم من شأنها مساعدة الشباب في تنمية القدرة على مقاومة محاولات استخدام العقارات المخدرة .

وبعد فإن الرؤى التربوية الوقائية السابقة ليست الا مفاتيح أو خطوط عامة لتفصيلات أكثر دقة واجرائية يمكن أن تناقش كأسلوب علمي للوقاية من هذه المشكلة وهذه الوصفة في حد ذاتها لا تكفي بل هي تعمل من خلال برنامج اجتماعي إعلامي مؤازر وهو ما سنناقشه الآن .

٣ ـ تغيير الاتجاهات نحو العقارات المخذرة ، هو من أهم الاستراتيجيات لتغيير عادات وسلوك الأفراد ونحوها . وفي هذا الصدد يذكر قرقن وقرقن ((Gergen & Gergen (1986) انه لابد من التعرف على طبيعة الاتجاه المرغوب تغييره قبل أن يتم اقتراح طريقة أو استراتيجية التغيير . ونحن هنا نؤكد على أن استراتيجية تغيير الاتجاهات نحو المخدرات ينبغي أن يسبقها تعرف على طبيعة الاتجاهات نفسها من حيث تشكيلها ونشأتها واسباب تكوينها وليس المجال كافيا في هذه الدراسة للحديث عن استراتيجيات تغيير الاتجاهات والسلوك نحو المخدرات ولكننا نستطيع أن نقول أن نظرية الاتصال والاقناع (Communication & Persuasion) في تغيير الاتجاهات لكارل هوفلاند وزملاؤه (Hovland et al.,1957) قد نجحت إلى حد كبير في تغيير اتجاهات مشابهة لموضوع دراستنا كما ثبت من بعض الدراسات وخاصة تلك التى استخدمت طريقة اثارة الخوف نحو موضوع الاتجاه (Fear A rousing Technique) مثل تجربة الاتجاهات نحو استخدام الفرشاة والعناية بالاسنان لجانيس وفشباك ((Janis & Fishbach (1953) والتي أثبتت أن اثارة الانفعالات السابقة يمكن أن ينتج عنها ابتعاد وردود افعال دفاعية نحو الاتصال (Oskamp, 1977.) أو الموضوع المراد تغيير سلوك الناس واتجاهاتهم نحوه(Sears et. al., 1985) .

وتوضح الأشكال التالية (١ ـ ٣) نماذج لتوظيف أساليب التخويف في تغيير السلوك غير المرغوب فيه .

شكل رقم (١)

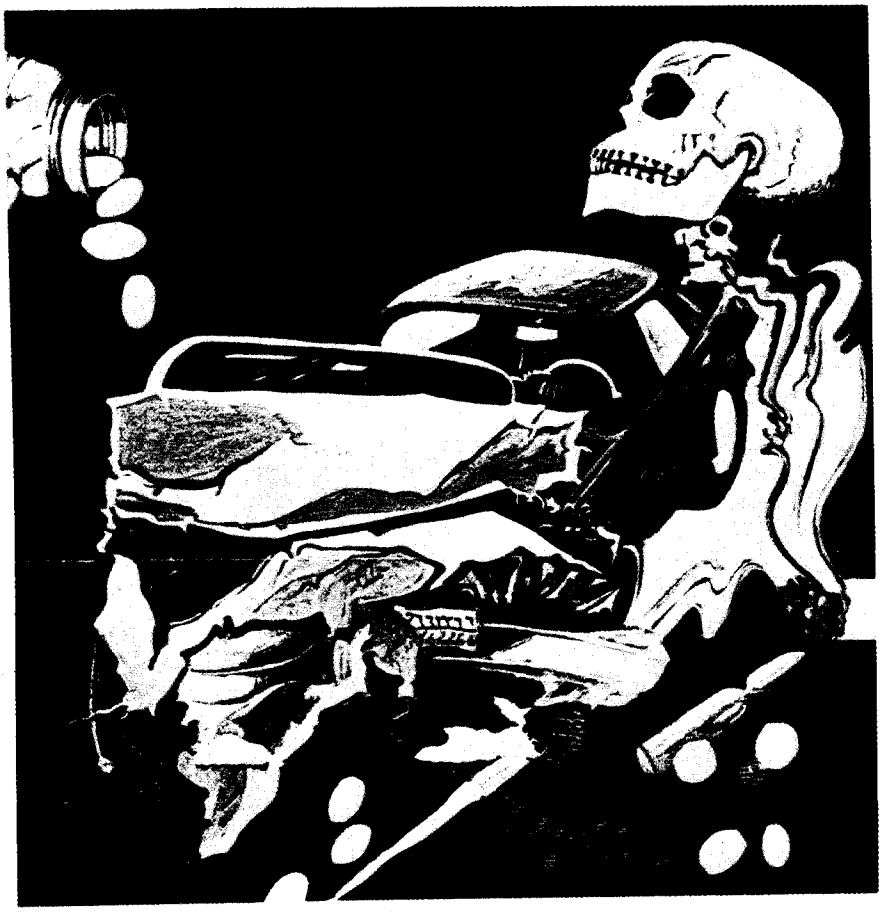

اخي الشاب ..

قيادة السيارة تستلزم اليقظة والإنتباه وتعاطي المخدرات يذهب الوعي ويعرض حياتك والآخرين للخطر ..

شكل رقم (٢)

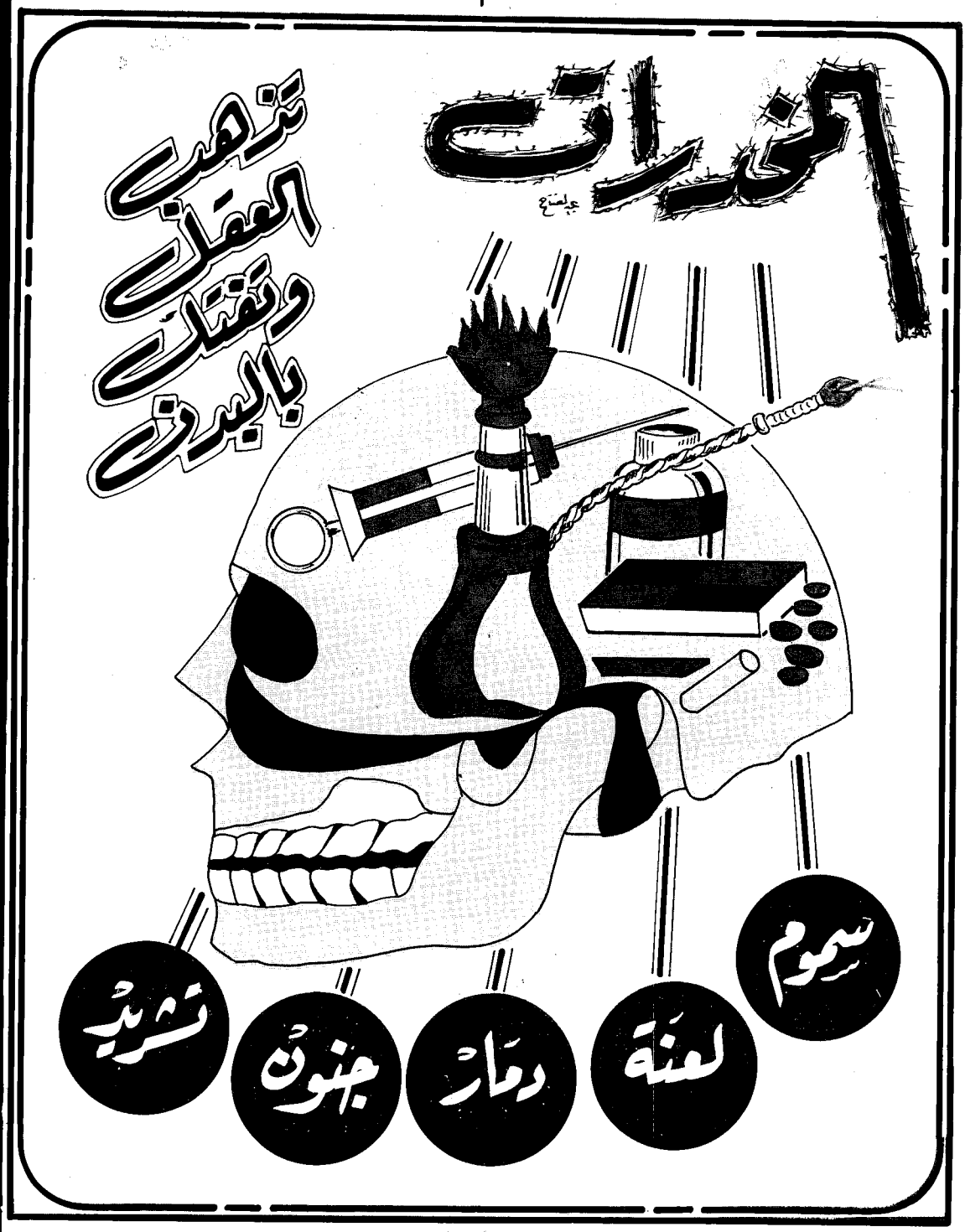
المخدرات
تذهب العقل وتقتل باليدين
سموم
لعنة
دمار
جنون
تشريد

شكل رقم (٣)

ولقد أكد التقرير الأخير للأمم المتحدة (١٩٨٧ م) بأن من الأسباب الرئيسية لوصول تعاطي المخدرات للمستوى الوبائي اليوم هو فشل المصالح الحكومية والمؤسسات التربوية في الماضي في دول العالم المختلفة ايصال المعلومات الصحيحة حول خطر استخدام المخدرات على الناس والشباب والكبار ولقد بدأت كثير من الدول والمؤسسات اليوم تعي أهمية اعطاء معلومات صحيحة ودقيقة وذلك لمساعدة الشباب في التعرف على القيم الايجابية النابعة من عدم تعاطي المخدرات ومن ثم التصرف على أساس هذه القيم .

٤ ـ ان الحماية والوقاية من كثير من الاضطرابات والانحرافات النفسية الاجتماعية لدى كثير من فئات المجتمع وعلى وجه الخصوص لدى الشباب ترتبط ارتباطا وثيقا بما يتوفر في الأسرة من امان وتماسك بين أفرادها ولا سيما بين الزوج وزوجته ولذلك فإن علينا أن نبحث عن سبل ووسائل كيفية تعزيز العلاقات الايجابية في داخل الأسرة وتقويتها وبنائها على أسس متينة كما أن علينا العمل على سد الفجوة بين الصراعات القيمية والفكرية التى تنشأ بين الأجيال في إطار الأسرة الواحدة وفي المجتمع الكبير . ومن أهم الأساليب التى يمكن أن تمارسها الأسرة في سبيل المساهمة في الوقاية من المخدرات هو التنشئة الاجتماعية Socialization حتى أن المؤتمر الدولى الأخير للمخدرات الذى عقد في فيينا عام ١٩٨٧ United Nations, 1987. قد أكد على دور العائلة في تنشئة الشباب الاجتماعية وانه يجب تنمية وتطوير البرامج الخاصة لتعليم الاباء الآثار الخطيرة لاستخدامات العقارات المخدرة وتعليمهم الطرق لتنمية المهارات اللازمة لحماية ابنائهم . ومن هنا فإن العمل من خلال التحول العام والقيم الاجتماعية ربما يساعد كثيراً في تخليص المجتمع من سلوك تعاطي المخدرات . (Edwards & Arif, 1980) .

٥ ـ بمثل ما أكدنا على خطورة دور وسائل الإعلام في تعزيز وإثارة السلوك الإجرامي نؤكد على استطاعتها لعب دور إيجابي على درجة كبيرة من الأهمية في تغيير اتجاهات الأفراد وتعديلهم سلوكهم بشكل إيجابي يحمي الكثير من الوقوع فرائس للادمان على الخمور والمخدرات وبالتالى انهيار شخصياتهم . ونشر الوعى الوقائي النفسي بصورة كافية في صوره المختلفة يمكن أن يبدأ من وسائل الإعلام

بدون أن يكون هناك مبالغة في طرح الموضوع مما قد يؤدى إلى تشجيع تعاطي المخدرات .

٦ ـ إن توفير الأماكن الصالحة الموجهة لاستثمار أوقات الفراغ كالأندية الأدبية والرياضية والمكتبات العامة ووسائل الترفيه البرىء وغير ذلك من الوسائل ليست فقط مجالات واسعة للشباب وأفراد المجتمع الآخرين لاستثمار طاقتهم بل انها مجالات جيدة للأشباع النفسي الاجتماعي والفكري ووسائل بناءة في منع الوقوع من مصاحبة أقران السوء .

٧ ـ وأخيراً على الجامعات ومراكز البحث العلمي مسؤولية تتعدى تخريج أفواج من الجامعيين والقاء المحاضرات واصدار الكتب والمقررات الدراسية ، ذلك هو المساهمة مع المجتمع في توفير الامكانات والفرص المناسبة للمختصين من أساتذة الجامعات والمهتمين في المجتمع بالبحث والاستقصاء لاقتراح الحلول المناسبة للوقاية من المخدرات . أن الوضع الحاضر لدراسة واستقصاء موضوع المخدرات كما يصفه الدكتور محمد زيد (١٤٠٧ هـ) عبارة عن جهود فردية وهذه الجهود الفردية لدراسة وتحليل المشكلة هي جهود مبعثرة لا تتبع منهجا علميا متكاملا فإن هذا لا يعني التقليل من أهمية البحوث العلمية الفردية ولكنها إذا تآزرت مع بحوث علمية جماعية أو تقوم بها مؤسسات كبرى كالجامعات ومراكز البحث العلمي بتخطيط مدروس فإنها ستؤدى إلى تأثير ايجابي كبير .

ونحن نقترح في هذا الخصوص أن يتم صياغة نموذج علمي دقيق وشامل لتفسير أسباب الادمان على المخدرات ومعرفة نوعية المتعاطين وخصائصهم لرسم منهج علاجي ووقائي تسترشد به الجهات المنفذة في المجتمعات في سياسات مقاومة المخدرات وكذلك بعض الأمراض النفسية والاجتماعية الأخرى .

وهنا يتفق الباحث مع رأى الدكتور مصطفى سويف (١٩٨٧) في أنه يمكن أن يكون للعلوم الاجتماعية كعلم النفس والاجتماع والتربية الحظ الأوفر من المساهمات في ميدان مكافحة المخدرات باعتبار أن الاطار النظرى الذى يحكم المشكلة هو نموذج إنساني أكثر منه نموذج طبي أو وراثي .

* * *

خاتمـــة

في الوقت الذى زادت فيه مشكلة المخدرات استفحالا في العالم ، نجد أن الوعي والحرص على مكافحتها قد زاد أيضا من قبل الحكومات والمجتمعات العالمية وأصبحت المشكلة في حجمها كما تبين ـ من دراستنا ـ تمثل خطورة كبيرة على قيم الأفراد والمجتمعات للأسباب التى وردت في هذه الدراسة . وبرغم انه لم تنج دولة في العالم من هذه المشكلة المستفحلة الا أن بعض الدول استطاعت أن تعالج المشكلة بالأساليب والطرق التى تستند على قيم تلك المجتمعات .

ومن الاجراءات التى اتخذتها حكومة المملكة العربية السعودية في معاقبة مروجي المخدرات ومتعاطيها والتى أثبتت فعاليتها ، ويمكن للدول أن تحذو حذوها كاجراء علاجي وهو في نفس الوقت اجراء وقائي :

١ ـ تطبيق عقوبة الاعدام على المروجين والمهربين .

٢ ـ فتح مستشفيات الأمل للمرضي .

٣ ـ تكثيف الحملات الإعلامية لبيان خطر المخدرات .

٤ ـ عمل ندوات علمية شاملة لها .

٥ ـ توظيف وسائط التربية والتعليم في مكافحة المخدرات . . الخ .

ومما يزيد خطورة المشكلة وينذر بعواقب غير سليمة أن هذه المشكلة قد انتشرت بين شباب المجتمعات وشباب المجتمع الإسلامي هو في أشد الحاجة إلى المساعدة والحماية من هذه المأساة ومع ما يبذل من جهود من الدول المختلفة في مكافحة المخدرات وزيادة الوعي بين الأفراد في التصدى لهذه الآفة ، الا أن الطريق طويل ويحتاج إلى تركيز على التخطيط المدروس للوقاية منها .

وان الوقاية ـ في نظر الباحث ـ تتطلب استقصاء شاملا لأسباب ادمان الشباب على المخدرات وتحديد تلك الأسباب لكي يتم وضع استراتيجيات لغرس القناعات الذاتية لدى أفراد المجتمع .

وان أولى المجالات التى يمكن استثمارها لايجاد القناعات الذاتية لدى الأطفال والشباب في المجتمع المسلم تأتى من العقيدة الإسلامية الخالدة التى تدرس في المدارس وتمارس في المسجد والبيت والحياة ومن خلال القنوات العلمية كالجامعات ومراكز البحث العلمي يمكن أن ترسم السياسات لكيفية تضمين البرامج التربوية والاجتماعية سبل الوقاية من المخدرات ومتى ما تم وضع تلك السياسات موضع التنفيذ فإن الباحث يعتقد اننا يمكن أن نوجد مجتمعا إسلاميا خاليا من المخدرات والآفات الاجتماعية الأخرى .

* * *

المراجع باللغة العربية

- الترساوى ، عصام إبراهيم (١٩٨٨ م) ، الندوة العلمية للقضايا الأمنية المعاصرة ، أكاديمية الشرطة ، وزارة الداخلية ، جمهورية مصر العربية .
- الجبيلى ، أحمد (١٤٠٧ هـ) نعم للحياة لا للمخدرات ، مجلة الشرق الأوسط ، العدد ١٦٦ ص ١٤ - ١٦ .
- الحسن ، محمد إبراهيم (١٤٠٨ هـ) المخدرات والمواد المشابهة المسببة للادمان ، الرياض ، مكتبة الخريجي .
- السراج ، عبود (١٩٨٨ م) أساليب ووسائل مكافحة جرائم المخدرات ، مجلة الأمن والحياة ، العدد ٧٠ السنة السادسة ، شهر رمضان ، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب ، الرياض المملكة العربية السعودية ، (ص ٨) .
- الشرق الأوسط (١٤٠٧ هـ) العدد ٢٩٦٢ الصفحة الأخيرة .
- الشرق الأوسط (١٤٠٧ هـ) ، العدد ٣٠١٦ الصفحة الأخيرة .
- العريض ، ثريا (١٤٠٦ هـ) الفراغ . مشكلة الفرد والمجتمع ، جريدة الجزيرة السعودية العدد (٥٠٤٦) ١٦ ذو القعدة ص ٣ .
- المسلمون (١٤٠٨ هـ) العدد (١٨٢) الجمعة ١٥ ذو الحجة .
- المغربي ، سعد (١٩٨٤ م) ظاهرة تعاطي الحشيش : دراسة نفسية اجتماعية . بيروت ، دار الراتب الجامعية .
- الهوارى ، محمد محمود (١٤٠٧ هـ) المخدرات : من القلق إلى الاستعباد ، كتاب الأمة العدد ١٥ ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر .
- الوطن الكويتية (١٩٨٨ م) العدد ٤٧١٢ الأحد ٣ أبريل ص ١٦ .

- بدرى ، مالك (١٤٠٥ هـ) الاضطرابات النفسية عند الشباب ، بحث غير منشور ، قسم علم النفس ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الالإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .
- جلال ، سعد (١٩٨٦ م) في الصحة العقلية : الأمراض النفسية والعقلية والانحرافات السلوكية ، القاهرة ، دار الفكر العربي .
- حسنين ، عزت (١٤٠٤ هـ) المسكرات والمخدرات بين الشريعة والقانون ، الرياض ، دار الناصر للنشر والتوزيع (ط ١) ، المملكة العربية السعودية .
- حنورة ، مصرى (١٩٨٨ م) العلاقة بين تعاطي الكحوليات والمخدرات ، وتدهور بعض الوظائف المعرفية : دراسة على عينة كويتية (ملخص صدر في صحيفة الوطن الكويتية العدد ٤٦٨٦ ، ص ١٠) .
- زيد ، محمد إبراهيم (١٤٠٧ هـ) حديث إلى مجلة الأمن والحياة العدد (٥٣) السنة الخامسة ، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ص (٢٥ - ٢٦) .
- سويف ، مصطفى (١٩٨٧ م) اسهامات العلوم الاجتماعية في بحوث تعاطي المسكرات والمخدرات . مجلة علم النفس (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب) .
- صادق ، عادل (١٩٨٦ م) الادمان . له علاج ، القاهرة (غير معروف الناشر) .
- عبد السلام ، فاروق (١٩٧٧ م) ، سيكولوجية الادمان ، القاهرة ، عالم الكتب .
- عبد العال ، حسن إبراهيم (١٤٠٨ هـ) التربية في مواجهة ظاهرة تعاطي المخدرات . مجلة رسالة الخليج العربي . العدد الخامس

والعشرون . السنة الثامنة . الرياض ـ المملكة العربية السعودية .

ـ عجوه ، عاطف (١٤٠٦ هـ) البطالة في العالم العربي وعلاقتها بالجريمة الناشر : المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب الرياض .

ـ عكاظ السعودية (١٤٠٧ هـ) العدد ٧٤٣٧ .

ـ عكاظ السعودية ، العدد ٧٥٢٣ (١٤٠٨ هـ) .

ـ كريكوريان ، ابراهام (١٩٨٧ م) القات واستعماله : نظرة تاريخية في القات ، إعداد حمد المرزوقي وأحمد نبيل أبوخطوة ، جدة ، تهامة ، المملكة العربية السعودية (ط ١) .

ـ مركز ابحاث مكافحة الجريمة (١٤٠٥ هـ) المخدرات والعقاقير المخدرة ، وزارة الداخلية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

ـ مصيقر ، عبد الرحمن (١٤٠٥ هـ) الشباب والمخدرات في دول الخليج العربية . الكويت . شركة الربيعان للنشر والتوزيع .

ـ منصور ، حمود (١٤٠٧ هـ) عجائب المخدرات ـ الشركة السعودية للتوزيع .

ـ يالجن ، مقداد ، (١٤٠٨ هـ) التربية الإسلامية ودورها في مكافحة الجريمة ، الرياض ، مطابع الفرزدق التجارية .

المراجع باللغة الانجليزية

- Chaplin J., P. (1985) Dictionary of psycholoqy, New York, Dell Publishing Co., Inc.
- Colmenan J.C. Bucher, J.N. and Carson, R.C. (1985) Abnormal Psychology and Modern Life, Gleniview, Illinois.
- El-Sendiony M.F. (1985) Unpublished Paper Presented at the first International Congress at World Islamic Association for Mental Heaith, Lahore, Pakistan.
- Edwards G.& Afif (eds) (1980) Drug Problems in The Socio Cultural Context: A Basis for Policies and Progmamme Planning. Geneva, World Health Organization.
- Gergen K.G. & Cergen, M. (1986) Social Psyhology, 2nd. ed. New York. Springer verlage.
- Hovland, C.I. Janis, I.L., & Kelley, H.H. (1953) Communication & Persuasion, New Haven, Cohn Yale University Press.
- Janis I.L. & Feshbach, S. (1953) Effects of Fear-arousing Communications, Journal of A bnormal and Social psychology 48. 78-92.
- Newsweek, (1986) Asia's Drug Epidemic
- Sears, D.O. Freedman, J.L. & peplue, L.A., (1985) social psychology, 5th ed., Englewood Cliffs, N.J. prentice-Hall, Inc.,
- Oskamp, S. (1977) Attitudes & Opinions. Englewood Cliffs, New Jersey, Prentice-Hall, Inc.
- United Nations, (1987) The United Nations and Drug Abuse Control, New York, United Nations Publications.

- United Nations (1987 B) Commission of Narcortic Drugs, Report on the Thirty - Second Session, Supplement No 4. New York, U.S.A
- United Nations (1987 C) Bulletin on Narcotics. Special Issue on regional and Interrogional responses to the drug abuse phenomenon, New York.
- Wilson, J.Q. and Herrnstein, R.J. (1985) Crime and Human Nature, New York, Simon and Schuster.

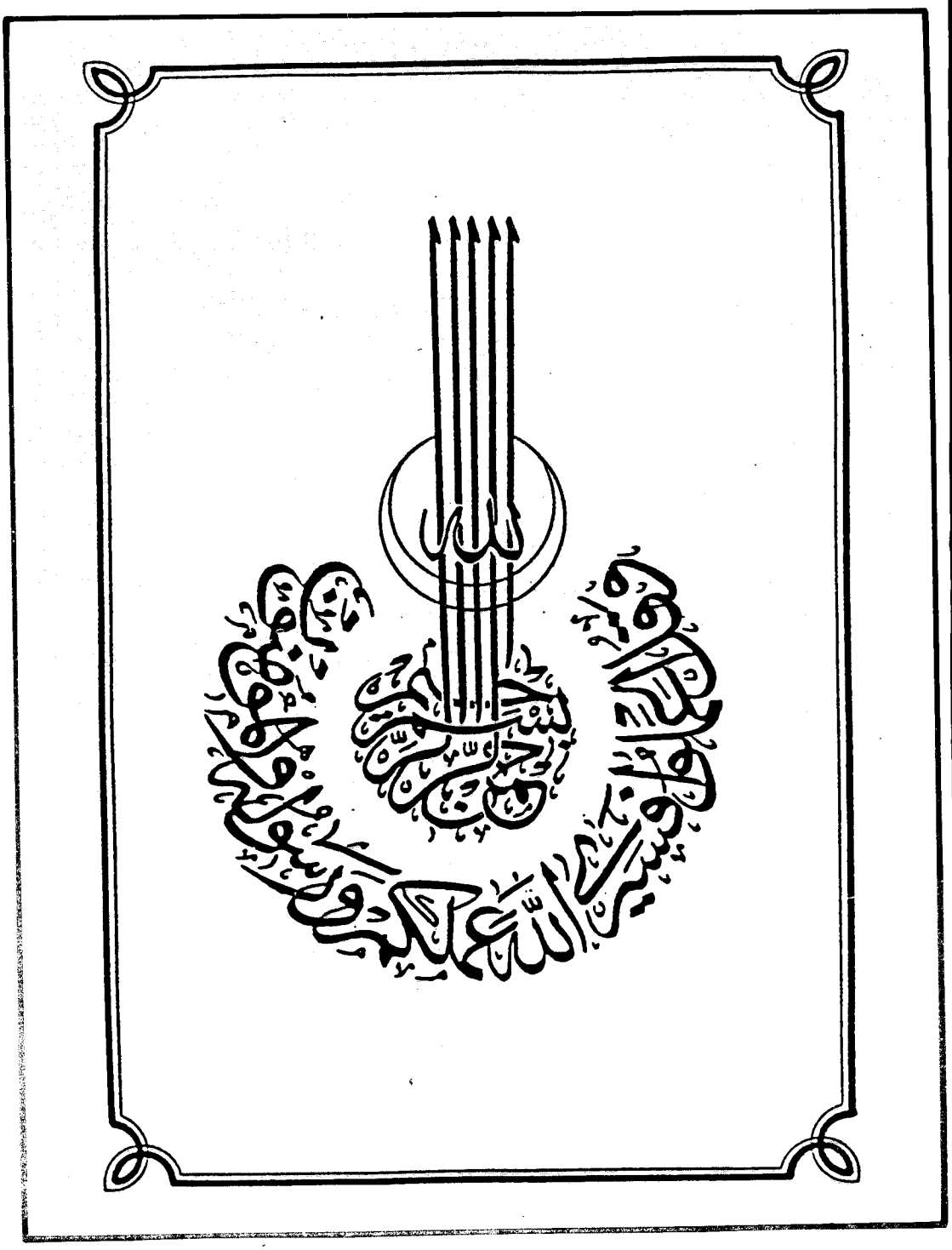
بسم الله الرحمن الرحيم
الله
الكلام فيه يسير الله عليكم ورسوله

٣٠٠٠٠٠١

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الأولى العدد الأول العام ١٤٠٩هـ

٣٠٠٠٠٠١-٨

رعاية التفوق بين الإبداع والذكاء

(دراسة في التوجيه والإرشاد النفسي التربوي)

للدكتور

سعيد بن علي بن مانع

قسم علم النفس

بكلية التربية

جامعة أم القرى

تعريف بالباحث

- سعيد بن علي بن مانع
- ولد ببلدة العسران بالمنطقة الجنوبية
- حصل على البكالوريوس في التربية وعلم النفس من كلية التربية بمكه عام ١٣٩٦ هـ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الثانية .
- حصل على الماجستير في علم النفس من نفس الكلية عام ١٣٩٨ هـ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الاولى ثم عمل محاضراً بقسم علم النفس لمدة سنة .
- سافر مبتعثاً من القسم الى أمريكا حيث حصل على الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس (UCLA) عام ١٤٠٥ هـ في التوجيه والإرشاد النفسي ويعمل منذ ذلك الحين استاذاً مساعداً بقسم علم النفس بكلية التربية بجامعة أم القرى .

ملخص الدراسة

التفوق ورعايته كان ولا يزال هدفا نتوق جميعا الى ابرازه للوجود من خلال مؤسساتنا التربوية غير أننا لا نعرف حتى الآن ما مقدار رعايتنا له وما مقدار اهدارنا وخسارتنا للتفوق في كل منا . ولعل السبب الكامن خلف هذا الوضع اننا لم نتفق على محكات واضحة لمن يمكن اعتباره متفوقا وبالتالي نرعى جوانب التفوق فيه ونحرص الا نبخس هذا التفوق ، والذي أعتبره سببا خلف هذا الغموض في مفهوم التفوق ومحكاته أنه ارتبط بمفهوم الذكاء الذي كان ولا زال وسيظل مفهوما غامضا لأنه بني على جوانب نظرية مغلوطة وبالتالي لم يتجاوز النظرية الى التطبيق على الاطلاق وظل يترجم على شكل اختبارات للذكاء لم تزد الأمر الا ارباكا واجحافا للعملية التربوية وللمتعلمين .

من أجل هذا الوضع ولمحاولة اعطاء التفوق ورعايته منظورا آخر كان التركيز على الدعوة إلى الاهتمام بالإبداع كطريقة أو كيفية لحل المشاكل . وقد حاولنا تدعيم وجهة النظر هذه بما نعتقد أنه جدير بالدراسة والتمحيص . وفي سبيل هذا كان لا بد من اتخاذ موقف من الذكاء كمفهوم ومن اختيارات مختلف مضامينه ، خرجنا منه باستنتاج مفاده ان الذكاء مفهوم غامض بني على أسس نظرية مغلوطة ذات أغراض ونزعات لا تخدم مصالحنا ولا تتلاءم مع قيمنا وحضارتنا أو أهدافنا التربوية في شيء وبالتالي فانه من الأجدر بنا العدول عن مواصلة الاعتماد على هذا المفهوم ومضامينه خاصة وأن من نظّر لهذا المفهوم وقدمه للميدان التربوي قد أقلع عن كثير من استخداماته وبدأ يشكك في أسسه النظرية ويكتشف أخطاء تطبيقاته وعلينا أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون ، بل يجب علينا الالتفات الى حضارتنا وماهي أهدافنا التربوية وظروفنا المختلفة لنشتق منها مفاهيمنا . وأعتقد أن الابداع كما تم طرحه في هذه الدراسة خطوة متواضعة في هذا الاتجاه .

الباحث

بذور وجذور

كان لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩م) LAMARK (1744-1829) أول عالم ارتقائي يتكلم عن أفكاره التي فحواها أن العادات الجديدة وأنواع السلوك المختلفة التي تكتسب أثناء التكيف لظروف البيئة والحياة الجديدة تؤدي الى تغيرات في مكونات الجسم بل وفي الاتجاهات العقلية مما يجعل من المحتمل أن تصبح خصائص موروثة في الأجيال اللاحقة بعد أن كان الجيل يكتسبها . وعليه يمكن الاستنتاج ضمنيا أن الأجيال غير المتكيفة غير قادرة على اكتساب مهارات التكيف وبالتالي تنتهي .

ومع بداية القرن التاسع عشر بدأ السؤال عن أثر الأحوال والظروف الاجتماعية على العمليات العقلية أكثر الحاحاً وقد رأى البعض أن الظروف الاجتماعية السيئة سبيل للانحراف في السلوك الاجتماعي . وبالتالي يؤدي بتلك الأحوال والظروف من سيء الى أسوأ عبر الأجيال المتتابعة . غير أنه في منتصف القرن وبدلا من التفكير في أثر البيئة على تلك الأجيال سيئة الحظ بدأ التفكير في أثر الوراثة على تلك الأجيال وسلوكها وهذا منعطف مؤثر في توجه الدراسات والاهتمام نحو أثر الوراثة وليس البيئة . ويظهر أن لدراسات لارماك أثر في هذا التحول بالرغم من أنه يتبادر الى الذهن ، وخاصة بعد تفجر المعارف والعلوم الاجتماعية والتقنية المتوفرة اليوم أن الجدير بالدراسة هو أثر البيئة وليس أثر الوراثة .

فقد قدم أحد علماء الاجتماع الفرنسيين واسمه تاورز ١٨٥٧م TAURS (1857) بأول دراسة عن سمات تلك الأجيال والتي اعتبرها سمات منحرفة عن الأنماط الأصلية ذات السمات الخلاقة وبالتالي - كما يرى - فهي سلالات مختلفة وراثيا عن السلالات الأصلية حيث يسوء حالها بسرعة جيلا بعد جيل . وهنا يبدو تأثر تاورز واضحا بأفكار لامارك القائلة بأن التكيف للحياة الجديدة وصل الى الأجيال الناجحة عن طريق الوراثة وأن غير القادر على التكيف لم تكن لديه تلك الجوانب الوراثية وبالتالي يسوء حاله لينتهي .

وفي عام ١٨٥٩م ظهر كتاب دارون C. DARWIN (1859) (أصل الأنواع) THE ORIGIN OF SPECIES وفي هذا الكتاب يتفق دارون مع لامارك في أن ظاهرة التطور والتي تتمثل في الصراع من أجل البقاء وبالتالي بقاء الأصلح المتكيف لا يمكن أن تكون لأسباب خارجية وانما كانت لأسباب داخلية موروثة . والذي يمكن تلخيصه من دراسات هذه الفترة والمتعلقة بهذا الموضوع مايلي :

١ ـ ان هناك سلالة متكيفة مع الظروف المحيطة وقادرة على الاستمرار لسيطرتها على زمام المبادرة في محيطها وعليه فانه يحق لها الاستمرار والحياة مقابل تلك السلالات المتنحية غير القادرة على الاستمرار والحياة .

٢ ـ ان السلالة أو النوع الأولى قد تم له كل هذا التكيف والتفوق عن طريق الوراثة وليس عن أي طريق آخر وبالتالي فانه لا يمكن تحسين الأنواع أو السلالات الأخرى غير القادرة على الاستمرار وعلينا أن نسمح لها بالاندثار وسوف يتم ذلك عاجلا أم آجلا .

٣ ـ ان الحديث عن الانسان بصفته أعلى مراتب ذلك التطور المزعوم يتضمن أن هناك أيضا تدرجاً داخل زمرة البشر بحيث يكون هناك من هو أكثر تكيفا وتقدما ، ومن هنا ظهرت فكرة تفوق الانسان الأوروبي (الآرى) ودنو مرتبة غير هذا الانسان وتخلف الانسان التابع لأجناس أخرى في أفريقيا وآسيا .

هذا وقد دفعت نظرية دارون بمفهوم الوراثة الى حد منقطع النظير الى درجة لم يعد معها بالامكان تتبع الدراسات حول الوراثة . ومما عمق وزاد من اهتمام الناس بدراسات الوراثة تلك الدراسة التي قام بها العالم السويسري JOHANN G. MENDEL والتي عرفت فيما بعد بقانون منديل للوراثة والذي يتضمن الكلام عن الجينات الوراثية المسيطرة والمتنحية كما يتحدث عن نسب الوراثة المكونة للانسان من جهة الأب والأم وقد ظهرت هذه الدراسات عام ١٨٦٥م . هذا وقد توالت الدراسات حول الوراثة بشكل لم يعد بالامكان حصرها بعد ذلك .

غير أن دراسة SIR FRANCIS GOLTON والتي ظهرت في عام ١٨٦٩م تحت عنوان HERDEITARY GENIUS (عبقري بالوراثة) ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا هنا فهي أولى الدراسات التي ربطت بين الوراثة من خلال اطارها

الداروني وبين الذكاء ، حيث أوضح هذا الارتباط هوفستدتر ١٩٥٥م HAFSTADTER (1955) في كتابه Social Darwinism (الداروينية الاجتاعية) قائلا :

ان نظرية الاختيار الطبيعي والتي تفترض انتقال الخصائص الوالدية قد أثارت دراسة الوراثة بدرجة كبيرة . علما بأن الاعتقاد العام حول حجم وتنوع السمات الوراثية قد أصبح من الأشياء الواضحة للعيان . حيث وضع ابن عم دارون ، فرانسيس جالتون الأسس لحركة تحسين الوراثة وربطها جالتون بالداروينية خلال أوج شعبية تلك النظرية(ص١٦١) .

من جهة أخرى قدم جالتون والذي يعد أول من تكلم عن الذكاء كقدرة موروثة وأول من قدم الوسائل الاحصائية لقياسه فكرة الفروق الفردية فيه وربطها بفكرة الأجناس والسلالات البشرية المختلفة وقد كان متأثرا في ذلك بالداروينية وبقانون منديل حول الوراثة .

يقول جرندر ١٩٨٥م GRINDER (1985): باختصار جالتون وجد من خلال تحليلاته الاحصائية أن توزع القدرة (الذكاء) يتبع أنماط العوائل ، ولذا أعلن أنه لا يوجد شك في وجود قانون لتوزع القدرة في الأسرة . وتوقع أنه اذا استطعنا رفع معدل سلالتنا درجة واحدة فقط فان عدد الرجال المتفوقين سوف يزيد أكثر من عشرة أضعاف(ص١٧) .

ومن الملاحظ في هذا الاقتباس تأثر جالتون بقانون منديل وتطبيقه له على دراسة الذكاء وقرنه ذلك بـ OUR RACE وبـ THE EMINENT MEN (الرجال المتفوقون) والذي يقصد بهما على ما أعتقد وكما يمكن استنتاجه من القرائن المختلفة في ذلك الوقت السلالة الارية الاوروبية برجالها المتفوقين ، كما يدل هذا الاقتباس على سوء استخدام مفهوم الذكاء وتحجيمه ليتناسب مع عدد محدود جدا من العمليات الاحصائية وهذا في حد ذاته زاد من خطورة استخدمات الذكاء والاعتماد عليه .

يقول جون لويس في كتابه المترجم : "الانسان ذلك الكائن الفريد": ان هذه النظرية تُطرح بوصفها دعما بايولوجيا للمذهب الفردي التنافسي ، الا أنها

يمكن أن تكون أيضا نظرية مستندة اليه ومشتقة منه لأن (دارون) اقتبس الفكرة عن (مالثيوس) الذي ذكر كيف أن الحرب والمرض والمجاعة عملت باستمرار على تقليص فائض السكان ، كما لقى المذهب الفردي التنافسي دعما اقتصاديا من (آدم سميث) وهكذا كان يوجد مناخ أيديولوجي كان فيه الصراع ، وبقاء وظهور الأصلح مفاهيم تحظى بدرجة كبيرة من القبول . وأصبحت النظرية بدورها مبررا للنظام الاجتماعي وشجعت توسعه وتطوره(ص١٢٢) . هذا على المستوى الخارجي أما على المستوى الداخلي فيتضح ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص حيث أصبحت أمريكا في أواخر القرن الماضي وبداية القرن الحالي هدفا للهجرات من مختلف الأجناس ومن مختلف أنحاء العالم ولا زالت أكبر دول العالم حتى اليوم استقبالا للمهاجرين ، حيث بدأ التعامل مع تلك الأجناس على أساس ، يبدو في بعض الأحيان واضحا وفي البعض الآخر ضمنا ، مستمداً من مفاهيم الد رونية الاجتماعية وما يتعلق بها من مفاهيم الوراثة والذكاء .

والمتتبع للعلاقات الاجتماعية والتربوية والتعليمية ومختلف جوانب الحياة الأخرى في المجتمع الأمريكي يرى بوضوح الصراع من أجل المساواة في الحقوق والواجبات من قبل المهاجرين ومحاولة المهاجرين الاوربين الأوائل المحافظة على المكاسب المختلفة التي تحققت في اطار تلك الخلفية الدارونية لمفهوم الوراثة والذكاء . وكانت احدى الوسائل للمحافظة على تلك المكاسب تلك الحركة الواسعة في القياس وبناء اختبارات الذكاء والاحصاء والتي طُوعت جميعا لتخدم وتتناسب مع الطبقة الوسطى في المجتمع الأمريكي بصفة خاصة .

فقد قامت المؤسسات التربوية بأمريكا بترجمة اختبار بينيه BINET مع مطلع هذا القرن وأعد غيره من الاختبارات الأخرى كاختبارات وكسلر WECHSLER المتعددة وهي في مجملها اختبارات لا تخدم مصالح الأقليات في المجتمع الأمريكي ، والتي تنتمي غالباً للعالم الثالث ، في الوقت الذي تقوم فيه المؤسسات التربوية في الدول النامية بترجمة واستخدام تلك الاختبارات دون تمحيص لمدى مناسبتها لمجتمعاتنا أو للأهداف التربوية ودون علم بالخلفية الأيديولوجية

والاجتماعية لتلك الاختبارات . يقول جون لويس في كتابه المترجم "الانسان ذلك الكائن الفريد" : اعتقد هؤلاء الناس بأن طريقة حاصل الذكاء بعملها هذا لا تقيس فقط القدرة الفكرية ، بل تضع وبطريقة ما غير محددة ، رقما على قيمته الجوهرية . . . ان المسألة برمتها بالنسبة لقياس الذكاء وكل جانب آخر على حد سواء ، هي خرافة اقتضت من الخبراء في القياس السايكولوجي أو العقلي PSYCHOMETRY خمسين عاما لاقناع الجمهور بها ، ولربما اقتضت خمسين عاما أخرى للتغلب عليها(ص٢١٤، ٢١٥) .

مشكلة تعريف التفوق

قبل الدخول في تحديد معالم مشكلة تعريف المتفوقين يجدر بنا القول أن مثل هذه المشكلة لم تكن ذات أهمية حتى بداية الستينات الميلادية عندما بدأت أصوات المنادين بالعدالة والمساواة في الفرص التعليمية في الغرب وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية التي بدأت فيها الأقليات المختلفة بالمناداة بحقوقها مساواة بالأغلبية التي شكلت مختلف النظم والمفاهيم التربوية على الطريقة التي تخدم مصالحها بشكل مباشر .

ولعل الدليل على ما ذكر آنفا هو الجدل العنيف والمستمر حول مفهوم الذكاء واختبارات الذكاء التي كانت ولا زالت أهم ، بل أحيانا ، المعيار الوحيد لاختيار المتفوقين بالإضافة الى استخدمات أخرى لتلك الاختبارات . غير أنه لا يمكن عزو اثارة مشكلة التعريف الى تزايد الوعي بعدم العدالة والمساواة في الفرص التعليمية فقط بل أيضا يعزى الى التطور في مختلف المعارف الانسانية وبخاصة في مجال علم الكمبيوتر وعلم النفس المعرفي اللذان القيا أضواء على عمليات التعلم وغيّرا كثيراً من المفاهيم المتعلقة بالعمليات العقلية المعرفية وبالتالي تغيرت مفاهيم الذكاء ومحكاته وماله علاقة به كالابداع مثلا .

إن الذي يمكننا الاستفادة منه بخصوص هذه النقطة هو أن مختلف المفاهيم ومنها مفهوم الذكاء وما يتعلق به تعتبر نتاج للأطر الحضارية والاجتماعية النابعة منها ، وبالتالي فان أي تغيير في تلك الاطر يحدث تغيراً في تلك المفاهيم وهذا يعني

أنه يحسن بنا التطرق لمختلف المفاهيم ومنها مفهوم الذكاء والتفوق من خلال الاطر الحضارية والاجتماعية الخاصة بنا وأن نربطها بظروفنا التعليمية والاقتصادية . . . الخ .

ان مشكلة التعريف هنا تكمن في إستخدام مفردات مجردة متقاربة في المعنى مثل : خارق ، عبقري ، مبدع ، موهوب ، ذكي ، متفوق والتي لا تدلنا على شيء محدد في الموصوف غير أن هذه الصفات تعطي مؤشرا عاما وهو أن من يوصفون بهذه الصفات يعتقد بأنهم متفقون فيما هو موضوع البحث على أمثالهم . غير أنه حتى هذا الاطار العام لم ولن يحل مشكلة من هو المتفوق والاختلافات في ذلك يرجعها هالهان وكوفمان (١٩٨٢م) HALLAHAN AND KAUFFMAN, (1982) إلى أسباب أربعة سوف أختصرها كما يلي :

١ ـ متفوقون : هل في الذكاء العام أم في الابداع أم في اختبارات التحصيل أم في المقررات الخاصة ثم أي من هذه الأنواع أكثر أو أقل أهمية وأي منها يستحسن تنميته والى أي حد ؟

٢ ـ كيف يقاس هذا التفوق ؟ هل ذلك عن طريق اختبارات الاستعداد أم عن طريق تقديرات المدرسين أم يقاس بواسطة الأداء المدرسي أم غير ذلك ؟ واذا اتبعنا طريقة واحدة فاننا نهمل بذلك بعض الأفراد ثم هل هناك مقياس يحوز على الثقة وهل أي من المقاييس المطروحة قادرة على كشف الاستعداد الكامن للتفوق ؟

٣ ـ الى أي درجة أو حد يلزم الفرد الوصول اليها لكي يعتبر متفوقا ان تلك الدرجة على كل حال درجة اعتباطية وبالتالي فان عدم ضم بعض من يتوفر فيهم صفات التفوق يبقى واردا ، ثم لأي اعتبارات ينبغي تحديد تلك الدرجة وما مدى صلاح تلك الاعتبارات وهل هي اعتبارات ثابتة أم متغيرة واذا كانت متغيرة فان من تطبق عليهم سوف يكونون المتضررين حتما .

٤ ـ بمن نقارن الفرد الذي نقيس تفوقه ؟ هل بمن هم في سنه أم في مدرسته أم بمن هم من جنسه أو سلالته أم بمن . ؟ . قد لا يكون من الخطأ القول أن كل فرد متفوق في شيء ما بالمقارنة بفرد آخر في وقت ما وتحت ظرف ما . اننا لا نملك محكاً معيناً للمقارنة حتى الان(ص٣٧٦) .

ونتيجة لعدم وجود تعريف محدد مقبول ونظرا لطبيعة الموضوع من حيث أنه ليس هناك اجحاف بمن يختار كمتفوق لايجابيات مثل هذا الاختيار بالرغم من أن هناك اجحافاً بحق من لم يختار بالرغم من توفر التفوق فيه ، وذلك بسبب قصور في المحكات التي يختر على ضوئها هؤلاء الأشخاص ، فان البعض يعرفه (الذكاء) تعريفا ضيقا بينما يعرفه البعض الآخر تعريفاً واسعا تبعا لفلسفة الباحث وأيضا تبعا لفلسفة المجتمع . ان البعض يقول اذا آمنا بأن كل فرد تقريبا يعتبر مميزا أو متفوقا في خاصية ما فان التوسع في تعريف التفوق شيء ملائم لأننا لن نجحف بحق أحد وبالنتيجة فاننا سوف نرى أنفسنا نحقق العدالة والمساواة من جهة ومن جهة ثانية نختصر الوقت والجهد اللذان يبذلان في اجراءات الاختبارات والتصنيف . بينما يرى البعض الآخر انه قد لا يكون من الممكن تقديم فرص تعليمية ممتازة للجميع ولذلك يلزم تركيز الجهود وتكثيف الاهتمام بتلك النسبة القليلة من المتفوقين فنحن بذلك نضمن عدم اهدار قدراتهم من جهة وبالتالي نحقق روافد ممتازة للمجتمع ممن يعودون فيرفعون من مستوى الجميع . فعلى سبيل المثال نجد أن فلدمان (١٩٧٩م) FELDMAN, (1979) يمثل من يعرف التفوق تعريفا واسعا قد يشمل مختلف أفراد المجتمع بينما نجد نيولاند NEWLAND, (1976) يمثل من يعرفه تعريفا ضيقا قد لا يتجاوز اختيار رواد قلة للمجتمع في المستقبل في ميادين معينة واسهامات محددة . وبالطبع فان هناك من يتخذ طريقا وسط فلا يلتزم بهذا أو ذاك .

وعليه فان البعض يرى أن التعريف الذي توصلت اليه لجنة أمريكية برئاسة المندوب التعليمي في الحكومة الأمريكية (والذي يسمى اليوم بوزير التربية والتعليم) سنة ١٩٧٢م وعرضت على مجلس الشيوخ تعريفا مناسبا شكك في اختبارات الذكاء وخطورة الاعتماد عليها وحدها كما تبنى تعريفا يشمل أعداداً لا بأس بها من أصحاب القدرات والاستعدادات الكامنة في جوانب متعددة من الحياة . كما يعتبر أول تعريف رسمي صريح للمتفوقين .

إنه مما لا شك فيه أن هذا التعريف يعتبر خطوة كبيرة نحو حل المشكلة ويعكس الوعي المتزايد بأهمية العدالة والمساواة في الفرص التعليمية في اطار

مصلحة الفرد والمجتمع ولكنه في نفس الوقت لم يحل المشكلة جذريا فقد كان غامضا في التحديد الدقيق لمن هو المتفوق باستخدامه عبارة "أداء عالي" فقط . كما أن المحكات التي يتبناها لتحديد المتفوقين مثل : القدرة الفكرية العامة ، الاستعداد الأكاديمي الخاص ، التفكير الابداعي أو الانتاجي ، القدرة القيادية ، الأداء الفني والبصري ، القدرة الحركية ، محكات يصعب قياسها كما ذكر غلاغير (١٩٨١م) GALLAGHER (1981). كما أن هناك خطرا من أن تفسر هذه المحكات على أن كلا منها مستقل عن الآخر بينما هي في الواقع متداخلة ويعتمد بعضها على البعض الآخر كما ذكر رنزولي (١٩٧٨م) RENZULLI (1978) ولذلك رأينا أن كثيرا من الولايات الأمريكية بدأت بتعديل هذه المحكات كالقدرة الحركية التي حذفت من التعريف كما وصفت دلائل أخرى بجانبه (فوكس ١٩٨١م) FOX (1981)

تغير مفهوم الذكـاء

يمكن تتبع بروز مفهوم الذكاء في الغرب حتى فيما قبل ظهور نظرية داروين غير أن الداروينية ترجمت فكرة الرجل الغربي عن نفسه وعن الآخرين ويعتبر مفهوم الذكاء بالطريقة التي عرفت بها حتى الفترة الأخيرة أحد الجوانب التي حددها لنفسه . ان تطور وتقدم التناول الاحصائي وعلى وجه الخصوص نظريات التحليل العاملي في الربع الأول من هذا القرن على يدي سبيرمان (١٩٢٣م) SPEARMAN (1923) ومن بعده تلميذه سير البيرت CYRIL BURT وتلميذ الأخير ، ايزنك (١٩٧٣م) EYSENCK (1973) في بريطانيا وبخاصة في مجال القدرة العقلية العامة (ج) ، وتناول القدرات الخاصة على يدي ثورستون (١٩٧٨م) THURSTONE (1938) وبعده جيلفورد (١٩٦٧م) (GUILFORD, (1967) في أمريكا قد صبغ مفهوم الذكاء بصبغة علمية وأعطاه هالة جعل البعض يحجم عن تناوله بالبحث والتمحيص لفترة طويلة . ان ذلك لم يستمر ولعل التساؤلات التي ظهرت في السبعينات حول دراسات سير البيرت أحد المؤشرات على التشكيك في مفهوم الذكاء بالاضافة الى العوامل المتلاحقة والتي سنستعرضها باختصار في الصفحات التالية :

ان هناك عاملين هامين غيّرا من مفهوم الذكاء تغييرا جذريا :

الأول : وهو ما أثاره السبق الذي حققه السوفييت على الأمريكيين في مجال الفضاء في بداية الستينات والذي عادة ما يرمز له بـ Sputnik . ان هذا الحدث لم يطرح للتساؤل مدى فاعلية التربية الأمريكية ، بل تجاوز ذلك الى بحث جوهر مفهوم الذكاء السائد في ذلك الوقت وأضفى معان جديدة على ماهية التفوق والابداع . لقد قرر المربون وغيرهم أنه يلزم تنمية الاستعدادات والتركيز على الفهم وتنمية قدرات مرنة لمقابلة حل المشاكل غير المتوقعة في عالم متجدد متغير ، كذلك تنمية قدرات الطلاب على التعلم بطريقة الاستكشاف . انه تحول جديد عن مفهوم الذكاء كقدرة فطرية ثابتة نسبيا الى مفهوم يتأثر بالبيئة وبظروف المتعلم وطريقة التعليم وأشكال التدريب المختلفة .

ثانيا : لعل أشمل وأقوى عمل غّير ليس فقط مفهوم الذكاء بل كامل النظام التعليمي في الولايات المتحدة الأمريكية بل وكان له أثر على مفهوم العدالة والمساواة التعليمية والاجتماعية في كثير من أنحاء العالم هو حركة الحقوق المدنية والتي قادتها الأقلية السوداء في أمريكا وأطلق شرارتها زعيم الحقوق المدنية مارتن لوثر كنج M. LUTHER KING وكذلك زعماء الجالية الاسلامية السوداء في أمريكا . وكان من أهم الجوانب المطروحة للنقاش جانب التربية وتحقيق فرص المساواة بكل معانيها وظهر جليا أن اختبارات الذكاء كانت من أهم العوائق لتحقيق المساواة في الفرص التعليمية . لقد تعاطفت جهود كثيرة من فئات أخرى مع الأقلية السوداء في أمريكا لأسباب كثيرة كانت من نتائجها أن عُطل العمل باختبارات الذكاء الجماعية في مجالات كثيرة كما سنت قوانين رسمية لضمان حقوق الأقليات في التربية والتعليم . . ان ذلك كله قد أظهر بوضوح ماللبيئة من آثار في تحديد القدرات والاستعدادات وشكك في النسبة العالية في الذكاء التي يعزوها البعض الى الوراثة . ولعل أكبر تحول في هذه القضية كان بعد نشر كتاب بعنوان الذكاء والخبرة INTELLIGENCE AND EXPERIENCE لمؤلفه ج . ام . هينت (١٩٦١م) (J.M. HUNT, 1961) والذي نبه الى أثر البيئة على الذكاء وما يمكن عمله في البيئة المحيطة بالفرد اذا أردنا رفع أدائه . كما دلل على امكانية رفع الاداء عن

طريق تحسين العوامل البيئية المحيطة بالطفل المتعلم ، وأرجع سبب ارتفاع نسبة ذكاء كثير ممن حصلوا على نسب عالية في الذكاء الى عوامل بيئية وليس وراثية فقط كما يظن البعض . ان ما ترتب على هذين العاملين يمكن ذكرها في النقاط التالية :

١ - ان الذكاء لم يعد مسألة وراثية - على الأقل - كما كان يعتقد في يوم ما بل أن البيئة تلعب دورا وقد يكون دور البيئة هو الأهم والحاسم . ففي دراسة أجريت على مجموعة كبيرة من اليابانيين والأمريكيين في عام ١٩٧٥م لمعرفة معدل ذكاء المجموعتين ، واذا كان قد تعدل أم هو ثابت . تم تتبع المجموعتين الى الوراء حتى عام ١٩١٠م وقد وجد أن اليابانيين يتفوقون على الأمريكيين بمعدل ١١ نقطة وان هذا الفرق قد حصل فقط بعد ولادة جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية (مواس ١٩٨٢) MOHS (1982) بمعنى أن البيئة والظروف المحيطة هي السبب وليس الوراثة كما كان يقال .

٢ - ان هناك شكوكاً متزايدة على أن اختبارات الذكاء ليست الا اختبارات تحصيل فقد دلت الدراسات الاحصائية على أن معامل الارتباط بين اختبارات الذكاء واختبارات التحصيل عال وان كلا الاختبارين يكشفان الاستعدادات ومقدار التعلم والتحصيل . انهما يكشفان استجابات الفرد وخبراته في وقت الاختبار (رزنك وزقلر وتركيت ١٩٨٢م) RESNICK (1976) ZIGIER & TRICHETT (1982) (ساتلر ١٩٨٢) SATTER, (1982) . انه اذا كان الأمر كذلك فمن غير المعقول أن أختبر شخصا في خبرات لم تمر عليه ثم أقول عنه أنه قليل ذكاء ، واختبر شخصا آخر مر بتلك الخبرات ثم أقول عنه أنه ذكي مقارنة بذلك الذي لم يمر بنفس تلك الخبرات . وهذا ما كان يحصل بالنسبة لاختبارات الذكاء حتى كُشفت هذه المغالطة أخيرا .

٣ - لقد وجدت اختبارات الذكاء متحيزة لصالح الحضارة الغربية وضد بقية الحضارات وقد ظهر ذلك من خلال تطبيقها بشكل خاص على جميع الأقليات تقريبا والتي تقيم في الولايات المتحدة الأمريكية لكنها منتسبة لحضارات أخرى سواء كانت صينية أم يابانية أم أفريقية . . الخ . ان تلك الاختبارات متحيزة في البناء الداخلي للاختبار وفي نوعية فقرات الاختبار

وفي الأحكام الصادرة على الفقرات المكونة للاختبار (كول ١٩٨١) COLE, (1981) رايس (١٩٧٩) RICE (19791) . انه اذا كان الأمر كذلك فانه من الخطأ نقل وترجمة هذه الاختبارات ، أو تقنينها على الحضارات في مواقعها الأصلية . انه يلزم التفكير في طرق أخرى للاختبار والتقنين والحكم على مستويات طلابنا في مختلف جوانب الحياة التعليمية والتربوية .

٤ ـ ان هناك أصواتاً متزايدة خاصة بعد الشكوك المتزايدة حول اختبارات الذكاء ، أصوات تدعو الى اعتبار محك التفوق هو الحياة وليس الدرجات في المدارس . انه زخم بدأ يتزايد بعد أن نشرت مقالة مميزة في عام ١٩٧٣م بعنوان "الاختبار للحياة وليس للذكاء" بقلم د.س مكللاند McCLEL-LAND, (1973) TESTING FOR COMPTENCE RATHER THAN FOR INTELLIGENCE. انه يستحسن تبعا لذلك أن تركز الاختبارات مثلا على مهارة الاتصال ، الصبر ، وضع أهداف مفتوحة ، النضج النفسي ، التكيف مع الظروف المحيطة . . الخ (سكار ١٩٨١م) SCARR, (1981) ان ذلك يستلزم أن يخرج من يعد اختبارات التفوق الى ميدان الحياة لتحليل مكونات الأداء المختلفة فيها ومن ثم اعداد الأفراد لها وبعد ذلك قياس مدى أو توقع نجاحهم فيها .

٥ ـ ان اختبارات الذكاء والتي تجري من أجل عمليات الاختيار والتصنيف تعد اليوم متعارضة مع الاتجاه المتجدد نحو العدالة والمساواة في الفرص التعليمية ونحو زيادة فعالية جميع الأفراد وايصال كل منهم الى أعلى حد ممكن لقدراته وامكانياته (جوردن وتريل ١٩٨١) GORDON AND TERRELL (1981) . انها اختبارات قامت على تصورات غير صحيحة وسوف تكون نتائج تطبيقها ضارة وغير عادلة .

٦ ـ ان من أهم الاتجاهات الجديدة والتي اكتسبت جاذبية كبيرة وحققت انجازات مهمة وبخاصة في الجانب النظري هو ذلك الاتجاه نحو دراسة العمليات المعرفية وبخاصة بعد الاهتمام المتزايد بعلم النفس المعرفي والانجازات التي حققها . ان عددا من العلماء متزايد لا يرى جدوى في

اختبارات الذكاء وانما يلزم دراسة العمليات المعرفية العليا : كيف يتعلم الانسان ، ما هي الاستراتيجيات التي يستخدمها ، كيفية استدخال واستيعاب المعلومات واستذكارها من جديد ، كيف يستنتج المتعلم وكيف يستقرىء ، كيف يحل المشاكل التي تواجهه وما هي العمليات العقلية التي يستخدمها في ذلك . وهذا اتجاه يحظى باهتمام كبير من علماء النفس اليوم ويقوده عدد متزايد منهم وفي مقدمتهم (جانييه ١٩٨٥) GAGNE, (1985) سترينج (١٩٨٢) STERNBERG, (1982) وكذلك جليزر (١٩٨١) GLASER (1981) ورزنك وجليزر (١٩٧٦) RESNICK AND GLASER (1976). هذا وسوف نلقي مزيدا من الأضواء على هذا الاتجاه خلال هذه الدراسة .

تيرمان ودراسته للمتفوقين

يلزم ألا يغيب عن أذهاننا أن تعيين الأذكياء كما تحدد ذلك اختبارات الذكاء غالبا تعد الجانب التطبيقي المباشر للذكاء كمفهوم أو كنظرية حيث كانت أول دراسة منظمة تتبعية للمتفوقين هي تلك التي قام بها لويس تيرمان LOWIS M. TERMAN في أواخر الربع الأول من هذا القرن وبالتحديد في عام ١٩٢١م على عدد من الأطفال المتفوقين والبالغ عددهم ١٥٢٨ طفلا وطفلة (٨٥٧ طفل و٦٧١ طفلة) تم انتقاؤهم من حوالى ٢٥٠٠٠ طفل من أطفال الولايات المتحدة الأمريكية كأول تطبيق لمفهوم الذكاء . لقد استخدم تيرمان مقياس ستانفورد ـ بينيه للذكاء لتحديد هؤلاء المتفوقين وكان الحد الأدنى لاعتبار الطفل متفوقا هو ١٤٠ وما فوق .

حيث أن الاطفال الذين تم اختيارهم يمثلون فقط نسبة ١٪ من مجموع العينة التي أجرى عليها البحث . وقد تابع ترمان بنفسه نجاح هؤلاء العباقرة يساعده في ذلك ودن (١٩٢٥) ODEN (1925) ومن بعدهما روبرت سيرز وزوجته ROBERT AND PANLINE SEARS اللذان لا يزالان حتى اليوم يتابعان من تبقى من هذه العينة من مقر الدراسة الأصلي في جامعة ستانفورد بأمريكا وقد نشر

تيرمان ومساعدوه دراساتهم عن هذه الفئة في عام (١٩٢٥) و(١٩٥٩) و(١٩٦٨) و(١٩٧٧) و(١٩٧٨) انظر GOLEMAN (1980).

ان كل هذه الدراسات تصف هؤلاء المتفوقين بالنجاح والسعادة في جميع جوانب حياتهم الجسمية والصحية والزواجية والوظيفية والاقتصادية . . . الخ . ليسوا كلهم كذلك طبعا وانما الغالبية وهذا أمر يتنافى مع الفكرة المرضية السابقة عن العباقرة (انظر فؤاد البهي السيد ، ١٩٦٩م) . ونظرا لأن هذه الدراسة الطويلة المشهورة كانت ولا زالت تُلقى بظلالها على مفهوم وخطط وبرامج المتفوقين في العالم كله فانه لزاما علينا الوقوف قليلا عند هذه الدراسة .

١ - يستحسن أن نعود الى الوراء قليلا الى بداية اختبار استانفورد - بينيه في فرنسا عندما كلف وزير التربية والتعليم لجنة لفصل المتأخرين دراسيا عن الطلبة العاديين في المدارس الفرنسية عام ١٩٠٤م وكان بينيه عضوا فيها . لقد تم الفصل بين المجموعتين عن طريق مجموعة من الأسئلة التشخيصية . ان النسخة التي استخدمها تيرمان في دراسته هذه (نسخة ١٩١٦) كانت نسخة أضاف اليها معادلة حساب نسبة الذكاء والتي تساوي :

$$\frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}} \times ١٠٠$$

لأول مرة . وتعليقاً على عمل تيرمان هذا قال وولف (١٩٦٩) WOLF (1969) الذي درس بعمق تاريخ اختبار ستانفورد - بينيه : "انه موضع تساؤل فيما اذا كان بينيه نفسه سوف يقبل حتى التقنيات التي زادها تيرمان كأساس صحيح لحساب نسب الذكاء" (مقتبسة في ساتلر ١٩٨٢) SATTLER (1982).

انه مما لا شك فيه أن تيرمان قد أبعد الاختبار عن الأغراض التي حاول بينيه أن يحققها ولعل الذي دفعه لذلك هو طبيعة ظروف وأهداف وأوضاع المجتمع الأمريكي آنذاك ، الأمر الذي يجعل من الأفضل قبل تبني هذا الاختبار أو غيره النظر في القرينة الاجتماعية والحضارية له . ان الأمر له علاقة بموضوعنا هنا من عدة وجوه لا مجال لحصرها الآن غير أنه يلزم أخذها في الاعتبار .

٢ ـ لقد أصبح واضحا الآن أن نمو الاستعدادات والقدرات الى أعلى حد لها أمر يتوقف على البيئة الى درجة كبيره وبالتالي فانه يمكن القول أن الـ ١٪ التي اختارها تيرمان من مجموعة العينة كانت محوظة بالبيئة التي تربت فيها فساعدت على نمو فعالية قدرات أفرادها . انه اذا كان من المعروف أن العينة لم يدخلها أي من الأقليات ولا حتى الطليان أو الآسبان في أمريكا آنذاك فاننا نستنتج من هم هذه العينة واذا كانت عينة متميزة في حياتها العامة والخاصة بعد التخرج فان عزو ذلك الى ذكائها فقط أمر فيه مغالطة لأن الظروف المحيطة المؤيدة لهذا النجاح كثيرة بالنسبة للفئة التي اختار تيرمان منها عينته . هذا من جهة ومن جهة أخرى فانه لما تفككت الأسرة في أمريكا وألقى ذلك بظلاله على نسبة الطلاق ، ظهر أن هؤلاء المتفوقين في دراسة تيرمان لا يختلفون عن الآخرين من حولهم في هذا الموضوع ، انها مسألة بيئة فقد تكون تلك البيئة ايجابية وقد تكون سلبية .

٣ ـ تيرمان يعرف الذكاء على أنه "التفكير المجرد" ABSTRACT THINKING وبالرغم من أهمية هذه القدرة وتنميتها الا أنه يلزم أن نعرف أنه ليس غريبا أن يعرف الذكاء من هذه الزاوية الضيقة ومن وجهة النظر الغربية وأن تتأثر صياغة اختبارات الذكاء بذلك كما هو الحال في اختبار ستانفرد ـ بينيه الذي طّوره وعدّله تيرمان ، لأننا نعرف أن العقلانية قيمة حضارية ضاربة في الحضارة الغربية ، وعندما ننظر الى مكونات اختبار ستانفورد ـ بينيه للذكاء نجدها تترجم هذه القيمة . وعليه فلا غرابة أن نجد كل الولايات المتحدة الأمريكية التي تقدم برامج للمتفوقين تدخل جميعها ضمن تعريفها للذكاء ما يسمى بالقدرة على التفكير المجرد . ان الذي أحاول قوله هنا هو أنني أتساءل : هل حضارتنا تركز على التفكير المجرد هذا التركيز الذي يحظى به في الغرب وهل يمكن أن نعرف الذكاء على أنه التفكير المجرد أو حتى جزء كبير منه ؟ انني مقتنع بأهمية التفكير المجرد غير أنه يلزم ألا ننسى أن حضارتنا تحتوي على جوانب غيبية وحدسية أيضا .

٤ ـ وأخيرا فانه يلزم القول بأن تيرمان وبالرغم من اهتمامه بالمتفوقين وبدراستهم الا أنه لم يوص اطلاقا بتعليم المتفوقين في مدارس خاصة بهم (رايس ١٩٨٠) . RICE (1980) . ان عينته كانت تتلقى تعليمها في المدارس العامة ويقال انه لم يكن ملتفتا لاثراء قدرات هؤلاء الطلاب بطريقة أو بأخرى وقد يكون السبب وراء هذه النقطة الأخيرة هو أنه يؤمن بأن الذكاء قدرة موروثة وان البيئة ليس لها أي شأن وان الذكي سوف يشق طريقه بنجاح على كل حال .

ويستحسن أن نطرح التساؤلات التالية وذلك للفت نظر القارىء الكريم للتفكير فيها ومحاولة اتخاذ مواقف معينة منها ، فمثلا :

- هل يستحسن أن نتوسع في تعريفنا للمتفوقين أم نقتصره على قليل من المحكات وما هي فوائد ومضار مثل هذه الخطوة ، بالنسبة للمصلحة العامة أو الخاصة على السواء ؟
- هل يستحسن أن نفرد للمتفوقين ـ اذا كان بالامكان معرفتهم ـ مدارسا خاصة بهم أو نبقيهم في مدارسهم العادية وماذا يعني ذلك بالنسبة للاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية بالنسبة للمجتمع وللأفراد المعنيين أيضا ؟
- هل هناك محكات موثوق فيها يمكن بواسطتها التعرف على هؤلاء المتفوقين واذا كان الأمر كذلك فما هي وما مدى صلاحها وفاعليتها وامكانية توفرها في مجتمعاتنا واذا كانت الاجابة بلا فما هي البدائل المحلية والذاتية التي يمكن استخدامها للتعرف على هؤلاء المتفوقين ؟
- هل يستحسن أن نظل نعتمد على اختبارات الذكاء في التعرف على المتفوقين أم يستحسن أن نفكر في بدائل أخرى ، خاصة بعد ما رأينا من تغير في مفهوم الذكاء من جهة وبروز أصوات كثيرة تقول بعدم صلاحيتها حتى في البلدان التي أنتجت فيها هذه الاختبارات . واذا كان الاتجاه بالتفكير في بدائل أخرى فما هي وما جدوى ومناسبة التفكير في المدرس والوالدين كبدائل رئيسية ؟
- هل هناك صفات تغلب على المتفوقين واذا كان الأمر كذلك فما هي تلك الصفات وهل يمكن توعية من يقومون على التعرف على المتفوقين بها ؟

- اذا كنا نعتبر الابداع تفوقا فما هي علاقة الابداع بالذكاء وهل يمكن اعتبار الابداع حجر الزاوية في رعاية وتعليم المتفوقين . واذا كان ذلك اتجاه مجدي ومفيد لأن الابداع أكثر قابلية للدراسة والتحديد بحكم مظاهره المختلفة فما هي أهمية العناية به من الوجهة الحضارية والتربوية ؟
- هل يمكن تنمية الابداع واذا كان ذلك ممكنا فكيف وما هي المستجدات في هذا الموضوع وبخاصة فيما يتعلق بالأفكار التي طرحها علم النفس المعرفي وبخاصة فيما يتعلق بنظريات استدخال المعلومات ونظريات الأساليب المعرفية للتعليم (Information Processing Theories Cogntive Style Theories.)

- اذا كانت تنمية الابداع ممكنه فما هو دور التدريب هنا وكيف يمكن زيادة فاعلية هذا التدريب وما هي الجوانب الرئيسية التي يلزم أن يشملها التدريب وهل هناك أسس نظرية يلزم مراعاتها وما هي ؟

- هل من الضروري أو المستحسن اعداد مدرسين خصيصا لرعاية وتعليم المتفوقين واذا كان الأمر غير ضروري فهل هناك جوانب يستحسن تدريب من يتعامل مع هؤلاء المتفوقين عليها وكيف ؟

- هناك منهجان هما موضع جدل ونقاش في تعليم ورعاية المتفوقين وهما : التعجيل في تعليمهم بحيث يقطعون المراحل التعليمية في أقصر وقت ممكن والآخر هو الاثراء في المراحل التعليمية بحيث تعمق وتوسع خبرات المتفوق دون تعجيل أو تقصير مدة الدراسة ، فأي منهما أنسب للطالب والمجتمع ، وما هي الفوائد والمضار هنا في اتباع أي منهما وماذا يعني ذلك بالنسبة للنظام الاداري والتربوي ؟

- اذا قررنا بعد التحقق أن برامج الاثراء أنسب لوضعنا التربوي من اداري وفني وان برامج الاثراء أنسب للطالب ، مثلا ، فما هي أنواع البرامج الاثرائية التي يمكن تبنيها وكيف يمكن زرعها في مسار العملية التربوية . وكيف يمكن تهيئة المدرسة بجهازيها الاداري والفني وبخاصة المدرس لتنفيذ هذا البرنامج ؟

- وأخيرا ما هو دور الأم ، الأسرة ، الروضة في رعاية وتنمية التفوق ، وماذا يمكن أن يستفاد من الدراسات في هذا المجال ، وهل يمكن الاستفادة من التربية في الحضارات وعند الشعوب الأخرى التي أثبتت جدواها كتربية الأم اليابانية مثلا؟ كيف يمكن زيادة الوعي حول دور الأسرة في هذا الخصوص وبواسطة ماذا ؟

إنني بناء ما تقدم من طرح وتساؤلات حول الذكاء من جهة ولكون المتفوقين من جهة أخرى عادة ما يختارون بناء على تصورات غامضة وغير واضحة عن هذا المفهوم وبالتالي تبنى على أساسه ما تسمى "اختبارات الذكاء" التي اتضحت عيوبها ـ كما ذكرت سابقا ـ وللأجابة على كثير من الأسئلة السابقة فانني أرى ضرورة التوجه والتركيز بدلا من ذلك على مفهوم الابداع لما فيه من تلاف لعيوب الذكاء والرعاية التلقائية للتفوق والمتفوقين ولعدم تأثره بالحضارات والثقافات الأخرى حيث يمكن أن يعتبر نتاجاً اجتماعياً محلياً ذاتياً .

ان هذا التركيز يجب أن ينطلق من اطر حضارتنا وظروفنا الاجتماعية وأن نستفيد من تجارب الآخرين ومواقفهم حيال الاعتبارات المختلفة في هذا الخصوص . انه أيضا لزاما علينا أن نستفيد من الانجازات العلمية سواء النظري منها أو العملي في حقول التربية وعلم النفس بعامة وفيما يتعلق بالأبحاث والدراسات ذات العلاقة بالابداع والتفوق مثل دراسات علم النفس المعرفي ، والأساليب المعرفية ، وطرق استدخال المعلومات ، وعملية فحص ومعرفة المحتوى المعرفي ، كما يجب أن يكون هذا كله في اطار من أهدافنا الحضارية والاجتماعية والتربوية .

هذا وسوف أقتصر في الصفحات التالية على الحديث عن الابداع CREATIVITY كبديل لمفهوم الذكاء الذي تم تقويمه في الصفحات السابقة وكطريق حقيقي لرعاية التفوق الذي طرحت حوله معظم الأسئلة السابقة.

أهمية التفكير في اطار نظري جديد للتفوق

كما سبق القول فان اختبارات الذكاء نتاج غربي وعلينا أن ندرك أنها وجدت لتلبي رغبات أو حاجات خاصة بذلك المجتمع ، انها جزء من النظام الاجتماعي للمجتمعات الغربية . ان هذه الاختبارات تحاول أن تبرز أو تعبر عن قيم هامة في تلك الحضارة ، قيم ليست بالضرورة هامة في حضارة أخرى كحضارتنا .

فمثلا نجد التركيز كبيراً على التحصيل المدرسي ، القدرات الكلامية أو اللغوية ، التفكير المجرد ، مهارات تكوين المفاهيم ، وهكذا ، انها جميعا قدرات فكرية وهذه جميعها ليست غريبة على الحضارة الغربية فمن أهم معالمها العقلانية التي تعود جذورها الى الحضارة اليونانية بينما في الحضارة الاسلامية لنا موقف مميز ومعروف من اتجاهات الفلسفة العقلانية التي برزت في تعريف الذكاء ، انه التفكير المجرد كما يعرفه تيرمان TERMAN صاحب أهم دراسة عن الذكاء وبالتالي فان اختبارات الذكاء تعطي هذا الجانب وزنا كبيرا بل قد يكون الاختبار كله فقط لقياس القدرة وفروعها .

وبالرغم من اهتمام حضارتنا بالعقل ودوره في الايمان والحياة ، فان السؤال المطروح هو : بما أن الحضارة الواحدة ذات اتساق وعدم تعارض في الداخل كشرط من شروط بقائها فاننا نفترض أن التركيز في الحضارة الغربية على العقلانية والتي ولدت جزئيا اتجاهات الموضوعية التي لا تتعارض مع بقية جوانب الحضارة الأخرى فهل ذلك صحيح بالنسبة لنا ؟ انه يتبادر الى الذهن فورا ان حضارتنا تحتوي على بعض الجوانب الغيبية من جهة ، وهذه أول معالم الاختلاف من جهة ثم ليس لدينا دليل على عدم وجود تعارض بين أخذنا لمفهوم الذكاء واختباراته وبين بقية جوانب حضارتنا الأخرى . ان عدم التعارض بين هذا المفهوم واختباراته في الحضارة الغربية وبين جوانب الحضارة الأخرى قد ظهرت بوضوح عندما قام ستيرنابرخ (١٩٨٢) STERNBERG (1982) بدراسة لمعرفة فيما اذا كان هناك اختلاف بين رجل الشارع العادي والخبراء الأكاديميين في الجامعات ووجد أنه لا يوجد اختلاف على الاطلاق حيث ان تصورهم للذكاء ومظاهره واحدة بينما

ترتيبهم لأهمية هذه المظاهر مختلفة . ان المظاهر الثلاثة الثابتة للذكاء عند رجل الشارع بينها على النحو التالي : القدرة العملية على حل المشاكل ، القدرة اللفظية ، الكفاءة الاجتماعية بينما رتبها الخبراء والعلماء على النحو التالي : الذكاء اللفظي ، القدرة على حل المشاكل ، الذكاء العملي ، علما أن ستيرنبرج نفسه يمثل أحد الاتجاهات الحديثة في تصوره للذكاء ويحاول نقل أفكاره حول الموضوع الى الجانب العملي .

ان الاقدام المدروس ، الصبر المعقول ، المشاركة الوجدانية ، الحساسية الاجتماعية ، كظم الغيظ ، الاستماع أكثر من الكلام ، الاعتراف بالحق . . الخ أقول أن هذه الأمور يجب أن تكون بعض مظاهر ومؤشرات الانسان الناجح في الحياة في مجتمعنا .

اننا في حاجة حقيقية الى تلمس اطار نظري للكفاءة والنجاح في الحياة أو سمه ما تشاء ، وان الأمر ليس بالسهولة بمكان غير أنه ليس مستحيلا . انه يلزم أن نقلع عن استخدامنا لاختبارات الذكاء التي بنيت على تصورات تقليدية قاصرة محدودة ، خاصة بعدما ظهرت الأدلة الكافية على عدم صلاحها في الغرب ، وعلى ألسنة علمائه وخبرائه ، ولعل أكبر برهان على عدم صلاحيتها هو الكف الكامل عن استخدام اختبارات الذكاء الجماعية في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال وبأمر من السلطات الفدرالية .

كل منا متفوق في شيء ما

لعل من المهم أن نرجع الى تعريف الذكاء وعلاقته بتعريف التفوق والمتفوقين . فمما لا شك فيه أن دراسة الذكاء ارتبطت بدراسة التفوق أو أن التفوق كان التطبيق المباشر للذكاء ، أو يمكن أن يكونا شيئا واحدا . وبدون رجوعنا الى طبيعة الذكاء غامضة الهوية فقد عُرف بأنه (ماتقيسه اختبارات الذكاء (BORING (1923) وبالرغم من أن هذا التعريف كان قد قيل عندما لم يصل مؤتمر عقد لهذا الغرض الى نتيجة معقولة حول تعريف الذكاء الا أنه في الحقيقة غير الواقع بالفعل .

ان اختبارات الذكاء قامت على فكرة مغلوطة عن تصور الرجل الغربي لنفسه وللآخرين وتصوره للنجاح والتفوق منطلقا في ذلك من حصيلته التاريخية والفكرية . وهكذا كانت عملية قياس هذه الفكرة المجردة غامضة بطبيعة الحال وصعبة . انه يمكننا أن نستنتج بناء عليه أن من سوف يعتبر ذكيا أعداد محدودة على كل الأحوال .

ان مفهوم التفوق يكاد يتطابق مع مفهوم الذكاء عند الكثير ، ومن هنا لم يحاول تعريفه وبالتالي فانه يعرف على أنه "الشيء الذي تقيسه اختبارات الذكاء" THORNDIKE (1921).

ان هذا يظهر العلاقة شبه الكاملة بين تعريف الذكاء وتعريف التفوق والمتفوقين . من هذا المنطلق تم بناء اختبارات ذكاء تناسب ذلك التصور ، ثم اختيار وانتقاء أعداد محدودة جدا كمتفوقين نتيجة لتطبيق هذه الاختبارات ، فمثلا تيرمان اختار ١٪ من العينة أو من نسبة ذكائهم ١٤٠ درجة فما فوق وهذا اجراء يتناسب مع تصوره عن الذكاء والتفوق غير أنه في الخمس والعشرين سنة الأخيرة تغير مفهوم الذكاء بشكل كبير في الغرب وبالتالي تغير مفهوم التفوق وبالتالي تغيرت طرق ومحكات التعرف على المتفوقين .

وعلى الرغم من أنه يجب أن نغير مفاهيمنا كذلك عن هذين المفهومين بل ونتميز في تصوراتنا وطرق حكمنا بحكم الاطر الحضارية الخاصة بنا والنابعة من هنا وبالرغم من أنه يلزم ألا ننتقل من تقليد الى تقليد جديد حتى تكون استفادتنا مما توصل اليه الآخرون في هذا المجال انتقائية تتناسب مع مختلف ظروف وخصائص مجتمعاتنا ، فانه يلزم التأكيد على أن التوجه الجديد في دراسة التفوق كانت الى حد كبير نتيجة لما توصلت اليه مختلف المعارف من جهة وللاحساس المتزايد بأن التصورات السابقة لم تكن حساسة بل كانت متحيزة ضد خصائص وظروف الحضارات غير الغربية فكان التوجه الجديد معالجة للموقف .

وبالرغم من أن هناك اختلافات في شمولية تعريف التفوق ومحدوديته بين من يرى أن كل طفل في المجتمع متفوق في شيء ما FERDMAN (1979) الى من

يرى أن التفوق يكمن في أعداد محدودة في المجتمع NEWLAND (1967) الا أن الاتجاه نحو التوسع في تعريف التفوق وذلك ليشمل أكبر قدر ممكن ممن لديهم أي قدر أو نوع من التفوق أو ممارسته هو المفضل اليوم وليس استبعادهم . وهذا الاتجاه هو الذي يرى الباحث أهمية الاعتماد عليه والأخذ به .

انه افتراض بأن الكثير من الناس لديهم جانب ابداع أو أكثر وبالتالي فان ذلك يعني زيادة ملحوظة في من يمكن اعتبارهم متفوقين .

ولعله من المهم القول هنا بأن مثل هذا الاتجاه يحقق لأعداد أكبر من المتفوقين فرص الرعاية والاهتمام وبالتالي يتحقق للمجتمع من خلال ذلك تحقيق أهداف نوعية فعالة تخدم المجتمع في مجالات أكثر تفرعا . واذا ما أخذنا على مبدأ الخطأ الايجابي والخطأ السلبي فانه من الأفضل أن نتوسع في التعريف حتى وان شمل طلاباً غير متفوقين حقا لما في ذلك من اعطاء فرصة لهم وقد يكون ذلك ذا أثر ايجابي عليهم فتتحسن أوضاعهم . هذا من جهة ومن جهة أخرى فانه أهون وأقل ضررا من تقييد التعريف وبالتالي حرمان طلاب متفوقين حقا من الرعاية ، وهذا قد يكون ذا أثر سلبي عليهم . ان مثل هذا الحرمان أو عدم الاهتمام يؤدي حسب الدراسات المتعددة الى الاهمال ، الغياب ، عدم الاكتراث بالمدرس أو الدروس والبقاء في آخر الفصل والتسرب حيث أثبتت بعض الدراسات أن هناك نسبة غير قليلة من المتسربين يعدون من المتفوقين في الحقيقة . ومع أنه قد يقول قائل ان زيادة أعداد المتفوقين يؤثر سلبيا على نوعية أعدادهم من جهة كما تصبح تكاليف اعدادهم كبيرة مقارنة بأعداد محدودة من هؤلاء غير أن مثل هذا الرأي لا يراعى فكرة أنه قد لا يكون هناك فرق في التكاليف وخاصة اذا ما حاولنا معرفة ما هي الطرق والاتجاهات الأكثر مناسبة للتربية والتعليم ، كما سنرى فيما بعد ، والتي تفترض ان كلاً منا متفوق في شيء ما وينبغي أن نرعى هذا التفوق من خلال رعايتنا للابداع .

أهمية الابداع

تكمن أهميةالابداع هنا في أنه البديل الأنسب للذكاء وما يترتب عليه ، كما تكمن أهمية الابداع في أنه الترجمة الحقيقة لأفكار الشعوب والأفراد الأصيلة والتي يظهر في مختلف جوانب حياة الأمة الحضارية وبالرغم من أن الكثير يعرف أن الابداع هو الجسر الذي تعبر عليه الأفكار النظرية المعقدة الى أعمال مادية خلاقة وبالرغم من أننا ـ كما سبق القول ـ متعطشون الى اعادة أو ابراز جوانب حضارتنا اليوم أكثر من أي يوم مضى لما نقابله من تحديات حضارية مختلفة من جهة ، وللامكانيات المختلفة المهيأة لنا الا أننا لا نعطي الأهمية الكاملة ، ليس فقط لما ذكر بعاليه بل ولا للتغييرات المتحلاقة السريعة في مختلف جوانب الحياة والتي يشهدها العالم اليوم بما فيها بلادنا والتي يتوقع معها ظهور بعض المشاكل التي سوف لن تحل الا عن طريق الأعمال الابداعية الخلاقة .

اننا اذا عرفنا كل ذلك فانه يلزم أن نعد أنفسنا وطلابنا ونظمنا التعليمية للأعمال الابداعية التي تكون في مستوى تطالعتنا الحضارية وفي مستوى مشاكل العصر وسرعة التغير فيه بحيث نعد ونرعى التفرد (الابداع) في كل منا على اعتبار أن هذا التفرد تفوق .

أهمية الابداع كمحك للتفوق

يعتبر الابداع CREATIVITY من أهم المحكات المتضمنة في تعريف من هو المتفوق في أول تعريف رسمي للمتفوقين في الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٧٢) MARLAND, (1972) وهذامن الوجهة المنطقية والعملية صحيح كمحك فعال لعدة أسباب منها : انه يمكن لنا أن نرى أعمال المبدعين ونقيمها بسهولة وكثيرا ما يتفق الناس على أن هذا العمل سواء كان فنيا أم علميا يعد عمل ابداعي وهم يعتبرونه تفوقا وليس خاصية عادية . من جهة أخرى ـ وحيث أن الكثير يعتبر الذكاء تفوقا ـ فان الدراسات المختلفة ومنها دراسة GETZEL AND GACKSON المشهورة والتي أثبتت أن وجود قدر متوسط من الذكاء شرط أساسي للابداع وليس العكس صحيحا . وعليه فان اختيار الابداع كمحك للتفوق يعتبر

اصطياد لعصفورين بحجر واحد حيث اننا سوف نحصل على مبدع وذكي في نفس الوقت . بالاضافة الى أن أحد أهداف أعداد المتفوقين أن يتم تدريبهم على الابداع أو أن التفوق ابداع في حد ذاته وهذا هو الأصح والأنسب .

علاقة الابداع بالذكاء

لقد بدأ مفهوم الابداع يظهر الى الوجود في عام ١٩٥٠م عندما تحدث عن الموضوع جيلفورد GUILFORD (1950) في الخطبة الرئيسية لجمعية علم النفس الأمريكية والتي كان فحواها ان هناك اهتماما وتركيزا على الذكاء واهمالا وتجاهلا للابداع . وبعد فترة ظهرت جهود متتالية لهذا العالم كان أهمها دراسة لأهم أركان العمليات العقلية الثلاث وهي العمليات ، المحتوى ، الناتج . هذا ومن أهم ما حظى بالاهتمام في هذا البناء المعرفي ما يلى : التفكير التقاربي CONVERGENT THINKING والتفكير الانتاجي DIVERGENT THINKING وهما جانبان من جوانب العمليات الهامة في البناء العقلي عند جيلفورد . هذا وقد اقترن ـ من خلال الدراسات المتعددة لهذين الجانبين ـ الابداع بالتفكير الانتاجي كما اقترن الذكاء بالتفكير التقاربي حيث أن جوهر التفكير التقاربي هو البحث عن الاجابة الصحيحة أو ايجاد الحل الأصح للمشكلة بينما يكمن التفكير الانتاجي في تعدد الحلول والافتراضات للمشكلة . هذا وقد جرت دراسات متعددة لتحديد العلاقة بين الذكاء والابداع وتأثرت هذه الدراسات بتوجهات الدارسين نحو طبيعة القدرات ، ففي الوقت الذي يعتبر من يميلون للمدرسة الأوروبية (البريطانية بشكل خاص) والتي تعتبر الذكاء قدرة عامة ثم يأتي بعده قدرات خاصة ، يعتبرون أن علاقة الذكاء بالابداع كبيرة ، بينما يرى من ينتمي الى المدرسة الأمريكية والتي ترى بتعدد القدرات ومنها قدرة الذكاء أن العلاقة بين الذكاء والابداع ليست قوية وان كانت موجودة ، ومن هؤلاء جيلفورد GUILFORD نفسه الذي حدد في بنائه العقلي حوالي ١٢٠ قدرة عقلية عرفت منها حوالي ٨٠ قدرة بالاختبارات .

هذا وقد أجريت دراسات مختلفة التصميم والخلفية لتحديد العلاقة بينهما وظهرت نتائج هذه الدراسات مبينة أن العلاقة تتراوح من ١٢٪ ـ ٥٠٪ حتى أتت

دراسة جتزل وجاكسون (١٩٦٢) GETZELS & JACKSON (1962) وتم تصنيف العينة الى أربع مجموعات :

عالي الذكاء ، عالي الابداع / منخفض الذكاء ، منخفض الابداع / عالي الذكاء ، منخفض الابداع / عالي الابداع ، منخفض الذكاء . وبالرغم من أنه لا يهمنا صفات كل مجموعة هنا وخصائصها الا أنه يستحسن التركيز على أمرين هامين وهما انه قد يوجد ذكي غير مبدع ولكنه لا يوجد مبدع من دون أن يكون لديه قدرا لا يقل عن المتوسط في الذكاء حسب هذه الدراسة المميزة . من هذا المنطلق وغيره من الاعتبارات التي سبقت والتي سوف تأتي تباعا سوف نتناول فيما يلي مميزات الابداع على الذكاء وما سوف يحققه هذا الاهتمام من فوائد على العملية التربوية وعلى المجتمع الكبير ، وهذه دعوة لاعادة تقييمنا للذكاء واختباراته وتطبيقاته ومضامينه في مؤسساتنا التربوية كما هي دعوة صادقة للتهيؤ لعمل أكثر فاعلية وابداعية .

مبررات الاهتمام بالابداع وليس الذكـاء

سوف نتناول هنا المبررات على شكل نقاط وذلك لزيادة التوضيح :

١ - ظهر من خلال الدراسات التي ركزت على الذكاء خلال الست والعشرين سنة الماضية أنه مفهوم غامض وأهداف غير محددة ووسائل غير مناسبة ونتائج غير مؤكدة والأهم من هذا انه لم يتجاوز الجانب النظري الى التطبيقات التربوية . هذا بخلاف الابداع الذي يظهر أنه أقل جدلية وأكثر وضوحا وقابل للوصف وذو نتائج يمكن ملاحظتها والحكم عليها .

٢ - اذا قررنا رعاية التفوق وأخذنا الذكاء كمحك للاختيار فان أعدادا محدودة سوف تستفيد من هذه الرعاية نظرا لأن الأذكياء نسبة محدودة ، للأسباب المذكورة سابقا . واذا عرفنا أن مقاييس الذكاء مشكوك فيها فاننا دون شك سوف نحرم أعدادا تستحق الرعاية من ذلك . بينما يعتبر الابداع والأخذ به حلا مناسبا جدا للإختبار لسببين :

الأول : أن الابداع أكثر انتشارا بين الناس ويمكن التعرف عليه بوسائل سهلة وأكثر دقة . هذا بالاضافة الى أننا عندما نناقش أو نختار تبعا لمحكم

الابداع فاننا نكون أقرب الى الصواب لأن كل مبدع لا بد أن يكون على الأقل صاحب ذكاء متوسط وليس كل ذكي مبدعا وهكذا نكون قد (اصطدنا عصفورين بحجر واحد) حسب رأي GETZELS AND JACKSON (1962). ويقول تورانس (١٩٦٢) TORRANCE (1962) أننا اذا اخترنا على أساس محك الذكاء فاننا نكون قد استبعدنا ٧٠٪ من المبدعين بينما اذا اخترنا على أساس محك الابداع فاننا قد لا نكون تركنا ذكيا واحدا .

٣ - من أهم الانتقادات الموجهة الى الذكاء وأقواها أنه متأثر في جميع ما يتعلق به من المفهوم الى الاختيارات بالحضارة الغربية ومتحيز لها وبالتالي فلا يتناسب أو يمكن تطبيق اختباراته على عينات من حضارات أخرى . غير أن الابداع ظهر في جو مهيء لعدم التحيز كما أنه بطبعه عملية عالمية وبالتالي فانه غير متحيز أو متأثر بحضارة دون أخرى حيث يمكن ويجب أن يكون لكل مجتمع محكات في تحديد الأعمال الابداعية وأصحابها ليس بالضرورة أن تتفق مع تصورات مجتمع أو حضارة أخرى . غير أنه يلزم التنبه لاختبارات الابداع ومقاييسه الآتية من الغرب والتي وان كانت دون شك أقل ضررا من اختبارات الذكاء فانه يلزم فحصها بحرص ويستحسن بنا بدلا من ذلك بناء أدواتنا بأنفسنا وبالرغم من أن البدايات صعبة الا أن طبيعة الأشياء دائما هكذا (وما كانت بدايته شرط كان آخره سلامة) .

٤ - انه ينظر الى الابداع بدون قيود العمر الزمني فقد يكون المبدع راشدا وقد يكون مراهقا وفي هذا رعاية لقطاع كبر من الناس اذا قررنا الاهتمام بالمبدعين ، حيث قد يكون هناك ابداع بعد الخروج من المدرسة (في مجال الحياة العامة) بالرغم من عدم وجود بوادره في المدرسة وكذلك وجود بوادر مشجعة للابداع في المدرسة واختفاؤها في الحياة العامة وكذلك بعض الحالات التي فيها يستمر الابداع الذي تنامى في المدرسة وجنيت ثماره في الحياة العامة . وهذه الميزة ليست متوفرة في الذكاء حيث يظهر أن هناك تصوراً يقول بتوقف نمو الذكاء قبل بلوغ العشرين وبالتالي فلا داعي لرعايته بعد ذلك ومن هنا يهمل أصحاب التفوق وتنقطع أوصال متابعتهم والعناية

بهم وهذا بطبيعة الحال يجعل من يمكن الاهتمام بهم - من منظور الذكاء - قطاعاً محدوداً من الناس وفي فترة وجيزة من الزمن فقط .

٥ - من أهم عيوب الذكاء انه لم يكن له تطبيقات في التربية وهذا زاد العملية التربوية ارباكا بينما اذا نظرنا الى الابداع لوجدناه مرتبطا بالتربية من حيث عملية التدريس والتدريب وهنا نجد أن الباب مفتوح على مصراعيه لمختلف أنواع برامج الاثراء والتعليم الفردي وغير ذلك . زد على هذا أننا اذا ركزنا على الابداع فان ذلك يواكب عمليات تربوية مختلفة تشترك جميعا في اطار ومبدأ واحد وهو عدالة وتكافؤ الفرص التعليمية والذي بدأ في أمريكا في أوائل الستينات ولا زال زخمه الى يومنا هذا في تلك البلاد . وهذه التوجهات التربوية الأخرى تتمثل في التعليم المتقن MASTERY LEARNING والذي بدأ فكرته بلوم وظهر متكاملا في ((١٩٧٦) (BLOOM (1976) وهو نفس الشخص الذي بدأ يركز على فكرة العمليات المتبعة في الابداع كحل مشاكل ، كما ظهر ذلك في البرامج التدريبية التي كان يقوم بها في جامعة شيكاغو BLOOM AND BRODER (1950) وفي هذا كله دعم لمسيرة الابداع وفرص أكبر للنجاح والتفرد .

٦ - واذا كان ليس للذكاء تطبيقات تربوية فانه ليس له أيضا ترجمة عملية أي أنه يظل مفهوماً مجرداً غامضاً ويظل وجوده في الفرد فرضا بحتا ، كما أننا من هذا المنطلق لا نتوقع أن ترى ترجمة محددة عملية للذكاء وبالتالي فليس له فائدة عملية . وهذا بعكس عملية الابداع التي تظهر في غالب الأحيان في أعمال الانسان وأدائه ومن هنا كانت الأنماط والظوهر الحضارية لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم ترجمة للأعمال الابداعية التي قام بها أفرادها وليس ترجمة لذكاء أولئك الأفراد . ومن هنا تأتي أهمية الابداع على المستوى الحضاري للأمة أو المجتمع .

٧ - لعل من أهم خصائص مفهوم الذكاء انه - على الأقل جزء كبير منه - عملية وراثية وبالتالي فانه لا يمكن اكتسابه وبالتالي لا يمكن تدريسه أو التدريب عليه وهذا يزيد من الارباك حول المفهوم . وذلك أن كثيرا من الناس ينظر الى اختباراته على أنها ليست الا اختبارات تحصيل ، كما أن التدريب على

امتحانات القبول في الجامعات ، وهي اختبارات ذكاء واستعداد وغالبها تؤدي ثمارها عندما تزيد من نسبة درجات من تدرب عليها فتزيد الأمر ارباكاً . غير أن الابداع عملية يمكن اكتسابها وتدريسها والتدرب عليها وخاصة اذا ما اعتبرنا أن الابداع نمط لحل مستويات ليست سهلة من المشاكل التي تواجه كل واحد منا في كل يوم وعلى كل المستويات . اننا باضفاء هذه الصبغة على الابداع نكون قد اتحنا لأنفسنا امكانية غرس وتنمية وزيادة مستويات الابداع في مدارسنا وفي مجتمعنا ،الأمر الذي لا يمكن عمله مع الذكاء لما تراكم حول هذا المفهوم من غموض وارباك خلال قرن من الزمن تقريبا .

تعريف الابداع

من التعريفات الكثيرة للابداع سوف نقتصر على أربعة أنماط من التعريفات وذلك لما تمثله من أهمية للموضوع من جهة ومن جهة أخرى فهي تشكل أو تمثل محاور التعاريف الأخرى .

الأول : هو تعريف جيلفورد (1959) GUILFORD حيث يرى أن الابداع يستلزم الطلاقة ، المرونة والاصالة .

أما التعريف الثاني : فهو تعريف مدنيك (1962) MEDNICK الذي يرى أن الابداع تشكيل لعناصر مترابطة في نمط أو شكل أو علاقات جديدة هناك حاجة اليها أو هي على ذلك النحو ملفتة للنظر . p. 221

اما التعريف الثالث فهو أن الابداع ما ينتج في عمل جديد يكون مفيدا أو مرضيا لعدد كبير من الناس في وقت من الأوقات .

اما التعريف الرابع فهو ان الابداع مجرد "تحويل المعلومات القديمة لحل مشاكل جديدة" . BARRON (1957)

ان الشخص في التعريف الأول قد يكون مبدعا لأنه طلق ومرن وعمله جديد غير أنه غير مبدع حسب التعريف الثاني لأنه لم يكّون علاقات جديدة من

مقدمات ومعلومات متاحة، كما أنه لم يقدم أو ينتج عملا مفيدا أو مرضيا حسب التعريف الثالث حيث لا يمكن اعتباره مبدعا . ويمكن تطبيق هذه الحالة على من ينطبق عليهم كل من التعريف الثاني أو الثالث .

وعليه فان التعارض في التعاريف تكمن في أنه قد يوجد :

١ ـ شخص مبدع بدون أن ينتج شيئا ابداعيا أو يستخدم طريقة أو كيفية ابداعية .

٢ ـ يوجد شخص يستخدم طرقاً ابداعية دون أن يقدم عملا ابداعيا .

٣ ـ يوجد شخص ثالث ينتج عملا ابداعيا دون استخدام طريقة ابداعية.

وعليه فان لفرانكوس (١٩٧٩) LEFRANCOIS (1979) يقترح طريقة مناسبة لحل هذا الارباك وذلك بالتمييز بين :

(١) العمليات أو الكيفيات أو الطرق الابداعية وبين :

(٢) الانتاج الابداعي وبين :

(٣) الشخص المبدع أو خصائص الشخص المبدع

ويرى أنه بعد هذا يمكن لنا تشخيص ما يمكن أن يصير ابداعا غير أنه ينبه الى أن كل اختبارات الابداع تركز على الانتاج الابداعي وتعتبر أن ذلك دلالة على الشخص المبدع أو الطريقة المبدعة ، انها أسهل الطرق طبعا غير انها غير كاملة أو ذات فائدة كبيرة .

إنني أعتقد أن الأخذ بهذه الطريقة الأخيرة (التمييز بين أركان أو محاور الأبداع) هام جداً وله مضامينه التربوية والتعليمية ، فإننا عندما نأخذ مسألة الأبداع كمحك للرعاية ثم تراعى هذه المحكات الثلاثة في الإطار الأبداعي نكون قد اقتربنا من الصواب أكثر . فقد يكون هناك شخص مبدع من خلال خصائصه دون أن يكون مبدعاً في طريقته أو انتاجه وقد يكون مبدعاً في طريقته دون ذاته أو انتاجه كما قد يكون إنتاجه أبداعياً دون أن يكون في ذاته مبدعا أو تكون طريقته أبداعية . إن أى تعريف أو رعاية للمتفوق لا بد أن تجعل من هذه المحاور الثلاث أساساً لها وهدفاً لها في نفس الوقت ، على أن يكون محور التعريف هو التركيز على كيفية أو طريقة الأبداع ، لأن ذلك محك هام أو مؤشر قوي على الابداع كما سوف نوضح ذلك بعد قليل .

قياس واختبارات الابـداع

إذا سلمنا بأن للأبداع ثلاثة جوانب هى : الشخص المبدع ، الطريقة الأبداعية ، والانتاج الإبداعي ، فإن الاختبارات الكثيرة والمتنوعة كلها أنصبت على قياس جانب واحد هو قياس الإنتاج الأبداعي فقط وهذا يعد نقصاً كبيراً في فعالية وملائمة هذه الاختبارات . هذا بالإضافة إلى ما أورده غليفر (١٩٦٦) GALLAGHER (1966) . من أن هذه الاختبارات « تحاول بناء طرق مقننة لقياس نتاج سلوكي غير قابل للتقنين » وإذا نظرنا إلى طبيعة الإبداع وما هو عليه من تنوع وتشعب ومدى تأثير الخبرة في نوع الأبداع ومستواه لتأكد لنا صعوبة تقنينه وضبطه من خلال اختبارات ثابتة . أن مستوى ونوع الأبداع حتما سوف يتجاوز هذه الاختبارات أو قد لا يصل إلى مستواها كما انها قد تقيس صدفه وفي وقت لا يمكن ضبطه الا إذا كان بالإمكان توقيف كل شيء حول المبدع .

ويلزم التنبيه على إننا نتحدث هنا عن الاختبارات المعدة لقياس الأبداع وليس عن المحكات التى يتم التعرف بواسطتها على المبدعين بصفة عامة والتى تحدثنا عنها سابقا . أما عن اختبارات الأبداع فقد بدأها جيلفورد (١٩٥٦) GUILFORD (1956) واستمر هذا الاتجاه على يدى يماماتو Yamamoto (1964) وعلى يدى تورانس (١٩٦٦) TORRANCE (1966) الذى أعد اختبارات منيسوتا للتفكير الأبداعي THE MINNESOTA TESTS OF CREATIVE THINKING .

هذا وتقوم اختبارات تورانس للتفكير الأبداعي على أساس من تعريف جيلفورد للأبداع والذى يتضمن الطلاقة ، المرونة ، الأصالة كعوامل منفصلة ومن ثم جاءت تصميمات الاختبارات لتسمح للمستجيب أن ينتج أنواعاً من الإجابات تصب في كل من العوامل أو الخصائص الثلاث للأبداع وتصحح بعد ذلك بناء على المفهوم العام للتفكير الأبداعي ، والذى يتضمن كثرة الانتاجية والتشعب والجودة . ويتضمن هذا الاختبار الأبداع اللغوي ، غير اللغوي (الصور) ، الكتابي ، القراءة ، وجميع هذه الاختبارات محددة بوقت معين . هذا وتقاس الطلاقة في هذه الاختبارات على أساس ذكر المفحوص لأكبر عدد ممكن من

الاستخدمات لشيء ما . وتقاس المرونة بذكر المفحوص لاستخدمات جديدة لشيء ما إذا ما حوّل أو غيرْ شيء فيه وهكذا . أما الأصالة فتقاس على أن وجودها احصائيا قليلة أو أن المختبر حكم بندرتها . علما بأن هذه الاختبارات التى تقوم على قياس الإنتاج الأبداعي تفترض أن هذا هو الطريق الأمثل لقياس الأبداع دون الالتفات إلى الأعتبارات المذكورة سابقا عن أنواع الأبداع وفي هذا الاتجاه مسايرة للمدرسة السلوكية التى تعتمد في جوهرها على التعامل مع السلوك المنتج فقط كأساس للحكم وفي هذا تجاهل للاتجاهات الحديثة المتمثلة في المدرسة المعرفية التى تركز على العمليات المعرفية والتى برز منها الاتجاه الحديث (كيف يتم ـ عقليا ـ الأبداع) HOW TO THINK, HOW TO LEARN والذى أصبح حاليا بؤرة الدراسات التربوية وباختصار فإن في هذا إهمالاً أو تجاهلاً للشخص المبدع وللطريقة الأبداعية التى تمت بها عملية الأبداع .

الإبداع كطريقة حل مشاكل

لقد حددنا أن هناك ثلاثة أنواع من الإبداع ، شخص مبدع وطريقة أبداعية ، وإنتاج إبداعي ، وحان الوقت أن نقول أن الكيفية الأبداعية هى محور الأبداع لأنه قد يكون هناك شخص مبدع في ذاته من دون أبداع وقد يكون هناك إنتاج أبداعي ولكنه تم من دون عملية أو كيفية أبداعية أو بدون شخص مبدع أيضا ، أى أن الإنتاج الأبداعي قد يكون حصل صدفة . لكن الكيفية الأبداعية لا يمكن الا أن تنتج عملاً أبداعياً ولا بد أن يقوم بها شخص مبدع . وعليه فإن الطريقة أو الكيفية الأبداعية التي نتناول بها موضوعاً من الموضوعات هى الأبداع بذاته ، ولا يمكن أن نتوقع عملاً أبداعياً دون أن نهتم بالكيفية التى يتم بها هذا العمل ومن ثم فإن تحسين نوعية الكيفيات أو الطرق التى تُتناول بها الموضوعات أمر جوهري للغاية . ففي دراسة قام بها فتحى الزيات (١٩٨٨) حول أثر استخدام الآلة على حل مسائل الرياضيات ونمو قدرة التلاميذ على اتقان العمليات الحسابية الرئيسية وجد ضعفا في المستوى عزاه إلى عدم فهم الطلاب كيفية حل تلك المسائل والاعتماد على الحلول الجاهزة من خلال الآلة الحاسبة .

هذا وقد كان بلوم BLOOM في أوائل الخمسينيات من هذا القرن أول من ركز على الكيفيات في تناول الموضوع على اعتبار انها بؤرة العملية التربوية . ففي برنامج له في جامعة شيكاغو عام ١٩٥٠ م لتقوية مستويات الطلاب في الجامعة للنجاح في الامتحان الشامل الذى تطلبه الجامعة للتخرج ركز على الكيفيات والاستراتيجيات التى يستخدمها الطلاب لحل المشكلات التى تواجههم أثناء الدراسة . ولمعرفة تلك الاستراتيجيات طلب من الطلاب التفكير بصوت عالى وهم يحاولون التعامل مع الموضوعات المطلوبة منهم وكان هناك مجموعتان من الطلاب ، مجموعة نموذجية نجحت في الاختبار الشامل ومجموعة أخرى هى تلك التى لم تنجح .

لقد وجد بلوم أن المجموعة النموذجية كانت تستخدم استراتيجيات أو كيفيات لحل المشاكل الدراسية مختلفة عن تلك التى تستخدمها المجموعة التى لم تنجح في الاختبار . واستنتج كذلك أن المجموعة النموذجية توصلت إلى تلك الكيفيات ليس من فراغ وانما لهضمها للموضوع المطلوب . لقد كان أول إجراء اتخذه أن طلب من الطلاب الذين لم ينجحوا أن يستخدموا تلك الكيفيات أو الاستراتيجيات التى استخدمها زملاؤهم وأن عليهم أن يعرفوا كذلك الموضوعات المطلوبة منهم . انه لا يمكن أن يكون هناك عمل أبداعي دون فهم للموضوع الذى يراد الأبداع فيه وهذا أمر كامن في طبيعة الأبداع كما سنرى فيما بعد ، كما نريد القول بأن الأبداع هو في الكيفية التى تعامل بها الأشياء ، ويأتى الإنتاج الأبداعي كنتيجة كما يعرف الشخص المبدع كاستدلال .

إننا يجب أن نعرف كيف يتم عمل ما حتى نستخدم الطرق المناسبة للتعامل معه سواء كان ذلك لتقييمه أو الحكم عليه ، وما دمنا لا نعرف كيف يتم الأبداع فإن الحكم على أى شىء يتعلق به غير موضوعي وغير سليم وبالتالى فعلينا أن نعرف كيف يتم الأبداع ، ما هى الكيفية التى يتم بها وعلينا أن نتحرز في إصدار أحكامنا حتى نعرف ذلك وإذا عرفناه فإننا بالتالى سوف نعرف المتفوق وأين تفوقه وكيف يمكن تحقيق زيادة مستوى التفوق . إن الاتجاه الحالى ينظر إلى الأبداع كأى عادة ، عادة حل مشاكل يمكن تعديلها وتحسينها ورفع مستواها وهذا كله ممكن إذا عرفنا الكيفية التى بها يتم الأبداع كحل للمشكلات .

لقد ظل كنه الأبداع ينتابه الغموض ولازال ، فبعض يرى أنه سمة من سمات الشخصية والبعض يرى أنه قدرة عقلية خاصة والبعض الآخر يرى أنه نمط من استراتيجيات حل المشاكل . ويستحسن أن نقول هنا بأن تاريخ الذكاء والجدل القائم حوله قد جعل كثيراً من العلماء المختصين في المجال المعرفي والاختبارات يتجهون إلى اعتبار الأبداع نمطاً رفيعاً من أنماط حل المشاكل ويبعدونه بقدر المستطاع عن دائرة الجدل القائم حول الذكاء ، ولعل فيما قلناه حتى الآن حول الموضوع ما يجعل الاتجاه نحو اعتباره نمطاً رفيعاً لحل المشاكل شيئاً معقولاً ومقبولاً . وفي مقدمة من يرى الأبداع كطريقة حل مشاكل من مستوى رفيع بلوم (١٩٥٠) BLOOM.(1950) وكذلك جيلفورد (١٩٦٧) GUILFORD (1967) وغيرهما . هذا وقد تعاظم هذا الاتجاه حتى ظهرت مئات البرامج للتدريب على الأبداع كحل مشاكل في مختلف الجوانب كما سيتضح ذلك فيما بعد عندما نتحدث عن التدريب على الأبداع .

غير أنه يجب توضيح أمر مهم هنا وهو أن هناك تفريقا بين ما يعتبر ذكاء في حل المشاكل وما يعتبر أبداعاً في حلها كما في الدراسات ذات العلاقة وهذا التفريق يعود إلى تفريق جيلفورد GUILFORD بين التفكير التقاربى CONVERGENT THINKING والتفكير التباعدى DIVERGENT THINKING حيث يعتبر الأول بمثابة تضييق الإجابات أو الاحتمالات للوصول إلى إجابة صحيحة واحدة أو إلى أصح الإجابات وقد اقترن هذا النمط بالذكاء . أما النمط الثانى فهو بمثابة إثراء الموضوع وتعدد الإجابات الصحيحة وكلما زادت كان ذلك أفضل وقد اقترن هذا النوع بالأبداع . وعليه فإننا إذا ركزنا على الإجابة أو الحل النهائي في حل المشكلة فإننا نتعرف على الذكاء ولكننا إذا ركزنا على الكيفية التى تحل بها المشكلة وتبينا جوانب العملية جيداً فإننا نتعرف على الأبداع وهكذا أعتبر الأبداع طريقة حل مشاكل ليس فقط لما ذكر أعلاه بل أيضا لأنه يمكن اعتبار مواقف الحياة المختلفة من حولنا مواقف تتطلب حلولاً أبداعية . وتزداد المواقف تعقيداً مع سرعة التغيير المحيط بنا من كل جهة وبالتالى يصعب حلها ويتزايد الإلحاح على إيجاد الحلول المناسبة لها والتى

لا يتمكن من حلها الا أصحاب الأبداع ومن هنا تأتى أهمية الأبداع وأهمية التصور الجديد للأبداع .

إن في هذا التصور للأبداع دفعا قويا لحل المشكلات التى تواجه الفرد والمجتمع على مختلف المستويات وبالتالى تحقيق الأهداف التى يسعى اليها كل من الفرد والمجتمع على السواء . إننا نكون مخطئين إذا علمنا أولادنا كيف يعيش أحدهم يومه أو كيف تكيف من سبقونا مع عصرهم فقط ، ذلك أن عصر التغيرات السريعة تفرض علينا الا ندرسهم حقائق اليوم لأن الاحتمال كبير بأن لا تكون حقائق غداً . أن علينا أن نعلمهم الاستراتيجيات التى يتعاملون بها مع مشكلات الحياة الجديدة غدا بكل عناصرها ، انه الأبداع ، طرق حل المشاكل . والمقصود هنا بحل المشاكل هو الطرق أو الكيفيات الأبداعية المناسبة للوصول للأهداف الفردية والأجتماعية .

واقع الابداع في المؤسسات التربوية

يستحسن بنا هنا أن نلقي أولا أضواء على الصفات التي يتصرف بها الشخص أو الطالب المبدع ثم ننطلق من ذلك الى نقاط أخرى وذلك لما لهذه الخطوة من أهمية في تحديد واقع الابداع في مؤسساتنا التربوية . وعليه فانه يمكن حصر أهم صفات المبدع فيما يلي : الاستقلالية في الرأي ، الجرأة الفكرية ، الانهماك في العمل المطلوب أو المرغوب انجازه ، الحدس والتخمين ، الاصرار ، الرغبة والقدرة على المجازفة والاقدام ، عدم الرغبة في أخذ آراء الآخرين على علاتها . حب الاطلاع والتطفل العلمي .

هذا ولعل السؤال المنطقي بعد ذلك الوصف لبعض صفات المبدعين هو : ما هو موقف المدرسين من المبدعين ؟

وللاجابة على هذا السؤال فقد أجريت دراسات متعددة منها دراسة جتزلز وجاكسون (١٩٦٨) GETZELS AND JACKSON (1968) والتي اتضح فيها أن المدرسين يفضلون من يسمّون بالأذكياء على المبدعين . ذلك أن الذكي يريح المدرس في الوصول الى الحل المطلوب ويقابل توقعات المدرس فيُسمع المدرس

ما يجب أن يسمع ويتبع الطرق المألوفة والمفضلة لدى المدرس سواء كان ذلك في التحصيل أم في التعامل داخل الفصل بينما لا يقوم المبدع بذلك كما تدل على ذلك الصفات والخصائص التي يتميز بها . ففي دراسة أخرى قام بها غليفر GALLAGHER, (1979) طُلب من المدرسين أن يعددوا الصفات التي يرغبون أن تتوفر في طلابهم وكانت النتيجة أن وجد ان المدرسين لم يذكروا من الصفات التي تتوفر في المبدعين سوى صفتين هما : حب الاستطلاع ، والاستقلال في التفكير ، انهم باختصار يفضلون الطلاب ذوي التفكير التقاربي CONVERGENT THINKING وهم الباحثون عن الحل الصحيح ، الذين يسايرون الطرق والأساليب والتوقعات التي يراها ويفضلها المدرسون . ان المدرسين يرون ان المبدعين يسببون لهم صعوبة في ضبط الفصل ، انهم يعتبرون صناع مشاكل ولديهم صعوبات تعلم الى درجة أن تورانس (١٩٦٦) TORRANCE (1966) من منطلق هذه الاتجاهات نحو المبدعين ومن واقع الصعوبات التي يواجهونها اعتبرهم معوقين وفي حاجة الى رعاية .

ومن هنا يتضح السبب لماذا قد يثير المبدعون الضوضواء في الفصول ولماذا قد يجلسون في الزوايا البعيدة من الفصل ولماذا يتسرب نسب كبيرة من المبدعين من المدارس . ان المبدعين كنتيجة لما سبق قد يكون لديهم مشاكل انفعالية وقد يكونون غير ملتفتين وذوي اتجاهات سلبية نحو طرق التدريس والمقررات الدراسية ومحتويات المناهج وبالتالي يكون موقف المدرسين منهم سلبيا وتقييمهم لهم غير صحيح . فمثلا إدسن TOM EDISON كان يسأل أسئلة تضايق مدرسيه وبالتالي فان موقف المدرسين كان سلبيا منه ، ونتيجة لذلك كان ادسن يجلس في الزاوية البعيدة من الفصل منشغلا مع مافي فكره ومركزا انتباهه حول ذاته مما جعل المدرس يحكم عليه بأنه ليس سليم العقل . كذلك الحال مع إنشتاين ALBERT EINSTEIN حيث كان يتلقى العقاب الشديد على أسئلته المحيرة من مدرسيه ، حتى أنه طلب منه ذات يوم أن يترك المدرسة لأسئلته الكثيرة (كلارك ١٩٦٧) CLARK (1967).

ان المدرسين غير مبدعين في أسئلتهم وطرق تدريسهم وتعاملهم مع المقررات والمناهج . حيث ان ٩٠٪ من أسئلة المدرسين ليست الا اعادة لما في

الكتاب المقرر وجميعها تبحث عن الاجابة الصحيحة أو الأصح التي يريدها المدرس وليس هناك الا حوالي عشرة في المائة من مجمل أسئلة المدرسين التي يمكن اعتبارها مثيرة للابداع والتفكير . وفيما يتعلق بطرق التدريس والمناهج يذكر غليفر GALLEGHER (1975) أن هناك أربع طرق يمارسها التربويون وهم بذلك يقضون على الابداع في العملية التعليمية :

الطريقة الأولى : اعداد مناهج جامدة لا يشارك فيها الا ثلة من مسئولي التعليم وتحديد وقت محدود لتلقينها للطلاب . وعليه فانه لاهم للمدرس إلا أن ينهى المقرر دونما مراعاة لأي شيء آخر .

الطريقة الثانية : يقوم المدرس بتدريس محتويات ليس على دراية كاملة بها ومن ثم فانه لا يتيح للتلاميذ مجالا لإثارة الأسئلة والنقاش وبالتالي لا ينهي منهجه ولذلك فهو يحرص على عدم اتاحة هذه الفرصة .

الطريقة الثالثة : لا يقبل المدرس الا بمنهج أو محتوى أو اتجاه واحد ويعتبره هو الصحيح فقط وبالتالي فهو لا يسمح بأي شيء يخرج عن هذا المنهج أو الكتاب أو المحتوى وهذا دون شك عقبة في وجه الابداع .

الطريقة الرابعة : ان المدرسين لا يسمحون بالمناقشة أو التقييم من قبل الطلاب وما عليهم إلا الإجابة على الاسئلة الموجهة إليهم بحقائق من الكتاب أو من تلك الأفكار التي تلقوها من المدرس وغير ذلك لا يعتبر مقبولا سواء كتابيا أم شفهيا .

انهم المدرسون الذين يكافئون الطلاب على الجلوس التقليدي على المقاعد الدراسية في خطوط مستقيمة ، أرجلهم مثبتة في الأرض وعيونهم محدقة في المدرس ، لا ينطقون بشيء الا بما شاء مدرسهم أن ينطقوا به . انهم مدرسون يصرون على طلابهم ألا يتجاوزوا قيد أغلة التقاليد والطقوس في علاقة المدرس والطالب ، انهم مدرسون يعطون درجات أعلى للطلاب الذين يقدمون الحل الأصح المألوف للمسألة المطروحة بطريقة مهذبة وذات ديباجة. انهم مدرسون لا يتحيون للطالب مجالا لاكتشاف المجهول أو الغامض في الموضوع المطروح .

انهم مدرسون لا يجيبون على أسئلة طلابهم مالم تكن مألوفة لهم وروتينية الطرح .

وللخروج من هذه الدائرة المغلقة في وجه الابداع وتنميته فقد اقترح غليفر (١٩٧٥م) GALLAGHER (1975) خمس طرق قد تسهم في تعزيز الابداع ورعايته في مدارسنا وهي :

١ ـ تنظيم المناهج ووضعها على أساس تدريس المفاهيم وليس لتدريس الحقائق فقط . وفي هذا امكانية عرض المفهوم بطرق متعددة وبالتالي اتاحة الفرص لمختلف مستويات الطلاب. وعليه فان على المدرس معرفة المفاهيم وكيف تدرس وكيف تحلّل وتناقش .

٢ ـ السماح للطلاب بعمل مشاريع خاصة بهم تحت اشراف المدرس المباشر والفعال . وذلك حتى ينمي الطالب أفكاره الخاصة التي تنمو من خلال متابعة المدرس وفي هذه المشاريع التعليمية فرصة للاستقلالية العلمية والابداع .

٣ ـ اتاحة الفرصة للطلاب للتعرف والتعلم تحت يدي المدرسين ذوي المهارات المشهود بها في المدرسة ، وهذا قد يتم من خلال لقاءات خاصة بين الفصول المختلفة ومدرسيها وهكذا .

٤ ـ اتباع الفلسفة القائلة ان الحقيقة العلمية يبحث عنها دائما وليست موجودة أمامنا أو جاهزة للحفظ ثم التذكر . حيث يلزم ان نعتمد في مناهجنا طريقة التعليم الاستكشافي وهنا يختلف دور المعلم من موزع للحقائق الى مساعد في البحث عنها .

٥ ـ ان يُركز في تدريبنا للمعلمين على طريقة كيف تكتسب المعرفة وليس على الناتج المعرفي ذاته وذلك لكي يكتسبوا المهارات المتعلقة بالكيف وليس المتعلقة بالكم .

ان المحور الرئيسي لاطلاق الابداع في طلابنا هو المدرس وطريقة تدريسه ، يدعمه في ذلك المنهج المناسب والجو المدرسي العام المناسب بما فيه الادارة المدرسية . انه مالم نطور طرقاً ووسائل جديدة في التدريس تشجع الابداع في كل الطلاب فاننا سوف نخسر كثيرا سواء بعدم قدرتنا على حل مشاكلنا التربوية أم

الاجتماعية أم على مستوى ثقافتنا أو حضارتنا لأن الابداع يعد ذا قيمة حضارية تربوية ورعايته مسئولية وطنية .

ان رعاية التفوق برعاية الابداع الحقيقي في كل الناس والطلاب بصفة خاصة لمسئولية اجتماعية وتربوية يتحمل المدرسون جزءا كبيرا منها . وان التحدي هو كيف نجعل من أنفسنا كتربويين ومن مؤسساتنا التربوية المختلفة وسائل نماء وعطاء ، أرضاً صالحة لتنمو وتتفتح وتثمر فيها قدرات التفوق والابداع ، ذلك أن ما بين أن يكون الانسان متفوقا مبدعا وبين أن يكون عاديا أو حتى أقل من عادي لمسافة قصيرة أو خيط رفيع .

ان المبدعين المتفوقين قد لا تتناسب معهم القيود والنواميس التربوية التي يتسم بها الجو التربوي العام في المدرسة ، وهناك عددا من المشاهير ضاقت بهم صدور مدرسيهم غير أنه اتضح من خلال أعمالهم انهم مبدعون متفوقون مثل : إنشتاين ، إدسن (EISTEIN, EDISO) وأنا متأكد أن هناك مبدعين متفوقين في عالمنا الاسلامي والعربي حصلت لهم ظروف مشابهة . والمشكلة أن الظروف والحظوظ لم تعرفهم لنا ولم تثبت لنا أنهم كذلك .

ان الطلاب المبدعين قد لايتفوقون في اختبارات التحصيل وخاصة تلك التي تصاغ على الطريقة الموضوعية والتي يأخذ بها عدد كبير في مدارستنا وجامعاتنا بشكل خاص لأنها تركز على حل واحد صحيح تقريبا بينما المبدعون يركزون على اظهار الحلول الممكنة للمسألة . CONVERGENT - DIVERGENT THINK-ING ISSUE وهكذا فان المبدعين ـ ومن نواحي كثيرة ـ في سباق خاسر مع الطلاب العاديين وأولئك الذين نسميهم أذكياء (حلمي المليجي ١٩٧٢) .

ان توجهات كثير من مدرسي اليوم يدعم هذا السباق الخاسر حيث يبحث مدرس اليوم عن الاجابة الصحيحة كما حددها هو فقط حيث لا يمكن أن ينظر لغيرها على الاطلاق . ولعل الأسئلة الموضوعية التي يتزايد استخدامها اليوم في مدارسنا وجامعاتنا أكبر دليل على ذلك لدرجة أن بعض الطلاب في مؤسساتنا التعليمية لم يعد يستطيع أن يكتب جملة منظمة الأفكار . كما ضعف الخط وكثرت

الأخطاء الاملائية وقلت الى درجة كبيرة القدرة على تنظيم الأفكار في كل متكامل . وهذا كله قتل الابداع المعرفي عند الطلاب . ليس هذا فقط ماهو قائم في طرق الاختبارات بل وفي طرق التدريس كما ذكر سابقا حيث يركز المدرس عل تلقين الطلاب الاجابات الصحيحة فقط ولا يعطي أي فرص للمناقشة أو الاختبار لمدى صحة تلك الاجابات المعطاه . ان آخر ما ينظر اليه المدرس في الطالب هو تنمية التفكير الابداعي حتى يأتي في ذيل قائمة اهتماماته كما أكده تورانس TORRANCE (1965) .

أمور مهمة في التدريب على الابداع وتدريسه

سبق القول بأن الابداع هو طريقة حل مشاكل واعتبرنا أن كل ما حولنا مواقف في حاجة إلى اتخاذ قرارات وحل مشاكل . غير أن مستويات هذه المواقف من حيث التعقيد والحجم تختلف وبالتالى فإن حكمنا على كون العمل أو الكيفية التى تحل بها المشاكل عملا ابداعيا موضوعا يجب الاتفاق عليه ووضع مواصفات له . علما بأن هناك محكات لاعتبار طريقة حل المشكلة عملا ابداعيا أم لا وهذه المحكات : أما عن طريق النسبة الاحصائية أو عن طريق حكم الخبراء والمدربين على موضوع الابداع واما عن طريق استقصاء آراء الجماعة المحيطة .

أما لماذا ربطنا الابداع بحل المشاكل فبالاضافة إلى كون كل موقف يمكن اعتباره مشكلة في حاجة إلى حل ، هناك أهمية مباشرة للقدرة على حل المشاكل والاهتمام بحلها وذلك لأن الحضارات تقوم على الابداع في حل المشاكل التى تواجه الناس في الحياة العامة والخاصة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن طبيعة التغيرات الاجتماعية السريعة في الحياة الحاضرة في حاجة ماسة إلى أعمال ابداع في حل المشاكل القائمة وتنمية الابداع والتدريب عليه في مجال حل المشكلات مطلب منطقى وملح . هذا بالإضافة إلى أننا نريد ابعاد الابداع عما علق به من أفكار متأثرة بالمناخ الجدلى بين تأثير كل من الوراثة والبيئة على الشخصية وسماتها حيث إن البعض لا يرى أن الابداع سمة من سمات الشخصية . ليس هذا فقط بل إن التدريب على حل المشكلات قد يكون له أثر ايجابى على عمليات عقلية أخرى .

فمثلا يرى GAGE AND BERLINS (1984) أن حل المشاكل يعنى فهم أنماط مختلفة من المشاكل والمهارات اللازمة المطلوبة للحل ، فهم استراتيجيات تناول المشاكل ، واستخدام الطرق التى تعتمد التخطيط في تقسيم المشكلة إلى مراحل ، وتنمية الاحساس بالوقت المطلوب للحل بناء على المعطيات المتوفرة ، والقدرة على أن يكون الفرد مرن ومتكيف في استخدام قدراته المختلفة ، والقدرة على أن يكون الفرد حدسياً وتحليلياً في نفس الوقت ، مشغولاً ومتشاغلاً ، جاداً ومتراخياً ، مبدعاً وناقداً ، باحثاً عن التعقيد ومتلهفاً للبساطة ، وباستطاعته التعويض في المهارات الغير متوفرة واستغلال قدرات الفرد في استخدام الاستراتيجية المناسبة لتناول المشكلة . بل أيضا في اختيار المشكلة .

ومن هذه المنطلقات فإن MAYER (1983) يعرف الابداع على أنه (نشاط معرفي أو كيفية معرفية ينتج عنه حلول مبتكرة للمشكلة) P . 327 وعليه فإن التدرب على الابداع يعنى تدريس الناس كيف تبتكر أفكاراً جديدة لحل الموقف أو المشكلة . هذا وبالرغم من أن أهم البرامج التربوية كانت ولازالت تركز على البرامج ذات النمط التقاربى الا أنه في الآونة الأخيرة ظهرت برامج متعددة لتنمية الابداع في حل المشاكل خاصة في الولايات المتحدة الامريكية وكان لهذا التركيز أسباب ذكرت بعضها في أول هذه الدراسة وسوف نعرض فيما يلي الأمور الواجب مراعاتها عند التدريب على الابداع وتدريسه :

١ ـ ما يستفاد من تجربة جامعة شيكاغو الأمريكية :

كانت أول محاولة من هذا القبيل في جامعة شيكاغو عام ١٩٥٠ م على يدى بلوم BLOOM صاحب فكرة التعلم المتقن . هذا وقد كان السبب وراء قيام هذا البرنامج أن الطلاب في الجامعة كانوا يواجهون صعوبة في تجاوز الاختبار الشامل المطلوب لنيل الدرجة العلمية بالرغم من توفر القدرة والدافعية فما كان من كل من برودر وبلوم (BRODER , BLOOM) الا أن قررا قيام هذا البرنامج لمساعدة هؤلاء الطلاب .

هذا وقد كان السؤال هو ماذا ندّرس في البرنامج وكيف ؟ انهما بطرح هذا ل يفرقا بين المحتوى والعملية والنتيجة . فما كان منهما الا أن ادركا أن الدراسات

السابقة تركز على النتيجة وتهمل الكيفية التى يتم بها التوصل إلى النتيجة . وهذا ليس المهم انما المهم هو الكيفية التى يتم بها التوصل للنتيجة لأن شخصين قد يصلان لنفس النتيجة بأسلوبين مختلفين قد يكون أحدهما خاطئا مثلا حيث لا يمثل طريقة تربوية . وبالفعل فقد ركزا على الكيفية التى بها تحل الصعوبات التى تواجه الطلاب وهنا يكمن التفكير التباعدى أو الابداعى لأن مجرد التركيز على الكيفية يعنى تعلم الاستراتيجيات التى تولد الاجابات المتعددة المحتملة .

أما الوسيلة المستخدمة والتصميم المتبع فقد أُحضر فريقان من الطلاب أحدهما تجاوز الامتحان الشامل بنجاح والفريق الثانى لم يتجاوزه ثم طلب من كل فريق وهو يحاول حل المشاكل المتعلقة بالدراسة أن يفكر بصوت عال وأن يصفوا ماذا يدور في عقولهم أثناء ذلك ، وعند المقارنة بين الكيفية التى يستخدمها كل فريق وجد أن الفريقين يستخدمان كيفيتين مختلفتين وأن الكيفية التى يستخدمها الفريق الذى نجح كانت منطقية علمية ذات مستوى معقد وابداعي بعكس الفريق الثانى الذى كان يستخدم كيفيات غير ناجحة . فما كان من الباحثين الا أن علّما الفريق الثانى الكيفيات التى استخدمها الفريق الأول وبالفعل فقد استفادوا من ذلك وتجاوزوا الامتحان . هذا وعندما قام الباحثان بتحليل هذه العملية ككل وجد أن :

(أ) التركيز على الكيفية التى يتم بها الحل عملية أساسية وحاسمة في حل المشاكل وبالتالى في العملية الابداعية .

(ب) إن مجرد إستخدام كيفية منطقية وعلمية ليس كافياً في حد ذاته بل لا بد من معرفة دقيقة بالموضوع الذى يراد الأبداع فيه ومعرفة عمومياته وخصوصياته .

٢ ـ معرفة متخصصة عميقة بالموضوع بالإضافة إلى استراتيجيات ومهارات عامة لحل المشاكل :

يلزم التذكير بأن كلامنا كله يدخل في إطار علم النفس المعرفي ومن خلال استعراضنا لمحاولات التدريب على حل المشكلات وانماط ذلك التدريب يتبين لنا

بعد تتبع اتجاهات العلم في هذا الخصوص أن الفرد لكى يصبح مبدعا في حل المشاكل في ميدان أو حقل من الحقول أو علم من العلوم فإنه لا بد له من توفر أمرين : الأول : أن يتعلم ويلمّ ويهضم ويفهم المعلومات الدقيقة في ذلك الميدان ؛ أى يكون فاهما لعلمه . ثانيا : أن يلم ببعض أو كل الاستراتيجيات العامة لحل المشاكل وذلك ليطبقها على معرفته المتعلقة بميدان تخصصه عندما يريد حل موقف أو مشكلة من المشاكل المتعلقة بذلك الميدان .

فمثلا من الخبرات والملاحظات تبين أن هناك شواهد كثيرة على أهمية المعرفة المتخصصة بالميدان المراد الأبداع فيه وحل المشاكل ذات العلاقة . وفي الحقيقة ـ كما قيل سابقا ـ أن الأبداع لا يتم الا بعد فهم كامل للموضوع المرغوب الأبداع فيه وهذا يأخذ وقتاً وجهداً عظيمين . إن حل المشاكل والأبداع في ذلك يتطلب معلومات ، ومعرفة علاقات دقيقة والوقوف على احتمالات وإرتباطات غير واضحة وهذا كله لا يتيسر الا بمعرفة تفصيلية كاملة بالموضوع وبدون ذلك فإنه مهما كانت كفاءة التدريب على الاستراتيجيات تعتبر ناقصة .

هذا وقد وافق SIMON (1980) وكذلك GREENO (1980) على ضرورة إكتساب المعرفة المتخصصة إذا كنا نريد أعمالا أبداعية وأن مجرد التدريب على الاستراتيجيات لا يكفى . والسؤال هنا هو : إذا كان فهم المادة التخصصية ضرورياً للعمل الأبداعى فكيف نساعد الفرد على الفهم وما هى الاعتبارات والمستجدات التى يمكن الأخذ بها من الدراسات الحديثة في علم النفس المعرفي ؟

من جهة أخرى فإنه مهما كانت أهمية المعرفة المتخصصة فإنه من الضرورى للإنسان لكى يقدم حلولاً أبداعية للمشاكل أو المواقف الملحة أن يستخدم كيفيات معينة واستراتيجيات متنوعة لينظم وينسق ويقارن ويجمع ويفرز بها تلك المعلومات لكى يكوّن منظومة حل جديدة متميزة . إن ضرورة تكامل المعلومات المتخصصة والمهارات العامة معا في حل المشاكل على مستوى أبداع تشبه ضرورة طرفي المقص لبعضهما البعض لتأكيد العمل الذى صنع من أجله .

والسؤال الهام هنا هو : ما هى المهارات أو الاستراتيجيات العامة اللازمة والتى تكفل حل المشكلة بطريقة أبداعية ؟

يرى البعض ومنهم جرينو GREENO (1978) أن التخطيط على طريقة تحليل الوسيلة ـ الغاية وكذلك فهم المشكلة مهم للغاية كنوع من الاستراتيجيات . إن المهارات العامة تتضمن فهم خطوات ديوى في حل المشاكل ، كما تتضمن فهم وتحديد الهدف ، التخطيطوتطويع المعلومات . انها مهارات عامة أو استراتيجيات عامة قد يعتقد البعض انها كثيرة ومتنوعة بينما هى في الحقيقة محدودة وسهلة التعلم . إن خطوات ديوى Deway (1933) الخمس قد تكون كافية كمهارات عامة لحل المشاكل ويبقى تطبيقها على الميدان المتخصص .

إننا إذا أردنا التوجه نحو العمل الأبداعى في مؤسساتنا التربوية وإذا أردنا تطبيق هذه المعرفة المتراكمة حول الأبداع وإمكانية تنمية طرق رعاية التفوق في مجال التربية فإن علينا أن نعلم طلابنا تعليما حقيقيا وذلك سيتم بتبنى مضامين الأبداع ومتطلباته وأهدافه ، والتى من أهمها فهم للمعرفة المطلوبة ومعرفة بالاستراتيجيات العامة اللازمة لحل المشاكل أو المواقف التربوية . إن تحقيق هذين الشرطين قد يتم في الحصة الواحدة ، في المادة الواحدة بشرط أن يعى المدرس أهمية وماهية الأبداع باعتباره حل مشاكل أو تعامل مع مواقف تربوية بطريقة ابداعية . إننا في حاجة إلى تغيير اتجاهات المدرسين نحو العمل التربوى وطرق التدريس وعلاقة المدرس بالطالب ووضوح الهدف القريب والبعيد للعملية التربوية والدور الذى يجب أن يلعبه الأبداع فيها .

ونظراً لأهمية معرفة الاستراتيجيات العامة في حل المشاكل وكذلك معرفة أو الالمام بالموضوع الذى يراد الأبداع فيه فإن الباحث يعتزم ـ في دراسات لاحقة ـ البحث في طبيعة حل المشكلات في غلاقتها بمختلف المعارف النظرية والتطبيقية . من جهة أخرى فإن الباحث يرى أنه لكى يتم معرفة أو الالمام بموضوع ما من قبل الشخص (الطالب) لكى يبدع فيه فلابد للمدرس ليساعده على الفهم الحقيقى للموضوع من معرفته لأمرين هامين وهما : الأساليب المعرفية للتعلم عند الطالب COGNITIVE STYLE وكذلك معرفة البناء أو الرصيد المعرفي عند الطالب COGNITIVE STRUCTURE هذا وسوف يحاول الباحث دراسة هذين المفهومين أيضا في المستقبل بإذن الله لتحديد أهمية كل منهما في العملية التربوية وبخاصة في علاقة كل منهما بالأبداع ورعايته .

وأخـــيراً

١ ـ يستحسن تلمس إطار جديد نظرى نابع من حضارتنا للإنسان الناجح أو المتفوق فقد يكون الإقدام المدروس ، الصبر المعقول ، الحساسية الاجتماعية ، كظم الغيظ ، الاعتراف بالحق ، عدم اهتزاز المبادىء أمام المغريات ، أقول إن هذه قد تكون بعض محكات ومؤشرات للإنسان المتفوق . إننا إذا وصلنا إلى تصور متكامل حول هذا الموضوع فإننا نكون قد بدأنا الخطوة الأولى نحو بناء نظرى ذاتى تستند اليه ممارستنا التربوية ونكون بذلك قد تجاوزنا أخطاء التقليد لمفاهيم الآخرين .

٢ ـ إستكمالاً أو أساساً للمقترح الأول يحسن بنا أن نبحث في التصور الإسلامي للتفوق وكما سبق القول أعتقد أن هناك شيئا مفيد ينتظر من يبرزه ويربطه بالعمليات التربوية والاجتماعية في حياتنا .

٣ ـ يلزم أن نكوّن مفهومنا عن الأبداع ومواصفاته وأن نحدد إطاراً نظرياً لذلك نابعا من ميراثنا وتصورنا ومعاييرنا التى تنبع من حضارتنا وفي الحقيقة ـ كما سبق القول ـ أن الأبداع نتاج مجتمعى بحيث يختلف من مجتمع إلى آخر فقد يعتبر شىء ما ابداعاً في مجتمع ما وعملا عاديا في مجتمع آخر لأى سبب من الأسباب وفي أى وقت من الأوقات .

٤ ـ إجراء بحوث لمعرفة اتجاهات المدرسين نحو الأبداع والمبدعين من الطلاب وذلك تلمسا لبناء صياغة جديدة للعلاقة بين المدرس والطالب يبرز من خلالها الكيفية التى تتحقق بها الأهداف التربوية في رعاية التفوق والأبداع في كل طلابنا وبالتالى تلافى تلك العلاقة غير التربوية بين المدرس والطالب .

٥ ـ إن علينا إجراء بحوث على مختلف مستويات التعليم لمعرفة مدى فعالية طرق التدريس والتفاعل بين المدرس والطلاب في إنماء التفكير الأبداعى فقد يكون في معرفة ذلك تحديد للمكان الذى نحن فيه فيما يخص علاقة طرق التدريس بالتفكير الأبداعى وبالتالى نحاول تصحيح المسار التربوى نحو مستوى مناسب للأبداع .

٦ ـ إذا ثبت عدم وجود نصيب مناسب للتفكير الأبداعى في مدارسنا فكيف يمكن توعية المدرسين وتغيير اتجاهاتهم نحو العمل الأبداعى الحقيقى وما هى الخطوات اللازمة لتحقيق ذلك .

٧ ـ إذا أخذنا الأبداع على أنه نمط تربوى كيفي لحل المشاكل ذات المستويات المختلفة ، فإنه يلزمنا التوجه في برامجنا إلى ما يمكن تسميته « الهندسة المعرفية » COGNITIVE ENGINEERING كما قال بذلك NORMAN وهنا يتم التركيز على كيف يتم التعلم ، كيف يتم التفكير ، كيف يتم حل المشاكل . . . الخ .

٨ ـ إجراء بحوث لتحديد متى نعتبر العمل أو الكيفية التى تحل بها المشكلة عملاً أبداعياً .

٩ ـ إجراء بحوث لتحديد المستوى الذي يلزم الطالب أن يلم به سواء في المعلومات المتخصصة أم في الاستراتيجيات العامة ليكون بعد ذلك قادراً على اظهار وتأدية أعمال ابداعية .

المراجـــع

١ ـ المراجـع العربيـــة :

١ ـ السيد ، فؤاد البهى (١٩٦٩) الذكاء ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٢ ـ الزيات ، فتحي مصطفى (١٩٨٨) أثر استخدام الآلات الحاسبة اليدوية على التحصيل في الرياضيات ونمو القدرة العددية لدى طلاب التعليم العام والمتوسط والثانوي . بحوث المؤتمر الرابع لعلم النفس في مصر ، القاهرة .

٣ ـ جون لويس (١٩٨٦) الإنسان ذلك الكائن الفريد ، ترجمة صالح جواد كاظم ، وزارة الثقافة والإعلام ، العراق .

٤ ـ المليجى ، حلمى (١٩٧٢) دراسة تجريبية في سيكلوجية الابتكار جامعة بيروت العربية ، لبنان .

٢ ـ المراجـع الأجنبيـة :

1 - BARRON, F (1957) ORIGINALITY IN RELATION TO PERSONALITY AND INTELLECT, JOURNAL OF PERSONALITY, 730-742.

1 - BLOOM, B.S. (1979) HUMAN CHARACTERISTICS AND SCHOOL LEARNING, McGRAW-HILL, N.Y.

1 - BLOOM, B.S. AND BRODER, H.J. (1950) PROBLEM-SOLVING PROCESSES OF COLLAGE STUDENTS AS AN EXPLANATORY INVESTIGATION, UNIV. OF CHICAGO, CHICAGO.

1 - CLARK, B. (1983) GROWING UP GIFTED, CHARLE E. MERRILL, COLUMBUS

5 - COLE, N.S. (1981) BIAS IN TESTING, AMERICAN PSYCHOLOGIST, VOL. 36, 1067-1077

6 - DEWAY, J. (1933)
HOW WE THINK: A RESTATEMENT OF THE RELATION OF REFLECTIVE THINKING TO THE EDUCATIVE PROCESS, HEATH, BOSTON.

7 - EYSENCK, H.J. (ED) (1973)
THE MEASUREMENT OF INTELLIGENCE, WILLAMS AND WILKINS, BALTIMORE.

8 - FELDMAN, D (1979)
TOWARD A NONELITIST CONCEPTION OF GIFTEDNESS, PHI DELTA KAPPAN, 60-660-663

9 - FOX, L.H. (1981)
IDENTIFICATION OF THE ACADEMICALLY GIFTED, AMERICAN PSYCHOLOGIST, VOL. 36,1103-1111

10 - GAGE, N.H. AND BERLINER, D.C. (1984)
EDUCATIONAL PSYCHOLOGY (3RD ED), HOUSHTON MILFIN, DALLAS.

11 - GAGNE, R.M. (1985)
THE CONDITIONS OF LEARNING AND THE THEORY OF INSTRUCTION, HOLT, RINEHART AND WINSTON, N.Y.

12 - GALLAGHER, J.J. (1975)
TEACHING THE GIFTED CHILD, ALLEN AND BACON, BOSTON.

13 - GALLAGHER, J.J. (1981)
ISSUES IN EDUCATION FOR GIFTED, IN CLARIZIO, H.F. ET. A., CONTEMPORARY ISSUES IN EDUCATIONAL PSYCHOLOGY, 4TH, ALLYN AND BACON, BOSTON.

1 4- GETZELS, J.W., AND JACKSON, P.W. (1962)
CREATIVITY AND INTELLIGENCE, JOHN WILY, N.Y.

15 - GLASER, R. AND BOND,L. (1981)
INTRODUCTION, AMERICAN PSYCHOLOGIST, 36, 997-1000.

16 - GLASER, R. AND TAKANISHI, R. (1987)
INTRODUCTION, AMERICAN PSYCHOLOGIST, 41 1025-1028.

17 - GOLEMAN, D. (1980)
1,528 LITTLE GENIUSES AND HOW GREW, PSYCHOLOGY TODAY, FEBRUARY

18 - GORDON, E. D. AND TERRELL, M. D. (1981)
THE CHANGED SOCIAL CONTEXT OF TESTING, AMERICAN PSYCHOLOGIST, 36,1167-1171.

19 - GREENO, J.G. (1978 B)
A STUDY OF PROBLEM SOLVING IN R. GLASER (ED) ADVANCES IN INSTRUCTIONAL PSYCHOLOGY VOL. 1, HILLSDATE, N.J.

20- GRINDER, R.E. (1985)
THE GIFTED IN OUR MIDST: BY THEIR DIVINE DEEDS, NEUROSES, AND MENTAL (TEST SCORES WE HAVE KNOWN THEM, IN THE GIFTED AND TALENTED: DEVELOPMENTAL PERSPECTIVE BY F.D. HOROWITX AND H. O'BRIEN, APA, WASHINGTON, DC.

21 - CUILFORD, J.P. (1950)
CREATIVITY, AMERICAN PSYCHOLOGIST, S, 444-454.

22 - GUILFORD, J.P. (1967)
THE NATURE OF INTELLIGENCE McGRAW-HILL, N.Y.

23 - HALLAHAN D.P. AND KAUFFMAN, J.M. (1982)
EXCEPTIONAL CHILDREN, PRENTICE-HILL, N.J.

24 - HOFSTADTER, R. (1955)
SOCIAL DARWINISM IN AMERICAN THOUGHT, BEACON PRESS, BOSTON.

25- HUNT, J.M. (1961)
INTELLIGENCE AND EXPERIENCE, RONALD PRESS, N.Y.

26 - LEFRANCOIS, G. (1979(
PSYCHOLOGY FOR TEACHING, WADSWORTH PUBLISHING, CALIFORNIA.

27 - MAYER, R.E. (1983)
THINKING, PROBLEM SOLVING, COGNITION, W. H. FREEDMAN CO., N.Y.

28 - McCLELLAND, D. C. (1973)
TESTING FOR COMPETENCE RATHER THAN FOR "INTELLIGENCE" AMERICAN PSYCHOLOGIST 1973, 28, 1-14.

29 - MEDNICK, S. A. (1962)
THE ASSCIATIVE BASIS OF THE CREATIVE PROCESS, PSYCHOLOGICAL REVIEW 1962, 69, 220-232.

30 - MOHS, M. (1982)
1. Q., DISCOVER, SEPTEMBER.

31 - NEWLAND, T. G. (1976)
THE GIFTED IN SOCIO-EDUCATIONAL PERSPECTIVE, PRENTICE-HALL, N. J.

32 - NERMAN. D. A. (1980)
COGNITIVE ENGINEERING AND EDUCATION IN D.T TUMA AND F. REIF (EDS) PROBLEMS SOLVING AND EDUCATION: ISSUES IN TEACHING AND LEARNING HILLSDALE, N. J.

33- RENZULLI, J. S. (1978)
WHAT MAKES GIFTEDNESS? REEXAMINING A DEFINITION, PHI DELTA KAPPAN, 60, 180-184.

34- RESNICK, H. B. (ED) (1976)
THE NATURE OF INTELLIGENCE, LAWRENCE ERLBAUM, N.Y.

35- RICE, B. (1979)
BRAVE NEW WORLD OF INTELLIGENCE TESTING, PSYCHOLOGY TODAY, SEPTEMBER.

36- SATTLER, J. M. (1982)
ASSESSMENT OF CHILDERN'S INTELLIGENCE AND SPECIAL ABILITIES, ALLYN AND BACON, INC, BOSTON.

37- SCARR, S., (1981)
TESTING FOR CHILDERN, AMERICAN PSYCHOLOGIST, 36, 1159-1166.

38- SPEARMAN, C., (1923)
THE NATURE OF INTELLIGENCE AND PRINCIPLES OF COGNITION, MACMILLAN, LONDON.

39- STERNBERG, R. J. (ED) (1982)
HANDBOOK OF HUMAN INTELLIGENCE, CAMBRIDGE, UNIV. PRESS CAMBRIDGE.

40- THORNDIKE, E. L. ET. AL, (1921)
INTELLIGENCE AND ITS MEASUREMENT, JOURNAL OF EDUCSTIONAL PSYCHOLOGY, 12.

41- THURSTONE, H. H. (1938)
TEST FOR PRIMARY MENTAL ABILITIES, ACE, WASHINGTON D.C.

42- TORRANCE, E. P. (1962)
GUIDING CREATIVE TALENT, PRENTICE - HILL, N. J.

43- TORRANCE, E. P. (1966)
TORRANCE TESTS OF CREATIVE THINKING, PERSONAL PRESS, N. J.

44- TORRANCE, E. P. (1977)
CREATIVELY GIFTED AND DISADVANTAGED GIFTED STUDENTS, IN J. C. STANLY. ET. AL. THE GIFTED AND THE CREATIVE: A FIFTY-YEARS PERSPECTIVE, JOHN HOPKINS UNIV. PRESS, BALTIMORE.

45- TORRANCE, E. P. (1965)
REWARDING CREATIVE BEHAVIOR: EXPERIMENTS IN CLASSROOM CREATIVITY, PRENTICE-HILL N. J.

46- YAMAMOTO, K. (1964)
EXPERIMENTAL SCORING MANUAL FOR MINNESOTA TESTS OF CREATIVE THINKING AND WRITING, KENT STATE UNIV., OHIO.

47- ZIGIER, E. AND TRICKETT, P. K. (1982)
1. Q., SOCIAL COMPETENCE, AND EVALUATION OF EARLY CHILDHOOD INTERVENTION PROGRAM. IN SOCIALIZATION AND PERSONALITY DEVELOPMENT, E. F. ZIGLER ET. AL. (1982) OXFORD UNIV. PRESS, N. Y.